

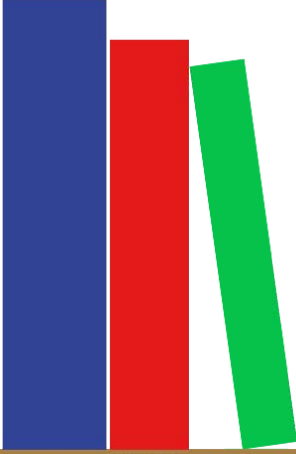
نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ إِلَى سُورَةِ الصَّافِّاتِ

تَأليف
الشيخ محمد بن قرايت

المجلد التاسع

دار المورخ العربي
بكيوت



مكتبة هُؤْمَن قَرِيْش

لو وضع إيمان أنبيء طالِب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانهُ
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

نَفْسِ النَّوَى

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ إِلَى سُورَةِ الصَّافِّ

تَأليف

الشيخ محمد بن قرايت

ترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد التاسع

دار المورخ العربي

بيروت - لبنان

حُقوقُ الصَّلْبِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٥م - ٢٠١٤م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المورخ العربي



بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسين - فوق مسديت دياب - ط ٢

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص ب: ١٢٤ / ٢٤

البريد الإلكتروني: al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com



سُورَةُ الْحَقِّ

السورة: ٤٦ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٢٥



ملامح سورة الأحقاف

تقع هذه السورة، بحسب ترتيب المصحف الشريف، في أول الجزء السادس والعشرين. وتتألف من خمس وثلاثين آية، وهي من السور المكية.

«الأحقاف» جمع حقف، وهو المعوّج من الرمل، وتتضمّن معنى الحركة والانتقال، وهو اسم ديار عاد. سمّيت بسبب طبيعتها وما في أرضها من رمل. وقد سمّيت السورة بهذا الاسم لما فيها من ذكر قوم عاد ونيهم هود عليهم السلام.

وهذه السورة هي آخر السور السبعة التي تبدأ بالحرفين «حم»، ويليهما الحديث عن نزول القرآن وأهميته. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ كل ليلة، أو كل جمعة، سورة الأحقاف، لم يصبه الله بروعة في الدنيا، وأمنه من فزعة يوم القيامة»^(١).



(١) مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٦؛ التفسير الاثني عشري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ②﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾

إشارات:

□ تُعرف السور السبع الآتية: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، بـ«الحواميم السبعة»؛ وذلك لأنها تبدأ بالحرفين المقطعين «حم».

□ يستفاد من تكرار قوله تعالى: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ...﴾، في أول السور المذكورة أعلاه، أن الأمور المهمة يجب أن تتكرر.

□ العزة من الأوصاف التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم، ووصف بها كتابه، فقال عن نفسه: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ووصف بها كتابه في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَكِنُوبٌ عَزِيزٌ﴾^(١)، كما وصف بها رسوله والمؤمنين في قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

□ لقد خلق الله العالم على أساس الحكمة والحق، فإذا شاهدنا في خلق الله ما لا نفهمه، لا بد من أن نتهم أنفسنا وليس الله. وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣). فالمشكلة في قصور علمنا، وليست في خلق الله سبحانه.

□ بالتأمل في الآيات التي تأتي بعد الحرفين المقطعين «حم»، نكتشف أن مصدر القرآن:

- علم الله وعزته، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٤).

(٣) سورة الدخان: الآيتان ٣٨ و٣٩.

(٤) سورة غافر: الآية ٢.

(١) سورة فصلت: الآية ٤١.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

- رحمته ومحبته، ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

- قدرته سبحانه وحكمته، ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ... اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

وكذلك يستفاد منها أن القرآن كتاب بين يستحق التفكير والتعقل، ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

وأته كتاب مبارك ومنشأ للبركة، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتِيهِمْهُ﴾^(٤).

عدم الالتفات إلى فناء الدنيا، وتوهم خلودها، من أهم أسباب انحراف الإنسان؛ ولذلك يكشف لنا القرآن عن سعي الإنسان الحثيث إلى الخلود بطرق عدة:

فتراه يسعى أحياناً للخلود من خلال جمع الثروة وتكرار إحصاء ما يملك: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(٥).

أو تراه يبني الحصون والقلاع، ظناً منه أن حصونه وقلاعه تحميه من الموت: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾^(٦).

أو تراه يؤسس الجيوش ويوسع دائرة سلطته: ﴿وَأَسْتَكْبِرُوا هُوَ وَحُدُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْتَابِرِ الْآلِحَاقِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَّا يُرْجَعُونَ﴾^(٧).

أو يحاول مواجهة الموت حدوداً وحفظ نفسه منه: ﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ مَّا نَعْتَهُمْ حُصُونَهُمْ﴾^(٨). ويغفل عن أن للعمر مهما طال حدوداً لا بد من أن يبلغها وهو قبل

ذلك في حالة انقضاء وتناقص مستمر، ولا شيء يدفع الموت عن الإنسان: ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدِينَ﴾^(٩). ولأجل ذلك كله نجد أن

القرآن يحذّر الإنسان من الغفلة والركون إلى الدنيا، ويلفت نظره إلى وجود أجل محدود يسعى الإنسان بإرادته وبغير إرادته نحوه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١٠).

(١) سورة فصلت: الآية ٢.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢ و٣.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.

(٥) سورة الهمزة: الآيتان ٢ و٣.

(٦) سورة الشعراء: الآية ١٢٩.

(٧) سورة القصص: الآية ٣٩.

(٨) سورة الحشر: الآية ٢.

(٩) سورة النساء: الآية ٧٨.

(١٠) سورة الأحقاف: الآية ٣.

التعاليم:

- ١ - القرآن منزلٌ من عند الله العزيز الحكيم، ويعجز غيره سبحانه عن الإتيان بمثله، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.
- ٢ - على الرغم من نزول القرآن من عند الله وعجز الإنسان عن الإتيان بمثله، فإنه ليس عاجزاً عن فهمه وإدراك معانيه، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾.
- ٣ - لما كان نزول القرآن مستنداً إلى عزة الله وحكمته، فمن البديهي أن تهدف تعاليمه وبرامجه التي يقررها للحياة الإنسانية، في غاياتها النهائية إلى عزة الإنسان واستقامته وثباته، ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.
- ٤ - عزة الله مقترنة بالحكمة، ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
- ٥ - النظام الهادف لا يتحقق من دون برنامج واضح المعالم، ومن هنا كان كل من التكوين والتشريع مبنياً على أساس الحكمة، ﴿الْكِتَابِ... الْحَكِيمِ... خَلَقْنَا... بِالْحَقِّ﴾.
- ٦ - في عالم الخلق الإلهي ونظامه لا محل للخطأ والانحراف، والضعف، والهوان، والعبث، ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.
- ٧ - السماوات والأرض، بل وعالم الوجود كله، لها نهاية وغاية تصل إليها، ولا يقع شيء من المخلوقات الإلهية في مجال الصدفة، ﴿خَلَقْنَا... بِالْحَقِّ وَاجِبِ مُسَمًّى﴾.
- ٨ - من لوازم النظام وكون الخلق بالحق، وجود عالم بعد هذا العالم، فلولا يوم القيامة لفقد كثير من حالات التفاوت والاختلاف بين الناس مبرره ولبقي كثير من الجرائم من دون عقاب، ﴿مَا خَلَقْنَا... إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجِبِ مُسَمًّى﴾.
- ٩ - تخضع الظواهر المخلوقة لله كلها لحساب ونظام محدد، منذ نشأتها وحتى بلوغها غاياتها التي تنتهي عندها، ﴿وَاجِبِ مُسَمًّى﴾.
- ١٠ - يعد الانتباه إلى عدم خلود الدنيا وما فيها من نعم وظواهر، من العوامل المساعدة على قطع تعلق القلب بها، وهو من المنبهات على ذلك: ﴿وَاجِبِ مُسَمًّى﴾.

١١ - يهدف نظام التكوين والتشريع إلى هداية الإنسان، ولكن مع ذلك فإن بعض الناس يكفرون ولا يستفيدون من هذا النظام، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

١٢ - يسير الوجود كله باتجاه الحق، والإنسان وحده هو الذي ينحرف عن هذا الخط يمينا أو يساراً، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

١٣ - يعدّ التهديد والترهيب من أسس النظام التربوي والتعليمي، ﴿أُذِرُوا﴾.

١٤ - من مؤشرات الاختيار والإرادة الحرة عند الإنسان قدرته على الانحراف والإعراض عن طريق الحق، ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنذِرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنذِرُونَ عَلِيمٍ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ «أثارة»، بمعنى الآثار الباقية وعلامات وجود الشيء.

□ يؤمن المشركون في داخل نفوسهم بوجود الله ويخلقه السماوات والأرض، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)؛ ولأجل ذلك يوبخهم الله ويؤنبهم على تركهم التوجه إليه في المهمات وطلبهم العون من الأصنام والأوثان وغيرها.

□ منطق التوحيد ومستنداته قوية إلى درجة تمكن الموحّد من مجادلة المشركين وإفحامهم.

□ عن أبي عبيدة قال: سألت الإمام الباقر عليه السلام عن قول الله تعالى، ﴿أَتُنذِرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا...﴾، قال: عني بالكتاب التوراة والإنجيل، وأثارة من علم فإنما عني بذلك علم أوصياء الأنبياء^(٢).

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٩؛ حديث ٦.

(١) سورة لقمان: الآية ٢٥.

التعاليم:

- ١ - النبي ﷺ خاضع في جميع ما يتعلق بشؤون الرسالة إلى الوحي، ومطيع لما يوحى إليه حتى في مقام مجادلة الكافرين والمشركين، ﴿قُلْ...﴾.
- ٢ - يمكن لطريقة السؤال والجواب أن تكون مجدبة في إحياء الفطرة، ودعوة الناس المسؤولين إلى التفكر وإعادة النظر في ما يؤمنون به أو ينكرونه، ﴿أَرَأَيْتُمْ... مَاذَا خَلَقُوا﴾.
- ٣ - الثبات على المعتقد من الشروط الأساس في التبليغ. وعلى المبلِّغ أن لا يسمح لليأس بأن يدب في نفسه، عندما يعرض عنه الذين يدعوهم، ﴿مُعْرِضُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾.
- ٤ - لا يجوز بناء الاعتقاد على ما يفهمه الآخرون، بل على المرء أن يؤمن بما يفهم وما يرى، ﴿أَرَأَيْتُمْ... أَرُونِي﴾.
- ٥ - لا ينبغي طلب العون والمساعدة إلا من الموجود الذي لديه القدرة على الخلق والإيجاد. ومن هنا يمكن القول إن جذور التوحيد العبادي موجودة في التوحيد في الخالقية، ﴿مَا تَدْعُونَ... مَاذَا خَلَقُوا﴾.
- ٦ - الأصنام والآلهة الموهومة التي تعبد من دون الله عاجزة من جميع الجهات، فلا قدرة لها على الخلق ولا دور لها لا في خلق الأرض ﴿...مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ...﴾، ولا في خلق السماوات ﴿أَمْ لَكُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾.
- ٧ - في الجدل لا بد من الاستناد إلى المشتركات (وفي الآية جرى استناد الجدل مع المشركين إلى إيمانهم بالخالقية الله)، ﴿أَمْ لَكُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾.
- ٨ - يجب احترام الكتب السماوية النازلة قبل القرآن وتقديرها، ﴿أَتَثْنُونَ بِكُتُبٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا﴾.
- ٩ - يجوز الاستناد في مقام الجدل والنقاش إلى الدليل الفطري اليهودي ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، أو النقلية: ﴿بِكُتُبٍ﴾، أو العقلية: ﴿أَتَثْنُونَ مِّنْ عِندِ﴾، والشرك لا دليل عليه.

١٠ - كل دعوى لا بدّ من أن تستند إلى دليل، ولا تقبل الدعوى من دونه، ﴿أَتُوفَىٰ بِكِتَابٍ... أَوْ أَتُورَ مِنِّي عَلَيْهِ﴾.

١١ - ترتبط قيمة آثار الماضين وما تركوه من إرث ثقافي وغيره، بما تشتمل عليه من علم ورشد، ﴿أَتُورَ مِنِّي عَلَيْهِ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ

غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ الانحراف المعرفي هو أسوأ حالات الانحراف. والابتعاد عن الله، واللجوء إلى غيره، هو من الانحرافات المعرفية؛ وذلك لأنّ غير الله لا يملك ضراً ولا نفعاً.

□ من الآيات المشابهة لهذه الآية في المعنى، الآية ٢٩ من سورة يونس، إذ يقول آلهة المشركين يوم القيامة، للذين كانوا يعبدونهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

□ ما أبعد الفرق بين المعبود الذي يسمع الدعاء ويستجيب له، ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) وبين المعبود الذي لا يستجيب ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾، إما لأنه لا يسمع، وإما لأنه لا يقدر على الاستجابة حتى لو سمع، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(٢).

الفرق بين دور الله ودور غيره في حياة الإنسان:

أ - أما دور الله في حياة الإنسان، فهو:

١ - الخالق، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾^(٣).

٢ - ربّ الإنسان ورب العالمين جميعاً، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

(٣) سورة الرحمن: الآية ٣.

(٤) سورة الحمد: الآية ٢.

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٤.

- ٣ - رؤوف بالناس، ﴿بِالْكَافِرِينَ لَزُؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).
- ٤ - يسمع الدعاء، ﴿سَمِعَ الدُّعَاءَ﴾^(٢).
- ٥ - يجيب المضطر^(٣)، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.
- ٦ - يهدي الإنسان وخصوصاً من يفتح عليه، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٤).
- ٧ - يدافع عن الإنسان وينصره ولا سيمًا إذا كان من الصالحين، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(٥).
- ٨ - يأخذ بيد الإنسان في طريق الرشد والتكامل، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٦).
- ٩ - يمنح الإنسان الطمأنينة، ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٧).
- ١٠ - يعلم الإنسان، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(٨).
- ١١ - يزيد الإنسان عندما يشكره، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٩).
- ١٢ - يشفي الإنسان عندما يمرض، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١٠).
- ١٣ - تتعلق به الآمال بالمغفرة في المستقبل، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١١).

ب - أما دور غير الله في حياة الإنسان، فهو:

- ١ - لا قدرة لهم على الخلق، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾^(١٢).
- ٢ - في غفلة عن الإنسان وحاجاته، ﴿وَمَنْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾^(١٣).
- ٣ - لا يسمعون دعاءه، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾^(١٤).

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.	(٨) سورة العلق: الآية ٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٨.	(٩) سورة إبراهيم: الآية ٧.
(٣) سورة النمل: الآية ٦٢.	(١٠) سورة الشعراء: الآية ٨٠.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.	(١١) سورة الشعراء: الآية ٨٢.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.	(١٢) سورة الحج: الآية ٧٣.
(٦) سورة الجن: الآية ٢.	(١٣) سورة الأحقاف: الآية ٥.
(٧) سورة الرعد: الآية ٢٨.	(١٤) سورة فاطر: الآية ١٤.

٤ - لا قدرة لهم على الإجابة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾^(١).

٥ - للإنسان أعداء، ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾^(٢).

٦ - لا يملكون دفع الضر عن الإنسان، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَنْفَ الضَّرِّ عَنكُمْ﴾^(٣).

٧ - عاجزون عن إيصال أي نفع للإنسان أو دفع أي ضرر عنه، ﴿مَا لَّا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٤).

وخلاصة القول على لسان النبي يوسف عليه السلام، ﴿أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَالِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٥).

التعاليم:

١ - إن الانحرافات الفكرية والاعتقادية هي من أخطر أنواع الانحراف التي تصيب الإنسان، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾.

٢ - كل طريق تؤدي إلى غير الله هي ضلال، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٣ - بعض الناس في الدنيا يتوجهون إلى غير الله، والحال أن من يقصدونه ويتوجهون إليه ليس فقط لا ينفعهم في الدنيا بل ينقلب في الآخرة عدواً، ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ... كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾.

٤ - العلاقات والروابط غير الإلهية تتحول يوم القيامة إلى عداوة وخصام، ﴿وَإِذَا حُخِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾.

٥ - الطلب من غير الله بدل الطلب من الله، ومع الغفلة عنه سبحانه، نوع من العبادة لغيره سبحانه، وتتنافى مع التوحيد، ﴿دُعَايَهُمْ... بِمِادِيهِمْ﴾.

٦ - المعبودون من دون الله في الدنيا غافلون عن عبادة الناس إياهم ويوم القيامة ينكرونهم، ﴿عَن دُعَايِهِمْ غَافِلُونَ... بِمِادِيهِمْ كَافِرِينَ﴾.

(٤) سورة يونس: الآية ١٨.

(٥) سورة يوسف: الآية ٣٩.

(١) سورة الأحقاف: الآية ٥.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٥٦.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

□ ﴿مُبِينٌ﴾ وصف لكلام الأنبياء وما ينقلونه عن الله. وهذا الكلام معجز وبالغ الأثر إلى حد جعل بعض الناس يعدّونه من السحر، بسبب تأثيره البالغ في النفوس المستعدّة.

□ كانت تصدر عن الكافرين الذين لا يؤمنون بالقرآن مجموعة من التصرفات يمكن الإشارة إليها في ما يأتي:

١ - لقد سمعنا من قبل بمثل هذا ولو شئنا لجننا بمثله، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(١).

٢ - يشترطون على النبي أن يحذف أو يبدل الآيات التي تتعرّض للأصنام والأوثان بما لا يعجبهم، ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾^(٢).

٣ - المهمّ هو الثروة والملك وليس أي شيء آخر، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا... أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾^(٣).

٤ - يديرون ظهورهم متكبرين، ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ آعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ﴾^(٤).

٥ - يكذبون بها، ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾^(٥).

٦ - يصمّون آذانهم عن سماع آيات الله، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا﴾^(٦).

٧ - يعلنون أن آيات الله وشريعة الأنبياء بدعة، ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدِّدَكُمْ عَنَّا كَمَا يَبْغِي آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِّمَّا كَفَرْتُمْ﴾^(٧).

(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٠٥.

(٦) سورة لقمان: الآية ٧.

(٧) سورة سبأ: الآية ٤٣.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٢) سورة يونس: الآية ١٥.

(٣) سورة مريم: الآية ٧٣.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٦٦.

- ٨ - يعترضون ويعارضون الأنبياء ولا دليل لهم سوى التعصب، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِبَابَيْكَ﴾^(١).
- ٩ - يدعون أن آيات القرآن ما هي إلا أساطير بعيدة عن الواقع، ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢).
- ١٠ - يتهمون النبي بأنه ساحر ورسالة الله بأنها سحر، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - عندما تسود روحية اللجاج والعناد، ينكر المرء أوضح الآيات والأدلة ولا يؤمن بها، ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ...﴾.
- ٢ - آيات القرآن واضحة بيّنة ومبيّنة، ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِ﴾.
- ٣ - معجزات الأنبياء لا تترك أثرها عند ذوي القلوب السوداء المظلمة، على الرغم من إحساسهم بأنها لافتة للنظر، ﴿وَإِذَا تَنَلَّ... قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيئُهُ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُهُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَرُوا بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

- «تفيضون» من الإفاضة، وفاض الماء إذا سال منصباً، ومنه استعير «أفاضوا في الحديث» إذا خاضوا فيه.
- إن من يدعي النبوة كاذباً يتولى الله كشفه وفضح خيانتة، ولا يمكن لأحد أن يحول بين الله وبين ما يريد من كشف كذب هذا المدعي.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٧.

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٥.

(٢) سورة القلم: الآية ١٥.

التعاليم:

- ١ - العناد وقلة التقوى هما سبب صدور الأقوال المختلفة والمتضادة أحياناً في مواجهة الحق، ففي الآية السابقة أخبرنا الله أنهم كانوا يتهمون النبي بالسحر، وفي هذه الآية ينقل عنهم اتهامه بالافتراء على الله، ﴿هَذَا سِحْرٌ... أَفْتَرْتَهُ﴾.
- ٢ - لا يجوز ترك الشبهات من دون تقديم الأجوبة المناسبة التي ترفعها، ﴿يَقُولُونَ... قُلْ...﴾.
- ٣ - الافتراء على الله له عقاب لا يمكن أن يمنع من حصوله شيء، ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.
- ٤ - كل ما يصدر عن العدو من قول يراد به الفساد، ﴿يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ... نُفِيضُونَ فِيهِ﴾.
- ٥ - الإيمان بحضور الله وعلمه بما يدور بين الناس، هو من جهة يحلّ بعض الخلافات بين الناس، ومن جهة ثانية هو سند معنوي للمؤمنين، ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا﴾.
- ٦ - لا بد من الاعتدال في التربية، وعدم سدّ باب العودة إلى الله أمام الناس، واعتماد أسلوب التخويف والتأميل بالعفو والرحمة الإلهية، ﴿أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ... وَهُوَ أَعْفُوٌّ الرَّجِيمُ﴾.
- ٧ - الشدة تؤثر أثرها وتكون ذات قيمة عندما تقرن بالمحبة، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا... وَهُوَ أَعْفُوٌّ الرَّجِيمُ﴾.
- ٨ - باب التوبة مفتوح في وجه الناس جميعاً، حتى أولئك الكافرين الذين ينكرون الرسالة ولا يصدقون النبي، ﴿أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ... وَهُوَ أَعْفُوٌّ الرَّجِيمُ﴾.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ إِنِ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ «البدع» الشيء المبتدع الجديد. وقد كان المعارضون للنبي ﷺ يأخذون عليه أنهم لم يعتادوا ظهور الأنبياء.

□ ما يعلمه النبي ﷺ من الغيب إنما هو بتعليم إلهي: ﴿وَلَا يَأْتِيكَ الْغَيْبُ إِلَّا مَن أَنْبَأَهُ الْغَيْبُ تُوحِيًّا إِلَيْكَ﴾^(١)، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يطلع على الغيب من غير وحي وتعليم إلهي، ﴿عَلِمُوا الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن آرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾^(٢).

□ كل كلام يصدر عن النبي ﷺ مستند إلى الوحي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣)؛ تنطبق هذه الصفة على أفعال النبي أيضاً: ﴿إِن أَنْبَأُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٤)؛ ولأجل هذا وذاك كان قول النبي وفعله حجة على سائر الناس.

التعاليم:

١ - أمر الله النبي ﷺ برفع الشبهات الاعتقادية وتقديم الأجوبة المناسبة لها، ﴿قُلْ...﴾.

٢ - الأنبياء والقادة الإلهيون يعملون بشكل دائم وفق التوصيات والأوامر الإلهية حتى في حالة الدفاع عما يرون أنه حق، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ...﴾.

٣ - النبوة مسيرة مستمرة عبر التاريخ، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِن الرُّسُلِ...﴾.

٤ - لا بد من الإجابة عن الشبهات بالمنطق والحجة مهما كانت الطريقة التي تثار فيها ومهما تجاوز أصحابها حدود الأدب والمنطق، ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ... أَفْتَرْتَهُ...﴾. ففي مقابل هذا الأسلوب نجد أن الله يوصي النبي ﷺ بـ ﴿كَلِمٍ بِهِ شَهِيدًا... مَا كُنْتُ بِدَعَا مِن الرُّسُلِ...﴾.

٥ - يوصي الله الأنبياء والنبي محمداً ﷺ بالاستفادة من التاريخ؛ لأنَّ الناس عادة تنفر من الجديد الغريب، ما يقتضي تذكيرها بأن ما تستغربه له ما يشبهه في تاريخ الإنسانية، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِن الرُّسُلِ...﴾.

٦ - لا تلازم بين الرسالة وبين معرفة كل شيء، ﴿وَمَا آدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ...﴾.

(٣) سورة النجم: الآيات ٣ و٤.

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٩.

(٢) سورة الجن: الآيات ٢٦ و٢٧.

- ٧ - على القائد أن يكون صادقاً مع قومه، ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾.
- ٨ - في الأمور المشتركة يجب البدء بالنفس والحديث عنها، ثم بعد ذلك الحديث عن الآخرين، ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾.
- ٩ - ليس من واجب النبي إجبار الناس على الإيمان، وينحصر دوره في الإنذار والتحذير من الكفر وعدم الإيمان، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
- ١٠ - عند دوران الأمر بين التحذير وإعطاء الفرصة وإثارة الأمل في النفوس، يجب تقديم التحذير على الثاني، في دعوة أهل الغفلة والعناد، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَتَمَنَّوْا أَن يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ سَحَابًا مِّنْ سَحَابِ عَذَابٍ ذُو أَسْفَلٍ مِّنْ عَذَابٍ ۚ لَّا يَتَّبِعُهُمُ الْغَايِبُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ لا غنى في بعض المواقف الدعوية عن بيان حقيقة المدعو لرفع غروره أو الحيلولة بينه وبين الغرور والاعتداد بالنفس، وهذا ما نراه في القرآن الكريم في أكثر من مورد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١)، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾^(٢). وفي هذه الآية يلفت القرآن نظر مشركي مكة إلى شهادة بعض اليهود بصدق النبي في دعواه الوحي، ونزول القرآن عليه من الله، وبنبهم أيضاً إلى أن كفرهم لن يعود بالضرر إلا عليهم.

□ يشير أكثر المفسرين عند تفسير هذه الآية إلى أن المراد من «الشاهد» فيها هو عبد الله بن سلام الذي شهد لصالح النبي ﷺ والقرآن بين عدد من بني قومه^(٣).

(٢) سورة التحريم: الآية ٥.

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٨.

التعاليم:

١ - على الإنسان أن يفكر في مواقفه ويعيد النظر في أفكاره؛ كي لا يكون عدم إيمانه ببعض الأمور نابعاً من التعصب والغرور، وهذا ما يدعو الله سبحانه إليه في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾.

٢ - ينبغي عدم التعصب والتشدد في حالات الدعوة والجدل مع المعارضين، بل ينبغي إثارة الاحتمالات وترك باب النقاش مفتوحاً، فالنبي ﷺ على الرغم من إيمانه الجازم برسالته، إلا أن الله يدعو إلى قول: ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

٣ - يحسن الاهتمام ببعض الأفراد الذين يراهن عليهم لمواقعهم الاجتماعية والعلمية أو غير ذلك، ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٤ - تمتد جذور الكفر في تربة الاستكبار وتتغذى منها؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرَتْ﴾ فاستخدم كلمة «استكبرتم» بدل «كفرتم».

٥ - من وسائل الدعوة وطرقها المقارنة بين قوم وقوم وبين فرد وأفراد آخرين لتحفيز بعضهم وإثارة حماسهم عندما يقارنون بغيرهم، ﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرَتْ﴾.

٦ - الاستكبار عن الإيمان وفي مواجهة الوحي ظلم، ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ... الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٧ - الظلم يحرم الإنسان من البصيرة ويحول بينه وبين فرص الهداية وتقبل الألفاظ الإلهية، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَبَقُونَا

هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ يجعل بعض الكفار أنفسهم معياراً للتمييز بين الحق والباطل، ومن ثم يقولون كما ينقل القرآن عنهم: لو كان الإيمان بالإسلام خيراً لما سبقنا إليه أحد.

□ بعد ربط النبي ﷺ رسالته برسائل الأنبياء السابقين ووضع نفسه ضمن تلك المسيرة الطويلة في تاريخ البشرية، بدأ الكافرون بالاعتراض على أصل النبوة بعد أن كان الاعتراض أولاً على نبوة نبي محدد هو رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - يرى الكفار أنهم أكثر وعياً وأدق في تشخيص الخير من الشر من المسلمين، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.
- ٢ - الإعلام المضاد للإسلام، ومحاولات توهينه، ليست جديدة، بل تعرض هذا الدين لمثل هذه الحملات منذ الأيام الأولى لبدء دعوته، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.
- ٣ - القرآن كتاب هداية من دون أدنى شك، ولكن المشكلة هي في من لا يؤمن به كفرةً وعناداً، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾.
- ٤ - ليس للعدو منطق واحد، أو أسلوب واحد للمواجهة، بل يختار سبلاً عدة لإضعاف الإسلام ومحاربتة، فتارة يقولون لو كان في الإسلام خير لقبلناه وسارعنا إليه، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وأخرى يعترضون بغرابة على بعث النبي بينهم، فعندما يشار إلى تاريخ النبوة في البشرية، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾.
- ٥ - يحتاج الداعي والمرتبى إلى شرح المواقف المضادة للدعوة وتقديمها للمؤمنين بها، لما في ذلك من تحصين وإذهاب عنصر المفاجأة من الدعوات المضادة، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا... فَيَقُولُونَ...﴾.
- ٦ - لا ينبغي للقائد أن يكتفي ببيان الواقع، بل عليه أن يتوقع الدعاوى المضادة التي ربما يعمل عليها الأعداء، ﴿...فَيَقُولُونَ...﴾.
- ٧ - مشركو عصر البعثة كانوا على درجة عالية من العناد، بلغت بهم إلى إنكار القرآن، بل واعتبار مضامينه كذباً قديماً، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾.

٨ - الشبهة المعاصرة التي تدعي أن القرآن يصلح لزمن النبي ﷺ ولا يصلح لهذا العصر ليست شبهة جديدة، بل كان المعاصرون للنبي يثيرون مثل هذه الشبهة في وجه الدعوة الإسلامية، ﴿هَذَا إْفْكَ قَدِيرٌ﴾.

٩ - قبح الكذب والافتراء أمر فطري يتفق عليه الناس جميعاً مؤمنين كانوا أم كفاراً؛ ولذلك نجد أن الكفار في مواجهتهم الإسلام يتهمونه بالكذب لیسقطوه، ﴿هَذَا إْفْكَ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا إِسْنَدًا الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

إشارات:

□ تعدّ هذه الآية تتمّة ومتابعة للآية التاسعة التي تقول على لسان رسول الله ﷺ إنه نبيّ جديد، ولكنه ليس بدعاً من الرسل، فقد سبقه أنبياء قبله. وتؤكد هذه الآية هذه الحقيقة بإشارتها إلى كتاب النبي موسى ﷺ؛ وينطبق هذا الحكم على النبي عيسى ﷺ وكتابه، ولم تشر إليه الآية، وربّما ذلك بسبب كثرة عدد المعارضين للنبي ﷺ من اليهود في المدينة، مضافاً إلى قبول التوراة إجمالاً بين المسيحيين، وإيمانهم بها ككتاب مقدّس.

□ إبراهيم ﷺ من الأنبياء الذين وُصفوا بالإمامة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(١)؛ وُوصف كتاب موسى بهذا الوصف أيضاً في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. والنبي ﷺ إمام للناس في سيرته: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢). والمؤمنون هم أيضاً أئمة للناس في سلوكهم وتصرفاتهم: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٣).

□ تتشابه أوصاف النبي ﷺ في الآية التاسعة من هذه السورة مع أوصاف القرآن

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

في هذه السورة، فقد وُصف النبي بالنذير، وُوصف القرآن هنا بهذا الوصف، وُوصف النبي ﷺ بالبشير هناك، ونسبت البشرية الحسنة إلى القرآن في هذه الآية.

التعاليم:

- ١ - يعدّ إرسال الكتب السماوية من السنن الإلهية، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى﴾.
- ٢ - يحتاج الناس إلى إمام وقادة يهتدون بهديه، والكتاب السماوي هو أحد مصاديق هذه القدوة، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.
- ٣ - تختلف القيادة والزعامة النبوية عن الزعامة والقيادة السلطانية، فسلطة السلطان مبنية على الغلبة في أكثر الأحيان، وأما سلطة الأنبياء فهي مبنية على الرحمة والعطف، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.
- ٤ - لا ينبغي أن ينسبنا مديح الحاضرين واحترامهم مديح غيرهم ممن يستحق المديح والثناء، ﴿وَمِن قَبْلِهِ... وَهَذَا كَتَبْتُ مُصَدِّقًا...﴾.
- ٥ - الانسجام بين الكتب السماوية من الأدلة على صدقها وحقانيتها: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى... وَهَذَا كَتَبْتُ مُصَدِّقًا...﴾.
- ٦ - الاحترام والانتصار ببعض الماضين من أساليب مواجهة الاتهام وتخريب السمعة، ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ... وَهَذَا كَتَبْتُ مُصَدِّقًا...﴾.
- ٧ - للقرآن حق كبير على الكتب السماوية السابقة لتأييده إياها وتصديقه بها، ﴿... وَهَذَا كَتَبْتُ مُصَدِّقًا...﴾.
- ٨ - يؤدي الكتاب السماوي دورين، هما: الإنذار والبشارة للظالمين والمحسنين، ﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٩ - الإيمان بالكتاب السماوي إحسان، وإنكاره ظلم وعدوان، ﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- ليس المطلوب هو التلقظ بجملة: «ربنا الله»، بل المراد هو الاعتقاد بمضمونها، وما يترتب على هذا الاعتقاد من اختيار طريق الحق والسير فيه، وفي الحقيقة، إن الثبات في طريق الحق أهم بدرجات من إعلان الإيمان.
- «الخوف» يتعلق بالمستقبل، و«الحزن» يكون لما مضى.
- لا بد من قول الحق والتصريح به: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، على أن يكون مقترناً بالثبات عليه: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، والعمل بما يتناسب مع الاعتقاد به: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- يطلب الإنسان بالفطرة الراحة والاستقرار والخلود في الآخرة، وقد جعل الله ذلك كله مرهوناً بالإيمان والعمل الصالح.
- الثبات على الحق من الأمور الصعبة والمرهقة، ولكن الثواب الموفور والنعمة الكبيرة التي تترتب عليه تسهله وتخفف من معاناة الثابتين عليه، ومن هنا نعلم ضرورة جعل الثواب على الأعمال المرهقة والمتعبة.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للإنسان أن يغتر بما هو عليه من الإيمان، بل لا بد من الاطمئنان إلى الثبات إليه في ما يأتي من أيامه، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾. ومن هنا نجد النبي يوسف عليه السلام يدعو ربه بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من المقام، بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١).
- ٢ - الإيمان بالله سبحانه من وسائل رفع الخوف وقطع منابته، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ... فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾.

- ٣ - السائر في طريق الحق وسبيل الله هو وحده الذي لا يشعر بالحزن ولا يندم على ما فات من حياته، ﴿رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْنُمُوا... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
- ٤ - الخلود في الجنة هو الثواب الذي وعد به الله على الإيمان والثبات عليه وعلى العمل الصالح، ﴿ثُمَّ اسْتَقْنُمُوا... خَالِدِينَ فِيهَا﴾.
- ٥ - الجنة ثواب لأهل العمل لا لأهل القول غير المقترن بالعمل، ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِلَادَتِهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- الكره هو المشقة التي تنال الإنسان من ذاته، والكره هو ما يناله من خارج في ما يحمل عليه ويلزم به^(١). و﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾ أي حقق في نفسي الرغبة في الشكر؛ لأن الوزع في اللغة له معان منها الولوع بالشيء.
- الإحسان إلى الوالدين من الأمور المهمة عند الله. وقد وردت كلمة «وصينا» في القرآن خمس مرات، ثلاث منها تتعلق بالإحسان إلى الوالدين^(٢).
- أشارت الآية إلى مراحل نمو الإنسان وتطوره من حياته الجنينية إلى بلوغه الأربعين، وقد عد سن الأربعين سن الكمال والرشد، لقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.
- يُعلم من الآية أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر، ويُعلم ذلك من طرح مدة الرضاع وهي حولين كما في آية أخرى، من الثلاثين شهراً المذكورة في هذه الآية.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة «كره».

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٨؛ وسورة لقمان: الآية ١٤؛ والآية التي نحن بصدد البحث حولها.

□ للأُم حق كبير على الولد نظراً إلى المصاعب التي تقاسيها خلال حملها وولادته وتربيته، وهذا يفسر التوصيات المؤكدة على الاهتمام بحق الأم وتقديم الأمر ببرها على الأمر ببر الأب^(١).

التعاليم:

- ١ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين توصية الأديان كلها عبر التاريخ، ويستفاد هذا المعنى من استخدام الآية صيغة الماضي للأمر بالإحسان، فقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، بدل نوصي.
- ٢ - الإحسان حق إنساني على الولد للوالدين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾، ولم يقل: «ووصينا الذين آمنوا».
- ٣ - يجب الإحسان إلى الوالدين مسلمين كانا أم غير مسلمين، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.
- ٤ - تماسك الأسرة وترابطها، وحفظ مكانة الأبوين فيها، من الأمور التي يوليها الله اهتماماً خاصاً، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾.
- ٥ - المطلوب والمدعو إليه شرعاً هو كل شكل من أشكال الإحسان وليس الإنفاق وحده؛ وذلك لورود المأمور به وهو الإحسان مطلقاً غير مقيد بقيد.
- ٦ - لا بد من أن يكون الإحسان واضحاً وظاهراً لا لبس فيه، وليس خفياً ويقدر الضرورة، وذلك لأن التنوين في اللغة العربية يدل على التعظيم وقد وردت كلمة «إحساناً» مع التنوين.
- ٧ - الإشارة الإلهية إلى الخدمات التي يقدمها الوالدان للولد تثير في نفس الولد الرغبة في خدمة الوالدين والقيام بذلك مقروناً بالمحبة والإقبال، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ... حَلَّتْهُ أُمَّهُ﴾.
- ٨ - كمال الإحسان في الخدمة المباشرة لهما من دون وسيط، ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾.

(١) التفسير الأمل، والكافي، ج ٢، ص ١٥٩.

- إِحْسَانًا... ﴿٩﴾، ويستفاد هذا المعنى من حرف الجرّ الداخل على كلمة «والديه».
- ٩ - الالتفات إلى الإحسان السابق من قبل الأم إلى الولد يثير في نفس الولد الشوق والرغبة في مبادلته الإحسان، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.
- ١٠ - حق الأم على الولد أعظم من حق الأب، ويستفاد هذا المعنى من ذكر الأم وحدها بعد ذكر الوالدين معاً.
- ١١ - كل الأحكام الإلهية (الأوامر والنواهي) لها علل وأسباب ومبررات، وقد أشارت الآية إلى بعضها، ﴿وَوَضَّيْنَا... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.
- ١٢ - سنّ الأربعين هي أقصى مرحلة يصل إليها الإنسان في مسيرة تكامله ونموّه، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.
- ١٣ - الشكر لله يحتاج إلى التأييد والدعم الإلهي، ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.
- ١٤ - تمرّ بعض النعم الإلهية على الإنسان عبر الآباء والأمهات، ﴿أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.
- ١٥ - البلوغ الجسدي والعقلي من الأمور الممهدة للبلوغ المعنوي، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.
- ١٦ - شكر الله على النعم التي أنعمها الله على الوالدين فيه شيء من الإحسان إلى الوالدين أيضاً، ﴿أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ... وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.
- ١٧ - أفضل سبل الشكر لله تعالى العمل الصالح، ﴿أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ... وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾.
- ١٨ - ترتبط قيمة العمل الصالح بالمداومة عليه واستمراره، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾، ويستفاد هذا المعنى من استعمال الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتكرار.
- ١٩ - من شروط صلاح العمل رضا الله به، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.
- ٢٠ - الذرية الصالحة من الأمور التي يفتخر بها الآباء ويطلبونها من الله، ﴿وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

٢١ - أفضل أشكال الدعاء ما ضمنه الداعي الدعاء للوالدين والأولاد، ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ... وَأَصْلِيحٍ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

٢٢ - على الإنسان أن يتوب عن ترك الشكر لله وترك الإحسان بالوالدين، ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ... إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾.

٢٣ - من أدعية الصالحين طلبهم من الله التوبة والتسليم لله والموت على الإسلام، ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

إشارات:

□ لقبول الأعمال درجات عدة، هي:

أ - القبول العادي، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

ب - القبول الحسن، ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا﴾^(٢).

ج - القبول الأحسن، ﴿نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ونقرأ في الدعاء: «فتقبله منا بأحسن قبولك»^(٣).

□ إن الأعمال كلها مهما عظمت تفقد قيمتها إن لم يتقبلها الله، حتى لو كانت بناء الكعبة، ومن هنا نجد النبي إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يتقبل منه عمله في رفع القواعد من الكعبة مقترناً بالعمل، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾^(٤).

□ أعمال الإنسان تنقسم من جهة حكمها الشرعي إلى: واجبة، ومحرمّة، ومستحبّة، ومكروهة، ومباحة. ويوم القيامة يعمد الله إلى أفعال الإنسان فيتقبل أحسنها وهو الواجبات والمستحبات، ويعفو ويتجاوز عن غيرها أو المكروهات

(٣) الكافي، ج ٤، ص ١٦٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

والمحرّمات، وأما المباحات فلا يجري عليها لا القبول ولا الرفض^(١).
 □ لا يخلو سبب خلف الوعد من حالات منها: العجلة في إصدار الوعد وعدم التفكير قبل التعهد به، والثانية: أن يعد ثم لا يقدر على الوفاء، وكلتا الحالتين لا يمكن نسبتهما إلى الله القادر العالم.

التعاليم:

- ١ - قيمة العمل بقبوله عند الله، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾.
- ٢ - الإحسان بالوالدين والشكر لله تعالى من العوامل الممهدة لقبول الأعمال الصالحة عند الله سبحانه، ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا... أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾.
- ٣ - لا ينحصر قبول الأعمال بالصالحين المعصومين، بل إن من يعصي ويتوب يقبل الله منه ويتجاوز عن سيئاته، ﴿إِحْسَانًا... أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.
- ٤ - الإحسان إلى الوالدين والشكر لله من العوامل المساعدة على قبول الأعمال الصالحة والعفو عن السيئات، ﴿إِحْسَانًا... أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... فِي أَحْسَابِ الْجَنَّةِ﴾.
- ٥ - الإحسان إلى الوالدين، من مفاتيح أبواب الجنان، ﴿إِحْسَانًا... أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... فِي أَحْسَابِ الْجَنَّةِ﴾.
- ٦ - لا يخلف الله وعده، ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقِ﴾.
- ٧ - مهمة الأنبياء عبر التاريخ كانت نقل الرسائل والوعود الإلهية للناس: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

(١) انظر كتب التفسير عند تفسير هذه الآية، ولا سيما مجمع البيان، والميزان في تفسير القرآن.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan
 اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿١٨﴾﴾

□ «أف»، كلمة تقال لإظهار الانزعاج والغضب، وفيها شيء من الإهانة وسوء
 الأدب خاصة مع الأبوين.

□ بعد أن ذكر الله في الآية السابقة البرّ والإحسان بالوالدين وغيرهما مما ورد في
 الآية كالإيمان وشكر النعم الإلهية، تعرّضت هذه الآية للحديث عن العقوق
 وعاقبة الولد العاق.

□ إن من لا يؤمن بالله يخسر كل ما أنعم الله به عليه في الدنيا ويتلفه من دون
 فائدة أو منفعة تعود عليه، ثم يحشر يوم القيامة خاسراً لا يلوي على شيء.

التعاليم:

١ - على الرغم من عقوق الولد وصدور الإهانات عنه إلى والديه وقول «أف»
 لكما»، إلا أن إيمان الوالدين ومحبتهم للولد يدعوانهما إلى الحرص على
 هدايته بدعوته مباشرة أو بالدعاء إلى الله بأن يهديه: ﴿وَهُمَا يَسْتَفِihan
 اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنَ﴾.

٢ - عادة ما يكون منكر المعاد فاقداً للأدب، ولا يؤثر فيه الدليل ولا البرهان،
 ﴿قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾.

٣ - الولد حر في الاختيار واتخاذ قراراته في العقيدة وغيرها وهو وحده المسؤول
 عن أعماله، ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ... وَبِكَ ءَامِنَ﴾.

٤ - الوالدان مسؤولان عن هداية الولد ودعوته إلى الحق ومطالبان بالإصرار على
 ذلك مهما كان موقف الولد ورد فعله، ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ... وَبِكَ ءَامِنَ﴾.

٥ - يتحمّل الآباء مسؤولية التربية المعنوية للولد كما يتحملان مسؤولية تربية
 جسده، ﴿حَمَلْتُهُ أُمَّهُ... بَلَغَ أَشُدَّهُ... وَهُمَا يَسْتَفِihan
 اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنَ﴾.

- ٦ - من أساليب التربية تذكير الآباء أبناءهم بالآخرة والمعاد، ﴿ءَايُنَ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾.
- ٧ - إنكار المعاد من الأسباب الموجبة عدم الالتزام اتجاه الأبوين، ﴿أَفِ لَكُمْ... مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.
- ٨ - يرى منكرو المعاد أن المؤمنين متخلفون رجعيون، بينما يرون أنفسهم متطورين تقدميين، ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.
- ٩ - الكفر بالمعاد وعقوق الوالدين والجرأة عليهما، في القول والفعل، من الأعمال التي يترتب عليها العذاب الحتمي يوم القيامة، ﴿...أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.
- ١٠ - عناد الأبناء في الكفر من موانع استجابة دعاء الوالدين في حقهم، ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ... أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.
- ١١ - الله سنة واحدة في جميع المنحرفين تجري عليهم على حد سواء، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ١٢ - إنكار المعاد قديم ومعروف بين الجن والإنس عبر التاريخ، ﴿أَمْرٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾.
- ١٣ - الجن مخلوق مستعد للتكليف كالإنسان، ويموت ويبعث ويحاسب يوم القيامة، ﴿أَمُّ... مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾.
- ١٤ - إنكار المعاد والكفر به، والانحراف الفكري والعقدي، أمر يترتب عليه الخسران في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.
- ١٥ - القرآن يدين الأذى الذي يصدر عن الولد اتجاه أبويه حتى لو كان كلمة صغيرة، ويحكم على فاعله بالخسران، ﴿أَفِ لَكُمْ... إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَيُلَاقِيهِمُ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ «ليوفيهم»، التوفية أخذ الشيء كاملاً، والمراد من هذا التعبير، هنا، نيل كل واحد من الناس ثوابه أو عقابه كاملاً.

□ لا تتسع الدنيا للثواب والعقاب الكاملين؛ وذلك لقصر أمدها، ولأن الثواب والعقاب الذي ينال الشخص فيها قد يصيب غيره من الناس المحيطين به. فخذ مثلاً الأنبياء الذين قاموا بهداية ملايين البشر وإنقاذهم من الشرك والفساد وأشكال الانحراف، فمثل هؤلاء ماذا يمكن أن يكون ثوابهم؟ حيث إن أهم نعم الدنيا كالطعام والشراب وأنواع اللباس لا تساوي شيئاً، ولا قيمة لها لأن الكافر ينال نصيبه منها في الدنيا. وفي المقابل خذ مثلاً بعض المجرمين الذين يقتلون عشرات الناس ويعذبونهم، فما هو الجزاء العادل لهم، الإعدام هو أقصى عقوبة قد تنالهم؛ ولكنه في نهاية المطاف قتل واحد في مقابل عشرات ليس فيه تكافؤ ولا عدل.

التعاليم:

١ - السعادة والشقاء في الآخرة درجات ومراتب ينال منها الإنسان بمقدار عمله،
﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

٢ - العمل هو المعيار الذي على أساسه تحدد درجة الإنسان يوم القيامة، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

٣ - المحاسبة على الأعمال، ثواباً وعقاباً، هي أحد أهداف البعث ويوم القيامة، ﴿وَيُلَاقِيهِمُ أَعْمَلُهُمْ﴾.

٤ - يوم القيامة هو يوم الثواب للمؤمنين والعقاب للمفسدين والكافرين، ﴿وَيُلَاقِيهِمُ أَعْمَلُهُمْ﴾.

٥ - لا يمحو تطاول الزمان أعمال الإنسان، بل يراها يوم القيامة ماثلة أمامه

يحاسب على كل صغيرة وكبيرة فيها، ﴿وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾؛ ويجازى لا ينقص من ثوابه ولا يزداد في عقابه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ طَبِئَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ يبدأ الإنسان بالتحسّر على ما فاته من نعم الدنيا ومقدراتها التي كان يمكن أن يستفيد منها في آخرته، من اللحظات الأولى لرحلة الموت وما بعده. وعن علي عليه السلام: «يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره»^(١). وفي القرآن آيات عدّة تشير إلى هذه الحالة التي يمر بها الإنسان بعد الموت ومنها قوله تعالى: ﴿مَا أَضْفَىٰ عَنِّي مَالِيَهَ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهَ﴾^(٢). ويواجه الإنسان بأن يقال له: خسرت الطيبات وأفنتها ولم تدخر منها شيئاً.

□ يوم القيامة يعرض الكافرون على النار في بعض الأحيان قبل دخولهم إليها، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾؛ وفي حالات أخرى تعرض النار عليهم، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣)؛ وفي حالات أخرى يُقذف المجرمون فيها؛ ﴿حُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ اللَّجِيمَ صَلُّوهُ﴾^(٤).

التعاليم:

١ - يتعرّض المجرمون يوم القيامة للعذاب النفسي والروحي والجسدي، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ﴾، فهم ينالون نصيبهم من التحقير مع حظهم من عذاب النار.

٢ - الاستفادة من الطيبات في الحياة الدنيا حلال مشروع للإنسان: ﴿أَحْلَلْنَا لَكُمْ﴾

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩. (٢) سورة الكهف: الآية ١٠٠.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٨ و٢٩. (٤) سورة الحاقة: الآيتان ٣٠ و٣١.

الطَّبِيبُ ﴿١﴾. وهذا بخلاف صرفها واستغلالها في غير محلها، ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبِّكُمْ﴾.

٣ - عقوبة التكبر في الحياة الدنيا ذل وهوان في الآخرة، ﴿مَجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ - الاستكبار من مقدمات الفسق وممهدات سبيله، ﴿تَسْتَكْبِرُونَ... نَفْسُونَ﴾.

٥ - التكبر صفة نفسية تنعكس فسقاً في السلوك والتصرف الخارجي، ﴿تَسْتَكْبِرُونَ... نَفْسُونَ﴾.

﴿وَأَذْكَرَ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ «الأحقاف» جمع حقف؛ وحقف الشيء حقوفاً من باب قعد: اعوجّ فهو حاقف، ويقال للرمل المعوجّ حقف، والجمع أحقاف مثل حمل وأحمال، والأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها، وهي أماكن رملية لا تطأها قدم حتى تغور في الأرض لنعومة الرمل، والتحقيق أن الأحقاف أراضٍ في جنوبي مملكة الحجاز، بين اليمن وعمان وعدن^(٢).

□ وصف القرآن ثلاثة من الأنبياء بأنهم إخوة أقوامهم، وهم: صالح وشعيب وهود عليهم السلام، وسبب ذلك إما رابطة الدم بين النبي وبين قومه، وإما المحبة الأخوية التي يكنّها النبي من هؤلاء لقومه وحرصه على هدايتهم.

□ في تفسير نور الثقلين: «أمر المعتصم أن يحفر بالبطاينة بشر، فحفروا ثلاثمئة قامة فلم يظهر الماء، فتركه ولم يحفره، فلما ولي المتوكل أمر أن يحفر ذلك البئر أبداً حتى يبلغ الماء، فحفروا حتى وضعوا في كل مئة قامة بكرة حتى انتهوا إلى صخرة فضربوها بالمعول، فانكسرت فخرج منها ريح باردة، فمات

(١) سورة المائدة: الآية ٤.

(٢) حسن مصطفي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٠٥، مادة: «حقف».

من كان بقربها. فأخبر المتوكل بذلك، فلم يدر ما ذاك. فقالوا: سل ابن الرضا وهو أبو الحسن بن محمد العسكري عليه السلام، فكتب إليه يسأله عن ذلك، فقال: تلك بلاد الأحقاف وهو قوم عاد الذين أهلكهم الله تعالى بالريح الصرصرة^(١).

التعاليم:

- ١ - المعرفة بأخبار الأقدمين فيها عبر وتؤخذ منها دروس، ﴿وَأَذْكُرْ﴾.
- ٢ - تعامل الأنبياء مع أقوامهم كان تعاملاً أخوياً، ﴿أَنَا عَادِي﴾.
- ٣ - في رواية التاريخ يحسن حذف التفاصيل غير المهمة، والاهتمام بذكر المفصل الأساس المليئة بالأسرار والعبر، ﴿وَأَذْكُرْ... إِذْ أَنْذَرَ﴾.
- ٤ - من الوسائل التي يستخدمها الأنبياء في الدعوة الإنذار، ﴿إِذْ أَنْذَرَ﴾.
- ٥ - أول من يبدأ الأنبياء بدعوتهم هو قومهم والأقربون إليهم، ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾.
- ٦ - لا تمنع البيئة الجغرافية الصعبة الأنبياء من القيام بأعباء الرسالة التي هم مكلفون بأدائها، ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾.
- ٧ - إرسال الأنبياء من السنن الإلهية الثابتة عبر التاريخ، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.
- ٨ - الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، في رأس أولويات الأنبياء وبرنامج عملهم، ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ٩ - من أفضل وسائل الدعوة لفت النظر إلى آثار الأعمال في المستقبل، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَإِنَّمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجَاهِلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

التعاليم:

- ١ - لا ينتظر الأنبياء الناس حتى يسألوا، بل هم يتصدون لذلك ابتداءً ويبادرون إلى الدعوة، ﴿أَجِئْتَنَا﴾.

- ٢ - قد يلتبس أمر الشرك عند بعض الناس إلى حدّ يرون أنه الحق وأن التوحيد وعبادة الله وحده باطل وإفك، ﴿لِتَأْفِكُنَا عَنْ ءِٰهِتِنَا﴾.
- ٣ - العلم بحقائق عالم التكوين كلّها من صفات الله وحده، ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - علم الأنبياء محدود، وهم يقرون بذلك ويعترفون به، ﴿إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (والإقرار بعدم العلم مطلوب في بعض الأحيان).
- ٥ - واجب الأنبياء ومهمتهم الأساس إبلاغ رسالة الله إلى الناس، ﴿وَأُتِلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾.
- ٦ - طلب نزول العذاب واستعجاله بدل التأمل في دعوة الأنبياء إلى الحق، من مؤشرات الجهالة، ﴿وَلَكِنَّكُمْ أَزْيَكُرُّ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- العارض هو الغيم المتراكم الذي يظهر في السماء وينتشر بحيث يغطي الأفق، والأودية جمع «وادي» وهو محل سكن قوم عاد.
- «تدمر» أي تهدم وتبيد كل شيء.
- تشير الآياتان إلى أن قوم عاد الذين كانوا يعانون القحط وقلة المطر، استبشروا خيراً عندما رأوا الغيم مقبلاً عليهم، فحسبوا أنه يحمل إليهم المطر، ولكن فرحتهم لم تطل، بل علموا بعد قليل من الانتظار أن هذا الغيم يحمل إليهم العذاب الذي كانوا يستعجلون.

التعاليم:

- ١ - عذاب الله لا ينزل إلا بعد تمام الحجة، ﴿وَأُتِلِّغُكُمْ... رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ - لا تحمل الغيوم مطر الرحمة دائماً، بل تكون في بعض الحالات مؤشراً يحمل العذاب والأعاصير، فهؤلاء قوم هود استبشروا بالغيوم المتجهة إلى أرضهم، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِرٌ﴾؛ إلا أن هوداً عليه السلام الذي كان يعلم سر هذه الغيوم شرح لهم حقيقة الأمر وقال: ﴿بَلْ هُوَ... رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٣ - الطبيعة مسخرة لله تعالى، فهي معبر لطفه وكرمه، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ﴾^(١)، وهي في الوقت عينه وسيلة من وسائل غضبه ونزول عذابه على من يستحق من الناس، ﴿...رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٤ - العذاب الأليم ليس خاصاً بالآخرة بل الدنيا أيضاً، فهي قد تكون ظرفاً لمثل هذا العذاب، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٥ - عندما يحلّ عذاب الله لا يحول شيء دونه، ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٦ - لا تسير الرياح والغيوم من دون حساب دقيق، بل هي تسير بأمر الله وإرادته، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

٧ - الآثار التي تبقى بعد الأمم الماضية تشتمل على العبرة والدروس التي ينبغي للآتين الاستفادة منها، ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾.

٨ - قلع المجرمين واستئصالهم من السنن الإلهية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾.

٩ - يهلك الله الناس بسلوكهم وطريقة تصرفهم، ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا وَإِنْ كُنَّا لَنَرِيكُمْ فِيهَا لَمُبْسَمِينَ سَمِعْتُمْ لَوْلَا أَبْصَرْتُمْ وَلَا أَعْيَدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجُدُونَ بِتِلْكَ اللَّهِ وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)

التعاليم:

١ - قد يبدو للإنسان أنه يحصل على ما يحصل عليه بجهد وتعبه، ولكن حقيقة

- الأمر وواقع الحال أنّ ذلك كله بتمكين ومساعدة من الله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾.
- ٢ - عندما تلاشى القوى العظمى، على غيرها أن يعيد النظر في حساباته ويجدد التأمل في نفسه، ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ... وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾.
- ٣ - ليست المقدرات والإمكانات وسيلة للرشد والتطور بالضرورة، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ... فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾.
- ٤ - الهداية والرشاد من الصفات النفسية التي تحتاج إلى الإرادة، فما لم تتوفر هذه الإرادة والرغبة في الصلاح فلن يؤثر شيء في هداية الإنسان وصلاحه، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ... إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾.
- ٥ - الثروة والمقدرات المادية في يد أهل الصلاح تتحول إلى وسيلة مساعدة على الصلاح، وأما في أيدي الفاسدين فتتحول إلى مصدر عذاب ونقمة عليهم، ﴿مَكَّنَّهُمْ... فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ... إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾.
- ٦ - إنكار الكفار واستهزاؤهم بآيات الله من أسباب فنائهم ونزول العذاب عليهم، ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.
- ٧ - بين الجزاء الإلهي والعمل تناسب وانسجام، وبعبارة أخرى الجزاء من جنس العمل، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الهلاك ونزول العذاب الإلهي لا يكون إلا بعد إتمام الحجة، ﴿أَهْلَكْنَا... وَصَرَّفْنَا﴾.
- ٢ - على الإنسان أن يتأمل في تاريخ الأمم القريبة منه، لأنها الأكثر تأثيراً في الاتعاظ وأخذ العبرة، ﴿مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ﴾.
- ٣ - من الضروري تنويع طرائق التبليغ، ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾.
- ٤ - الرشد والصلاح يكمنان في عودة الإنسان إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً بَلِ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - يجب على الإنسان أن يستلهم العبر من عجز ما يُعبد من دون الله: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾.
- ٢ - الرغبة في القرب من الله أمر فطري عند الإنسان، وحتى عابدو الأوثان يعبدونها لتقربهم من الله، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً﴾.
- ٣ - على الإنسان أن يثق ويعتمد على من يمكن أن يقف إلى جانبه في أوقات الشدة والحاجة، ﴿بَلِ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾.
- ٤ - الأمل في نيل العون من الأوثان خيال وهم لا أساس له، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنذِرِينَ﴾

إشارات:

- الاستماع إلى القرآن يفتح آفاق الإنسان الواعي، وبحسب القرآن، الوعي ليس من خصوصيات الإنسان وحده، بل هو صفة موجودة عند الجن أيضاً.
- ربما تكون هذه الآية تعريضاً بالكفار الذين يدعون الوعي والفهم، وفي هذه الآية يقول الله لهم إن بعض الجن أكثر وعياً منكم، فهم عند استماعهم إلى بعض القرآن تحولوا إلى مبلغين ودعاة.

التعاليم:

- ١ - تتحرك المخلوقات بحسب الإرادة الإلهية، ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾.

- ٢ - الجنّ كالإنسان يتّصف بالوعي والقدرة على الاختيار، وله من العقل ما يجعله أهلاً لتحمل التكليف الإلهي، بل وإرشاد بني جنسه، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.
- ٣ - يعلم الجنّ أن الإنصات من آداب الاستماع إلى القرآن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.
- ٤ - على المرء أن يتحرك للعمل بعد معرفته بالحق، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ﴾.
- ٥ - على المرء أن يبدأ بالدعوة من أهله والأقربين منه، ﴿وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ﴾.
- ٦ - عندما يكون المدعو مستعداً لتحقيق هدايته بأقل جهد ممكن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.
- ٧ - الجنّ كالإنسان من ناحية توفّره على حياة اجتماعية، ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ... وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
وَأَنَّ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠)

التعاليم:

- ١ - نبي البشر هو نفسه نبي الجنّ، وبعض الجنّ مكلفون بتبليغ الدين ونقل تعاليم الأنبياء إلى بني جنسهم، ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾.
- ٢ - معرفة الجنّ بتاريخ الأنبياء السابقين وبالكتب السماوية النازلة عليهم، ﴿كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.
- ٣ - معرفة الجنّ بمضمون الكتب السماوية ومحتواها، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ٤ - الانسجام بين الكتب السماوية وتصديق بعضها بعضها الآخر، من الأدلة على صدقها وصحة نسبتها إلى الله، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ٥ - آمن بعض الجنّ بمجرد سماعهم بعض الآيات، بينما بعض البشر لم تؤثر

فيهم دعوة النبي على الرغم من عشرته لهم وعيشه بين ظهرائهم سنين طويلة، ومن هؤلاء أبو لهب وأبو جهل، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾.

٦ - طريق الحق هو الطريق المستقيم، وهو الطريق المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، يَفْزِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ عَذَابِ آيِهِ﴾

إشارات:

□ الإيمان، والاستغفار، والتقوى، وقرض الحسنه، من سبل نيل المغفرة الإلهية في القرآن الكريم.

□ تشير هذه الآية إلى أصول العقيدة الإسلامية كلها ألا وهي التوحيد: ﴿وَأَمِنُوا بِهِ﴾، والنبوة: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، والمعاد: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ آيِهِ﴾.

التعاليم:

١ - تحسن الاستفادة من العواطف والعلاقات الاجتماعية في الدعوة إلى الله: ﴿يَقُولُونَ...﴾؛ حيث تكرر الخطاب بهذه الطريقة مرتين في سياق الدعوة.

٢ - الأنبياء يدعون الناس إلى الله، ولا يدعون إلى أنفسهم، ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾.

٣ - يحسن بيان نتائج الأعمال وآثارها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أَجِيبُوا... يَفْزِرْ لَكُمْ﴾.

٤ - يجبر الإيمان بعض الذنوب كالكفر والشرك وبلغها، بينما بعض الذنوب لا تغفر بالإيمان، كالاغتداء على حقوق الناس، ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، (فكلمة «من» في اللغة العربية للتبعيض، والمعنى يغفر لكم بعض ذنوبكم).

٥ - الجن مكلّفون بالبشر، وفي حالة العصيان يحاسبون ويعاقبون ويجري عليهم غضب الله وسخطه، ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ... عَذَابِ آيِهِ﴾.

﴿وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢)

التعاليم:

- ١ - يتمتع الجنُّ بالقدرة على الاختيار، ﴿أَجِبُوا... وَمَنْ لَا يُحِبُّ﴾.
- ٢ - يجب أن يقترن كلُّ من الترغيب والترهيب بالآخر، ﴿يَفْزَرُ لَكُمْ... فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾.
- ٣ - يوصل الكفر الإنسانَ إلى مأزق ومضيق، لا يكون قادراً على الخلاص منه، ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾، ولا يمكن لأحد من المخزوقات أن يغني عنه أو ينجيه منه، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾.
- ٤ - كل سبيل غير سبيل الله ضلال وانحراف، ﴿وَمَنْ لَا يُحِبُّ... فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّعِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُوْحِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣)

إشارات:

- «لم يعي»، من العي وهو العجز وعدم القدرة.
- إذا كانت هذه الآية تنمة لكلام الجنِّ، فإنها تدلُّ على أن البحث حول المعاد كان مطروحاً بينهم.

التعاليم:

- ١ - التأمل في قدرة الله يكشف عن إمكان المعاد، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- ٢ - قدرة الله لا حدود لها، ﴿وَلَمْ يَتَّعِ بِخَلْقِهِنَّ﴾.
- ٣ - هل يرى منكرو المعاد أن خلق السماوات والأرض أهون من إعادة خلق

الإنسان وإحيائه بعد موته، حتى ينكروا المعاد على أساس هذا التقييم،
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَةَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ تشير الآية ٢٠ إلى عرض الكافرين على النار، مع توبيخهم وتأنيبهم على إذهاب طبيعتهم في الحياة الدنيا، بينما تشير هذه الآية إلى سؤالهم عن حقانية المعاد والحساب بعد الموت، ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾.

التعاليم:

- ١ - يجمع الله في الآخرة، على من يستحق العذاب، العذاب الجسدي والروحي، ﴿يُعْرَضُ... أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - يعترف الكافرون يوم القيامة بربوبية الله سبحانه، وبحقانية يوم القيامة، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.
- ٣ - لا ينفع الاعتراف والإقرار يوم القيامة، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا... فَذُوقُوا﴾.

﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لهُمْ كَانْتُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ العزم هو الإرادة والتصميم على فعل شيء، ومن الجذر نفسه تشتق كلمة عزيمة بمعنى الفريضة في الشريعة، والمقصود من «أولي العزم» الأنبياء أصحاب الشرائع، وهم: ١ - نوح، ٢ - إبراهيم، ٣ - موسى، ٤ - عيسى، ٥ - النبي محمد (عليهم جميعاً الصلاة والسلام). وقد ورد ذكرهم مجتمعين في قوله

تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾^(١).

□ أشار القرآن، في آيات عدة، إلى صبر الأنبياء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَفَرُوا...﴾^(٢) وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿كُلٌّ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - العناد والأذى الموجّه من الكفار إلى النبي ﷺ بلغ حدا دعا الله إلى تهدئة النبي ودعوته إلى الصبر، ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ...﴾.
- ٢ - الالتفات إلى العقوبة التي سوف تلحق بالكفار يوم القيامة من الأمور المحرّضة على الصبر والثبات، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا... فَأَصْبِرْ﴾.
- ٣ - يحتاج الإنسان إلى نموذج وقدوة عندما يدعى إلى خصال الخير، ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾.
- ٤ - يتفاوت الأنبياء في درجاتهم ومنازلهم عند الله تعالى، ﴿أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وليسوا جميعاً في الصبر على درجة واحدة، ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.
- ٥ - النبي محمد ﷺ من أولي العزم، ولو لم يكن منهم لما دعاه الله إلى الصبر كما صبروا ولا كلفه بما كلفهم، ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.
- ٦ - بلغ الكفار من العناد حداً احتاج معه النبي صاحب «الخلق العظيم» والذي هو رحمة للعالمين، إلى أن يدعو الله إلى عدم استعجال نزول العذاب عليهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.
- ٧ - يحتاج القائد إلى سعة الصدر والصبر، ﴿فَأَصْبِرْ... وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

- ٨ - من السنن الإلهية في التعامل مع العباد الإمهال والصبر عليهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.
- ٩ - العمر في الدنيا لا يساوي إلا ساعة من نهار عندما يقاس بالآخرة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.
- ١٠ - القرآن من أفضل وسائل التبليغ بل هو عين البلاغ وأرقى درجاته، ﴿بَلِّغْ﴾.
- ١١ - الفسق من أسباب الهلاك لكل من الفرد والمجتمع، ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

السورة: ٤٧ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٢٨

ملاحح سورة محمد

تتألف هذه السورة من ثمانٍ وثلاثين آية.

أخذت السورة اسمها من اسم النبي محمد ﷺ لوروده فيها.

الجهاد وقتال الأعداء من أهم موضوعات هذه السورة؛ ولذلك تسمى سورة

القتال.

من الموضوعات المهمة التي تعرضها هذه السورة المقارنة بين المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، وتشير كذلك إلى المنافقين وسلوكهم وكيفية تصرفهم في المدينة. كما تتحدث عن موضوعات أخرى كالحديث عن الأسر وتحرير أسرى الحرب، وتدعو إلى الإنفاق وتنتهي عن المداهنة غير المبررة مع الأعداء.

ورد حديث حول هذه السورة مفاده: «من أراد أن يعرف حالنا وحال

أعدائنا، فليقرأ سورة محمد ﷺ؛ فإنه يراها آية فينا وآية فيهم»^(١).

وفي الرواية عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي المغرب بهذه السورة^(٢).



(٢) تفسير المراغي.

(١) تفسير مجمع البيان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾ (١)

إشارات:

□ في القرآن إحدى عشرة سورة تبدأ بالتهديد والوعيد لأعداء الإسلام، غير سورة الأحزاب، ففيها أمر موجه إلى النبي ﷺ، وهذه السور هي:

- ١ - سورة الأنعام، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.
- ٢ - سورة التوبة، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٣ - سورة الأحزاب، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنْبَاءُ اللَّهِ وَلَا تُلَاحِظُ الظَّالِمِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.
- ٤ - سورة محمد، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - سورة الممتحنة، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٦ - سورة المنافقون، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ...﴾.
- ٧ - سورة المعارج، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِمَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.
- ٨ - سورة البينة، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.
- ٩ - سورة الفيل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.
- ١٠ - سورة الكافرون، ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ﴾.
- ١١ - سورة المسد، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

□ يمكن أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معنيان:

- أ - الصدّ بمعنى الإعراض، أي أنهم هم أنفسهم أعرضوا عن سبيل الله.
- ب - الصدّ بمعنى المنع، وعلى هذا المعنى يكون المراد أنهم يمنعون الناس من سلوك سبيل الله^(١).

□ وكذلك يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ بطريقتين:

أ - أن يكون المراد منه أن الله سبحانه يبطل أعمالهم الحسنة، كالصدقات والإنفاق وما شابه؛ بسبب كفرهم فتكون هباءً لا قيمة لها، فيأتون يوم القيامة وليس شيء منها في ديوان أعمالهم.

ب - أن يكون المراد منها أن الله سبحانه وتعالى يبطل كيدهم للإسلام فلا تؤثر مؤامراتهم ومكائدهم في إعاقة انتشار الإسلام وهزيمة المسلمين.

□ أعمال الكفار هباء لا قيمة لها، وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من آية من آياته:

- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(١).

- ﴿فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(٢).

- ﴿أَعْمَلُهُمْ كَسَرَبٍ بَاقِعَةٍ﴾^(٣).

التعاليم:

١ - في علم الدعوة يبدو أن البدء من دون مقدمات ولا تمهيد يترك أثراً في بعض الحالات، ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْمَانَ الرَّجِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٢ - الانحرافات ليست منفصلة بعضها عن بعضها الآخر، فكل انحراف يتبعه عادة انحراف ملازم له، فبعض الناس لا يكتفون بعد الإيمان، بل يسعون لصد الناس عن سبيل الله، ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ﴾.

٣ - جهود الكفار لن تصل إلى غاياتها، وسوف يعلمون هم وغيرهم من الناس عاجلاً أم آجلاً بأن جهودهم كانت عبثاً لا طائل منها، ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾.

٤ - يصرف بعض الناس الكثير من الجهد لقطع سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

(٣) سورة النور: الآية ٣٩.

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

٥ - عقوبات الكافرين متنوّعة، منها إحباط أعمالهم وتركها من دون جدوى، ﴿كَفَرُوا... أَضَلُّ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «بال» تعني إما العمل والحالات والشؤون المرتبطة بالإنسان، وإما الروح والقلب.

□ يدلّ تكرار كلمة «آمنوا» على ضرورة الجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول، وكذلك على أنّ العمل الصالح لا بد من أن يقترن بالرؤية الصائبة في مجال المعتقد.

□ ليس المراد من ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جميع الأعمال الصالحة، لأن الإنسان لا طاقة له على القيام بجميع الأعمال الصالحة، وكذلك لا يراد منه أن جميع أعمال المؤمنين صالحة؛ لأنه سبحانه يعقّب بعد ذلك بقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(١)، بل المراد القيام بالأعمال الصالحة في كل مجال قدر الوسع وبحسب الطاقة.

□ المراد من قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ معنى عامّ يشمل القرآن والسنة؛ لأننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٢).

□ كما أنزل الله تعالى أحكام الصلاة والصوم على رسوله، أنزل عليه أيضاً حكم الخليفة من بعده في حجة الوداع، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾^(٣). وعلى ضوء ذلك فالبشارة في هذه الآية لا تشمل إلا من آمن بكل ما أنزل على رسول الله، في الميادين والساحات قاطبة.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(١) تفسير أطيب البيان.

(٢) سورة التحريم: الآية ٣.

التعاليم:

- ١ - الإيمان من المفاهيم ذات الدرجات والمراحل، وهو يقبل التكامل والزيادة والنقص، ﴿ءَامَنُوا... وَءَامَنُوا﴾.
- ٢ - الإيمان والعمل صنوان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا﴾.
- ٣ - الإيمان يصبح شيئاً ذا قيمة عندما يؤدي إلى العمل الصالح، ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ﴾.
- ٤ - اتباع تعاليم الأنبياء مطابق لمعيار الحق، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾.
- ٥ - أحكام الشريعة تهدف أولاً وأخيراً إلى تنمية الإنسان على الصعيد المعنوي والروحي، ﴿نُزِّلَ... مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وبعبارة أخرى إن من مقتضيات الربوبية الإلهية إنزال برنامج عمل يوصل الإنسان إلى رشده وينمي ملكاته.
- ٦ - معيار الحق والحقيقة، مطابق للوحي والأوامر الإلهية، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
- ٧ - لا يتكلم النبي ﷺ وفق هواه ورغباته، بل ينقل ما يوحى إليه من ربه، ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ... مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
- ٨ - لا يكفي لنيل اللطف الإلهي الإيمان وحده، بل يحتاج الإنسان، مضافاً إلى الإيمان بالله والرسول، الاتباع والطاعة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ... كَفَرَّ عَنْهُمْ... وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.
- ٩ - الإيمان والعمل الصالح يصلحان ما مضى ويشران بمستقبل أفضل، ﴿كَفَرَّ... وَأَصْلَحَ﴾.
- ١٠ - الكفر والإيمان متضادان في تأثيرهما في العمل، فالكفر يجعله هباءً والإيمان يصلحه، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.
- ١١ - المعاصي والسيئات لا تحول دون صلاح الإنسان، ومن يردّ الصلاح ويعزم عليه، يتولّى الله تكفير سيئاته أولاً، ثم يصلح حاله، ﴿كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

١٢ - يتعهد الله المؤمنين بالرعاية المعنوية والدعم الروحي، فهو يهدد الكفار أولاً ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ ثم يبشر المؤمنين بالصلاح، ﴿وَأَصْلَحَ بِهَلْمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾

إشارات:

- من الأساليب التربوية التي اعتمدها القرآن في هذه الآيات أسلوب المقارنة بين الكفار والمؤمنين.
- في هذه الآية يفصل الله بين الإيمان والكفر على أساس الحق والباطل، وهذا هو منطلق القرآن في محاجة المعارضين.

التعاليم:

- ١ - عاقبة الإنسان ومصيره حسنين كانا أو سيئين مرتبطين بأفكاره وبما يحمل من معتقدات، ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ... وَأَصْلَحَ بِهَلْمٍ... ذَلِكَ يَأْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ﴾.
- ٢ - الميل إلى الباطل من العوامل المساعدة على الكفر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ﴾.
- ٣ - كل ما قابل الحق وعارضه باطل لا أساس له، وبين الحق والباطل لا وجود لطريق ثالث، ﴿أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ... أَتَّبِعُوا الْحَقَّ﴾.
- ٤ - الباطل منسوب إلى الإنسان وبعيد عن ساحة الله سبحانه، والحق وحده من الله وهو مبثوث في كل ما خلق، ﴿الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
- ٥ - القرآن من أبرز مصاديق الحق وأوضحها، ﴿أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾. وفي الآية السابقة نقرأ قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
- ٦ - ضرب الأمثلة التوضيحية من الأساليب التربوية القرآنية البارزة، ﴿ذَلِكَ يَأْنُ...﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَأِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْمَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّبَلَّوْا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾

إشارات:

□ «أثخنتموهم»: من «ثخن»؛ والإثخان الغلبة الكاملة والسيطرة الشاملة على العدو. «وثاق»: كل شيء يستعمل للتقييد، كالحبل وغيره.

□ الجهاد في الإسلام يهدف إلى مجموعة من الأمور، هي:

أ - الدفاع عن النفس أو عن الآخرين من المظلومين، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾^(١)، ﴿كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَأَنَّهُمْ﴾^(٢).

ب - رفع الفساد ودفعه، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾^(٣).

ج - حماية مراكز التوحيد وأماكنه، ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَائِعُ وَيَبِغُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾^(٤).

د - الدفاع عن أحكام الله وحدود شريعته، ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾^(٥).

□ تتحدث هذه الآية عن حالة القتال والحضور في ميدان الحرب؛ أي عندما تكونون في ساحة المواجهة، ويكون المراد استئصال الإسلام باستئصالكم، لا تهنوا ولا تضعفوا، وقاتلوا الكفار واقتلوهم، وبعد أن تغلبوهم وتسيطروا على أعدائكم، وتأسروا من تأسرونه، وتضع الحرب أوزارها، اعملوا بما يراه القائد من مصلحة وحرروا من يأمر بتحريره بفدية أو بغير فدية.

ومن هنا من الخطأ تفسير الآية بالأمر بقتل الكافر أينما وجد، ويستند هذا

(٤) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٥) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

الفهم الخاطيء إلى الغفلة عن القرينة الدالة على غير هذا المعنى وهي كلمة «حرب».

□ سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، فأبي ذلك في سبيل الله؟، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله^(١).

التعاليم:

- ١ - لا تجيز الشريعة قتل الكافر؛ بسبب كفره، بل يجوز قتل من هو في ساحة المواجهة والحرب، ﴿فَإِذَا لَيْتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٢ - على المجاهد المسلم أن يكون مستعداً للقتال وأن يتحلّى بأعلى درجات الشجاعة، ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابِ﴾.
- ٣ - يجب أن تكون الأهداف واضحة وحساسة تؤثر في الأعداء وتصيب منهم مقتلاً، ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابِ﴾.
- ٤ - لا ينبغي التفكير في الأسر والغنائم قبل أن يحكم المسلمون سيطرتهم على الأعداء، ﴿فَشُدُّوا الرِّبَاطَ﴾.
- ٥ - في الحرب والمواجهة لا بد من الحسم وإحكام الضربة كي لا يسيء العدو الاستفادة من التساهل والإهمال فيفر الأسرى، ﴿فَشُدُّوا الرِّبَاطَ﴾.
- ٦ - لا بد أن تعطى الصلاحيات الكافية للقائد الميداني؛ ليتصرف بما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، ﴿فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾.
- ٧ - ليس الهدف من الحرب السيطرة والسلطة، بل الهدف الأساس هو رفع الظلم ودفعه، ومن هنا فإن العفو هو أحد التوصيات الإسلامية بعد الاطمئنان من عجز العدو عن العودة إلى ظلمه، ﴿فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾.
- ٨ - الجهاد بحسب الإسلام يحتاج إلى الشدّة، ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابِ﴾، كما يحتاج إلى الرحمة والعطف، ﴿فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾.

٩ - تحرير الأسرى من دون فدية ومقابل مقدّم على تحريرهم ببدل مالي وفدية، ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِنَّمَا يَذَارُ﴾.

١٠ - الحرب وساحة القتال من الساحات الأساس لاختبار الله للناس، ﴿يَبْتَئِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

١١ - الجهاد في الإسلام يهدف إلى حفظ دين الله، لا إلى فتح البلاد، والاستعمار، والتهديد، ومنافسة الحكام، أو الانتقام، أو غير ذلك من الأهداف البعيدة عن الأخلاق الإسلامية، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٢ - على الرغم من أنّ بعض المجاهدين يسقطون شهداء في سبيل الله ولا يرون نتيجة أعمالهم في الدنيا، فإنّ الله لا يضيع أعمالهم ولا يحرمهم من نيل ثوابها، ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٣ - الحرب ساحة اختبار إلهي، والكفار هم وسيلة الاختبار في مواجهة المجاهدين، والشهداء يجتازون الاختبار بنجاح، ﴿لَيَبْتَئِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا... فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾ ⑤ وَيُنْجِلُهُمُ الْمُنَّةَ الَّتِي عَرَفَهَا لَهْمُ ⑥

التعاليم:

١ - الهداية الإلهية دائمة ومستمرة، وينالها الإنسان حتى بعد موته وشهادته، ﴿قُتِلُوا... سَيِّدِيهِمْ﴾.

٢ - على الإنسان أن لا يشغل نفسه بأموره الخاصة وأمور عائلته، عند ذهابه إلى ساحة القتال، فالله هو الذي يتولى هذه الأمور عنه، ﴿وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾.

٣ - بالشهادة في سبيل الله تصلح أمور الإنسان كلّها، ويغضّ النظر عن كل نقص أو خلل كان في حياته، ﴿وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾.

٤ - يتولى الله سبحانه إدارة أمور الشهيد في سبيل الله، ﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾.

٥ - الترغيب بذكر الآثار الحسنة التي تترتب على الأمور الصعبة، من أهم

الأساليب التي تشجع الإنسان على الإقدام واستسهال المصاعب، ﴿فَلَنْ يُعِذَ أَعْمَلُهُمْ... سَيَهْدِيهِمْ... وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

٦ - المعرفة المسبقة بالآثار والثواب الذي يناله الإنسان على العمل، من الأمور التي تثير الرغبة في الإقدام على ذلك العمل، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنِيبَ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧)

إشارات:

□ الإنسان كائن محدود، وما يصله من العون والنصر من الله محدود أيضاً؛ ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الله سبحانه محدود أو عونه ونصره كذلك، بل عونه ونصره مستندان إلى قدرته غير المتناهية.

□ لقد علّق الله مجموعة من الأمور على مجموعة أخرى، كما يأتي:

- علّق ذكره للإنسان على ذكر الإنسان إياه، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (١).

- علّق نصره الإنسان على نصر الإنسان إياه، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (٢).

- وعلّق البركة وزيادة الرزق على الشكر، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٣).

- وعلّق وفاء بعهد الإنسان على وفاء الإنسان بعهده، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (٤).

□ عن الإمام علي عليه السلام: «... فلم يستنصركم من ذلّ، ولم يستقرضكم من قلّ، استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد؛ أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً...» (٥).

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٧.

التعاليم:

- ١ - من لوازم الإيمان ومكملاته العمل على نشر الدين ونصره والدفاع عنه، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ﴾.
- ٢ - الجهاد في مواجهة الكفار المحاربين من مصاديق نصر دين الله، ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابِ... إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ﴾.
- ٣ - الثواب والأثر الذي يترتب على العمل منسجم معه ومشابه له، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾.
- ٤ - كل من يتولى الدفاع عن الإسلام، بالعمل واللسان أو الفكر، يتولى الله الدفاع عنه وحمايته، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾.
- ٥ - تلقي الألفاظ الإلهية يتوقف على جهد الإنسان، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، وبالتالي فإنّ انتظار المدد والعون الإلهي من دون عمل لا معنى له.
- ٦ - تثبيت الأقدام من أهم الألفاظ الإلهية وأبرزها، ﴿يَنْصُرْكُمْ وَتُبِّتَ أَقْدَامُكُمْ﴾، (ويستفاد هذا المعنى من الإشارة إلى تثبيت الأقدام، بعد الحديث عن النصر الإلهية مباشرة)
- ٧ - الثواب الإلهي دائماً هو أكثر من أعمال الإنسان، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَتُبِّتَ أَقْدَامُكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَأْسَلٌ ءَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

فَأَحْطَ ءَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- التعس: العثرة والميل إلى السقوط
- المقارنة من أفضل طرق التربية. فقد أشار الله سبحانه في الآيات السابقة إلى المؤمنين الشهداء وقال: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ ءَعْمَلَهُمْ﴾، وعندما وصل الحديث إلى الكفار وصفهم بقوله: ﴿ءَأْسَلٌ ءَعْمَلَهُمْ﴾، وفي هذه المقارنة بشارة للمؤمنين المجاهدين.

وبالطريقة عينها أشارت الآيات إلى تثبيت أقدام المؤمنين، وفي المقابل أشارت إلى الكفار ودعت عليهم بالتعس والسقوط.

التعاليم:

- ١ - يجوز لعن الكفار المعاندين، ﴿فَتَعَسَّأَلَهُمْ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.
- ٢ - الكفر مصدر وأساس للهلاك والفناء، ﴿كَفَرُوا... أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾.
- ٣ - كره أوامر الله ونواهيه مؤشر من مؤشرات الكفر أو درجة من درجاته، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا... كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - يوجد بين كفر الإنسان وكرهه لما أنزل الله وبين العذاب الإلهي ترابط وتناسب، ﴿كَفَرُوا... ذَلِكَ يَأْتُهُمْ كَرِهُوا﴾.
- ٥ - كره القرآن والإعراض عنه يترتب عليه إحباط العمل وفقدان أعمال الخير قيمتها، ﴿كَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.
- ٦ - الرغبة والإقبال على العمل يعطيه أو يزيد في قيمته، وكذلك الإقدام على العمل مع الكره له يفقده قيمته حتى لو كان بحد نفسه ذا قيمة، ﴿كَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَاللَّكْفِيرِينَ أَنشَأَهَا ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- التدمير: إدخال الهلاك على الشيء، و«التدمير على»، يزيد المعنى قوة وشدة.
- يربط القرآن بين الهلاك والعذاب النازل على البشر وبين طبائعهم وأخلاقهم وأعمالهم:

- فمن الناس من يهلكه الله لطغيانه: ﴿فَأَهْلِكُوا بِالطَّغْيِيِّ﴾^(١).

- ومنهم من يهلكه لعناده وكفره: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا... إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾^(١).
- ومنهم من يهلكه لممارسته الحيل والمكر: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).
- ومن الناس من يدمرهم لذنوبهم: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾^(٣).
- وبعض الناس يهلكهم الله ويدمرهم لظلمهم: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - الغافل الذي لا يستفيد ولا يعتبر بما مرّ على غيره من الناس، يستحق العتاب واللوم، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾.
- ٢ - السير في الأرض والسياحة من الأمور المدعو إليها عندما تقترن بالاعتبار وأخذ الدروس من مصير الأمم السابقة، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا... فَيَنْظُرُوا﴾.
- ٣ - تأثير التعرف إلى التاريخ ودراسة سير الأمم السابقة في الإيمان وتكوين الرؤية الكونية، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا... فَيَنْظُرُوا﴾.
- ٤ - لا ينبغي النظر إلى آثار العمران والرفاه الذي كان عند الأمم السابقة فقط، وإنما يجب النظر أيضاً إلى العاقبة والمصير الذي أصابها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾.
- ٥ - أعمال الله ليست عبثاً وليست عشوائية وإنما هي وفق قوانين محددة وحسابات دقيقة، ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلَهَا﴾.
- ٦ - إرادة الله هي التي تغلب على حركة التاريخ وإرادة الظالمين، ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾.
- ٧ - العذاب والعقاب الإلهيان لا ينحصران بنماذج محددة من دون غيرها، بل يأخذان أشكالاً عدة، ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أَمْثَلَهَا﴾.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٤.

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٥ و٢٦.

(٤) سورة الكهف: الآية ٥٩.

(٢) سورة النمل: الآية ٥١.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾

إشارات:

□ كلمة «مولى» في هذه الآية تعني الصديق والنصير، وليس الولاية بمعنى السلطة، لأن سلطة الله عامة شاملة للكافر والمؤمن.

□ قد يبدو المؤمنون في هذه الدنيا من دون ولي ولا نصير، ولكن الله هو مولا هم، ﴿اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كما يقول في آية أخرى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١). وفي المقابل قد يبدو الكافرون ذوي أولياء وناصرين، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾^(٢)، ولكن الأمور تظهر على حقيقتها يوم القيامة ويتبين ﴿وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - الإيمان سبب من أسباب كسب الحماية الإلهية، والكفر من أسباب خسارة هذه الحماية وفقدها، ﴿اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.
- ٢ - يوم القيامة لا يستفيد الكافرون من أي ناصر أو ولي، ﴿وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿١٢﴾

إشارات:

□ يشبه الله في هذه الآية الكفار بالأنعام والحيوانات في الأكل، وجهات التشابه بين الطرفين ربما تكون فيما يأتي من وجوه:

- أ - أهم الأمور عند الحيوانات الأكل والطعام، وعلى حد تعبير أمير المؤمنين

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

علي عليه السلام: «مهما علفها»^(١)، والكافرون لا هم لهم إلا التمتع بالأكل وغيره: ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٢).

ب - الحيوانات مشغولة وغافلة، والكفار غافلون عن يوم القيامة وعن مسؤولياتهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفٰٔقِلُونَ﴾^(٣).

ج - لا تميز الحيوانات بين حلال الطعام وحرامه، وبعض الناس كذلك لا يهتمهم التمييز بين حلال الطعام وحرامه، فيأكلون كل ما تناله أيديهم من دون التفات إلى الحلال والحرام، ومن دون توقف عند حدود حقوق الآخرين: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاكُ أَكْلًا لَمًّا﴾^(٤).

□ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من كانت همته ما يدخل في بطنه، كانت قيمته ما يخرج منها»^(٥).

التعاليم:

١ - دخول المؤمنين إلى الجنة تجلُّ من تجليات الولاية الإلهية، ﴿ذٰلِكَ ئَنَّ اَللّٰهُ مَوْلٰى الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا... اِنَّ اَللّٰهَ يَدْخِلُ﴾.

٢ - مقام أهل الإيمان والعمل الصالح على درجة من الرفعة تجعل الله يتولى إكرامهم بإدخالهم الجنة، ﴿اِنَّ اَللّٰهَ يَدْخِلُ﴾.

٣ - المعيار والأساس في الحكم على الناس هو الغاية والنهاية، ولا قيمة لمظاهر الدنيا وما فيها من جمال، ﴿جَنَّتٍ تَجْرِيْ... وَيَأْكُلُوْنَ كَمَا تَأْكُلُ الْاَنْعَامُ﴾.

٤ - لا مانع في الدعوة إلى الحق من الاستفادة من ميول الناس ورغباتهم، ﴿جَنَّتٍ تَجْرِيْ...﴾.

٥ - لا مانع من التملك والتمتع بنعم الله في حدود ما أحله سبحانه، وما ينتقده القرآن ويعترض عليه هو تجاوز الحدود المعقولة والقوانين المشروعة، ﴿وَيَأْكُلُوْنَ كَمَا تَأْكُلُ الْاَنْعَامُ﴾.

(٤) سورة الفجر: الآية ١٩.

(٥) غرر الحكم.

(١) نهج البلاغة، الكتب، الكتاب ٤٥.

(٢) سورة النجم: الآية ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

٦ - الشغف بالبطن وحصر الاهتمام بها من أسوأ الرذائل النفسية؛ وذلك لأن الجاه والمنصب لا يُعرضان على الإنسان في كل ساعة، وأما البطن فإنها يمكن أن تشغله عن الكمال في كل لحظة وحين، وربما لأجل ذلك جرى الفصل بين التمتع وبين الأكل، ﴿يَتَنَعَوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾.

٧ - حياة الكفار في حقيقتها حيوانية في الدنيا جهنمية في الآخرة، ﴿يَتَنَعَوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

٨ - في تقسيم الأمور والأشياء لا بد من النظر إلى العاقبة، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣)

إشارات:

□ يتعرض الأنبياء خلال أدائهم مهمة الدعوة للكثير من التهم كالاتهام بالشعر والسحر والكهانة والجنون وغيرها، ولا يكفي الكافرون بذلك بل يضيفون إلى الاتهام التهديد بأمور عدة منها:

أ - القتل: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ (١).

ب - التعذيب: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (٢).

ج - الإبعاد والنفي: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ﴾ (٣).

د - السجن: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٤).

□ يهدئ الله في هذه الآية من روع النبي ﷺ ويشد عزمته، بالمقارنة بين الأمم السابقة وبين أهل مكة، ويعدده بأنه يمكن أن يهلك أهل مكة كما أهلك من قبلهم على الرغم من أنهم أشد من هؤلاء قوة وبأساً.

□ على الرغم من أن رسول الله خرج من تلقاء نفسه من مكة، فإن الله ينسب الإخراج من مكة إلى أهلها المشركين، وذلك لأنهم ضيقوا عليه وهدده فخرج.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٨٨.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

(١) سورة القصص: الآية ٢٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١١٦.

التعاليم:

- ١ - معرفة التاريخ تشدّ عزيمة الإنسان وتزيد من قدرته على التحمل، ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾.
- ٢ - الأقوام التي نزل عليها عذاب الله كثيرة ومتعدّدة: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.
- ٣ - لا ينبغي أن يخشى المؤمن غير القوة الإلهية، لأن كل قوة غير قوة الله لا قيمة لها، ﴿أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.
- ٤ - ينال الكافرون حظهم من العذاب في الدنيا أحياناً، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، مضافاً إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.
- ٥ - الهلاك والفناء هو الغاية المحتومة لكل القوى الظالمة، ﴿أَشَدُّ قُوَّةً... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.
- ٦ - كثيراً ما يكون الأذى والتضييق في محل مصدراً للخير والبركة في محل آخر، ﴿أَخْرَجْنَاكَ﴾، فعلى الرغم من أن الله يؤتّب أهل مكة ويحمّلهم مسؤولية إخراج النبيّ منها، فإنّ الهجرة كانت لها آثارها التي لا شك في أنها كانت في مصلحة مسيرة الدعوة الإسلامية.
- ٧ - يجب أن يتوقّع المصلحون والدعاة إلى الله كل احتمالات الأذى والتضييق، وأن يكونوا مستعدين لتحملهما في سبيل الرسالة التي يحملون، ﴿أَخْرَجْنَاكَ﴾.
- ٨ - لا قوة يمكن أن تنصر من يحل عليه غضب الله، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنِي مِّن رَّبِّي كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤)

إشارات:

- البيّنة من البون وهو المسافة الفاصلة بين شيئين لا اتصال بينهما، ولما كان الدليل والبرهان يفصلان بين الحق والباطل سُمّي البرهان والدليل بيّنة^(١).
- يتسلّح الأنبياء بالدليل والبرهان، ولكن الناس لثقتها بما هي عليه من السلوك

والمعتقد، أو موافقة منها لشهواتها ورغباتها، تواجه دعوة الأنبياء وتعارضها.
 □ رسالة النبي محمد ﷺ مبنية على البينات والدلائل الإلهية، ولا تستند إلى
 رغباته وأهوائه، ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - مستند المؤمن ومعمده الدليل والبرهان، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، أما الكفار
 فإنهم يستندون إلى الأهواء والرغبات، ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾.
- ٢ - يوجد تقابل وتعارض بين محورية الله ومحورية الذات، فمن لا يتواضع
 للدليل ويقر به، يكون في الجهة المقابلة؛ أي في ضفة الهوى والهوس،
 ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي... زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾.
- ٣ - الإنسان يكره القبيح بالفطرة وينفر منه، وإذا أراد لسبب أو آخر فعل أو حب
 أمر قبيح زينه أو زين حتى يراه حسناً فيتبعه، ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾.
- ٤ - من مقتضيات الربوبية البينة وكشف الحقيقة، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.
- ٥ - بعض الأفعال أو الأشياء قبيحة بحد ذاتها لا تتغير عما هي عليه من القبح،
 مهما زينت وأدخل عليها من التحسينات، ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾.
- ٦ - يلجأ الإنسان، لتحقيق رغباته وميوله، إلى تزيين الأفعال القبيحة وتحسينها،
 ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن
 حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرَابِ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ هُوَ
 خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(١٥)

إشارات:

□ ما قيل بالإجمال في وصف الجنة في الآية الثانية عشرة، ورد تفصيله في هذه
 الآية، ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ... وَأَنْهَارٌ... وَأَنْهَارٌ...﴾.

□ في الجنة أنهار عدة متنوعة ذكرتها هذه الآية، ولكن جماعة خاصة يسميهم القرآن بالمقرّبين، خصّهم بعين خاصة بهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١).

□ لكل شيء كمال، وكمال الماء أن لا تكون له رائحة، وكمال اللبن أن لا يتغير طعمه، وكمال المشروبات لذّة طعمها، وكمال العسل خلوصه وصفائه.

□ عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «إذا صار أهل الجنة ودخل ولي الله إلى جنانه ومساكنه واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته [يسألهم الله عن رغبتهم بخير مما هم فيه] فيقولون نعم ربنا فأتانا خيراً مما نحن فيه. فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، ثم قرأ علي بن الحسين عليهما السلام الآية الثانية والسبعين من سورة التوبة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢).

□ ربما يكون المراد من المغفرة في الجنة محو الله ذكرى الذنوب والمعاصي من أذهان المؤمنين فلا تعود تعكر عليهم صفو حياتهم في الجنة^(٣).

التعاليم:

- ١ - ينبغي أن يستفاد لدعوة الناس إلى الحق من جمال الجنة وما فيها من نعيم، في مقابل مغريات الحياة الدنيا وزينتها، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾.
- ٢ - ينال المتقون، الذين يغيضون الطرف عن لذائد الدنيا الفانية، لذات الآخرة ونعيمها الخالد، ﴿وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾.
- ٣ - بعث الأمل بحسن العاقبة من العوامل المساعدة على تبني الحق والإيمان به، ﴿وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾.
- ٤ - التنوع من الرغبات الطبيعية عند بني البشر، ﴿أَتَهْرَ... أَتَهْرَ﴾.

(٣) تفسير راهنما.

(١) سورة المطففين: الآية ٢٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨، ١٤٠ - ١٤١.

- ٥ - تجتمع في الجنة النعم المادية واللذات الحسية، إلى جانب النعم الروحية والمعنوية، ﴿أَنْهَرُوا... وَمَغْفِرَةٌ﴾.
- ٦ - تمتاز نِعْمُ الجنة بالخلوص والنزاهة عن كل ما يعكّر صفوها ويكدرها، ﴿غَيْرِ عَاسِنٍ... لَمْ يَنْغَيِّرْ طَعْمُهُ﴾.
- ٧ - لا يغير ماء الجنة وهواؤها رائحة النعم الموجودة فيها ولا يخبره، ﴿...لَمْ يَنْغَيِّرْ طَعْمُهُ﴾.
- ٨ - النعم التي ينالها أهل الجنة مقرونة بمغفرة الله ورضاه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.
- ٩ - تتوفر في الجنة كل أشكال الفواكه والثمار التي يرغب فيها الإنسان، ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.
- ١٠ - يشرب أهل جهنم الماء الحار المذلل، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾.
- ١١ - الترغيب والترهيب يؤثران عندما يقترنان، ﴿أَنْهَرُوا... مَاءً حَمِيمًا﴾.
- ١٢ - المعاد الجسماني حقيقة قرآنية يدل عليها الحديث عن العسل واللبن، وتقطيع أمعاء الكافرين، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.
- ١٣ - بين جسم الإنسان في الدنيا وجسمه في الآخرة تفاوت وفرق كبيران.
- ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

إشارات:

□ بعد الإشارة إلى حال المؤمنين والكافرين تولّت هذه الآية الحديث عن طريقة تعامل المنافقين مع الوحي الإلهي إلى النبي ﷺ، وفيها يخبر الله نبيه ﷺ أن بعض الكافرين الذين يظهرون الإسلام يشاركون المسلمين مجالسهم ويستمعون إلى الوحي كما يستمع المسلمون، ولكن لما كانوا محرومين من نعمة الإيمان فإنهم عاجزون عن فهم كلام الله ولذلك بعد أن يغادروا المجلس يبدأون بطرح الأسئلة والاستفسار حول ما قيل فيه.

ويطمئن الله رسوله إلى أنّ هذه الأسئلة ليست ناشئة من رغبة في المعرفة، أو من عجز في البيان عند النبي ﷺ، بل منشؤها طبع الله على قلوب المنافقين وخضوعهم لأهوائهم التي تمنعهم من فهم الحق أو اتباعه إن فهموه. □ يستفاد من ورود جملة ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعد جملة ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أن الإنسان، عندما يدير ظهره للحق ويعرض عن الفهم، يقع تحت سيطرة الهوى والشهوة^(١).

التعاليم:

- ١ - استفاد من الآية أن الناس جميعاً كانوا يشاركون في مجلس النبي ﷺ، سواء في ذلك المؤمن والكافر والمنافق، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.
- ٢ - من الواجب كشف أسرار المعارضين للحق للناس، وفضح خفايا مواقفهم وحركاتهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.
- ٣ - السعي لبث الفرقة والاختلاف والتشكيك في أوساط خواص أهل الحق من الأهداف التي يحاول المنافقون الوصول إليها، ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا آيَاتِنَا﴾.
- ٤ - باب السؤال والاستفهام في الإسلام مفتوح، ولكن عندما يكون الهدف من السؤال التشكيك وتضعيف إيمان الناس يختلف الأمر ويتحول السؤال إلى أمر يستحق عليه صاحبه التوبيخ والتأنيب، ﴿مَاذَا قَالَ آيَاتِنَا﴾.
- ٥ - الوحي النازل على رسول الله ﷺ علمي ومرتب للعلماء، ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا آيَاتِنَا﴾.
- ٦ - تشكيك المسلمين في إيمانهم شكل من أشكال الغزو الثقافي، ﴿مَاذَا قَالَ آيَاتِنَا﴾.
- ٧ - يعدّ الإنسان نفسه ليطيع على قلبه بعمله السيئ واتباعه الهوى، وبالتالي يعجز بعد ذلك عن فهم الحق ومعرفته، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٨ - لا ينبغي أن يغترّ الإنسان بكثرة عدد المحيطين به، والمشاركين في مجلسه، فربما كان كثير منهم معاندين للحق، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ... طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

٩ - الطبع على القلب وسد أبواب الفهم والتمييز في وجه الإنسان من الآثار المترتبة على السخرية من القرآن ومحاولات التشكيك فيه، ﴿مَاذَا قَالَ آتِفًا... طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

١٠ - عندما يتلى الإنسان بالطبع على القلب يصبح عاجزاً عن فهم كلام الله وفهم كلام رسوله، ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾.

١١ - الإنسان في الأصل وبحسب الفطرة قابل ومستعد للفهم وتمييز الحق من الباطل، ولكنه يفقد هذه الميزة نتيجة بعض الأفعال والتصرفات التي يقوم بها؛ فكلمة «طبع» تكشف عن تبدل الحال الأصلية إلى غيرها.

١٢ - من يحارب رسول الله ﷺ يكن في حرب مع الله سبحانه، ﴿يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ... مَاذَا قَالَ آتِفًا... طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

١٣ - الأهواء الإنسانية والرغبات متعددة ومتنوعة، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

١٤ - طاعة الله واتباعه تتنافى مع اتباع الهوى ولا تجتمع معه، ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَقَّوْنَهُمْ﴾ (١٧)

إشارات:

□ تذكر الآية السابقة الذين يستمعون إلى الوحي ويحضررون مجلس النبي ﷺ ولكن ذلك كله لا يؤثر فيهم، بينما تشير هذه الآية إلى صنف مختلف من الناس، وهو الذين اهتدوا فتولاهم الله وزادهم هدى.

□ عبارتا «زادهم هدى» و«زدني علماً» لا تدلان بالضرورة على زيادة العلم والهدى فحسب، بل تدلان أيضاً على زيادة في الاستعداد والقدرات التي يتمتع بها صاحب العلم والمتمتع بالهداية.

- ما يزيد المؤمنين هدىً أمور عدة، هي:
- أ - الآيات والمعارف التي يشتمل عليها الوحي.
- ب - كلام النبي ﷺ والحكم الصادرة عنه.
- ج - الصبر على الأذى وتحمله الاستهزاء الصادر عن المنافقين^(١).

التعاليم:

- ١ - الاهتداء والتأثر بالتعاليم الإلهية، يرفعان استعداد الإنسان للهداية برعاية إلهية خاصة، ﴿أَهْتَدُوا زَادَهُمْ﴾.
- ٢ - الهداية مفهوم ذو مراحل ومراتب، ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾.
- ٣ - قبول الهداية يرفع القدرات الروحية للإنسان، ﴿زَادَهُمْ﴾، ودليل ذلك أن الله سبحانه قال: ﴿زَادَهُمْ﴾ ولم يقل زاد هدايتهم أي الزيادة طارئة عليهم.
- ٤ - الخطوة التي يخطوها الإنسان يقابلها الله بخطوات، ﴿أَهْتَدُوا﴾ الفعل هنا من الإنسان؛ ﴿زَادَهُمْ... وَءَانْتَهُمْ﴾ الفعل هنا من الله سبحانه.
- ٥ - الهداية الحقيقية والواقعية هي التي تنتهي بالإنسان إلى الاتصاف بالتقوى، ﴿أَهْتَدُوا... وَءَانْتَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.
- ٦ - التقوى هدية وثواب إلهي يتفضل الله به على المهتدين: ﴿وَءَانْتَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾

إشارات:

- «أشراط» جمع شرط وهو الآية والعلامة، والمراد من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ بعثة النبي ﷺ بناء على رواية عنه ﷺ^(٢). وذلك أنه آخر الأنبياء وكتابه آخر الكتب السماوية، وهو الحجة الإلهية الأخيرة على الناس. وبالتالي فإن الفساد والمعاصي والكفر والإنكار تساعد كلها على تعجيل قيام الساعة.
- على الرغم من أن كلمة «ساعة» تستعمل عادة للدلالة على يوم القيامة، فإنه لا

(٢) تفسير مجمع البيان.

(١) انظر: تفسير الصافي.

مانع أن يكون المراد منها في بعض الموارد اقتراب الجزاء والعقاب الإلهي في الدنيا مقدمة ليوم القيامة.

□ عن عبد الله بن عباس قال: «حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان الفارسي، فقال: بلى يا رسول الله، فقال: من أشراط الساعة إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا»^(١). ويحصي بعض الروايات عدد أشراط الساعة فتصل به إلى مئة علامة^(٢).

التعاليم:

- ١ - الكفار قساة القلوب لا يؤمنون مهما قدم لهم من أدلة، ومنتظرون قيام الساعة حتى يؤمنوا، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾.
- ٢ - تقوم الساعة فجأة ويهلك عندها الكافرون من دون سابق إنذار، ﴿تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾.
- ٣ - الساعة ويوم القيامة لهما علامات ومؤشرات تدل عليهما، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾.
- ٤ - لا ينبغي أن يطول أمل الإنسان بانفتاح باب التوبة في وجهه بشكل دائم، فقد يعي الإنسان ويجد باب التوبة مقللاً في وجهه، ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مُقَلِّبِكُمْ وَمَتَّعِكُمْ﴾

إشارات:

□ «مُقَلِّبٌ» مصدر ميمي بمعنى الانقلاب والانتقال من مكان إلى مكان، والمشوى مصدر ميمي بمعنى الاستقرار والاطمئنان.

□ عبارة: «وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ» وردت في سورة غافر في الآية ٥٥. وبما أنّ الأنبياء جميعاً معصومون، فلا بدّ من أن يكون المراد من هذه أحد أمور، هي:

أ - الاستغفار بما هو عبادة لله سبحانه، من دون أن يتوقّف على صدور الذنب.

ب - الاستغفار من ترك الأولى، أي الاستغفار من أجل ترك بعض الأمور التي كان من الأولى بالأنبياء أن يقوموا بها.

ج - من أجل أن يتعلّم الناس الاستغفار.

د - الاستغفار طلباً لارتفاع الدرجات.

هـ - أن يكون المراد من الاستغفار الاستغفار من الذنوب التي ارتكبتها الناس في حقّ الأنبياء.

و - ليس بالضرورة أن يكون الاستغفار من أجل التقصير، بل يكون من أجل القصور. وذلك أنّ العبد عندما يعي قصوره وعجزه أمام عزة الله وعظمته يطلب منه سبحانه المغفرة^(١).

□ يرى بعض المفسّرين أن كلمة ذنب لا تدلّ دائماً على المعصية، بل تدلّ في بعض الاستعمالات على الذنب بمعنى التبعة والأثر الذي يترتب على الفعل، وبناءً عليه يكون المراد من «ذنب النبيّ» تبعات أعماله وجهوده في سبيل الدعوة الإسلاميّة، ومواجهة الكافرين؛ أي الأذى الذي يناله منهم كالقتل والاعتداء والهتك. وبالتالي يكون المراد من الاستغفار الطلب من الله أن يخفي آثار هذه الأعمال وانعكاساتها السلبية عند الكافرين^(٢).

□ لم تقتصر الدعوة إلى الاستغفار على النبيّ محمد ﷺ، بل ورد في القرآن دعوة أنبياء آخرين إلى ذلك مثل: داود، وموسى، وإبراهيم عليه السلام.

□ في القرآن حالات من استغفار الأنبياء لأناس آخرين، كاستغفار إبراهيم عليه السلام

(١) انظر: كتب التفسير عند تفسير هذه الآية، ومن ذلك مثلاً: مجمع البيان، التفسير الكبير، والميزان.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن.

لأبويه وللمؤمنين^(١) واستغفاره لعمه^(٢)، وكذلك استغفار يعقوب عليه السلام لأبنائه^(٣)، وكذلك أيضاً استغفار موسى عليه السلام لأخيه^(٤). وتتسع دائرة المستغفرين لتشمل الملائكة واستغفارهم للناس^(٥). وفي هذه الآية يعدّ استغفار النبي صلى الله عليه وآله للمؤمنين والمؤمنات شكلاً من أشكال الشفاعة.

التعاليم:

- ١ - بعد أن رأيت واطلعت على ثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين، اعلم أن كل هذه الأعمال تستند إلى إرادته تعالى، ﴿فَاعَلَّمَكُمْ﴾.
- ٢ - الإيمان والتوحيد لا يكونان عن تقليد واتباع أعميين، بل لا بد من أن يستندا إلى العلم والمعرفة، ﴿فَاعَلَّمَ أَنْتُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وهذا ما يعبر عنه علماء الكلام والفقهاء بعدم جواز التقليد في أصول الدين.
- ٣ - يقتضي النظام والقانون الإلهي أن تجري بعض أفعال الله بوسائط وأسباب حتى لو كانت تلك الأفعال مثل المغفرة والعتو الإلهي عن البشر، فالله على الرغم من قدرته على المغفرة لعباده والعتو عنهم إلا أنه يريد أن يغفر لهم بواسطة دعاء النبي صلى الله عليه وآله، ﴿وَأَسْتَغْفِرُ... وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٤ - على القائد أن يكون عطوفاً رحيماً بعامة الناس من أتباعه ومريديه، ﴿وَأَسْتَغْفِرُ... وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٥ - دعاء النبي صلى الله عليه وآله واستغفاره يشمل المؤمنين والمؤمنات، والمعيار هو الإيمان، وليس الجنس، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٦ - لا ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يراهنوا على استغفار النبي صلى الله عليه وآله ويغفلوا عن

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٥) سورة الشورى: الآية ٥٥؛ وسورة غافر: الآية ٧.

الله فهو الحاضر المحيط بأعمال العباد وأفعالهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

٧ - يجب أن يبدأ المرء بإصلاح نفسه قبل إصلاح غيره من الناس، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ - جميع الناس في حاجة إلى لطف الله وعنايته حتى الرسل والأنبياء، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ (العظمة من خصائص الله وصفاته، والضعف والعجز من خصائص البشر، وعلى جميع الناس طلب العفو من الله سواء في ذلك العفو عن الذنب أو العفو عن القصور).

٩ - العفو والمغفرة من الأمور التي يريدها الله، ولذلك يدعو الأنبياء إلى طلب المغفرة للناس ليكون ذلك واسطة في المغفرة لهم، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ - إحاطة علم الله بأفعال العباد من الأمور التي تثير الخشية في نفوس الناس وتدعوهم إلى طلب العفو والمغفرة منه سبحانه وتعالى، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

١١ - علم الله لا حدود له، فلا يغيب عنه سبحانه شيء، وسواء في ذلك الحركة أم السكون، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ۝١٠﴾

إشارات:

□ كلمة «سورة»، مصطلح قرآني يدل على مجموعة من الآيات، وبالتالي ليس مصطلحاً وضعه المسلمون بعد فترة من نزول الوحي. والمراد من الإحكام، في السورة المحكمة في الآية، إحكام الآيات وعدم تشابهاها.

□ مرضى القلوب في الآية هم بعض المؤمنين وليسوا المنافقين؛ لأن المنافقين لا يقال عنهم مؤمنين، وعليه يمكن أن يجتمع الإيمان مع مرض في القلب.

التعاليم:

- ١ - بعض المؤمنين على استعداد دائم، ينتظرون الأمر بالجهاد في سبيل الله، وهم يعلنون ذلك ويرددونه على ألسنتهم، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢ - يضبط المؤمنون كل حركاتهم ومسيرة حياتهم على إيقاع الأوامر الإلهية؛ ولذلك ينتظرون نزول الوحي ليمثلوا ما فيه من تكاليف، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.
- ٣ - الجهاد من الأمور الخاضعة للأمر الإلهي، ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.
- ٤ - لا يصدر الأمر بالجهاد إلا بطريقة واضحة لا لبس فيها، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾.
- ٥ - الجهاد والحرب ليسا هما الهدف الأساس للأوامر الإلهية، بل هما أحد الأهداف التي تتضمنها السورة، ﴿وَذَكَرَ فِيهَا أَلْفِتَالٌ﴾.
- ٦ - التكليف بالقتال من الأمور التي يمتحن بها الناس، ﴿وَذَكَرَ فِيهَا أَلْفِتَالٌ رَأَيْتَ الَّذِينَ﴾.
- ٧ - يمكن الحكم على الناس، ومعرفة ما يختلج في نفوسهم، من طريقة نظرهم ومن النظر إليهم، ﴿رَأَيْتَ... يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾.
- ٨ - الخوف من الجهاد من علامات مرض القلب وضعف الإيمان؛ ومن هنا فإن ضعف الإيمان ومرضى القلوب يعاينون الموت عند توجه الأمر بالقتال إليهم، ويصبح حالهم شبيهاً بحال المحتضر الذي يكابد الموت، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَيْتِ عَلَىٰ مِنْ أَلْمُوتِ﴾.
- ٩ - الدعاء على الكافرين بالموت من الشعارات ذات الأصل القرآني، ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (٦١)

إشارات:

□ المراد من «الطاعة» الطاعة المطلقة في جميع الأمور. وعبارة: «عَزَمَ الْأَمْرُ»

معناها ظهور الوضع الذي يحتاج إلى عزم وإرادة قوية نافذة، وبعض المفسرين يرى أن معناها شدة الحرب ومصاعبها.

□ بعض ضعاف الإيمان لا يكتفون بالامتناع والتمرد على الأمر بالجهاد، بل يحاولون تبرئة أنفسهم من تهمة الخوف والجبن باختراع الحجج والأقاويل غير المترابطة، والقرآن الكريم يذكر مجموعة من حججهم ودعواهم، ومن ذلك:

- دعوى العجز عن تحمّل أعباء الحرب، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾.

- دعوى عدم الأمن على عيالهم وبيوتهم، ﴿يُوتِنَا عَوْرَةً﴾^(١).

- الطقس حار، ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾^(٢).

- دعوى الخوف من الوقوع في المعصية، حيث ادّعوا، في معركة تبوك، أنهم يخشون النظر إلى النساء الروميات والافتتان بهنّ، ولذلك امتنعوا عن المشاركة في تلك الغزوة، ﴿وَلَا نَفْسِي﴾^(٣). ويعلق الله على دعواهم هذه بقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

- أو يدّعون أن الوقت غير مناسب للحرب والقتال، ومن الأفضل تأجيل الخروج إلى وقت آخر، ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَاكُمْ﴾^(٤).

- أو يتعللون بالخشية من الضرر الذي ربّما يصيبهم من الخروج إلى القتال، ﴿تَخَشُّونَ أَنْ نُصِيبَنَّ بِدَارَةٍ﴾^(٥).

وفي هذه الآية ينصح الله سبحانه بالطاعة والالتزام بأمر الجهاد، والقول الصواب فإنّه أفضل وأحسن عاقبة، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾.

التعاليم:

١ - المؤمن يلتزم أمر الله بالجهاد ويطيعه، ﴿طَاعَةٌ﴾.

(٤) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٥) سورة المائدة: الآية ٥٢.

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٩.

- ٢ - يجب أن يكون كل من القول والعمل صحيحاً، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.
- ٣ - يجب أن يكون الحديث حول الأوامر الإلهية صحيحاً وبالطريقة المناسبة، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.
- ٤ - الجهاد والدفاع من الأمور المقبولة التي تشهد الفطرة والعقل بصحتها، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.
- ٥ - منشأ الخوف من الجهاد هو عدم الصدق في العمل، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾.
- ٦ - أمر الله بالجهاد يصب في مصلحة الإنسان وليس في مصلحة الله سبحانه، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۗ﴾

إشارات:

- يحتمل المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾، معنيين:
- أ - الإعراض وإدارة الظهر للجهاد والانشغال بإثارة الخلافات وقطع الأرحام.
- ب - الولاية والسلطة على الناس، من أجل الإفساد في الأرض وقمع الآخرين.

ويبدو أن المعنى الثاني لا ينسجم مع سياق الآيات^(١).

□ الآية موجهة إلى ضعاف الإيمان من الناس؛ أي إلى أولئك الذين يتحفظون على المشاركة في الجهاد، حفظاً لنفوسهم وأرواحهم، فيقول الله لهم: لا تحسبوا أن الفرار من الجهاد يحميكم من الموت، فإنكم بترككم الجهاد تساعدون على انتشار الفساد في الأرض، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى أن تصابوا بشر أعمالكم، وتعودوا إلى سنن الجاهلية، فتبيحوا لأنفسكم قتل أبنائكم كما كانوا يقتلون أبناءهم.

(١) الميزان في تفسير القرآن.

التعاليم:

- ١ - الإعراض عن الدين والأوامر الإلهية من المقدمات المساعدة على انتشار الفساد في الأرض، ﴿...إِنْ قَوْلَيْتُمْ أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٢ - قطيعة الرحم من الذنوب المعادلة للإفساد في الأرض، ﴿تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.
- ٣ - عندما ينتشر الفساد في الأرض يعم كل المجالات فلا يرحم الإنسان أرحامه، ﴿تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾،
- ٤ - الفارون من الجهاد مفسدون في الأرض، قاطعون للأرحام، يلعنهم الله، ﴿تَوَلَّيْتُمْ... تَفْسِدُوا... وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ... أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٥ - الحرمان من رحمة الله من آثار الأعمال التي نقوم بها في حياتها، ﴿تَفْسِدُوا... وَتُقَطِّعُوا... لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٦ - عدم الاستفادة من النعم الإلهية يشبه الحرمان منها، فمن له أذن لا يسمع بها هو كالأصم، ومن له عين لا يبصر بها هو كالأعمى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمُوا وَاعَمَّ أَبْصَرَهُمْ﴾.
- ٧ - أعظم الحرمان وأبشعه الحرمان المعنوي، كالحرمان من معرفة الحقيقة، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمُوا وَاعَمَّ أَبْصَرَهُمْ﴾.
- ٨ - الاستخدام الخاطيء للنعم الإلهية من علامات البعد عن رحمة الله، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَعَمُوا وَاعَمَّ أَبْصَرَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

إشارات:

- ترتبط هذه الآية بالآية السابقة فتشير إلى أن عدم تدبر القرآن من نتائج العمى الذي يصاب به الإنسان، إثر اللعن الإلهي.
- الأمر بتدبر القرآن ورد في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى

في سورة ص، الآية ٢٩: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

التعاليم:

- ١ - القرآن الكريم ليس كتاب قراءة وتلاوة فحسب، بل هو كتاب تأمل وتدبر، والقراءة مقدمة للتدبر، ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٢ - يدعو الله الناس جميعاً إلى تدبر القرآن والتأمل فيه، ولا تقتصر الدعوة على جماعة خاصة من الناس، ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٣ - يذم الله الذين يتعاملون مع القرآن بطريقة سطحية ساذجة، ويصف قلوبهم بالمقفلة، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.
- ٤ - من الشروط الأساس والضرورية لفهم القرآن والنفوذ إلى عمق معانيه انشراح الصدر وسلامة القلب، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.
- ٥ - القلب من طرق المعرفة ووسائلها، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.
- ٦ - تدبر القرآن الكريم من علامات سلامة العقل والقلب، ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ وَالشَّيْطَانُ

سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين أحدهما تزيين القبيح من الأعمال، والآخر التسهيل؛ أي إن الشيطان يسهل للإنسان طريق الانحراف.
- «أملى»: أي أمهل، أو أمدّ وأعان.
- الأعمال التي ينسبها القرآن إلى الشيطان متعددة، هي: الوسوسة^(١)، الأمر

(١) سورة الناس: الآيتان ٤ و٥.

بالفحشاء والقبايح^(١)، تزيين الأعمال السيئة^(٢)، التخويف^(٣)، العداوة^(٤)،
 الوعيد بالفقر^(٥)، خلف الوعد^(٦)، الإسراف^(٧)، الصدّ عن ذكر الله^(٨)،
 الاختلاف والتفرقة^(٩)، التمرّد^(١٠)، التشكيك^(١١)، الشرك والانحراف^(١٢)،
 وطول الأمل^(١٣). وفي مقابل هذه الأمراض التي ينشرها الشيطان في المجتمع
 الإنساني، يدلنا القرآن على الدواء المناسب، وهو أمران: أحدهما النظر إليه
 كعدوّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(١٤)؛ والآخر الاستعاذة بالله من
 شره: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(١٥)؛ وإلا فإن الشيطان
 الخارجي: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ والشيطان الداخلي: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَ لِي
 نَفْسِي﴾^(١٦) سوف يتكاتفان ويقضيان على منابع الخير في الإنسان، ويقودانه إلى
 الهلاك.

التعاليم:

١ - الالتفات والاستماع إلى وسوسة الشيطان من الآفات التي يُخشى منها على

- (١) سورة النور: الآية ٢١.
- (٢) سورة الأنفال: الآية ٤٨؛ وسورة الأنعام الآية ٤٣.
- (٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.
- (٤) سورة المائدة: الآية ٩١.
- (٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.
- (٦) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
- (٧) سورة الإسراء: الآية ٢٧.
- (٨) سورة النساء: الآية ٦٠.
- (٩) سورة الإسراء: الآية ٥٣؛ وسورة طه: الآية ٢٠.
- (١٠) سورة مريم: الآية ٤٤.
- (١١) سورة الحج: الآية ٣.
- (١٢) سورة النمل: الآية ٢٤؛ وسورة القصص: الآية ١٥.
- (١٣) سورة محمد: الآية ٢٥.
- (١٤) سورة فاطر: الآية ٦.
- (١٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.
- (١٦) سورة طه: الآية ٩٦.

الإيمان، ويُخاف أن تكون عاقبتها الارتداد عن الدين، وسوء العاقبة،
﴿الَّذِينَ أَرْتَدُوا﴾.

٢ - الارتداد عن الدين، بعد اتضاح الحق، عمل رجعي يتضمّن التخلف،
﴿أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ﴾.

٣ - طريق الحق واضح لا لبس فيه، والمعرفة به تحمّل الإنسان المسؤولية عنه،
﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾.

٤ - لا بدّ من مواجهة وسوسات الشيطان بجِدِّ، وإلا فإنّ العلم وحده لا ينفع
الإنسان ولا يحميه، ﴿بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾.

٥ - التزيين وطول الأمل من الأسلحة التي يستخدمها الشيطان في حرف الإنسان
عن الحق، (وكلّ من يزيّن قبائح الأعمال يتّصف بصفة شيطانية)، ﴿الشَّيْطَانُ
سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ﴾.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٦٦﴾

إشارات:

□ المنافق يسعى لحفظ نفسه ولو من خلال الاحتماء بمن يخالفه، ويكتفي ببعض
وجوه الشبه والاشترارك بينه وبينهم، ووفق هذه القاعدة عقد منافقو المدينة
الصلوات وبنوا العلاقات مع اليهود، وتحالفوا معهم على معاداة النبي ﷺ^(١).

□ ربّما يكون المراد من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ الكفار الذين
أشار إليهم تعالى في أول السورة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - الأشخاص الكارهون، وغير الراضين في المجتمع، يستهدفهم العدو بمؤامراته ويخترق بهم المجتمع، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا... سَطِيعُكُمْ﴾.
- ٢ - يعطي المنافقون الوعود بالنصرة والتضامن مع الذين يكرهون أحكام الله وتشريعاته، بل ويعدونهم بالطاعة والامتثال، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا... سَطِيعُكُمْ﴾.
- ٣ - المنافقون والكفار وأعداء الإسلام يتضامنون ويتحالفون في بعض الأحيان، ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.
- ٤ - من علامات الارتداد عن الدين التعاون مع الكارهين لأحكام الله، ﴿أَزْدُوا... سَطِيعُكُمْ﴾.
- ٥ - طاعة المنحرفين عن الحق عمل يقابل باللوم والتأنيب حتى لو كان طاعة في بعض الأمور، ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.
- ٦ - بعض الناس ينافقون من أجل حفظ مصالحهم الخاصة، فيتعاونون مع المؤمنين أحياناً، ومع الكافرين أحياناً أخرى، وعلى وفق قول المثل المشهور: «ضربة على الحافر وضربة على المسمار»، ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.
- ٧ - يعقد المنافقون تحالفاتهم مع من يتحالفون معهم في السر والخفاء، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.
- ٨ - على المنافقين أن يعوا أن الله يطلع على أسرارهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون، وقد يعرضهم للفضيحة في أي لحظة، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.
- ٩ - لو أن الإنسان لا يغفل عن اطلاع الله على الخفايا والأسرار لترك كل المؤامرات وتصرف بشفافية ووضوح مع الناس جميعاً ولتطابق باطنه مع ظاهره، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ٢٧ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا
 أَسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ ٢٨ ﴿

إشارات:

□ التوفي والاستيفاء من مادة وفي، ومعناها أخذ الشيء واسترداده كاملاً، وتستعمل هذه الكلمة في القرآن بمعنى الموت، وذلك أنّ الموت فيه أخذ الروح من الجسد.

□ في الآية ٥٠ من سورة الأنفال ما يشبه هذا المعنى حول الكافرين وموتهم.

□ ربّما يكون عذاب المرتدين في وجوههم لقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من باب تجسّم الإقبال على غضب الله وسخطه، والعذاب الذي ينالهم من أدبارهم تجسّم إعراضهم عن الله تعالى ورضوانه.

التعاليم:

١ - يبتلى الذين يعملون على صدّ الناس عن الحقّ والهدى بتشديد نزع الروح عليهم وإذلالهم في ذلك الوقت، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾،

٢ - ليس الموت انعداماً وفناءً، وإنما هو، في الرؤية القرآنية، توفية وأخذ كامل للروح بواسطة الملائكة، ﴿تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٣ - تبدأ رحلة العذاب عند المنافقين المرتدين من اللحظات الأولى لمسيرة الموت، ﴿تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٤ - الالتفات إلى الحدود التي يعمّر الإنسان فيها على الأرض، وإلى انتهاء المؤامرات بالعذاب الإلهيّ وغضبه، ربّما ينفع في التوقف عن التورط في حياكة المؤامرات، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ... يَضْرِبُونَ﴾.

٥ - معاداة القرآن والوحي الإلهيّ توجب غضب الله وبطلان الأعمال، ﴿ذَلِكَ... فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

٦ - الكفار مختارون في طريقة تصرفهم ومواقفهم، ﴿اتَّبَعُوا... وَكَرَهُوا﴾، إلا

أنهم مضطرون لتحمل النتائج المترتبة على ما اختاروه من فعل أو قول،
﴿فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾.

٧ - قد يؤدي الإنسان بعض الأعمال الحسنة، ولكنه يسلط عليها ما يحرقها ويزيل قيمتها، ﴿اتَّبَعُوا... وَكَرِهُوا... فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾.

٨ - الحركة في الطريق التي لا ترضي الله تؤدي إلى الإحباط، وتوجب التوبخ والتأنيب، ﴿اتَّبَعُوا... وَكَرِهُوا... فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْبَتْنَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ «الضعن» والأضغان الحقد الشديد.

□ عن الإمام علي عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»^(١).

□ ورد في سبب نزول الآيات، أنها نزلت عندما اتهم بعض المنافقين رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه حابى صهره وابن عمه في غدير خم، يوم أخذ بيده وأعلن خلافته من بعده^(٢).

التعاليم:

١ - من النفاق، ومن علامات مرض القلب، سوء الاستفادة من ستر الله وإمهاله في الفضيحة وكشف العيوب، ﴿أَمْ حَسِبَ﴾.

٢ - لا تقتصر فضيحة العاصين وكشف ما يضمرون من أحقاد على يوم القيامة، بل قد ينالهم شيء من الهتك في الدنيا أيضاً، ﴿أَمْ... أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ﴾.

(١) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ٢٦. (٢) انظر: البرهان في تفسير القرآن.

٣ - يقدر الله على إرباك المنافقين وإظهار ما يضمرون في قلوبهم في طريقة حديثهم، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾.

٤ - الحسد والضغينة من عوامل ظهور النفاق وكشف المستور والمضمر، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرِيضٌ... أَصْفَنَتْهُمْ﴾.

٥ - الوجه مرآة تحكي ما في باطن الإنسان وتكشف عوراته، ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾.

٦ - لا يكفي أن يكون الكلام نفسه مؤدباً، بل يجب أن تكون طريقة الكلام ولحنه كذلك أيضاً. والمنافق قد يضبط لسانه، ولكنه يعجز عن التحكم في لحن الكلام وطريقة أدائه، ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

﴿وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١)

إشارات:

□ «الابتلاء» من مادة «بلي» وبلوته اختبرته اختباراً لمعرفة الحقيقة. ولما كان الله يعرف حقيقة الناس والأشياء، فالبلاء الإلهي يتضمن معنى ظهور الجودة والرداءة من دون التعرف إلى الحال^(١).

□ قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمَ﴾ ليست بمعنى العلم في مقابل الجهل، بل بمعنى ظهور العلامة والتمييز.

□ أشارت الآية السابقة إلى أن الله لا يعلم ظاهر أحوال الناس فحسب، وإنما يعلم أسرارهم أيضاً، وعليه فإن الاختبار لا يهدف إلى المعرفة واطلاع الله على ما لم يكن مطلعاً عليه، بل ليظهر المستحق من الناس من غيره، كما ربما يحصل مع الإنسان في بعض الحالات، فإنهم يعلمون قدرات من يعمل لهم الأعمال، ولكنهم يطلبون منهم العمل ليعطوهم الأجر في مقابل ما عملوا.

□ تمييز الناس بعضهم عن بعض له مراحل عدة؛ المرحلة الأولى: يمتاز فيها

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة «بلي».

الناس على أساس الإيمان والكفر؛ المرحلة الثانية: يمتاز فيها المؤمنون على أساس الجهاد والفرار منه؛ والمرحلة الثالثة: يمتاز فيها المجاهدون على أساس الصبر والقدرة على الاحتمال. وبالتالي فإن الإنسان في حالة اختبار دائمة.

□ من الآية ١٦ حتى هذه الآية كان الحديث عن سمات المنافقين والذين في قلوبهم مرض. وقد رسمت هذه الآيات ملامحهم العامة والمشاركة، ويمكن الإشارة إلى أبرز ما ورد في هذا السياق وفق ما يأتي:

١ - الاستخفاف بكلام النبي ﷺ وأقواله، ﴿مَاذَا قَالَ آئِفًا﴾ [سورة محمد: الآية ١٦].

٢ - الخوف من الجهاد: ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٠].

٣ - الإفساد في الأرض وقطع الأرحام: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْصَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٢].

٤ - الارتداد عن الحق: ﴿أَزِيدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ...﴾ [سورة محمد: الآية ٢٥].

٥ - الاغترار بعود الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية نفسها].

٦ - التآمر وإعلان التحالف مع المعارضين للنبي ﷺ: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٦].

٧ - العمل بما يسخط الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٨].

٨ - كراهة ما يرضي الله: ﴿وَكْرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٨].

٩ - الحقد والضغينة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٩].

وفي مقابل هذه الصفات والخصائص القبيحة يواجههم الله بإقفال قلوبهم،

ولعنهم وإبعادهم عن رحمته، وتعذيبهم بضرب وجوههم وأدبارهم، وحبط أعمالهم.

التعاليم:

١ - الاختبار أمر عام وحتمي وهو من السنن الإلهية، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾. حرفا اللام والنون في الآية للدلالة على القسم والتأكيد.

٢ - من الميادين والمجالات التي يُختبر فيها الإنسان ميدان الحرب والقتال، ينكشف فيها النفاق ويظهر ما خفي من المرء فيها، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ﴾.

٣ - الصبر والثبات من الصفات المهمة في ساحة الجهاد، ﴿الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾.

٤ - في ميادين الاختبار تظهر صحة أقوال الإنسان وصحة ما ينسب إليه من أخبار، ﴿وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾.

٥ - معيار التقييم عند الله هو النجاح في العمل، ﴿وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾

إشارات:

□ صدّ الناس عن سبيل الله يأخذ أشكالا عدة، منها: تحريف القوانين والشرائع الإلهية، والبدعة في الدين، وتشكيك الناس في عقائدهم من خلال إثارة التساؤلات حول صحة بعض المعتقدات الدينية كما في قوله تعالى: ﴿أَتَقْلَبُونَ كِتَابَ اللَّهِ مُثَلَّحِينَ﴾^(١)، وإضعاف الأنبياء والقادة الإلهيين

واتهامهم بالكهانة والسحر والشعر، أو تهديد الناس الذين يميلون نحو الدين ويقبلون دعوة الأنبياء، وإشغال الناس بالقضايا التافهة وغير الضرورية، وإثارة أجواء الفتنة وإشعال الحروب، وتشريع القوانين المقيدة التي تعيق إقبال الناس على التعاليم الإلهية، وأخيراً تولية من لا يستحق وإعطاؤه عناوين ومناصب دينية.

□ في بعض الحالات يصاب الإنسان بانقلاب في معايير الاختيار، فبدل أن يفتح قلبه للحق ويسير في دروب الكمال، تجده يحارب الحق ويسير في الاتجاه المعاكس للكمال والرشد:

- يعادي الله ويصرّ على العناد، ﴿كَفَرُوا... مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾.

- يعاند الرسول ويحاربه، ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾.

- يمارس عداوته على الناس من خلال منعهم من الهداية وسدّ سبلها في وجوههم، ﴿وَصَدُّوا عَنْ﴾.

- بل يعادي نفسه ويبطل أعماله، ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

التعاليم:

١ - الكفر هو منشأ الظلم للنفس والأنبياء والمجتمع كله، ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا... وَشَاقُوا﴾.

٢ - يتم الله الحجّة على الناس، جميعاً، بإرسال الأنبياء وإظهار الحق وتبيينه للناس، ﴿...مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾.

٣ - الكفر والعصيان، الصادران عن العصاة والكافرين، لا يصل منهما إلى الله شيء ولا يضرّانه في شيء، ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾.

٤ - العناد، بعد وضوح الحق، من أسباب حبط الأعمال الحسنة وإبطال آثارها، ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا ءَعْمَالَكُمْ﴾

إشارات:

□ ورد في القرآن والحديث ذكر أسباب عدّة تؤدي إلى إبطال العمل، ومن هذه الأسباب:

١ - المَن والأذى للفقراء بعد أو مع الصدقة عليهم: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^(١).

٢ - إساءة الأدب في العلاقة مع النبي ﷺ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ... أَنْ تَحْبَطَ ءَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

٣ - العجب والحسد، فقد ورد في الدعاء: «إلهي عبدي لك ولا تفسد عبادتي بالعجب»^(٣)، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^(٤).

٤ - الشرك: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٥).

٥ - الرياء الذي هو درجة من درجات الشرك: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ ءَأْمُولَهُمْ رِيءَاءَ النَّاسِ﴾^(٦).

□ وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة... فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثيرا! قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقونها»^(٧).

□ في معنى عبارة: «لا تبطلوا أعمالكم» احتمالات ثلاثة، وذلك بالنظر إلى صدر الآية، وهذه الاحتمالات هي:

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤. | (٥) سورة الزمر: الآية ٦٥. |
| (٢) سورة الحجرات: الآية ٢. | (٦) سورة النساء: الآية ٣٨. |
| (٣) دعاء مكارم الأخلاق. | (٧) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٥. |
| (٤) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٦. | |

- أ - حافظوا على إيمانكم ولا تتحولوا إلى الشرك، فذهب أعمالكم سدى؛ لأن الشرك يحبط الأعمال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(١).
- ب - لا تركوا طاعة رسول الله ﷺ فتبطل أعمالكم.
- ج - لا تمتوا على النبي ﷺ أعمالكم وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - على الرغم من أن المخاطب بالقرآن كله هو المؤمنون، فإن إظهار توجيه الخطاب إليهم في بعض الآيات قد يكون المراد منه بيان التقدير الإلهي للمؤمنين، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.
- ٢ - لا بد من مراعاة قدر الأشخاص ورتبهم عند الحديث معهم أو عنهم، ويستفاد هذا المعنى من تقديم ذكر الله على ذكر رسوله، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.
- ٣ - للإيمان لوازم ومرتبات، أهمها طاعة الله والرسول، واتباع ما يأمران به، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.
- ٤ - الأوامر والقوانين الدينية بعضها صادر عن الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، وبعضها صادر عن النبي ﷺ: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ولكل من هذين الصنفين خصائصه، ومنها خصوصية الثبات وهي في الأحكام الإلهية غالباً، ومنها خصوصية التبديل بحسب الظروف والأوضاع، وهي صفة موجودة في كثير من الأحكام التي تصدر عن رسول الله ﷺ بصفته الحاكم والقائد للمجتمع الإسلامي.
- ٥ - النبي ﷺ معصوم، تجب طاعته من دون أي قيد أو حدود، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن يغتر المؤمن بكثرة أعماله، فقد يأتي بما يحبط هذه الأعمال ويبطل آثارها، ﴿...الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَالَهُمْ﴾.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٧.

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

إشارات:

- عندما ندقق في موضع هذه الآية نجدها بين آيتين تخاطبان المؤمنين، وهذا يشير إلى إمكانية التحول من الإيمان إلى الكفر، وهو خطر كبير وسوء عاقبة، ليس هناك ما هو أسوأ منه.
- على الرغم من الوعد الإلهي بالمغفرة الشاملة، إلا أنه توجد بعض الاستثناءات، وأهمها استثناء الشرك والكفر والموت عليهما، فقد ورد في بعض الآيات الوعيد بعدم المغفرة والتوبة في هاتين الحالتين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الكفر من الأسباب التي تؤدي إلى بطلان الأعمال التي أتى بها الإنسان في فترة إيمانه، ﴿وَلَا يُبْطَلُونَ أَعْمَالَهُمْ... الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٢ - المهم هو الحالة التي يكون الإنسان عليها عند مغادرة الدنيا، وذلك بأن يموت الإنسان على الإيمان، ﴿...كَفَرُوا... ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.
- ٣ - الكفر ومعادنة الحق من الأفعال التي تترك أثرها وتصد الناس عن الإيمان والعمل الصالح، ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - باب المغفرة والتوبة مفتوح إلى اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان وقبل أن تبدو عليه أمارات الموت، ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾

إشارات:

- «يتركم» من الوتر بمعنى النقصان.

□ سؤال: يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾^(١) وفي هذه الآية يذم الدعوة إلى السلم فيقول: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ فكيف يمكن التوفيق بين الآيتين؟

الجواب: كل آية تنظر إلى جهة خاصة وتحدث عن بعد من الأبعاد فالآية التي تنهى عن الدعوة إلى السلم تنهى عن الدعوة إلى ذلك إن كان منشأها الوهن والجبن، فهذا ما يتمناه العدو ويرغب فيه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَدِينُ قَوْمَهُمْ﴾^(٢)، وأما عندما يكون ذلك من باب الرحمة فلا مانع منه بل هو أمر مطلوب.

□ المراد من المعية بين الله والمؤمنين ليس المعية العامة له سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣)، بل المعية الخاصة التي يتوقر عليها المؤمنون المجاهدون والتي ينالون بموجبها النصر والعزة والرعاية الإلهية الدائمة. وقد ورد هذا المعنى في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

□ قد يطرأ الشك وعدم التصديق على أذهان بعض المسلمين عندما يقول الله لهم: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ وذلك عندما ينظرون إلى قلة عددهم وعتادهم، ولذلك يتبع الله ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾^(٥).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للمؤمن أن يهن أو يضعف، ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾.
- ٢ - صلابة الجبهة الداخلية من شروط النصر الأساسية، ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾.
- ٣ - لا ينبغي أن يبادر المؤمنون إلى اقتراح الهدنة والسلام، ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، وأما إذا كان الاقتراح من الجبهة المعادية، ورأى ولي الأمر المصلحة في السلام، فإن له الاستجابة، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة القلم: الآية ٩.

(٥) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير.

(٣) سورة الحديد: الآية ٤.

- ٤ - من الواجب رفع الحالة المعنوية للمسلمين وتذكيرهم بأهميتهم وعلو مقامهم، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.
- ٥ - النصره والعون من الله من الأمور المقارنة لحركة المسلمين المجاهدين، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾.
- ٦ - الله هو الضامن لثواب المجاهدين، ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾

إشارات:

- اللعب من الأفعال ذات الدوافع الواهية، واللهو من الأعمال التي تتوفر على دوافع عقلانية.
- نهت الآية السابقة عن مهادنة الكفار وإظهار الضعف والتردد في مواجهتهم وهذه الآية تتحدث عن الدنيا واللعب واللهو، وكأنّ فيها تعليلاً وبياناً لأسباب الضعف ألا وهو التعلق بالدنيا وزينتها.
- يوسف عليه السلام كان في عين أبيه الولد العزيز، وفي عين إخوته الأخ المنافس، وفي عين القافلة التي انتشلته من البئر عبداً، وفي عين زليخا عشيقاً، وفي عين المساجين مفسر أحلام. والدنيا كذلك تختلف النظرة إليها من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى، فهي، في أعين أكثر الناس، ساحة للعب واللهو، وفي عيون المؤمنين مدرسة للاعتبار ومعرفة الله، وكل ما فيها آية من آيات الله، وسوق للمتاجرة مع الله، ومزرعة للأخرة واكتساب الفضائل.
- لم يخلق الله شيئاً للعب واللهو، وإنما خلقه لحكمة وغاية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾^(١)؛ ولكن المشكلة هي مشكلة الإنسان الذي يسيء التصرف في خلق الله، ولا يحسن استغلاله.

التعاليم:

- ١ - الاستسلام للدنيا والركون إليها من أسباب الضعف الذي يظهر على المؤمنين بين فترة وأخرى، ﴿فَلَا تَهْتُوا... إِنَّمَا لِلْيَوْمِ الدُّنْيَا﴾.
- ٢ - الدنيا لعب ولهو وفاقة لأي قيمة، عندما تتجرد من التقوى، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.
- ٣ - التقوى من آثار الإيمان، ومرحلة أعلى منه، ﴿...وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.
- ٤ - الإيمان والتقوى هما اللذان يعطيان الدنيا معناها وقيمتها، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.
- ٥ - لا تنافي بين الإيمان والتقوى وبين الغنى والثروة، ﴿تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا... وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.
- ٦ - الأمر بالإنفاق، والإطعام، والزكاة، والخمس، والصدقة وغيرها من العبادات المالية، يهدف إلى رشدنا وتطورنا الروحي والمعنوي، وليس هو الله أجراً لهديته إيانا، ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَضْغَانُكُمْ﴾

إشارات:

- «يحفكم» من الإحفاء بمعنى الإصرار على الطلب والسؤال. و«الأضغان» جمع «ضغن» وهو الحقد.
- بعض الناس يحبّ الدنيا ويتعلق بها إلى حد يدعوهم إلى الحقد على الله، عندما يطلب منه أن يتنازل عن شيء منها.

التعاليم:

- ١ - تظهر الخصال والطباع الإنسانية عند التعامل مع الأوامر الإلهية، ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾.

٢ - البخل والتعلق بالدنيا من الأمور المذمومة التي يتقدمها الله، ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِتِغْلُوهَا﴾.

٣ - الله سبحانه لا يكلفنا ما لا نطيق ولا يوقعنا في الحرج والمشقة، ﴿فِيْخْفِئْكُمْ﴾. والقوانين والتشريعات الإلهية متناسبة مع الاستعداد والقدرة الإنسانية. ونحن بدورنا، عندما نحاول سنّ بعض القوانين، يجب أن نراعي قدرات المواطنين الذين سوف تطبق عليهم هذه القوانين.

٤ - صدق المودة يُكتشف في المواقف التي يظهر فيها البخل والكرم، ﴿وَيُخْرِجْ أَصْفَانَكُمْ﴾.

﴿هَاتَتْهُ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾

إشارات:

□ سؤال: أخبرنا الله في الآية السابقة أنه لا يسألنا أموالنا، وفي هذه الآية يدعونا إلى الإنفاق وبنهانا عن البخل؛ فكيف يمكن الجمع بين الآيتين؟

الجواب: وجه الجمع بين الآيتين هو: أن الله عندما يطلب منا المال لا يطلبه له أو لأنبيائه في مقابل الهداية والإرشاد، ولكنه يأمرنا بالإنفاق على الفقراء والمحتاجين في المجتمع، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، ورفع التفاوت الطبقي، ورفع الغبن عن بعض الفئات الاجتماعية، وبالتالي تخفيف الاحتقان الناتج عن التفاوت في الأوضاع الاقتصادية، وذلك كله يصب في مصلحة الإنسان نفسه، فمن يبخل بماله إنما يضر نفسه ولا يضر الله. وبكلمة مختصرة: إن الله لا يسألنا ولا يريد أموالنا، وإنما يأمرنا بإنفاقها على إخواننا في الدين والإنسانية.

□ في الرواية عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق

سلمان الفارسي فقال: هم هذا وذووه، ثم قال: لو كان الدين في الثريا لناله رجال من أبناء فارس^(١).

□ تتم عملية التربية من خلال المرور في مراحل، هي:

- أ - التحذير، ﴿هَكَأَنْتُمْ﴾.
- ب - الدعوة، ﴿تُدْعَوْنَ﴾.
- ج - التوجيه والاستدلال، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾.
- د - التكرار والحسم، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.
- هـ - إتمام الحجّة والتهديد، ﴿وَلِئَلَّ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ...﴾.

التعاليم:

- ١ - قبل الشروع في التبليغ والدعوة لا بد من لفت نظر المدعو وتنبهه، ﴿هَكَأَنْتُمْ هُنَّوَلَاءُ﴾.
- ٢ - على الإنسان أن ينفق من أمواله قبل موته، ولا يبخل بها فيتركها للورثة لينفقوا منها هم، ﴿لِيُنْفِقُوا﴾.
- ٣ - ما يدعو الله إليه ليس هو العمل كيفما كان، بل العمل الخالص لوجه الله، والمقصود به وجهه، ﴿لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - يجب دعوة الناس إلى الإنفاق من أموالهم على من يستحقّ ومن هو بحاجة إليها، ولكن يجب أن يترك لهم الاختيار ولا يجبروا على ذلك، ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾.
- ٥ - قد يحسب البخيل أنه حرم من لم يأخذ من ماله؛ ولكن الحقيقة أن المحروم الأول هو البخيل نفسه، لأنه بخل على نفسه وحرّمها من رحمة الله ومحبتة ومن القرب منه سبحانه، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾.

(١) ذُكرت هذه الرواية في أكثر من كتاب من كتب التفسير ومن ذلك: مجمع البيان، الميزان في تفسير القرآن، التفسير الكبير، روح المعاني، وتفسير شبر، ونمونه.

- ٦ - البخل صفة نفسية لا ترتبط بالغنى والفقير، فرب غني يبخل وفقير ليس كذلك والعكس، ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾.
- ٧ - الدعوة إلى الإنفاق لا تدل على حاجة الله بل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾.
- ٨ - ينبغي الوضوح مع الناس عند دعوتهم إلى الخير، وإثارة إحساسهم بأن ما يُدْعَوْنَ إليه إنما هو في مصلحتهم كي لا يقعوا في الغرور، ﴿تُدْعَوْنَ لِئُنْفِقُوا... وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾.
- ٩ - في التبليغ والدعوة إلى الله لا ينبغي تملق الناس، على حساب الأحكام والتشريعات الإلهية، ﴿تُدْعَوْنَ لِئُنْفِقُوا... وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ﴾.
- ١٠ - أحكام الله سبحانه سوف تجد من يعمل بها، حتى لو أعرض عنها بعض الناس، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.
- ١١ - ليس التاريخ وحده يحتوي على العبرة، بل التأمل في المستقبل يلفت نظر الإنسان إلى بعض ما ينبغي أن يلتفت إليه، ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.
- ١٢ - ترك الإنفاق في سبيل الله من المعاصي الخطيرة التي ربما تؤدي بمستقبل أمة من الأمم أو نظام من الأنظمة، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ﴾.
- ١٣ - التهديد من الأساليب المساعدة في بعض الحالات، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ﴾.
- ١٤ - لا تخلو الأرض من بشر صالحين مستعدين للالتزام بالأحكام الإلهية، ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.
- ١٥ - المهم والأساس، في حسابات الله، هو وجود بشر مطيعين، وليس وجودي ووجودك، أو وجود هذه الأمة أو تلك، ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (وبقاء دين الله وشريعته لا يتوقف على قوم أو جماعة محددة).

«والحمد لله رب العالمين»

سُورَةُ الْفَتْحِ

السورة: ٤٨ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٢٩

ملاحح سورة الفتح

تتألف هذه السورة من تسع وعشرين آية. نزلت هذه السورة في السنة السادسة للهجرة، بعد صلح الحديبية، في المدينة المنورة. أهم القضايا التي تتحدث عنها هذه السورة هي البشارة بفتح مكة، وما يرتبط بصلح الحديبية، وبيعة الرضوان، والإشارة إلى المنافقين والمتخلفين عن الجهاد، وتختتم أخيراً بالحديث عن الخصائص التي يتصف بها النبي الأكرم ﷺ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَبِّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ في المراد من الفتح في مطلع السورة احتمالات عدة واختلاف بين المفسرين، فمنهم من يرى أن المراد هو صلح الحديبية، ومن أصحاب هذا الرأي: الألوسي، وأبو الفتوح الرازي، والعلامة الطباطبائي، والفيض الكاشاني. ومن المفسرين من يرى أن الفتح هو فتح مكة، ومن هؤلاء: الشيخ الطوسي، والزمخشري، والفخر الرازي. وكل من الطرفين يستند إلى بعض الروايات الواردة حول السورة.

وتكمن أهمية صلح الحديبية في تمهيدته لفتح مكة والانتصارات اللاحقة التي ترتبت عليه. ومن جهة ثانية كانت الفكرة الوحيدة التي تدور في رؤوس المشركين هي القضاء على الإسلام والمسلمين. وتوقيع الصلح مع النبي ﷺ كان بمثابة اعتراف بالمكانة الاجتماعية والسياسية للإسلام، وبالتالي قضاء على هذه الفكرة وانتزاعاً لها من رؤوسهم.

□ ووصف الفتح بأنه مبين من جهة تضخم عدد المسلمين، ففي السنة السادسة للهجرة، أي وقت الصلح كان عدد المشاركين مع النبي ﷺ ألفاً وأربعمئة مقاتل، وأما عند فتح مكة فقد ارتفع العدد إلى عشرة آلاف رجل.

□ في نظام الهداية الإلهي لا محل للإبهام والغموض، فكل ما يتعلّق بالدعوة واضح ومبين، ومن ذلك:

- الرسول رسول مبين، ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾^(١).

- والقرآن قرآن مبين، ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

(٢) سورة الحجر: الآية ١.

(١) سورة الدخان: الآية ١٣.

- واللغة التي يخاطب بها العباد لغة مبينة، ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيثٌ مُّيْتٌ﴾^(١).
- الإنذار والتحذير أيضاً كذلك، ﴿نَذِيرٌ مُّيْتٌ﴾^(٢).
- بل حتى النصر والسلم مبيين، ﴿تَمَامًا مُّيْتًا﴾.

وعلى ضوء ذلك من يعص الله ورسوله يكن في الجهة المقابلة للهداية بشكل واضح وبيّن، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾^(٣).

□ توجه هذه الآيات الخطاب إلى رسول الله ﷺ، حيث يقول الله سبحانه له: ﴿مَتَحًّا لَكَ... لِيَغْفَرَ لَكَ... ذَلِكَ... وَيَتَّعِبُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ... وَيُنصِرَكَ﴾. وهذا الخطاب من المؤشرات الدالة على كرامة النبي ﷺ وعلو مكانته عند الله سبحانه.

□ الـ «ذنب» في أصل اللغة من الذنب أو الذيل، وهو أحد أعضاء الحيوان، يكون في مؤخرة البدن، يحمله أو يجزّره خلفه. واستعير للتعبير عن التبعات التي يحملها الإنسان خلفه نتيجة بعض أعماله.

ولا شك في أنّ مسيرة الحق ترتب على صاحبها أعباء وتبعات عند المعارضين، وبالتالي هذه الأعمال التي يقوم بها صاحب الحق هي ذنوب في نظر المعارضين، أو على الأقلّ يحتملونه مسؤولية ما يقوم به. وورد في الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام: «لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمئة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى شيء عجاب. فلما فتح الله تعالى على نبيّه ﷺ [بشره الله بمغفرة هذه الذنوب عند أهل مكّة سواء في ذلك] ما تقدّم وما تأخر؛ لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكّة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه، إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفوراً بظهوره عليهم»^(٤).

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٤) نور الثقلين، ج٤، ص ٤٤٣.

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٤.

□ أمر الله بتحويل القبلة إلى الكعبة في السنة الثانية للهجرة. وجرت وقائع صلح الحديبية في السنة السادسة، وفتح مكة في السنة الثامنة. يَعِدُ اللهُ سبحانه في هذه الآية بإتمام النعمة فيقول: ﴿وَأُتِيَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾. وفي حجة الوداع تتم هذه النعمة ويكتمل الدين بإعلان ولاية أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، وهو ما تشير إليه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(١).

قصة صلح الحديبية

عزم رسول الله ﷺ على الحج في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة. وقد شجع المسلمين على مشاركته في هذا السفر، فاجتمع له منهم ما يقرب من ألف وأربعمئة شخص، فأحرموا وتوجهوا إلى مكة. وصل الخبر إلى مسامع المشركين من أهل مكة، فقطعوا على المسلمين الطريق في مكان يعرف بـ «الحديبية» ومنعوه من متابعة السير إلى مكة. ولما رأى أحد المشركين تعلق المسلمين برسول الله ﷺ ومحبتهم له وتبركهم بماء وضوئه، أيقن أن المواجهة مع المسلمين صعبة، وإبعاد المسلمين عن قائدهم يقرب من المستحيلات.

وكان النبي ﷺ قد أوفد عثمان إلى مكة للتفاوض، فسرى خبر بين الناس أنهم قتلوه، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن بدأ بالاستعداد للقتال، فعبأ جيشه وأخذ منهم البيعة تحت شجرة، فعرفت تلك البيعة ببيعة الرضوان.

وبعد أيام رجع عثمان سفير رسول الله ﷺ إلى المسلمين حاملاً اقتراح معاهدة صلح بين الطرفين، فدونت معاهدة الصلح بحضور ممثلي الطرفين، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام المعاهدة، وجرى توقيعها، ومما جاء في بنودها: أن يحل المسلمون حيث هم ويضحوا ويحلقوا رؤوسهم، على أن يعودوا إلى العمرة في العام القادم.

وعلى الرغم من أن المسلمين لم يؤدوا مناسكهم في مكة، إلا أن قضية الصلح والاتفاق على هدنة إلى عشر سنوات، يتمكن المسلمون في خلالها من

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

الحج والعمرة، كانت نصراً مؤزرًا للمسلمين، وذلك أنها سدّت أبواب الحرب والعدوان في وجه المشركين، وفتحت أبواب الدعوة على مصراعَيْها، وبالتالي مهّدت لفتح مكة بعد مدة لم تكن طويلة.

التعاليم:

- ١ - لا ينحصر الوصول إلى النصر بالحرب والقتال، فربما تنتصر الأمم بوسائل أخرى كالمعاهدات مثلاً، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا...﴾، فقد سمى الله صلح الحديبية أو فتح مكة بالفتح المبين أي النصر الواضح.
- ٢ - على المؤمن أن يلتفت إلى أنّ الله حاضر وراء كل توفيق أو نصر يحصل عليه، وليس جهداً وذاكاً ونا وقدراتنا الذاتية، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا...﴾.
- ٣ - اهتمام الله سبحانه بالنبي ﷺ وعنايته الخاصة به، ﴿فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ لَكَ... وَيُنَزِّلَ عَلَيْكَ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ... وَيَهْدِيكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٥ - النصر على الأعداء ليس هو الهدف الأخير وغاية المنى، بل وراء النصر نعم أخرى تعقبه، ﴿فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ... وَيُنَزِّلَ عَلَيْكَ...﴾.
- ٦ - عندما نعمل من أجل الله سبحانه، يتولى الله الأعداء بالنيابة عنا وبلغني كل محاولاتهم للتشويش علينا، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.
- ٧ - كل الناس بحاجة إلى الهداية الإلهية إلى الصراط المستقيم؛ حتى النبي الأكرم ﷺ، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.
- ٨ - ما يقدمه الله لعباده هو الأفضل دائماً، والأعظم، النصر المبين، والنعمة التامة، والهداية إلى الصراط المستقيم وإلى غير ذلك: ﴿...فَتَحْنَا لَكَ... وَيُنَزِّلَ عَلَيْكَ... وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا... نَصْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُودٌ سَمُودٌ﴾

وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

إشارات:

□ السكينة من السكون والاطمئنان، وهي حالة من الاستقرار النفسي يمنّ الله بها

على بعض عباده في بعض حالاتهم، فترتب عليها آثار ونتائج مهمة، منها: عدم الخوف من اللوم، التوكل، عدم الأسى على ما يفوت، عدم الفرح بما ينال، تساوي حالتي الغنى والفقر عنده، والشهرة وضدها...

□ الرعب والسكينة من الله سبحانه، فكما أنه يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب على حد قوله سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١)، فكذلك هو الذي يلقي في قلوب المؤمنين السكينة ويظلمهم بها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

التعاليم:

١ - السكينة الروحية من الألفاظ الإلهية، ومن هنا لا يمكن لأي من الناس أن يهب هذه الحالة لأحد منهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾.

٢ - تلقي اللطف الإلهي يحتاج إلى استعداد وأهلية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ - محل السكينة والاطمئنان هو القلب، والوسيلة إليه هي ذكر الله سبحانه، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويقول سبحانه عن الذكر: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

٤ - الإيمان مفهوم له درجات ومراتب، وهو يقبل الزيادة والنقص، ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا﴾.

٥ - يحتاج الإنسان إلى درجة من درجات الإيمان ليصل إلى السكينة، وبعد أن يحصل على السكينة، يترقى في درجات الإيمان وترتفع رتبته، ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾.

٦ - من الوسائل والطرق لاكتساب السكينة الالتفات إلى جنود الله في السماء والأرض، ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ... وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥١.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

- ٧ - الوجود كله مجتد بين يدي الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٨ - الألفاظ الإلهية تصيب من تصيب وفق قواعد العلم والحكمة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ^٤ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- كلمة «فوز» في القرآن عندما تقترن بصفات على غرار: كبير، ومبين، وعظيم، تدلّ على السعادة ونيل الخير.
- أشارت الآيتان، الأولى والثانية، إلى نعم أنعم الله بها على نبيه ﷺ، وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى مجموعة من النعم أنعم بها سبحانه على المؤمنين.
- ونعم النبي ﷺ هي: النصر المبين، والمغفرة، وإتمام النعمة، وهدايته ونصرته في ظل الفتح المبين. أما النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين، فهي: السكينة، وزيادة الإيمان، ودخول الجنة، ومغفرة السيئات^(١).
- الجنة محل للطهارة، لا مجال فيه للخبث المادي أو المعنوي. ومن هنا، فإن الله يكفر عن المؤمنين سيئاتهم ثم يدخلهم جنته. وربما يكون المراد من التكفير في الآية أنه سبحانه ينسيهم معاصيهم وذنوبهم كي لا يكدر ذكرهم إياها خاطرهم وهم في الجنة يحبرون.

التعاليم:

- ١ - السكينة والاطمئنان من أسباب زيادة الإيمان ومن المقدمات التي تفضي إلى دخول الجنة، ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ... لِيُزَادُوا إِيمَانًا... يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾.

٢ - دخول الجنة نعمة إلهية تشمل المؤمنين والمؤمنات معاً وعلى حد سواء، ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ (وعلى الرغم من أن الفتح يتم على أيدي الرجال، فإن المرأة شريكة في هذا الفتح، على الأقل برضاها بمشاركة الرجل القريب منها زوجاً أو أباً أو ابناً).

٣ - الإيمان لا يعني العصمة من الوقوع في الخطأ والمعصية، ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُكْفِرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

٤ - يستحق المؤمنون دخول الجنة بإغضاء الله عن سيئاتهم وتكفيرها لهم، وليس بأعمالهم، ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُكْفِرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

٥ - السعادة والفوز الحقيقي هما الجمع بين السكينة في الدنيا والجنة في الآخرة، ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ... لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ... وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّ السُّوءَ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةً السُّوءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- «دائرة السوء»: أي ما يحيط بهم كالدائرة من الحوادث المرة في العاقبة^(١).
- بعد أن عرضت الآيات السابقة للنعمة الإلهية على النبي ﷺ، وعلى المؤمنين، تشير هذه الآية إلى تهديد الله الموجه إلى المنافقين والمشركين.
- ذكر المنافق في هذه الآية قبل المشرك، ولعل في ذلك إشارة إلى أن النفاق والمنافق أقبح من الشرك والمشرك.
- ورد في الرواية عن العالم من أهل البيت عليه السلام: «... والله تعالى لا يعذب عبداً

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة: سوا.

بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنه وتقصيره في رجائه لله ﷻ... ثم تلا هذه الآية^(١).

□ عبارة «الله جنود السموات والأرض» وردت في آية سابقة في سياق بيان اللطف الإلهي، وفي هذه الآية في سياق التهديد والوعيد. وذيلت الآية السابقة بوصف الله نفسه بالعليم الحكيم، وهذه الآية ذيلها الله سبحانه بوصف نفسه بالعزيم الحكيم. ولعل المراد أن الله يعلم أفعال المؤمنين وأحوالهم وإخلاصهم وضعفهم في بعض الحالات وعندما يغفر لهم لا يغفر لهم لجهله بحالهم. وأما العزة الإلهية فيراد منها القول للمنافقين والمشركين إن كل جبروتكم سوف يزول وسوف يعاملكم الله بعزته التي لا تضام، ولكنه في الحالين حكيم، يغفر عن علم وحكمة، ويعاقب بعزة وحكمة أيضاً.

التعاليم:

- ١ - من المناسب الجمع بين الترغيب والترهيب في سياق واحد، فيوجه التهديد إلى من يستحق ويحث على الخير من يتوقع منه الخير، وربما كان ذلك من أجل اكتمال المشهد ووضوح الصورة، ﴿لِيَذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ... وَيُعَذِّبَ الْمُتَّفِقِينَ﴾.
- ٢ - قد تكون حادثة واحدة نعمة على جماعة من الناس ونقمة على جماعة أخرى منهم؛ فتحاً وفوزاً للمؤمنين وعذاباً على غيرهم، ﴿لِيَغْفِرَ... لِيَذِلَّ... وَيُعَذِّبَ﴾.
- ٣ - النساء كالرجال على حد سواء في اكتساب الفضائل أو الرذائل، ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُعَذِّبَ الْمُتَّفِقِينَ وَالْمُتَّفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.
- ٤ - سوء الظن بالله من صفات المنافقين والمشركين، وأما المؤمنون فإنهم يحسنون الظن به سبحانه ويتوكلون عليه، ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الطَّائِفَاتِ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا﴾.
- ٥ - المنافقون والمشركون في الشيطنة والانحراف شركاء على خط واحد، ﴿...الطَّائِفَاتِ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا﴾.

- ٦ - المؤمن بسبب إيمانه مطمئن متصف بسكينة القلب، وأما المنافق والمشرك فهما، بسبب انحرافهما عن الحق وضلالهما، سيئا الظن بالله يعيشان في حالة اضطراب يحيط بهما من كل مكان، ﴿دَائِرَةُ السَّوْرِ﴾.
- ٧ - المنافق والمشرك في الدنيا والآخرة محرومان من رحمة الله سبحانه، ﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.
- ٨ - أفعال الله سبحانه تجري عبر الأسباب والوسائط، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٩ - لله سبحانه جنود وأدوات كثيرة يسخرها لجريان لطفه كما لجريان غضبه ونقمته، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودٌ...﴾.
- ١٠ - استعراض القدرة الإلهية ينفع لحمل الناس على الإيمان ولزوم التقوى، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَمْسِلًا ﴿٩﴾

إشارات:

- التعزير في اللغة المنع، وفي هذه الآية يراد منه الحفظ والحماية من كل ما يسوء.
- من المعاني التي ربما تكون مرادة من كلمة «شاهد» في الآية النموذج الأكمل والأتم، فعندما يوصف النبي ﷺ بأنه شاهد، معناه أنه نموذج وقودة، وبكلمة مختصرة: إنسان كامل.
- العبارتان: «تعزروه» و«توقروه» قد يكون المراد من الضمير فيهما الله سبحانه، وقد يكون النبي ﷺ، وعلى أي حال تكريم الله واحترامه يكون باحترام النبي.

التعاليم:

- ١ - النبي ﷺ شاهد على أعمالنا ومطلع على تصرفاتنا، ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾.

- ٢ - من الوظائف الموكلة إلى النبي ﷺ مراقبة العباد والشهادة على أعمالهم، والإنذار والبشارة، ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. ومن الواجبات الملقاة على عاتق الناس الدفاع عن النبي ﷺ وعن حياض التشريع الإلهي وحدود الله، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.
- ٣ - من القواعد المهمة في التربية الجمع بين الترغيب والترهيب (البشارة والإنذار)، ﴿شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.
- ٤ - البشارة والإنذار، والتحذير والحث، من الحاجات الضرورية للإنسان والتي يتوقف عليها اختيارنا الطريق الصحيح، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.
- ٥ - حماية حياض الدين والدفاع عن رسول الله من لوازم الإيمان، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾.
- ٦ - لا بد من أن يقترن الدفاع عن رسول الله بالاحترام، ومن أن يكون نابعاً من المحبة له، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾.
- ٧ - على الإنسان أن يبقى في حالة ذكر دائمة لله، وأفضل الأوقات للذكر والدعاء هي الصباح والمساء، ﴿رَسَّيْحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِيكُ بِيَايَعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَنكُفُّ عَنَّا ۚ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْنَا ۗ اللَّهُ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِهِ عَظِيمًا﴾ ﴿١٠﴾

إشارات:

□ قيل سميت البيعة بهذا الاسم لأنها عقدت على بيع أنفسهم بالجنة، للزومهم في الحرب والنصرة. وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنهم بايعوا النبي ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة على عدم الفرار والقتال بين يديه إلى حدود الموت.

□ في الآية عبارتان في حق الأوفياء من الناس، وذلك من باب الاهتمام والاحترام، وهاتان العبارتان هما: ﴿بِيَايَعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، و﴿فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِهِ عَظِيمًا﴾. وأما مع الخائنين فقد أشارت إليهم الآية مرة واحدة بقوله تعالى: ﴿يَنكُفُّ عَنَّا نَفْسِهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - العلاقة بالنبِيِّ ﷺ والدفاع عنه ينبغي أن يكونا دائمين وفي كل حال وليس في أوقات دون أخرى وبشكل موسمي، ﴿وَتَعَزَّزُوا وَتَوَقَّرُوا... إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾. والمعنى المشار إليه يستفاد من التعبير بالمضارع الذي يدلّ على الاستمرار.
- ٢ - لا تنافي بين أخذ البيعة من الناس وبين التوكّل على الله وتوحيده، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾.
- ٣ - إنما يحقّق النبيّ ﷺ ويفعل ما يريد الله ويرغب فيه، ولا يقدم النبيّ ﷺ على فعل ليس لله فيه رضاً، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾.
- ٤ - بيعة النبيّ ﷺ هي في الحقيقة بيعة مع الله، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾.
- ٥ - على قائد المسلمين أن يجدد التأكيد على وفاء الناس والتزامهم مرّة بعد أخرى، وذلك لأن القرائن الموجودة في الآية تدلّ على أن هذه البيعة لم تكن البيعة الأولى، وما ورد في الروايات حول نزول الآية يدلّ على هذا المعنى^(١).
- ٦ - يترتّب على الدفاع عن رسول الله أن يدافع الله عن الإنسان ويتولّى حمايته، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.
- ٧ - لا ينبغي أن يغترّ القائد بحماية الناس إياه والتفافهم حوله، فقدرة الله أبقى من أي شيء آخر، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.
- ٨ - ليس الله في حاجة إلى حماية أحد أو دفاعه؛ وعليه يجب على الخائن وناكث العهد أن يلتفت إلى أن الضرر والخسران يرتدان عليه وقدرة الله فوق قدرته، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ﴾.
- ٩ - نقض العهد ونكثه هو نكث على النفس قبل أن يكون إخلالاً بالميثاق مع الطرف الآخر، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

١٠ - من الأمور المجدية والمفيدة في مقام الدعوة والإرشاد، بيان عاقبة المحسنين والمسيئين، ﴿فَمَنْ تَكَثَّرَ... وَمَنْ أَوْفَى...﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مِمَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «الأعراب» هم الذين يسكنون البوادي فراراً من الحضارة والثقافة والالتزامات المدنية. ولا شك في أنه لا يراد من هذه الكلمة المعنى المقابل للسكن في المدن، بل تطلق هذه الكلمة على الجماعات التي كانت بعيدة عن الحضارة والثقافة وكانت تقف موقف العداء من رسول الله ﷺ.

□ من يتهربون من الجهاد يحاولون تبرير فرارهم بأشكال مختلفة ورد كثير منها في القرآن الكريم:

- فمرة يتعللون بشدة الحر، ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾^(١).

- وأخرى يجعلون عذرهم العجز عن مواجهة العدو لكثرة عدده، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾^(٢).

- وثالثة يتخذون من مواقع بيوتهم وأوضاعها حجة للفرار، ﴿إِنَّ يَبُوتَنَا عَوْرَةً﴾^(٣).

- ورابعة يظهرون الخوف من الافتتان بنساء العدو إن هم خرجوا إلى قتاله، ﴿وَلَا تَفِيئُوا﴾^(٤).

- وخامسة يتعللون بالانشغال بالأموال والأولاد والعيال، ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ١٣.

(٤) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(١) سورة التوبة: الآية ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

□ يغطي الفارون من الجهاد الخوف بالاحتياط، والحرص والطمع بالسعي لتأمين المستقبل، وضعف النفس بالحياء، والفشل بالزهد، والضعف بالقضاء والقدر الإلهيين والرضا بإرادة الله.

التعاليم:

- ١ - من العوامل المساعدة على ترك الجهاد التخلف الثقافي والانحطاط الفكري، ﴿الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾.
- ٢ - على القائد أن يستشرف المستقبل ويتوقع مواقف المحيطين به من منافقين وغيرهم، ليقدم الجواب المناسب في الوقت المناسب، ﴿سَيَقُولُ... قُلْ﴾.
- ٣ - كل من يخالف ويتخلف يحاول تبرير فعله ولو بأعذار واهية، ﴿سَخَّطْنَا أَمْوَالَنَا﴾.
- ٤ - الاهتمام بالأهل والولد والأموال والأوضاع الاقتصادية تشغل الإنسان عن واجباته الدينية والاجتماعية ومنها الجهاد، ﴿سَخَّطْنَا أَمْوَالَنَا﴾.
- ٥ - التخلف عن الجهاد معصية، ﴿فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.
- ٦ - دعاء النبي ﷺ واستغفاره لغيره من الناس مؤثر ومجد، والناس يتوقعون من الله أن يقبله، ولذلك يطلبون منه ﷺ الاستغفار والدعاء لهم، ﴿فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.
- ٧ - في بعض الأحيان من المناسب كشف بعض الأمور المستورة وفضحها، ﴿يَقُولُونَ بِالَّذِينَ هُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
- ٨ - الفرار من الجهاد لا يحمي الأموال والأرواح، ﴿فَمَنْ يَتَّكِلْ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾.
- ٩ - الدفاع عن الدين من الواجبات التي تسقط بالخوف من الضرر، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾.
- ١٠ - يبدو أن المنافقين والذين يفرون من الجهاد لا يعلمون أن الله مطلع على ما يضمرون في قلوبهم، وربما لو آمنوا بسعة علم الله لما فعلوا ما فعلوه، ﴿بَلْ كَانِ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّرَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا
السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- «بور» من البوار، وهو فرط الكساد، يؤدي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد. عبّر بالبوار عن الهلاك، يقال بار الشيء بوراً.
- الإنسان بفطرته الصافية الخالصة ينفر من الأعمال القبيحة، ولا يقدم عليها إلا بعد تزيين الشيطان إياها في عينيه.
- يبدو أن الفارين من الجهاد في عصر النبي ﷺ كانوا يظنون أن المسلمين سوف يقضى عليهم ولن يبقى منهم إلا القليل، ولذلك فإنهم خلعوا جلباب الحياء وأظهروا كثيراً مما كانوا يخشون ظهوره من بخل وجبن وغير ذلك من الصفات السيئة التي يتصفون بها.

التعاليم:

- ١ - يعلم الله ما يدور في خلد الناس وما يضمرون في صدورهم. وهو كثيراً ما يستر عليهم، ولكنه في بعض الحالات يكشف المستور، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾.
- ٢ - كثير من التحليلات والحسابات التي يجريها الإنسان لا تطابق الواقع ولا تكون كما كان يتوقع، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾.
- ٣ - يرتفع منسوب سوء الظن عند الإنسان في بعض الحالات، حتى يقارب اليقين، ويودي بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه من مواقف ما كان له أن يتخذها لو دقق في حساباته التي بناها على الظن، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾.
- ٤ - الخوف من الهزيمة من الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الفرار من الجهاد، ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾.
- ٥ - الاهتمام بالأسرة، إلى حدود تتجاوز المعقول، يتحول إلى عائق عن الجهاد، وداع من دواعي الفرار منه، ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ... إِلَىٰ آلِهِمْ أَبَدًا﴾.

- ٦ - قد يبالغ الإنسان في بعض الحالات في محبة أسرته وأبنائه إلى حد يدعو إلى التضحية برضا الله والرسول، من دون أن يشعر أنه يتصرف بشكل غير مناسب؛ بل يحسب ذلك هو الصواب والفعل الحسن، ﴿وَرُزِيَكَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.
- ٧ - سوء الظنّ والحسابات الخاطئة تؤدي إلى بوار قلب الإنسان وخراب شخصيته، ﴿وَلَقَدْ نُنِتَ لَكَ أَتَوْهُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.
- ٨ - معصية رسول الله ومخالفة أوامره من المؤشرات على عدم صدق الإيمان، ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

إشارات:

□ في الموارد التي يخبرنا فيها الله سبحانه عن أنه «يعفو لمن يشاء ويعذب من يشاء» يكون المراد منها، بعد الاعتقاد بعديل الله وحكمته، أن يرى الإنسان نفسه أهلاً للمغفرة في الموارد التي هي محلّ للمغفرة والرحمة، وأهلاً للعقاب والعذاب في الموارد المناسبة لذلك.

التعاليم:

- ١ - من بيده المغفرة والعفو هو صاحب القدرة المطلقة، ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ... يُعْفِرُ﴾.
- ٢ - لطف الله يغلب قهره وغضبه، ﴿يُعْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾. يستفاد هذا المعنى من تقدّم المغفرة على العذاب.
- ٣ - لا بد من التوأمة بين الخوف والرجاء، والأمل والخشية، ﴿يُعْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾.
- ٤ - باب التوبة مفتوح في وجوه العباد على الدوام، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
- ٥ - في الوقت الذي يصلح الله للإنسان ماضيه، هو قادر برحمته على أن يصلح مستقبله بالوعد المتجدد بالمغفرة الدائمة، ﴿يُعْفِرُ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

٦ - مغفرة الله سبحانه تنشأ من رحمته وليس من حاجته إلى المغفرة، ﴿عَفْوًا رَجِيمًا﴾.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَأْخُذُهَا دَرُونا نَنبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥)

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية أن بعض المتخلفين عن الحديدية أرادوا اللحاق بالمسلمين في خيبر فقرر النبي ﷺ أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديدية دون غيره، فأرادوا تغيير الأمر عما أراد فكشفهم الله بنزول الآية^(١).

□ الآيتان ١٢ و ١٣ تؤكدان أن سبب ترك الجهاد في الحديدية هو سوء الظن بالله وضعف الإيمان. وقد حاول هؤلاء الأشخاص الإصرار على المشاركة في خيبر لينفوا التهمة عنهم، وليثبتوا عدم انطباق الآيتين عليهم.

التعاليم:

- ١ - على أهل القرار أن يرفعوا من الروح المعنوية للمؤمنين. والله في هذه الآية يعد المؤمنين بغنائم خيبر بعد ما أصابهم جلاء الحديدية وأحداثها، ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ﴾ بدل أن يقول: «انطلقتم إلى الجهاد».
- ٢ - بعض الناس انتهازيون يبحثون عن المغنم فيشاركون في أوقات الرخاء وفي حالات توقع المكاسب، ﴿مَغَائِرٍ لِنَأْخُذُهَا دَرُونا نَنبِعْكُمْ﴾.
- ٣ - يريد المتخلفون أن يبدلوا كلام الله ويحوروا مضمونه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - لا بد من تخصيص المجاهدين المخلصين ببعض الامتيازات التي لا ينالها الذين يقصرون في أداء واجباتهم، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

- ٥ - على الإنسان القيادي أن يقول ما يريد الله وينسب مضمون كلامه إلى الله، ﴿قُلْ... كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن يخشى الإنسان التهمة والتهديد، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَهَا﴾.
- ٧ - يغيّر العدوّ شعاراته وسلوكه بحسب الظروف والأوضاع المحيطة به. ففي بعض الحالات يريد تغيير كلام الله وتحريفه وعندما يعجز عن ذلك يغيّر موقعه ويتحوّل باتجاه المؤمنين ويتهمهم بالحسد، ﴿سَيَقُولُونَ... ذُرُونَا نُنَبِّئِكُمْ... فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَهَا﴾.
- ٨ - عندما يستبدّ الانحراف بالإنسان يعجز عن فهم موقعه وأسباب فشله، فبدل أن يعود إلى نفسه ليفتّش عن نقاط الضعف فيها، يخطئ التحليل فيرجع الفضل إلى حسد المؤمنين، ﴿بَلْ نَحْنُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.
- ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦)

التعاليم:

- ١ - ينبغي إبقاء باب الحوار مفتوحاً مع المخالفين والمعارضين، ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾.
- ٢ - الإخبار عن المستقبل من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ﴿سَدْعُونَ﴾.
- ٣ - لا ينبغي سدّ باب العودة في وجوه المختلفين على الرغم من تخلفهم؛ وذلك كي لا نخسرهم إلى الأبد، ﴿سَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾.
- ٤ - ينبغي أن لا نستهن بقدرات العدو، ﴿سَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.
- ٥ - على القائد أن يعدّ جيشه ويعرفه بنقاط قوّة العدوّ وضعفه؛ ليقاقل عن بصيرة ودراية ولا يفاجأ بقوّة عدوّه، ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن نغفل عن ذكر الحقّ حتّى في حقّ العدو، ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.
- ٧ - قوّة العدوّ القتاليّة ليست معيقة للإنسان عن أداء واجباته، ﴿أُولَى بَأْسٍ... تُقَاتِلُونَهُمْ﴾.

- ٨ - على المسلمين أن يضعوا نصب أعينهم دعوة العدو إلى الإسلام، ولو من خلال رصّ صفوفهم وتقوية بنيتهم الدفاعية، ﴿تَقْبَلُونَهُمْ أَوْ يَسْئَلُونَكُمْ﴾.
- ٩ - ساحة الجهاد وميدان الحرب من الساحات التي تظهر ما يخفيه الإنسان في باطنه من طاعة أو معصية، ﴿تُطِيعُوا... نَتَوَلَّوْا﴾.
- ١٠ - الإحسان وفعل الخير قد يجبر ماضي الإنسان ويصلح ما فات، ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ... فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾.
- ١١ - في التبليغ والدعوة إلى الله يجب تقديم البشارة على التهديد وإثارة الأمل قبل التخويف؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، قبل قوله: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.
- ١٢ - على الداعية إلى الله أن يقرن الترغيب بالترهيب، ﴿أَجْرًا حَسَنًا... عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- معيار الإعفاء من الجهاد الأمراض التي تعيق الإنسان عن الحركة والقدرة على القتال كالعمى والعرج، وليس طول القامة وقصرها، أو غير ذلك من الأمور الشكلية.
- على الرغم من أن بعض الناس معفون من الجهاد لعجزهم عن المشاركة في القتال، إلا أن هؤلاء يمكنهم المشاركة في الجهاد ولو بالنصيحة ونية الخير، كما ورد في الآية ٩١ من سورة التوبة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى... حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾.

التعاليم:

- ١ - على المقتن أن يلاحظ الحالات الخاصة والاستثناءات عند سنّه القوانين،

فيشير إلى الحالات الخاصة فيخرجها من دائرة القانون العام، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...﴾.

٢ - لا ينبغي أن يشعر المعاق بأي حرج بسبب عجزه عن القيام بواجبه، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾. وتجدر الإشارة إلى أن الآية تنفي كل أشكال الحرج، لأن كلمة «حرج» نكرة في سياق النفي وذلك من صيغ العموم كما يقال في علم الأصول والبلاغة.

٣ - التكاليف الإلهية تكون بحسب الطاقة والقدرة، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...﴾.

٤ - لا يمنع الله العاجزين عن القيام ببعض الواجبات من دخول الجنة شرط أن يطيعوا في ما هم قادرون على الطاعة فيه، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ... وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾.

٥ - النبي معصوم ولذلك يجب أن يطاع في كل ما يأمر به، وطاعته من طاعة الله، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٦ - المعيار الأساس في دخول الجنة هو الطاعة، على الرغم من أن الشفاعة تنفع وتساعد في تقريب الإنسان من الجنة وإبعاده عن النار، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ كانت العادة تقضي أن يتصافح المتبايعان بعد عقد البيع، ثم تحوّل ذلك إلى كل اتفاق، وصار يطلق اسم البيعة على التوافقات والعهود التي تتم بين القائد وبين الناس.

□ البيعة عهد شرعي يجب الوفاء به والالتزام بمضمونه.

□ لا تنافي بين البيعة وبين تعيين الرسول أو الإمام من الله سبحانه، فالبيعة إعلان للطاعة وليست تولية وتكليفاً بالقيادة.

□ الشجرة في الآية هي الشجرة التي جلس في ظلها النبي ﷺ لأخذ البيعة من المسلمين، ولنزول قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ سَمِيَتْ بِيَعَةِ الرضوان.

التعاليم:

- ١ - الإيمان الذي يرضاه الله ويريده هو الإيمان المقرون بالوفاء للرسول والثبات بين يديه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.
- ٢ - الدين والسياسة مترابطان، فالله سبحانه يرضى عن المؤمنين الذين يؤدّون واجباتهم تجاه الرسول فيبايعونه على مشاركته أهدافه الاجتماعية والسياسية وغيرها مما يتعلّق بالشأن العام، ﴿رَضِيَ اللَّهُ... إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.
- ٣ - من المناسب الإشارة إلى التفاصيل والجزئيات عند توثيق الأحداث التاريخية المهمة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.
- ٤ - يخصّ الله ببعض اللطافة من يعلم صدق نياتهم وإخلاصهم في الإيمان، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾.
- ٥ - السكينة هدية من الله يظلل بها قلوب المؤمنين، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾.
- ٦ - لا تنافي بين إخلاص النية وصدقها، وبين الحصول على المكاسب والمغانم، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ... وَمَعَانِدَهُ كَثِيرَةً﴾.
- ٧ - الوفاء لرسول الله من المقدمات التي تجعل الوفيّ أهلاً لتلقّي الفيض الإلهي، ﴿رَضِيَ اللَّهُ... فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَعَانِدَهُ كَثِيرَةً﴾.
- ٨ - النعم المعنوية أهم وأرفع شأناً من النعم المادية؛ ولذلك تقدّمت الإشارة إليها في الآية، ﴿...فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَعَانِدَهُ كَثِيرَةً﴾.
- ٩ - الحركة الواحدة إذا صدرت مقرونة بالإخلاص يتبعها من الله أضعافها، ﴿يُبَايِعُونَكَ... فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثْبَهُمْ... وَمَعَانِدَهُ كَثِيرَةً﴾.
- ١٠ - السكينة من مقدمات النصر والفوز، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾.
- ١١ - النصر لطف من الله وليس تابعاً لقدرات الإنسان نفسه بغضّ النظر عن إرادة الله ومشيئته، ﴿وَأَثْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾. ويجدر التذكير بأول السورة حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

١٢ - عندما يكون العمل فيما يرضي الله لا بدّ من توقع تحقّق وعود الله فهو الحكيم وهو القادر على إنجاز ما وعد، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾

إشارات:

□ وعد الله في الآيتين السابقتين الذين بايعوا النبي ﷺ بالفتح القريب. ويرى أكثر المفسّرين أنّ المراد بهذا الفتح هو فتح خيبر. ومن هؤلاء المفسرين: الطبري، والطوسي، والزمخشري، والمراغي، والطبرسي. وخيبر هو حصن من حصون اليهود يقع على بعد مئتي كليومتر تقريباً عن المدينة، وموقع الحصن في مرتفعات صعبة الوصول، محاطة بأراض زراعية. وكان يسكن الحصن وأطرافه ما يقرب من عشرة آلاف يهودي. ولهذا الحصن باب عجيب يروى أنه كان يحتاج إلى أربعين رجلاً لتحريكه.

وقد تحوّل الحصن إلى مقرّ ومأوى للمتربّصين بالإسلام، ولذلك عزم المسلمون على إسقاطه بعد شهر من صلح الحديبية. وقد أرسل النبي ﷺ عدداً من الحملات لفتح الحصن واقتحامه، يرأس كل واحدة منها واحد من الصحابة، فباءت جميعاً بالفشل، إلى أن قال في أحد الأيام: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه». وفي اليوم التالي عقد الراية لعليّ ﷺ.

□ الاهتداء إلى الصراط المستقيم من أعظم النعم الإلهية على الإنسان، ولذلك فإنه سبحانه يدعو الإنسان إليه ويندبه إلى طلب هذه الهداية منه سبحانه ليل نهار، في الصلاة وفي غيرها من الحالات، ولا يستثنى من هذه الدعوة أحد من عباده، فما هو سبحانه يصف النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١). ومع ذلك هو مأمور بطلب هذه الهداية في كل صلاة عند قراءة

(١) سورة يس: الآيتان ٣ و٤.

قوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من سورة الفاتحة. وإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ فإنَّ حال الإنسان العادي أدقُّ وأكثر حرجاً، وعلينا أن نلتفت إلى الخطر الدائم وهو خطر الانحراف عن هذا الصراط.

التعاليم:

- ١ - السيطرة على غنائم الحرب أمر مشروع ومجاز في قوانين الجهاد الإسلامي، ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.
- ٢ - التنمية الاقتصادية وتحسين الأحوال الاقتصادية للمسلمين من المواهب الإلهية والنعم التي يمنَّ بها الله على المسلمين، ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.
- ٣ - ما حصل عليه المسلمون من الغنائم في خيبر، وفي غيرها، ليس هو كل ما وعد الله سبحانه، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾.
- ٤ - العجلة مقبولة في بعض الأحيان، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾.
- ٥ - الغنائم تكون ذات منفعة ويأنس بها الإنسان عندما تكون مقرونة بالأمن، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾.
- ٦ - كف أيدي العدو وأذاه عن المسلمين من النعم الإلهية، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾.
- ٧ - على الإنسان أن لا يحكم على الأحداث المؤلمة، أو المفرحة، بحسب ظواهرها فقط وآثارها المباشرة عليه، بل عليه أن يراها مظهراً من مظاهر قدرة الله سبحانه وعلامة من علامات تدخله في حياة الإنسان، ﴿وَلَيْتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٨ - الغنيمة، والأمن، والهداية، هي الثواب الإلهي المعجل للمؤمنين، ﴿مَغَانِمَ... وَكَفَّ أَيْدِيَ... وَيَهْدِيَكُمْ﴾.
- ٩ - المال والثروة من المزالق التي يُخشى على الإنسان معها من الانحراف والسقوط. ومن مظاهر اللطف الإلهي بالإنسان اجتماع الثروة مع الهداية، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

١٠ - على الإنسان أن يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم دائماً، حتى بعد بيعة رسول الله والتشرف برضا الله عنه، ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ يحدثنا القرآن الكريم في مواضع عدّة عن الاقتران بين العسر واليسر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١)، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٢). فقد كانت السنوات الأولى بعد بعثة النبي ﷺ سنوات عذاب واتهام وتآمر على الإسلام والمسلمين. والسنوات الأولى بعد الهجرة كانت ملأى بالحروب والمعارك والجرحى والشهداء. وقد تحقق وعد الله باليسر في السنة الأخيرة من حياة النبي ﷺ، ويتجلى ذلك في الوعود والأخبار التي تتضمنها هذه السورة: ﴿فَتَنَّا مُيْنًا﴾، ﴿وَنَصْرًا لِّعِبَادِنَا﴾، ﴿وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِتْنًا قَرِيبًا﴾، ﴿مَقَانِدَ كَثِيرَةً﴾، ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

التعاليم:

١ - الوعد بالغنائم في المستقبل مبني على العلم والقدرة الإلهيين، ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

٢ - على الإنسان أن لا يحسب أن الحصول على الغنائم تابع لذكائه وقوته، بل هو نعمة وتدبير إلهي، ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

٣ - ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى نقاط ضعفه حتى وهو في حالات القوة وعندما يحالفه النجاح، فقد مرّ في الآيات السابقة، ﴿فَتَنَّا قَرِيبًا... مَقَانِدَ كَثِيرَةً﴾. وهنا يلفت الله نظر الإنسان إلى ضعفه، حيث يقول: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾.

٤ - يجب أن نشق بوعود الله ونحسن الظنّ به سبحانه، ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً... فَذَٰ أَحَاطَ اللَّهُ بِهِمْ﴾.

٥ - آيات القرآن مدرسة للتربية على التوكّل والتوحيد، ومدرسة للإنسان الموحد، ﴿وَعَدَّكُمْ... فَعَجَّلَ... كَفَّ... وَيَهْدِيكُمْ... أَحَاطَ اللَّهُ... وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

٦ - من يُظْمَنَ إلى وعده ويراهن عليه، هو القادر على الوفاء بالوعد، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢)

إشارات:

□ معنى الآية، بناء على ارتباطها بقضية صلح الحديبية، أنّ الإقدام على الصلح والرضا بمعاهدة العدو لم يكن سببه ضعفكم وعجزكم عن مواجهة عدوكم، بل كان لأسباب أخرى فيها مصالحكم، ولو لم تصالحوا وأقدم العدو على قتالكم لانتصرت عليه.

□ يوم القيامة يتضح أنّ الكافر ليس له وليّ ولا نصير حتى لو كان هو القوي بحسب الظاهر في الدنيا، والمؤمن على العكس تماماً يستند إلى ولاية الله ونصرته وهو حسبه، حتى لو بدا في الدنيا ضعيفاً قليل الحيلة. وهذا ما يشير إليه الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة بقوله: «ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟».

التعاليم:

١ - لقد قويت شوكة المسلمين بعد ضعفهم إلى حد يعجز العدو عنده عن مواجهتهم، ولذلك فهو يلوذ بالفرار عندما تحين ساعة اللقاء، ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ... لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ﴾.

٢ - من لم يكن الله ناصره فلا ناصر له، ﴿لَا يَحْدُوثَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ تشبه هذه الآية في معناها قوله تعالى في سورة المجادلة في الآية الحادية والعشرين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

□ التاريخ وما فيه من أحداث لا يسير بشكل عشوائي، وإنما هو خاضع للقوانين والسنن الإلهية، فالغنى والفقير، والعز والذل، والنصر والهزيمة، كل ذلك خاضع للسنن الإلهية. ومن السنن الإلهية انتصار الحق على الباطل ولو بعد حين.

التعاليم:

١ - الأحداث التاريخية لا تقع صدفة، بل تسير وفق قانون وخطه ونظام، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾.

٢ - قوانين الإنسان تابعة لتجاربه وأخطائه، وأما السنن الإلهية فهي فوق الزمان والمكان، ولذلك فهي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا﴾.

٣ - لا تفقد السنن الإلهية فعاليتها بمرور الزمان، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أن الآية تشير إلى صلح الحديبية، وذلك أن المشركين كانوا مستعدين لقتال المسلمين، والنبى ﷺ بدوره أخذ البيعة من أصحابه تحت الشجرة كما ورد في آية سابقة من هذه السورة؛ ولكن الأمور انتهت إلى توقيع الصلح، وهذا معنى كف أيدي كل من الطرفين عن الآخر.

□ تشير الآية إلى كفت الله أيدي المشركين عن المسلمين، وإلى كفت أيدي المسلمين عن المشركين أيضاً. وهذا الكفت من الطرفين كان نعمة إلهية؛ لسببين، أحدهما، أن الله حفظ قداسة الكعبة والمسجد الحرام ولم يسمح بإراقة الدم فيهما، والأمر الثاني هو نعمة الأمن لعشر سنوات فازداد عدد المسلمين واستطاعوا بعد سنتين أن يدخلوا مكة فاتحين. وهذا من نتائج الصلح وبركاته. ولو وقعت الحرب لكثر القتل بين المسلمين والمشركين، وأرقت الدماء في الحرم، ولترتب على ذلك كله آثار لا يعلمها إلا الله. وربما لهذه الأسباب جميعاً عدَّ الله «صلح الحديبية» «فتحاً».

التعاليم:

- ١ - من السنن الإلهية الحتمية التي لا تتغير ولا تبدل، لطف الله بالمؤمنين، ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.
- ٢ - النصر والتقدم وكل ما يصيبه الإنسان من خير هو بتدبير وإرادة إلهيين، ﴿وَهُوَ الَّذِي...﴾.
- ٣ - الأمن من أذى العدو، وخاصة عندما يكون الإنسان بين يديه وفي أرضه، من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان، ﴿يَطِّينَ مَكَّةَ﴾.
- ٤ - الصلح في بعض الحالات قد يكون من مؤشرات النصر والظفر وعلاماته، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمَ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)

إشارات:

□ «معكوفاً» أي محبوساً وممنوعاً. والهدي المعكوف أي المحبوس والموقوف للذبيح ضمن مراسم الحج ومناسكه. والشخص المعتكف هو الذي حبس نفسه في مكان مقدس لعبادة الله سبحانه.

- «المعرّة» الأمر القبيح المكروه، و«تزيّلوا» أي تميّزوا وانفصل بعضهم عن بعض، والمراد هنا امتياز المؤمنين عن المشركين.
- تشير هذه الآية إلى أحد أسباب الصلح وهو أنه كان بين المشركين عدد من المسلمين يؤدّون مناسك الحج، ولو أصرّ المسلمون على دخول مكّة بالقوّة لأصابوا شيئاً من دماء هؤلاء المسلمين لعدم معرفتهم بهم، فأراد الله أن يحفظ دماء هؤلاء المسلمين فأمر نبيّه بالصلح والمعاهدة.
- عن الإمام الحسن عليه السلام في تبرير قبوله بالصلح مع معاوية: «فإني تركته لصلاح الأمة وحقن دماؤها»^(١).

التعاليم:

- ١ - لم تكن موافقة المشركين على الصلح مؤشراً على تنازلهم عن معتقداتهم وشركهم، بل وافقوا عليه وهم كافرون مصرّون على الكفر والعناد، ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ... هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
- ٢ - للأضحية في الحجّ مكان محدد. وقد وجّه الله سبحانه اللوم إلى الكفّار لصدّهم المسلمين عن الوصول إلى حيث يذبحون الأضاحي، ﴿وَالَّذِي مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾.
- ٣ - على القيادة الإسلاميّة أن تبيّن أسباب اتخاذ القرار بالحرب والسلام، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ (الأوامر الإلهيّة كلها لها أسباب وغايات، وأمر الله بصلح الحديبية سببه الحفاظ على دماء المسلمين المجهولين).
- ٤ - تقديم الأهمّ على المهمّ من القواعد العقليّة والشرعيّة والعرفية، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ (وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى أنّ حفظ دماء المسلمين أهمّ من خوض الحرب مع المشركين حتى لو كانت احتمالات النصر متوقّرة كما في الآية السابقة).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٢٠٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٣٠.

- ٥ - دماء المسلمين محترمة، ولا فرق بين دم المرأة المسلمة والرجل المسلم، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.
- ٦ - الإنسان مسؤول عن الدماء حتى لو كان لا يعرف أنها دماء محترمة، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ... لَرَّ تَعَلُّوهُمْ﴾.
- ٧ - يريد الله سبحانه أن لا يصيب المسلمين أيّ أمر قبيح يؤاخذون عليه في الدنيا والآخرة، أو يعاب عليهم في الدنيا والآخرة كذلك، ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾.
- ٨ - على القيادة الإسلامية أن تدقق في قراراتها وتجيل الفكر في الآثار والنتائج التي يمكن أن تترتب على أي قرار تتخذه سواء في ذلك الحرب أم السلم، أو غيرهما من القرارات، ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ وذلك كي لا يقع المسلمون وقائدهم في خطأ غير مقصود.
- ٩ - لا ينبغي للمسلمين أن يعطوا العدو حجة ومستمسكاً يستفيد منه إعلامياً أو سياسياً، ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾. فلو دخل المسلمون مكة عنوة وقتل في الهجوم بعض المسلمين خطأ لاستغلّ المشركون هذه الدماء وشتموا على المسلمين أنهم عتاة قساة لا يرحمون حتى أبناء دينهم.
- ١٠ - في بعض الأحيان يكون الصلح وسيلة من وسائل الدعوة والتبليغ، أو على الأقل يفتح أبواب القلوب في وجه الدعوة الإسلامية، ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ١١ - الكفار مستحقون للعذاب والعقاب الإلهي، وإنّ العذاب سيصيبهم حتى في الدنيا عندما يمتازون عن المسلمين، ﴿لَوْ تَرَبَّلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾.
- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيَّةً حَمِيَّةً لِّبَنِيَّةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ «الحمية» في الأصل الحرارة، وتستعمل في هذا السياق للدلالة على التعصب

لأفكار الآباء والأجداد وعاداتهم والتمسك والتعصب مذموم عندما لا يكون مبنياً على المنطق والدليل، وإلا فإن التعصب للحق والإصرار عليه ممدوح مندوب إليه.

□ عندما دَوّنت بنود الصلح في الحديبية كتب الإمام علي عليه السلام في مطلع وثيقة الصلح جملة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فاعترض المشركون لأنهم رأوا أنّ البسملة شعار المسلمين وهم لا يوافقون عليه، وطالبوا أن يكتب عوضاً عنها «باسمك اللهم». ثم اعتراضوا على الإشارة إلى النبي صلى الله عليه وآله بعبارة: «محمد رسول الله»، وطالبوا بكتابة اسم النبي صلى الله عليه وآله دون وصفه بالرسالة. وفي الحالتين قبل النبي صلى الله عليه وآله اعتراضهم. وكان ذلك من أمارات التعصب والحمية عند المشركين، والاطمئنان والسكينة عند المسلمين.

□ يقع الإسلام على طرف النقيض والمواجهة لكل ما يمت إلى الجاهلية وآدابها وتقاليدما بصلة، ﴿ظَنَّ الْبَلْهَلِيَّةُ﴾^(١)، ﴿تَبَّحَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾^(٢)، و﴿حِيَمَةُ الْبَلْهَلِيَّةِ﴾.

□ القلب، في الاصطلاح القرآني، محل للعلاقة بين الإنسان والله، ومنبت للفضائل والرشد، ومن جهة أخرى محل للذائل والمفاسد:

الرشد المعنوي: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣)، ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، و﴿قَالَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾^(٥).

منبت الرذائل: ﴿سَنَلِقُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(٦)، ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾^(٧)، ﴿أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٨).

□ ورد في الحديث تفسير «كلمة التقوى» بالإيمان^(٩).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٤) سورة الفتح: الآية ٤.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٥١.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٠١.

(٨) سورة الزمر: الآية ٤٥.

(٩) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

- ١ - التعصب الجاهلي من الدوافع إلى صدّ المسلمين عن المسجد الحرام، ﴿مَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾.
- ٢ - من أساليب مواجهة التعصب وحمية الجاهلية السكينة والهدوء، ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.
- ٣ - تنمو المفاصد الأخلاقية في بيئة الكفر. والإيمان بالله سبحانه من موانع استبداد الغرائز السلبية، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ...﴾.
- ٤ - التعصب والثبات على الموقف من الصفات الحميدة عندما يكون مستنداً إلى المنطق والبرهان، وما يذمه الله ويدينه هو التعصب للجاهلية وقيمها، ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.
- ٥ - لا ينبغي مواجهة التصرفات السيئة بمثلها، ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.
- ٦ - لا يتخلى الله عن المؤمنين عندما يواجهون بالتعصب وحمية الجاهلية، بل يشاركونهم في مواجهة ما يوجه ضدهم، ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.
- ٧ - لا تتاح السكينة ولا يحصل عليها الإنسان بزيادة العديد والعدة، بل هي هبة إلهية يمن الله بها على من يشاء من عباده، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.
- ٨ - عندما يرى الله ورسوله أنّ الصلح في الحديبية أفضل من الحرب، على المؤمنين أن يلتزموا بذلك ويدعوا له، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.
- ٩ - التقوى تكتسب قيمتها من دوامها واستمرارها، وتفقد قيمتها عندما تكون موسمية وتابعة للظروف والأوضاع المتغيرة، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.
- ١٠ - يجب أن يتوقر الإنسان على الأهلية والاستعداد لتلقي اللطف الإلهي، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.
- ١١ - اتخاذ المواقف، واختيار الموقف المناسب منها، ينبغي أن يخضع لمعايير العلم والمعرفة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ ورد في كتب التاريخ أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أن المسلمين يدخلون المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلّقين رؤوسهم ومقصرين أظافرهم، بعد أداء مناسك العمرة. فأخبر المسلمين بما رأى فدخل عليهم السرور والغبطة بما سمعوا منه واستبشروا خيراً. ولم يطل المقام بهم في المدينة حتى عزموا على الحجّ، ولما وصلوا إلى مشارف مكّة سبقهم خبرهم إلى قريش، فقطعوا عليهم الطريق ومنعوه من متابعة السير عند الحديبية، وعزموا على قتالهم وقتلهم، فأخذ النبي ﷺ البيعة من أصحابه وعزم على الدفاع، ولكن الله أمره بعقد الصلح مع قريش لأسباب عدة أحدها: الحفاظ على دماء المسلمين المقيمين في مكّة كي لا يُقتلوا على أيدي المسلمين خطأً، فيكون ذلك باباً من أبواب التشنيع عليهم من قبل المشركين، ولغير ذلك من الأسباب. وكان ما أراد سبحانه. وترتبت على الصلح آثار حسنة جمّة ودخل كثير من الناس في الإسلام في الستين الأولى والثانية من الصلح.

ولكنهم، على أي حال، لم ينالوا ما كانوا يتوقعون من الحجّ، فأثار ذلك أسئلة في أذهان بعض المسلمين: لمّ لم يتحقّق ما رآه النبيّ في منامه؟! وكان جواب النبيّ هو التطمين وبتُّ الأمل بتحقيق هذا الحلم ولو لم يكن في سنتهم هذه. وعاد المسلمون إلى المدينة، وحجّوا في العام اللاحق وأخلى لهم المشركون المشاعر بحسب الاتفاق المعقود بين الطرفين، فحجّوا من دون أن يعكّر صفوهم كدر. ولكن لم تطل مدة وفاء المشركين بعهودهم، ونقضوا الصلح وصار المسلمون في حلّ منه، وفتحوا مكّة من دون أن يراق لأحد دم^(١).

□ الآيات: ١١، و١٥، و١٦ تبدأ باستشراق المستقبل، «سيقول»، «ستدعون».

وهذه الآية كذلك تستشرف المستقبل بالحديث عن الرؤيا التي رآها النبيّ ﷺ.

(١) انظر: تفسير نمونه، ج ٢٢، ص ١٠٢.

- «الفتح القريب» هو فتح مكة أو فتح خيبر، وربما يكون صلح الحديبية، لأنه في الواقع كان نصراً مؤزراً للمسلمين.
- في الرواية عن عليّ عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ قال: اللهم ارحم المحلّقين، فقيل: يا رسول الله والمقصرين؟ فقال: والمقصرين في الرابعة، فالحلق أفضل والتقصير يجزي، قال تعالى: ﴿...مُحَلِّقِينَ... وَمُقَصِّرِينَ...﴾ فبدأ بالحلق وهو أفضل»^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من أن تتحقّق رؤى الأنبياء وأحلامهم، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - دخول المسلمين إلى مكة من المغيّبات التي كشفها القرآن قبل تحقيقها، وهي مصداق من مصاديق إعجازه، ﴿لَتَنظُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.
- ٣ - على الرغم من أنّ الرؤيا كانت رؤيا صادقة من النبي ﷺ، إلا أنّ الإخبار عن المستقبل ينبغي أن يقترن بالتعليق على المشيئة الإلهية، ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - حلق الرأس وتقصير الشعر والأظافر من أعمال الحجّ والعمرة، ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ...﴾.
- ٥ - لا يكفي الأمن الظاهري لتحقيق السكينة والاطمئنان، بل يحتاج ذلك إلى تحقق الأمن الداخلي، ﴿مَأْمِنِينَ... لَا تَخَافُونَ﴾.
- ٦ - لا يعلم الإنسان كل الآثار والنتائج التي تترتب على أعماله؛ ولذلك عليه أن يطيع الله في ما يأمره وينهاه لتحقيق المصالح وتجنّب المفساد؛ فالمسلمون كانوا يرون الخير في دخول مكة للحجّ، ولكن المصلحة بحسب علم الله كانت في المهادنة والصلح، ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.
- ٧ - ربّ نصر يكمن في المهادنة والصلح، ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٦، ص ٣٠٢.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

إشارات:

□ تكرر الوعد الإلهي بالنصر للإسلام أكثر من مرة في القرآن الكريم. وربما كان المراد من ذلك غلبة الحجة والمنطق. وهذا ثابت للإسلام في كل زمان. وربما كان بانتشاره وإقبال الناس عليه. ولا مانع أن تدور الأيام لمصلحة الإسلام والمسلمين، كما كانت السيطرة على جزء كبير من العالم في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

□ نحن نعتقد أن المستقبل للإسلام، بحسب أحد الأسس الاعتقادية التي يؤمن بها المسلمون، وهي ظهور المهدي في آخر الزمان.

التعاليم:

- ١ - غلبة الحق على الباطل هدف وغاية، الله وحده هو القادر على تحقيقها، ﴿هُوَ الَّذِي﴾.
- ٢ - رمز نصر الإسلام الهداية الإلهية والانسجام مع ما يقتضيه الحق، ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾.
- ٣ - في الظروف الصعبة وأيام الشدة يجب إحياء الأمل بالمستقبل في نفوس الناس (ففي ظلّ سيطرة المشركين على مكّة وعجز المسلمين عن الدخول إليها للحج والعمرة، يبشّر الله المسلمين بالغلبة وظهور دينهم على الأديان كلّها)، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
- ٤ - الأديان القديمة كلّها كانت لفترة محددة من تاريخ الإنسانية، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
- يحدثنا القرآن في هذه الآية عن مستقبل البشرية القادم، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

٦ - قبول الناس وعدم قبولهم لا أهمية كبيرة له، وإنما المهم والأساس هو قبول الله وشهادته، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٧ - إذا كنتم تؤمنون بالله، فالواجب عليكم هو الثقة بتحقيق وعوده، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ «ركع» جمع راع. والركوع هو الانحناء المعروفة في الصلاة، و«سجد» جمع ساجد، وهو وضع الجبهة على الأرض تعظيماً، وهيئة الجمع هذه هي من صيغ المبالغة، يوصف بها كثيرو الركوع والسجود.

□ «سوق» جمع ساق، وهو جذع النباتات، والشطأ هو البرعم. «أزر» بمعنى عاضد وقوى. و«استغلظ» أي صار صلباً قاسياً.

□ الخطاب في أول السورة موجه إلى رسول الله ﷺ، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾؛ ومحور الحديث في آخر السورة هو رسول الله ﷺ أيضاً، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

□ في هذه الآية من السورة يحدد الله سبحانه ضوابط العلاقات للمؤمنين، على النحو الآتي:

- العلاقة مع الغريب مبنية على القوة، ﴿أَشِدَّاءُ﴾.

- العلاقة مع الداخل مبنية على التراحم، ﴿رُحَمَاءُ﴾.

- العلاقة مع الله أساسها العبودية له سبحانه، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

- قانون العلاقة مع الذات هو السعي وتعليق الأمل على فضل الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾.

- يحسن التدقيق في تشبيه مجتمع المؤمنين بالمزرعة والزراعة، لاكتشاف وجوه الشبه بين المشبه والمشبه به،
- أ - الزرع ينبع من باطن الأرض، والعقيدة تنبع من باطن الإنسان وتنعكس في سلوكه وظاهره.
- ب - الزراعة تحتاج إلى بيئة مناسبة، والمجتمع الإسلامي يحتاج إلى بيئة مناسبة ليتحقق ويتطور.
- ج - الزرع ينمو ويتطور شيئاً فشيئاً وبالتدرج، والمجتمع الإسلامي يبدأ بجماعة قليلة ثم يبدأ بالنمو والتطور.
- عند كتابة وثيقة الصلح أصرّ ممثل المشركين على محو لقب «رسول الله» عن اسم النبي ﷺ، وقد ألم ذلك قلب عليّ عليه السلام فامتنع عن محوه تأديباً، وكان الله أراد أن يرغم أنف المشركين، فأشار إلى رسول الله باسمه ولقبه، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾.
- أصحاب النبي يسعون للجمع بين الدنيا والآخرة. «الفضل» هو النعم المادية التي ينعم الله بها على المؤمنين، وال«رضوان» هو النعم المعنوية التي يمن الله بها عليهم. وربما كان معنى الآية أنّ المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ لا يقيمون وزناً لأعمالهم وتضحياتهم، وإنما يراهنون بعد كل ما يؤدون من عمل على فضل الله سبحانه.
- تشير هذه الآية إلى العلامات الظاهرة على المؤمنين والتي تدلّ على إيمانهم، وهي: الركوع، والسجود، والعلامة في الجبهة من أثر السجود: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي نُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾. وتشير أيضاً إلى ثبات العقيدة ورسوخها في باطن الإنسان، ﴿كَرِّعَ أَخْرَجَ سَطَكُهُ﴾.
- ورد في إنجيل متى: «وضرب لهم مثلاً آخر، قال: يشبه ملكوت السماوات ببذرة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله. فمع أنها أصغر البذور كلّها، فحين تنمو تصبح أكبر البقول جميعاً، ثم تصير شجرة، حتى إنّ طيور السماء تأتي وتبيت في أغصانها»^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: «هو السهر في الصلاة».

□ الإسلام دين جامع يشتمل على أبعاد عدّة؛ الشدّة مع الأعداء، والتراحم في العلاقات الاجتماعية الداخلية، وفي الجانب المعنوي كثرة الركوع والسجود.

التعاليم:

١ - الوعود الإلهية واضحة شفافة لا لبس فيها (الإسلام هو الدين الجامع الذي سوف ينتصر على الأديان كلّها، ونبيّ هذا الدين وحامل رسالته هو رسول الله صلى الله عليه وآله)، ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمَقْدُونِ... مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾.

٢ - عالميّة الدين الإسلامي تتوقّف على قائد إلهي وأصحاب مخلصين، ﴿لِيُطَهِّرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا... مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

٣ - من الأساليب الصالحة والمؤثّرة في التربية تقديم القدوة الصالحة والنموذج اللائق، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

٤ - الإيمان برسول الله ﴿آمَنُوا بِهِ﴾ هو الخطوة الأولى، والمهمّ هو ما بعدها من الخطوات، وهو السير على خطى الرسول والكون معه، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

٥ - على المؤمنين أن يجمعوا بين الشدّة والصلابة في التعاطي مع الأعداء، والتراحم والمودة والعطف مع الإخوان وفي العلاقات داخل المجتمع الإسلامي، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٦ - لا يسمح للمسلم بالحياد في العلاقات بل لا بدّ أن يختار لنفسه موقفاً وموقفاً، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٧ - المعيار في العلاقات والمودة والشدّة هو الإيمان والكفر، وليس القرابة ورابطة الدم، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٨ - عبادة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله هي سيرة ونمط حياة وليس عملاً موسميّاً في أوقات دون غيرها، ﴿تَرَبَّيْتُمْ زُرَّعًا سُجَّدًا﴾.

- ٩ - يجب أن تكون الصلاة في المجتمع الإسلامي ظاهرة تشاهد بوضوح، ﴿تَرْتَهُمْ﴾.
- ١٠ - الركوع والسجود من الأمور المحورية في الصلاة، ﴿رُكْعًا سُجَّدًا﴾.
- ١١ - العبادة الممدوحة عند الله هي العبادة المستمرة، ﴿رُكْعًا سُجَّدًا﴾.
- ١٢ - توجد في الإنجيل والتوراة موارد صحيحة سلمت من التحريف، ولذلك يستشهد القرآن بها، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.
- ١٣ - تشتمل الكتب السماوية السابقة على إخبارات عن الغيب، فيها هو القرآن يشير إلى حديث التوراة والإنجيل إلى أصحاب رسول الله، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.
- ١٤ - أمثال الكتب السماوية: طبيعية، عامة، قابلة للفهم من جميع الناس، وفي متناول أذهانهم وعقولهم، ﴿كَزَجِّجَ أَخْرَجَ...﴾.
- ١٥ - التطور الثابت والمستقر هو التطور التدريجي الطبيعي الذي لا طفرة فيه، ﴿كَزَجِّجَ أَخْرَجَ...﴾.
- ١٦ - المجتمع الإسلامي مجتمع مكتفٍ بنفسه، يعتمد على قدراته الذاتية، ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُرُوبِهِ﴾.
- ١٧ - السياسة والدين في الإسلام ليسا طرفي نقيض، بل بينهما تناغم وانسجام، فإلى جانب العبادة والصلاة لا بد من اتخاذ موقف من العدو يغيظه، ﴿رُكْعًا سُجَّدًا... يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.
- ١٨ - النمو الكمي والنوعي للمسلمين يغيظ الكفار ويزعجهم، ﴿رُكْعًا سُجَّدًا... يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.
- ١٩ - الركوع والسجود مع النبي لا يكفي وإن كان حسناً، بل لا بد من اتصاف أحوال الإنسان كلها بالإيمان والعمل الصالح، ليحصل الإنسان على الأجر الذي يطلبه ويرغب فيه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفَرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢٠ - الثواب الذي يناله المؤمن يصعب استيعابه وفهمه في الدنيا، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢١ - دفع الضرر والمفسدة أولى من جلب المصلحة والنفع؛ ولذلك ذُكرت المغفرة أولاً ثم ذُكر بعدها الأجر العظيم.

«والحمد لله رب العالمين»

سورة الحجرات

السورة: ٤٩ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ١٨

ملامح سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنية، وعدد آياتها ثماني عشرة آية.

«الحجرات» جمع حجرة. وسميت السورة بهذا الاسم لورود الإشارة إلى الحجرات ومناداة النبي ﷺ، من وراء الحجرات، في الآية الرابعة عشرة. ومن الأسماء التي تطلق على هذه السورة اسم سورة الآداب. وقد تعرضت لمجموعة من الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية المهمة منها:

١ - آداب التعامل مع النبي ﷺ، والنهي عن التقدم عليه ولو برفع الصوت بين يديه.

٢ - النهي عن السخرية، والتناوب بالألقاب، وسوء الظن، والغيبة، والتجسس.

٣ - تأسيس العلاقات الاجتماعية على قواعد: الأخوة، وإصلاح ذات البين، والتعبئة العامة لمواجهة البغي، والعدل في الحكم، والحذر من بثّ الشائعات الكاذبة.

٤ - تأسيس قاعدة تقويم الناس وتفاوت درجاتهم بحسب قربهم من الإيمان وبعدهم عن الكفر والفسق.

٥ - اتباع النبي ﷺ بناء على الرغبة والميل والحب، واجتناب المنّ عليه لجهة الالتزام بأحكام الإسلام.

وقد تكرر في هذه السورة، القصيرة نسبياً، توجيه الخطاب إلى الذين آمنوا، خمس مرّات، وهذا يكشف عن اهتمام الله سبحانه بالقضايا الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية، سواء في ذلك العلاقة بين المسلمين عامة، أو بينهم وبين قيادتهم وولاية الأمر فيهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَانفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ توجد في القرآن ثلاث سور هي: المائدة، والممتحنة، والحجرات، تشترك في حديثها عن قضايا الدولة والمجتمع، وفي افتتاحها بتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا. ففي مطلع سورة المائدة نقرأ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْوَدِ﴾، وفي افتتاح سورة الممتحنة، نجد: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وفي هذه السورة نلاحظ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

□ تريد هذه الآية أن تربي المؤمنين على أدب الملائكة، كما يصفهم الله بقوله: ﴿لَا يَسْخَرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَخْلَوْنَ﴾^(١).

□ لا تحدد هذه الآية الموارد التي لا يجوز التقدم فيها على الله ورسوله، وهذا يعني الإطلاق، وعدم جواز التقدم في شيء، سواء في ذلك قضايا الحرب والسلم، والاقتصاد والمجتمع، بل والقضايا الفردية التي قد تبدو من الخصوصيات.

□ ينهى الله في هذه الآية عن التقدم على الله ورسوله؛ لأن التقدم يؤدي إلى ظهور الخلل في المجتمع الإسلامي، وبالتالي يؤدي تجاوز الحدود التي وضعها الله، والحدود التي أخبر عنها النبي ﷺ، إلى تجاوز مصدر التشريع في الحالة الأولى، وتجاوز من له صلاحية التطبيق وإدارة المجتمع في الحالة الثانية.

□ يحول العمل بهذه الآية دون الوقوع في الكثير من الأخطاء والمشاكل، وذلك لأن التقدم والمصارعة إلى بعض الأعمال قد يكون في كثير من الحالات مستنداً إلى الرغبة والعجلة، أو مبنياً على الظن والحدس؛ وبالتالي يقدم الإنسان على بعض ما يندم عليه لاحقاً. وفي بعض الأحيان يكون التقدم مزايمة

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٧.

على الله ورسوله، مثلاً، كالانصراف إلى العبادة وترك الدنيا لأهلها، الأمر الذي لم يفعله النبي ﷺ، ولم يدعُ إليه، وبالتالي يصدق على مثل هؤلاء المثل المعروف: «ملكبون أكثر من الملك».

□ العمل بالتقاليد والآداب التي ليس لها أصل في كتاب الله أو في سنة رسوله، وليست مستندة إلى العقل والفطرة، هو تقدّم على الله ورسوله.

نماذج التقدّم وأمثله:

١ - قدّم بعض المسلمين أضياعهم يوم العيد قبل رسول الله ﷺ، فقيل لهم: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢ - بعث النبي ﷺ إلى جماعة من الكفار بعض أصحابه لدعوتهم إلى الإسلام، فعمدوا إلى رسل رسول الله فقتلوه، ولم يستطع إلا ثلاثة منهم الفرار والعودة سالمين؛ ولكنهم في طريق العودة مروا ببني عامر فقتلوا اثنين منهم انتقاماً لمن قُتل من أصحابهم على يد الكفار، فلما عادوا عاتبهم النبي ﷺ على فعلهم هذا وقتلهم من لا يستحقّ القتل^(١)، ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٣ - أتى وفد من بني تميم إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يختار لهم أميراً، فاقترح أبو بكر لهم واحداً، واقترح عمر آخر، فتشاجرا، وقال أبو بكر: إنما أردت خلافي، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ... لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾^(٢).

٤ - أمر الإمام ﷺ أحد الأشخاص بقراءة دعاء هو: «لا إله إلا الله... يحيي ويميت...»، فأضاف الرجل إليه ويميت ويحيي، فقال له الإمام: يا هذا، لا شك في أنّ الله يحيي ويميت ويحيي، ولكن قل كما أقول، ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾^(٣).

(١) الزمخشري، الكشاف.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٤٥.

(٣) الشيخ الصدوق، الخصال، ج ٢، ص ٦٢.

٥ - ورد في بعض الأخبار أنّ بعض أصحاب النبي ﷺ حلفوا على ترك بعض الأفعال، كالنوم في الليل، والأكل في النهار، ومعاشرة النساء، فخرج رسول الله ﷺ، ونادى الصلاة جامعة، وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات، ألا إني أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

٦ - لا خلاف بين المسلمين في أنّ النبي ﷺ أباح الزواج الموقت وشرّعه، ولكن لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب أعلن عن تحريمه ونهى عنه، وبالتالي وقع في ما تنهى عنه هذه الآية.

٧ - في السنة الثامنة للهجرة غادر المسلمون المدينة في شهر رمضان وسافروا نحو مكة، فاختار بعض المسلمين البقاء على صومهم وعدم الإفطار مع أنهم رأوا أن رسول الله ﷺ قد أفطر، لعدم صحة الصوم في السفر؛ وهذا شكل من أشكال التقدّم على رسول الله ﷺ.

التعاليم:

١ - قبل الشروع في الخطاب والأمر والنهي، لا بد من تهيئة الأجواء وإعداد المخاطب نفسياً، فذلك يساعد على وصول الرسالة المراد إيصالها إلى السامع. ومن هنا، فإن الآية تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفي ذلك تهيئة لنفوس المؤمنين وإظهار لاحترامهم، بالاعتراف بأنهم أهل للخطاب الإلهي.

٢ - لما كانت الرسالة المراد توجيهها إلى المؤمنين هي رسالة تتعلق بأداب التعامل مع النبي ﷺ، فإن الآية نفسها تحدثت بأدب مع المؤمنين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾.

٣ - تحريم ما أحلّ الله ورسوله، وتحليل ما حرّمه، تقدّم على الله ورسوله، ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾.

- ٤ - لا يُسمح لأي كان بتشريع قوانين إلى جانب القوانين التي شرعها الله ورسوله، وكل تشريع بدعة ينهى عنها القرآن، ﴿لَا تُقَدِّمُوا...﴾.
- ٥ - القرآن والسنة النبوية هما مصدرا التشريع الأساس، ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٦ - حكم رسول الله هو حكم الله، والإساءة الموجهة إلى رسول الله كأنها موجهة إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٧ - التقدّم على رسول الله قلّة تقوى، ﴿لَا تُقَدِّمُوا... وَأَتَّقُوا﴾.
- ٨ - أداء التكليف يقوم على ركنين أساسيين، هما: الإيمان والتقوى، ﴿ءَامِنُوا... وَأَتَّقُوا﴾.
- ٩ - يجب على المسلم أن يجمع بين الالتزام العملي، والتسليم الباطني، ﴿ءَامِنُوا...﴾.
- ١٠ - كل من يزايد على رسول الله ﷺ، أتباعاً للعادات والتقاليد، أو الطباع الخاصة، هو بعيد عن الإيمان والتقوى، ﴿لَا تُقَدِّمُوا... وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ١١ - لا يجوز لنا أن نبرّر تطرفنا ومزايدتنا على الله ورسوله، ﴿لَا تُقَدِّمُوا... إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- ١٢ - الإيمان بحضور الله واطلاعه على الغيب والشهادة من الأمور التي ترفع منسوب التقوى عند الإنسان، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ نهت الآية السابقة عن التقدّم على رسول الله والمزايدة عليه، وهذه الآية تنهى عن رفع الصوت بين يديه كما يجهر بعض الناس لبعضهم الآخر، وفي الآية ٦٣ من سورة النور نهي عن دعائه ومناداته كما ينادي بعض الناس بعضهم الآخر.

□ حفظ العمل أهم من العمل نفسه. فبعض الأعمال تولد باطللة كالأعمال التي تصدر عن الرياء أو تمتزج بالعجب، وبعض الأعمال تولد صحيحة لكن تبطل بسبب أعمال أخرى تطراً عليها. وربما كانت صعوبة الحفاظ على العمل سالماً هي التي جعلت الله يضاعف الثواب على العمل، ولا يثيب على الحسنة بالحسنة، بل على الحسنة بعشر أمثالها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة... فقال رجل من قریش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثيراً قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»^(٢).

□ يشير القرآن إلى سببين من أسباب حبط الأعمال، فمرة يقول إن الكفر والشرك هما سبب الحبط، ومرة أخرى يحذّر من أن إساءة الأدب مع الرسول هي سبب الحبط، ومن الملفت أن يكون أثر قلة الأدب مع الرسول هو عين أثر الكفر والشرك.

□ لما نزلت هذه الآية قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، وأنا من أهل النار. وكان ثابت رفيع الصوت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «هو من أهل الجنة»^(٣).

□ يستفاد من جملة: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أن بعض الأفعال لها آثار وضعية تترتب عليها سواء كان الإنسان قاصداً أم غير قاصد. ومثال ذلك أن تناول السم يقتل الإنسان من دون أي فرق بين العالم بأنه سم وغيره، وكذلك بعض الأفعال تترتب عليها آثارها الوضعية التكوينية، بغض النظر عن المعرفة بهذه الآثار أو عدمها، أو حتى ارتكاب الفعل عمداً أو صدوره خطأ دون عمد.

□ على الرغم من أن خصوصية النبي وعلو مقامه لهما أثرهما في الدعوة إلى عدم

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج ٩، ص ٢١٧.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٥.

رفع الصوت فوق صوته وبين يديه، فإنَّ القرآن يدعونا إلى الالتزام بأدب خفض الصوت في جميع الحالات ومع جميع الناس، كما في وصية لقمان لابنه: ﴿وَأَعِضْصُ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(١).

وقد أدى تطوُّر البشريَّة إلى تحوُّل مشكلة الصوت واحدة من مشاكل العيش في المدن في هذا العصر، تحت عنوان مشكلة التلوُّث الصوتي، حيث ترتفع الأصوات ويعلو الضجيج تحت عناوين مختلفة، فتارة تحت عنوان الاحتفالات في الأعراس، وأخرى في المواسم الرياضية، وثالثة باسم المساجد ومجالس العزاء، وفي جميع هذه الحالات يتضرر الناس ويخسرون راحتهم وأعصابهم.

نماذج من سوء الأدب مع الرسول:

أ - لما حضرت النبي ﷺ الوفاة واشتد به الوجع قال: اثنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، فقال النبي ﷺ: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع^(٢).

وعلى الرغم من أنَّ النبي لم يتسنَّ له أن يكتب ذلك الكتاب فإنَّ ما قاله في أكثر من مناسبة يدلُّ على ما كان يريد أن يكتب، فقد قال مراراً وتكراراً وفي أكثر من مناسبة وموقف، ونقل عنه المحدثون، قوله المشهور: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(٣).

ب- الإساءة الثانية إلى رسول الله حصلت عندما توفي الإمام الحسن عليه السلام، وأرادوا أن يدفنه قرب قبر جدِّه ﷺ، فتدخلت عائشة ومنعت من ذلك بحجة أنها لا تريد أن يدفن في بيتها من لا تحب، فلما ارتفعت الأصوات تدخل الإمام الحسين عليه السلام، وقرأ قوله ﷺ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾، وعليه فإنَّ احترام رسول الله واجب بعد موته، كما في حال حياته.

(١) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٣.

(٣) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٢٩٥.

المقدّسات في الإسلام:

□ كل الأمم والشعوب تحترم كبارها وتطلق أسماءهم على أهمّ مؤسساتها ومراكزها ومعالمها المهمّة، كالشوارع، والمدارس، والجامعات، والمطارات، وغير ذلك. والإسلام يشترك في هذه النقطة مع سائر الأمم؛ حيث إنّ عدداً من الأمور في الإسلام لها قداستها واحترامها، من البشر، إلى الأمكنة والجمادات.

ومصدر القداسة في الإسلام هو الله سبحانه، والأشياء تكتسب قداستها واحترامها بحسب درجة قربها من الله سبحانه، وعلينا أن نحفظ هذه القداسة ونؤدّي ما علينا تجاهها، والمقدّسات هي:

١ - الله سبحانه هو قدس الأقداس ومصدر القداسة كما تقدّم. وهذه الحقيقة التي قد تغيب عن المشركين في الدنيا، فإنّهم يوم القيامة سوف يعترفون بها ويكتشفون انحرافهم عن جادة الحقّ والصواب، ويعرفون أنّ مصدر شقائهم وتعاستهم هو في مساواتهم في القداسة وغيرها من الأمور بين الله وبين آلهتهم الموهومة: ﴿إِذْ نَسَوْتُمْ رَبِّكُمْ يَا آلِ كُفَيْتٍ﴾^(١). والقرآن مشحون بالآيات التي تدعو إلى تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، وليس الواجب هو تقديس الذات الإلهية وحدها بل اسم الله يجب أن يقُدّس ويسبّح: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٢).

٢ - كتاب الله سبحانه من المقدّسات التي يجب احترامها، ويدلّ على ذلك وصف الله القرآن بالعظيم^(٣). وعندما يكون القرآن عظيماً فعلياً تعظيمه والاعتراف بعظمته. وعندما يصفه الله بأنّه كريم^(٤) يجب علينا تكريمه. ولما كان القرآن مجيداً، علينا تمجيده^(٥).

٣ - أنبياء الله وخلفاؤهم بالحق، لهم علينا حقّ الاحترام والتقديس، ولا سيّما

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٥) سورة ق: الآية ١.

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٨.

(٢) سورة الأعلى: الآية ١.

(٣) سورة الحجر: الآية ٨٧.

رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، فهؤلاء جميعاً لهم مقامهم ودرجتهم عند الله تعالى. وتشتمل هذه السورة على بعض أشكال الاحترام المطلوب تجاه النبي ﷺ، مثل: عدم التقدّم عليه، عدم رفع الصوت بين يديه، وفي محلّ آخر يأمرنا الله بالصلاة على النبي ﷺ^(١).

ولا ينتهي وجوب احترام النبيّ بوفاته، بل الأدب معه ﷺ مطلوب حتى بعد وفاته كزيارته^(٢) وزيارة أوصيائه وذريّته، وكل من له صلة به، وخصوصاً العلماء الربانيين والفقهاء والمراجع العدول الذين وُصفوا في بعض الروايات بأنهم حجة الله والرادّ عليهم كالرادّ على الله: «... فإذا حكم بحكمك ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفت وعلينا ردّ، والراد علينا كالرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله...»^(٣).

ولا يقتصر الأمر على الأنبياء أنفسهم، بل تسري القداسة إلى ما يرتبط بهم، من أشياء، والمثال القرآني لهذا النوع من الأشياء التابوت الذي وضع فيه موسى ﷺ عندما ألقى في الماء، ثم وضعت فيه بقية مما ترك آل داود، فكانت الملائكة تحمله وكان سبباً لسكينة بني إسرائيل وانتصارهم على عدوّهم كما يحكي لنا القرآن الكريم^(٤).

٤ - الأبوان في الإسلام لهما مكانة خاصة يجب احترامهما من أجلها وقد دعانا الله سبحانه في القرآن وفي غيره إلى احترام الأبوين والتواضع لهما، بل قرن شكرهما بشكره^(٥). ومما يكشف عن رفعة مقام الأبوين أن الإسلام يعتبر

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) صنفت كتب كثيرة في الزيارة والتبرّك، ونشير هنا إلى أحدهما وهو كتاب: تبرّك الصحابة، لآية الله أحمددي ميانجي، الذي جمع فيه المؤلف مئات الروايات الدالة على تبرّك الصحابة برسول الله ﷺ في حياته وبعد وفاته.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢٦٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٣؛ سورة النساء: الآية ٣٦؛ سورة الأنعام: الآية ١٥١؛ سورة الإسراء: الآية ٢٣؛ وأخيراً سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٥) سورة لقمان: الآية ١٤.

النظر إليهما برحمة عبادة، ويحرّم السفر المؤذي لهما ويوجب الفقهاء الصلاة تماماً فيه لأنه سفر معصية.

٥ - وتتسع دائرة القداسة والتعظيم في الإسلام إلى بعض الأزمنة كليلة القدر، وبعض الأمكنة كالمساجد، وبعض الحجارة كالحجر الأسود، وبعض المياه كماء زمزم، وبعض التراب كتراب الإمام الحسين عليه السلام. وفي القرآن الكريم دعوة الله موسى عليه السلام إلى خلع النعلين عند دخوله إلى أحد الأودية، ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(١). والمسجد الحرام له احترامه ومكانته التي توجب تنزيهه عن الشرك والمشرّكين، ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾^(٢) ويدعوننا الله إلى التزيّن في أماكن العبادة، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٣)، كما ويحرّم دخول الجُنُب إلى المساجد والمكث فيها، بقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِينَ﴾^(٤).

وقداسة المسجد واحترامه من الأمور المسلّمة في الإسلام؛ وما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿طَهَّرْنَا بَيْتَكَ﴾^(٥) موجّهاً الخطاب إلى زكريّا ومريم عليهما السلام، بل إن مريم نفسها نذرت قبل ولادتها برجاء أن تلدّ ذكراً أن تكّرّس المولود لخدمة المسجد الأقصى، كما يخبرنا الله بقوله على لسان أمّها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾^(٦).

٦ - والإنسان المؤمن له قداسته واحترامه وكرامته الممنوحة من الله تعالى، وقد ورد في بعض الأخبار أن المؤمن أكرم من الكعبة. ومما ينسجم أو يدلّ على قداسة المؤمن ووجوب احترامه وتعظيمه مجموعة من التشريعات الإسلاميّة كتحرّيم غيبته، وإيذائه، ووجوب الدفاع عنه وعن حقوقه، وتحرّيم نبش قبره بعد وفاته وغير ذلك.

التعاليم:

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| (١) سورة طه: الآية ١٢. | (٤) سورة النساء: الآية ٤٣. |
| (٢) سورة التوبة: الآية ٢٨. | (٥) سورة البقرة: الآية ١٢٥. |
| (٣) سورة الأعراف: الآية ٣١. | (٦) سورة آل عمران: الآية ٣٥. |

١ - أحسن الأساليب لدعوة الناس وتعليمهم الأدب أن نخاطبهم بأدب واحترام؛ ولذلك نجد أن الله يخاطب المؤمنين في مطلع هذه الآية بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ وفي ذلك احترام لهم واعتراف بشخصيتهم.

٢ - لا مانع من الدعوة إلى الأدب مع النفس، ولكن الدعوة إلى احترام الذات على لسان الآخرين أقوى وقعاً في النفوس، ولذلك فإن الله لم يوح إلى رسول قوله: ﴿لا ترفعوا صوتكم فوق صوتي﴾، بل قال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾.

٣ - احترام من يستحق الاحترام يترك أثره على أعمال الإنسان، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا ترفعوا... أن تحبط أعمالكم﴾.

٤ - في بعض الحالات قد يجني الإنسان على نفسه، ولو من دون أن يشعر، ﴿تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

- الغض النقصان من الطرف والصوت، أي خفض الصوت وعدم التحديق وإمعان النظر إلى غير المحارم: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾^(١).
- إذا كان الأدب في الكلام مطلوباً، فإن الأدب في السلوك مطلوب بدرجة أولى.
- الهدوء في الكلام من علامات الأدب والوقار.
- يخبرنا الله في هذه الآية عن امتحان قلوب الناس بهذه التكاليف، وذلك أن بعض الناس قد يبالغ في إظهار الأدب والاحترام وهو أبعد ما يكون عنه، فليس المطلوب هو غض الصوت في الظاهر فحسب، بل يجب أن يكون ذلك نابعاً من الاحترام القلبي.

□ يوصف الثواب الإلهي في كثير من الحالات بأوصاف من قبيل: «كريم»، «عظيم»، «كبير»، «غير ممنون»، وسبب ذلك أنه يستند إلى إرادة الله ولطفه الذي لا حد له.

الأدب في الكلام:

تشير هذه الآية إلى الأدب في الخطاب مع النبي ﷺ وفي القرآن الكريم توصيات عدّة لها صلة بما يجب أن يكون عليه الكلام، سواء في أدائه أو في مضمونه، ومن ذلك:

- ١ - أن يكون صادقاً ومطابقاً للواقع، ﴿بَيِّنًا بَيِّنًا﴾^(١).
- ٢ - أن يكون طيباً حسن الوقع في النفوس، ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(٢).
- ٣ - أن يكون بليغاً ومؤثراً، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٣).
- ٤ - أن يكون لينا، ﴿قَوْلًا لِينًا﴾^(٤).
- ٥ - أن يكون كريماً، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٥).
- ٦ - وأن يتصف باليسر والسهولة، ﴿قَوْلًا مَيْسُورًا﴾^(٦).
- ٧ - لا يجوز أن يشتمل الكلام على اللغو والباطل، ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٧)، ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(٨).
- ٨ - وأخيراً، وليس آخرأ، يجب أن يتطابق القول مع الفعل، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾^(٩).

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٨.

(٢) سورة الحج: الآية ٣٠.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣.

(٤) سورة الصف: الآية ٢.

(١) سورة النمل: الآية ٢٢.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٣.

(٤) سورة طه: الآية ٤٤.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

التعاليم:

١ - لا بدّ من مراعاة التوازن بين المخطئ والمحسن، بلوم الأول وذمه ومدح المحسن والثناء عليه، ففي الآية السابقة يحدثنا الله عن المسيئين إلى رسول الله ﷺ، وفي هذه الآية يشير إلى المؤدبين ويشني عليهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفُضُّونَ... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ...﴾.

٢ - الأدب المرحلي والموسمي لا يكشف بالضرورة عن التقوى، بل لا بد من استمراره، ﴿يَفُضُّونَ أَمْوَالَهُمْ﴾، (الفعل المضارع يدلّ على التكرار والاستمرار).

٣ - كلما اجتمعت المغفرة مع الأجر في القرآن الكريم في جملة واحدة، تقدّمت المغفرة على الأجر؛ وذلك لأنّ الطهارة من الذنوب مقدّمة لتلقّي اللطف الإلهي، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٤ - ليست العصمة من المعصية من لوازم الإيمان، فربّما يقع المؤمن في المعصية نتيجة ضعف أو إغراء، أو غير ذلك، إلا أنّ المؤمن سرعان ما يعود إلى الله فيغفر الله له، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ يهتمّ الإسلام بالآداب الاجتماعية. ومن هنا، خصّص الله سورة من سور القرآن للحديث عن الآداب، وهي هذه السورة التي تعرف بسورة «الآداب».

□ على الرغم من أنّ النبي ﷺ لم يعد بيننا وبالتالي لا تنطبق هذه الآية علينا في هذا العصر، فإنّ الدرس الذي تحتويه درس خالد صالح لكل مكان وزمان؛ ولذلك ينقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام قوله: ما أتيت عالماً قط،

فاستأذنت عليه، ولكن صبرت حتى يخرج إليّ، تأوّلت قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾^(١).

□ كانت للنبيّ مجموعة من الغرف حول المسجد على عدد زوجاته، لكل واحدة منهنّ غرفتها الخاصة بها، وكانت على درجة عالية من البساطة والبعد عن التكلّف في الزينة أو غيرها. وقد بقيت هذه الغرف قائمة إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، حيث خرّبها وضّمّها إلى المسجد لتوسعته. وليتها بقيت حتى عصرنا هذا ليعرف الناس معنى الزهد وبساطة العيش.

□ عن عليّ عليه السلام قوله: «لا عقل لمن لا أدب له»^(٢).

التعاليم:

- ١ - قلة الأدب تكشف عادةً عن قلة العقل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.
- ٢ - يستحقّ الذين يسيئون الأدب مع القادة الإلهيين كالأنبياء التوبيخ والتأنيب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.
- ٣ - للبيوت والأسر حرمتها، فلا ينبغي إزعاج الناس في بيوتهم حتّى بمناداتهم من خارج البيوت، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.
- ٤ - ينبغي التمييز بين من يرفعون أصواتهم بمقتضى العادة والطبع، وبين من يرفعون أصواتهم كمؤشّر على قلة الأدب، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.
- ٥ - علينا أن نحترم برامج الناس وطريقة إدارتهم لأوقاتهم. فالنبيّ بحاجة إلى الراحة، فلا يجوز إزعاجه في أي وقت من الليل أو النهار، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾.
- ٦ - المسؤوليات الاجتماعية لا ينبغي أن تشغل الإنسان عن إعطاء بعض الوقت لأسرته، ﴿صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾.

(١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، طبعة دار الفكر، ج ٤٩، ص ٧٨.

(٢) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٥٣٩.

٧ - يبدو أنّ النبي ﷺ كان يخصّص جزءاً من وقته للناس فيخرج للقائهم فيه، ﴿صَبْرًا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾.

٨ - ينبغي أن نتعامل مع المسيئين على قاعدة الرحمة والإصلاح، فلا نصدّهم أو نياس منهم. ومن هنا فإنّ الله سبحانه، وعلى الرغم من لومه وتأنيبه الذين يزعمون النبي ﷺ، فتح باب الرحمة والمغفرة لعلّ هؤلاء يصلحون أحوالهم، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا... وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّهِ فَسَبَّيْنَاهُ أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَنُصِّحُوا عَلَى مَا

فَعَلْتُمْ تَدْرِيْنَ ﴿٦﴾

إشارات:

□ ورد في عدد من الروايات، في كتب السنّة والشيعه، أنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة الذي كلفه النبي ﷺ بالذهاب لجمع الزكاة من قبيلة بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم خصومة في الجاهلية، فعندما وصل إليهم خرجوا لاستقباله فظنّ أنهم يريدون به شراً، فقفّل راجعاً وأخبر النبي ﷺ بما حصل معه على أساس الظنّ، فنزلت الآية في النهي عن الأخذ بخبر الفاسق، والدعوة إلى التثبت قبل ترتيب الآثار على أخباره^(١).

□ من الواضح أنّ فسق الوليد بن عقبة لم يكن معلوماً، وإلا لما عزم النبي ﷺ على قتال بني المصطلق بناء على خبره، ولما أرسله من الأوّل لجباية الزكاة، وقد علم فسقه بعد نزول الآية.

□ عن الحسين ﷺ في حديث طويل يقول فيه: «وما أنت يا وليد بن عقبة، فوالله ما ألومتك أن تبغض عليّاً ﷺ وقد جلدك في الخمس ثمانين جلدة، وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر، أم كيف لا تسبه وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات من القرآن وسماك فاسقاً»^(٢) وتلا الآية.

(١) مجمع البيان، ج ٩، ص ١٩٩.

(٢) نور الثقلين، ج ٥، ص ٨٢.

□ سؤال: كيف يمكن التوفيق بين الأمر بالتبیین والتثبّت في هذه الآية، وبين النهي عن التجسّس في الآية الثانية عشرة من السورة نفسها؟

الجواب: التجسّس حرام عندما يكون في الأمور الشخصية التي لا علاقة لها بالحياة الاجتماعية للناس. وأما في مثل الحالة المذكورة في هذه الآية وعندما يترتب على خبر الفاسق آثار لها صلة بالحياة الاجتماعية، فالأمر مختلف تماماً، فلا نتجسّس لنهتك ستر أحد، بل يدعونا الله إلى التثبّت والتبیین كي لا نريق دم أحد هدرأ. وبين الحالتين فرق شاسع.

ما هو الفسق؟ ومن هو الفاسق؟

□ الفسق في اللغة الخروج، ويقال فسقت النواة من التمرة أي خرجت منها. وفي الاصطلاح القرآني هو الخروج عن الصراط المستقيم الذي لا بد من لزومه في كل تفاصيل الحياة الفردية والاجتماعية. وبالتالي الفسق هو المعنى المقابل للعدالة، والفاسق هو الذي يرتكب الكبيرة ولا يتوب منها.

□ وردت كلمة الفسق ومشتقاتها أربعاً وخمسين مرّة في القرآن الكريم، واستعملت في موضوعات ومصاديق عدّة، منها:

- ١ - في وصف انحراف فرعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(١).
- ٢ - في وصف المنافقين وذوي الوجوه المتعدّدة، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).
- ٣ - في وصف الذين يؤذون الأنبياء، ويتمردون على أوامرهم، ﴿قَالُوا يَمْشَىٰ إِنَّا لَنَنذِرُهَا... الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).
- ٤ - في وصف الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ﴿وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤).

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٤ - ٢٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٧.

(١) سورة النمل: الآية ١٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٧.

- ٥ - في حالة أهل الحيلة والمكر، ﴿...يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).
- ٦ - في وصف الذين يتركون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا... يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢).
- ٧ - في وصف الذين يرجحون البقاء في البيوت، والتجارة، والأسرة والأقارب، والأمور المادية على الجهاد في سبيل الله، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ... أَحَبُّ... بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).
- ٨ - في حالة التعبير عن الانحرافات الجنسية والسير وراء الشهوات والوقوع في أسرها (فقد أطلق الله لقب الفاسقين على قوم لوط لارتكابهم الموبقات الجنسية من علناً دون أن ينكر أحد منهم على الآخر فعلته)، ﴿رَجَزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٤).
- ٩ - في وصف الأكل من الأطعمة المحرمة، ﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَسَهُ وَالذَّمَّ...﴾^(٥).
- ١٠ - في وصف الذين يتهمون النساء الشريفات في شرفهن ويفترون عليهن، ﴿بِرْمُونِ الْمُحْصَنَاتِ... وَأَوْلَاتِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٦).

التبين، دواء أدواء المجتمع:

□ لقد كان الأنبياء عبر التاريخ يواجهون مجتمعات مبتلاة بأنواع من الأمراض الاجتماعية والأخلاقية، وعلى الرغم من مرور الزمان وتطور الحياة الإنسانية، ما زالت بعض هذه الأمراض موجودة ومصدر معاناة للبشرية، ومن هذه الأمراض:

- التقليد الأعمى للآباء والأجداد، واتباعهم في تقاليدهم وعاداتهم مهما كانت من دون إعادة نظر فيها.
- السير وراء الخيالات والشائعات، والتنبؤات والأحلام الواهية.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٢٤.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

(٦) سورة النور: الآية ٤.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٤.

- الحكم وبناء المواقف على غير معرفة أو بصيرة.

- الانتقاد من دون علم، والقول والكتابة بعيداً عن المعرفة.

والعلاج الناجع لهذه الأمراض وكثير مما يشابهها، هو التبيين والفحص قبل

الإقدام على أي موقف أو سلوك. وهو ما ورد في هذه الآية الشريفة.

□ وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه هذه الآية من بعض الجهات وهو قوله

تعالى، في الآية ٩٤ من سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ فَتَيَبُّوْا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ االسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانٌ كَثِيْرٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوْا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرًا. وقد ورد في سبب

نزول هذه الآية أنّ النبي ﷺ بعث أسامة بن زيد على رأس سرية إلى بني

ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى مرداس بن نهيك معه غنيمة له وجمل أحمر،

فلما رأهم أوى إلى كهف جبل وأتبعه أسامة، فلما بلغ مرداس الكهف وضع

فيه غنمه ثم أقبل إليهم، فقال: السلام عليكم أشهد أن لا إله إلا الله، وأن

محمداً رسول الله، فشدّ عليه أسامة فقلته من أجل جملة وغنيمته، وكان

النبي ﷺ إذا بعث أسامة أحبّ أن يثني عليه خيراً ويسأل عنه أصحابه، فلما

رجعوا لم يسألهم عنه فجعل القوم يحدثون النبي ﷺ، ويخبرونه بما جرى،

فلما أكثروا رفع رأسه إلى أسامة فقال: كيف أنت ولا إله إلا الله؟ فقال: يا

رسول الله إنما قالها متعوّذاً متعوّذاً بها، فقال له رسول الله ﷺ: هلا شققت عن

قلبه...، فأنزل الله الآية^(١).

الخبر في الإسلام:

□ في الإسلام توصيات عدّة تتعلق بنقل الأخبار، ومن ذلك:

(أ) يلوم القرآن الذين يأخذون بالأخبار دون التأمل فيها، ويدعو إلى تحليلها

وفهمها، أو عرضها على أهل الخبرة والمعرفة قبل البناء عليها، ﴿وَإِذَا

(١) انظر: جلال الدين السيوطي، الدر المشور، ج ٢، ص ٢٠١.

جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعُوا بِهِ. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا^(١).

(ب) وضعت الشريعة الإسلامية عقاباً محدداً للذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تثير البلبلة في المجتمع: ﴿لَئِن لَّرَ يَنْدَهُ الْمُتَنَبِّئُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا^(٢)﴾.

(ج) ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ، أنه قال في حجة الوداع: «قد كثرت عليّ الكذابة وستكثر؛ فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به»^(٣).

(د) عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد ﷺ، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله ﷻ، وقال رسول الله ﷺ»^(٤).

(هـ) وعن الإمام الرضا عليه السلام: «فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإننا إذا تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة»^(٥).

(و) في التراث الإسلامي علم مهمّ ترتّب عليه آثار مهمة في الاستنباط الفقهي وغيره، اسمه «علم الرجال»، وهو العلم الذي يبحث فيه عن كل من ينقل الحديث والرواية عن النبي ﷺ، أو عن الأئمة، لتمييز الثقة ومن يصح الاعتماد على روايته، ممن ليس بثقة ولا يجوز الاعتماد على قوله.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٥) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٢٥.

التعاليم:

- ١ - على المؤمن أن يتحلّى بروحية التدقيق وعمق التفكير، ولا ينبغي أن يكون سطحياً يقبل ما يعرض عليه من دون تفكير أو تدبر، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ٢ - لم يكن جميع أصحاب النبي ﷺ عدولاً، بل كان بينهم من يتصف بالفسق، ﴿إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ﴾.
- ٣ - يجوز كشف أسرار بعض الناس وبيان حقائقهم، عندما تقتضي مصلحة المجتمع الإسلامي ذلك، ﴿إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ﴾.
- ٤ - الفتنة تحتاج إلى أمرين، هما: سعي الفاسق، وتصديق المؤمن، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ... فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ٥ - الأصل في الإسلام هو حسن الظنّ بالناس وتصديقهم في إخباراتهم، وأما عندما يتضح فسق أحدهم فالعامل معه يجب أن يتمّ بصورة مختلفة، ﴿إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ... فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ٦ - لا يتورّع الفاسق عادة عن بثّ الشائعات في المجتمع الإسلامي، ﴿جَاءَكَ فَاسِقٌ يَبْلُغُ﴾.
- ٧ - لا ينسجم الإيمان مع سرعة التصديق وسطحية التفكير، ﴿ءَامَنُوا... فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ٨ - لا ينبغي الإهمال وتأخير التبيّن وترك الشائعة حتى تنتشر في المجتمع، ﴿فَتَيَّيَنُوا﴾ (الفاء في اللغة العربية تدلّ على المسارعة).
- ٩ - قد يصدق الفاسق أحياناً؛ ولذلك لا ينبغي تكذيبه قبل التبيّن، ﴿فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ١٠ - المجتمع الإسلامي معرّض بصورة دائمة لإثارة الفتنة من خلال الشائعات الكاذبة؛ ولذلك لا بدّ من اليقظة الدائمة، ﴿إِن جَاءَكَ... فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ١١ - الطريقة الصائبة لإدارة المجتمعات هي التثبّت والتبيّن قبل وقوع الأحداث لا انتظار وقوعها ثم المعالجة بعد ذلك، : ﴿فَتَيَّيَنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ﴾.
- ١٢ - بيان المصالح المترتبة على الأحكام من الأمور المساعدة على الالتزام بها،

﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا﴾ (فالله سبحانه في هذه الآية يكشف لنا عن سبب وجوب التبيين قبل البناء على خبر الفاسق).

١٣ - يسعى الفاسق، من خلال الأخبار الكاذبة التي ينشرها في المجتمع الإسلامي، في سبيل إثارة الفتنة وتخريب العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ﴾.

١٤ - قد يؤدي اتباع الفاسق وتصديقه إلى إصابة جماعة من الناس بكاملها بالسوء، ولا يتقصر الأمر على فرد واحد، ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ﴾.

١٥ - البناء على الأخبار الضعيفة نوع من التهور والجهالة، ﴿بِجَهَلَةٍ﴾.

١٦ - العمل بالأحكام والتوصيات الإلهية يحمي الإنسان من الإقدام على عمل ثم الندم على فعله بعد ذلك، : ﴿فَتَبَيَّنُوا... نَدِيمِينَ﴾.

١٧ - الفعل الذي لا تدرس مبرراته وآثاره قبل الإقدام عليه يفضي إلى الندامة، : ﴿نَدِيمِينَ﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ حدثنا الآية السابقة عن خبر الوليد بن عقبة وامتناع بعض الناس عن دفع الزكاة، فاستعدّ المسلمون للقتال، فنزلت الآية تنهى عن تصديق الفاسق قبل الثبوت من صحّة خبره. وفي هذه الآية يحدد الله القاعدة في علاقة النبي ﷺ بالناس وعلاقتهم به، فالحالة الطبيعية أن يكون القائد الإلهي متبوعاً، لا أن يكون تابعاً لرغبات الناس وأهوائهم التي قد تبني في بعض الأحيان على المصالح أو على بعض الشائعات الكاذبة.

□ ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه سأل: أي عرى الإيمان أوثق؟ فتعددت

أجوبة المسلمين عن السؤال، فقال رسول الله ﷺ: لكل ما قلمت فضل وليس به؛ ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، وتولي أولياء الله والتبري من أعدائهم^(١).

□ في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، قال: ذلك حمزة وجعفر وعبيدة وسليمان وآخرون هدوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقوله: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَرَزَنَةَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني أمير المؤمنين^(٢).

□ الوصول إلى درجة الكمال والرشد، هدية إلهية يمن الله بها على أنبيائه: ﴿ءَأَنْبِيَاءًا إِزْهَبِهِم رُشْدَهُمْ﴾^(٣). وعلى الأنبياء الأخذ بأيدي الناس ليسيروا في مراقبي الكمال بحسب وسعهم: ﴿يَنْقُورُ أَتَمُّونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٤). وتجدر الإشارة إلى أن الأنبياء لم يصلوا إلى الكمال من دون جهد أو تعب، بل سعوا ودعوا الله وبحثوا عن الكمال بكل ما أوتوا من قوة، كما فعل موسى عليه السلام عندما ساح في الأرض بحثاً عن الخضر ليتعلم منه: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٥). والإيمان هو الأرضية التي يتأسس عليها الرشد: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٦)، والكتب السماوية هي الوسيلة والمنهاج، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٧). وقد وصف الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية بأنهم الراشدون وذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ﴾. والرشد في القرآن هو الرشد المعنوي، وليس النمو المادي والجسدي، كما يرى بعض قصار النظر.

□ عندما يتولى إدارة المجتمعات واتخاذ القرارات غير المعصوم أو غير العادل، لن تأمن هذه المجتمعات من الاستبداد الذي هو في الجهة المقابلة للرشد: ﴿وَمَا أَمْرٌ فَرَعُونَكَ يَرْشِيدٌ﴾^(٨). وأما إذا تولى المعصوم أو العادل فإن العصمة

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| (١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ١٢٦. | (٥) سورة الكهف: الآية ٦٦. |
| (٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٦. | (٦) سورة البقرة: الآية ١٨٦. |
| (٣) سورة الأنبياء: الآية ٥١. | (٧) سورة الجن: الآية ٢. |
| (٤) سورة غافر: الآية ٣٨. | (٨) سورة هود: الآية ٩٧. |

والعدالة هما الضمان وصمام الأمان الذي يحول دون تحوّل السلطة إلى سلطة مستبدة، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - من أراد العمل بلا ندم، عليه أن يتّبع تعاليم الأنبياء وتوصياتهم (ففي الآية السابقة يحدثنا الله سبحانه عن الندم الذي يترتب على العمل بخبر الفاسق، ثم يعقب بقوله واعلموا أن فيكم...، وهذا فيه إشارة إلى الربط بين العمل بتعاليم الرسول والأمن من الندم)، ﴿نَلَدِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.
- ٢ - حضور الأنبياء في المجتمعات يعطيها امتيازاً خاصاً، ﴿فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - من المناسب أن يكون النبي قريباً من الناس، يصلون إليه عند الحاجة، ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - لا مانع من أن يتوقّع الناس عمل النبي ﷺ بما يشيرون عليه، ولكن لا ينبغي لهم توقّع الطاعة من النبي، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ... لَعَنِتُمْ...﴾.
- ٥ - اتّباع الناس أهواءهم وتعدد رغباتهم وميولهم، من الأسباب المؤثرة في إثارة المشكلات الاجتماعية، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ... لَعَنِتُمْ...﴾.
- ٦ - يجب أن يكون القائد الإسلامي مستقلاً وصاحب القرار الأخير، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ... لَعَنِتُمْ...﴾ (وقد أخبرنا الله سبحانه في محل آخر من القرآن أن العنت هو الأمر الذي يريده العدو ويتمناه، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾^(١)).
- ٧ - توجد حالات عدّة ليس لله فيها حكم ولا لرسوله، بل هي متروكة للناس، ففي مثل هذه الموارد لا مانع من أن يعمل النبي برأي الناس، ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.
- ٨ - الميل إلى الدين من الأمور الفطرية المستقرّة في نفوس الناس، ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ...﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

٩ - الإيمان أمر له علاقة بالقلب ولا يمكن أن يتحقق بالجبر والإكراه، ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ...﴾.

١٠ - الإيمان زينة القلوب وبهجتها، ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، كما أن الجبال والأشجار والمعادن والأزهار زينة الأرض، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾^(١).

١١ - على الإنسان أن يجمع في قلبه بين أمرين هما التولي والتبري، وعلى المؤمن أن يمتحن إيمانه، بمحبة الإيمان وأهله، وكره الكفر وأهله، ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ... وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ...﴾.

١٢ - الإنكار القلبي والنوايا الفاسدة، مقدمة للطغيان؛ فقد قال ﷺ أولاً: ﴿الْكُفْرُ﴾ ثم أتبعه بذكر الفسوق والعصيان، ﴿وَالْفُسُوقَ وَالْعَصِيَانَ﴾.

١٣ - الكفر والفسوق والعصيان، من آفات الإيمان ونواقضه، ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ... وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعَصِيَانَ﴾.

١٤ - تقتضي فطرة الإنسان وطبيعته الأولى كره القبيح، ﴿وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ...﴾. وهذا النفور الفطري هو المؤشر الأول الذي يدعو الإنسان إلى السير نحو الكمال والرشد، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾.

١٥ - لا يمكن أن يصل إلى الكمال من لا يكره الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَكَرَهُ... أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾.

١٦ - كره الكفر والفسوق والعصيان، وحب الإيمان من النعم الإلهية العظيمة على الإنسان، ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ... وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ... فَضلاً مِنَّ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

١٧ - يستند الفضل الإلهي إلى العلم والحكمة اللذان هما من صفات الله، وليس جزافاً ومن دون مبرر، ﴿فَضْلاً... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتِلُوا
الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٩)

إشارات:

□ على الرغم من أن الإيمان يقتضي، عادة، عدم وقوع النزاع والصراع بين المؤمنين، فإن المؤمنين ليسوا معصومين، ولذلك قد يدب النزاع بينهم، على إثر كلمة أو تصرف يصدر عن أحدهم تجاه الآخر. وفي مثل هذه الحالات لا بد من الاستعداد الدائم لإخماد نار الفتنة عندما تنشب، ومواجهة المعتدي والانتصاف للمظلوم منه كي لا يتكرر العدوان ثانية.

□ في الحديث عن رسول الله ﷺ: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً... وينصره ظالماً أو مظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه»^(١).

□ هذه الآية من الآيات التي قطعت من أجلها يدا أحد المسلمين الذين كانوا يحاربون تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل، وذلك أن الإمام علياً عليه السلام كان يعظ الناس وينهاهم عن القتال، فقال: «اللهم إني أعذرت وأندرت فكن لي عليهم من الشاهدين. ثم أخذ المصحف وطلب من يقرأ عليهم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾، فقال مسلم المجاشعي: ها أنا ذا، فخوِّفه بقطع يمينه وشماله وقتله، فقال: لا عليك يا أمير المؤمنين فهذا قليل في ذات الله! فأخذه ودعاهم إلى الله فقطعت اليمنى فأخذه بيده اليسرى فقطعت فأخذه بأسنانه فقتل... فقال عليه السلام: «الآن طاب الضراب»^(٢).

نعم لا بد أولاً من الاستناد إلى القرآن؛ لإتمام الحجّة، وبعد الوعظ والنصح وإتمام الحجّة، يأتي دور الموقف الشجاع، إلى آخر نفس.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ١٧٤.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢١٢.

العدالة:

□ يحدثنا الله في هذه الآية عن الصلح والإصلاح بين الناس على أساس العدالة ثلاث مرّات، يقول سبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وهذا التأكيد على العدالة منسجم مع نظام الخلق، فالخلق كلّ قائم على العدل والحقّ: «بالعدل قامت السموات والأرض»^(١). والهدف الذي من أجله بعث الله الأنبياء هو: ﴿لِيُقِيمُوا لِلنَّاسِ بِالْقِسْطِ﴾^(٢).

□ والمجتمعات المعاصرة أحوج ما تكون إلى العدل. والعدل ملازم للالتزام بالقانون. ومخالفة القانون تساوي الظلم والتهرّب من العدالة. ولكن أي قانون؟ هل هو القانون الذي صنعناه بأيدينا؟ هل هو القانون الذي نغيره كل صباح ومساء؟ هل هو القانون المبني على معلومات ناقصة، والذي تصاغ موادّه تحت ضغط الترغيب والترهيب، وبناء على مصالح المجموعات والأحزاب؟ هل هو القانون الذي أوّل من يخالفه هو واضعه؟ هل يمكن لمثل هذه القوانين أن تحقّق للإنسان كرامته وتحفظ له قداسته واحترامه؟ وهل يستطيع مثل هذا القانون تحقيق العدالة والأمن والسلام للمجتمعات التي يطبّق فيها؟

إن القانون الذي يحقق هذه الطموحات والرغبات كلّها هو القانون الإلهي، المنزّه عن الخطأ والهوى، وهو القانون الذي حمّله الأنبياء المعصومون إلى الإنسان. هو القانون ومجموعة التشريعات التي سنّها الله على أساس لطفه وعلمه وحكمته، والتي من يحملها هو أول من يطبّقها ويلتزم بها.

التعاليم:

١ - النزاع بين المؤمنين شرارة سرعان ما تنظفني وليس ناراً دائمة التوقّد والاشتعال، يقول الله سبحانه: ﴿أَقْتَتَلُوا﴾، ولو كان المراد الإشارة إلى دوام القتال واستمراره لاستعمل الفعل بصيغة المضارع.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(١) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٤٩٣.

- ٢ - المؤمن يحمل مسؤولية تجاه المؤمن الآخر، ولا يمكنه أن لا يبالي بما يجري عليه، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.
- ٣ - تجنب المسارعة إلى حلّ النزاع ورفع الخصومة بين المسلمين، في حال نشوب الفتنة بينهم، ويستفاد هذا المعنى من استعمال حرف الفاء الذي يدل على عدم الفاصل الطويل.
- ٤ - على الأمة أن تقف وقفة واحدة في وجه الباغي وتقاتله، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَتَلَاؤُا أَلَّتِي تَبَغِي﴾.
- ٥ - استقرار المجتمع الإسلامي هدف مهم، لا بد من تحقيقه حتى لو اقتضى ذلك إراقة دم الباغي وقتله، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَتَلَاؤُا﴾.
- ٦ - تجوز مواجهة العنف بالعنف، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَتَلَاؤُا﴾.
- ٧ - تجنب المسارعة إلى قتال الباغي من دون تأخير، ﴿فَتَلَاؤُا﴾؛ الفاء تدل على هذا المعنى.
- ٨ - الحرب والقتال في الإسلام له أهداف وغايات نبيلة، بل مقدّسة، ﴿حَقَّ نَفْيَةٌ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ٩ - مدة القتال ووقته مفتوحان حتى تحقيق الأهداف والغايات، ﴿حَقَّ نَفْيَةٌ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وليس مقيداً بوقت محدد وزمان. والأمر تماماً يشبه زيارة الطبيب، فلا يزار الطبيب في وقت محدد من السنة، بل يزار عند الحاجة، ويستعمل الدواء الذي يصفه إلى أن يتحقق الشفاء.
- ١٠ - الغايات التي تبرّر القتال ليست قومية أو قبلية، أو حزبية، أو انتقاماً، أو غير ذلك من الغايات التي تخاض الحروب من أجلها في كثير من الحالات، بل الهدف هو عودة الباغي إلى أمر الله، وإلى جادة الصواب، ﴿حَقَّ نَفْيَةٌ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ١١ - في حال المواجهة ونشوب الفتنة وعدم معرفة المعتدي، لا بد من السعي في الإصلاح، وإخماد الفتنة، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وأما عند تحقّق البغي من أحد الطرفين على الآخر، فلا بد من العدل بالانتصار من الظالم للمظلوم، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾.

- ١٢ - يختلف الواجب باختلاف الحالات التي تعرض للمسلمين في حياتهم الاجتماعية والفردية، فثارة يكون التكليف هو القتال، والأخرى هو الإصلاح (وقد وردت كلمة «أصلحوا» مرتين وكلمة «قاتلوا» مرتين أيضاً).
- ١٣ - في الحالات التي يخشى فيها من فورة الغضب والغرائز، لا بد من تكرار الوعظ والإرشاد، ﴿بِالْمَكْدَلِ... وَأَقِطُوا... يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.
- ١٤ - قيمة الصلح تتوقف على وصل الحق إلى صاحبه، وأما الصلح الذي يبني على ضياع الحقوق، فهو ذل وإذلال وليس صلحاً، ﴿فَأَصْلِحُوا... وَأَقِطُوا﴾.
- ١٥ - المحبة هي الأساس الذي ينبغي أن يحكم تصرفاتنا؛ حتى في الحالات التي تحتاج إلى الشدة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.
- ١٦ - إن الله لا يحب الصلح الذي تضيع فيه الحقوق، ولا يكون مبنياً على العدل والإنصاف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- تؤكد هذه الآية أنّ العلاقة بين المؤمنين علاقة أخوة، ويتضمّن هذا التعبير معاني عدّة، منها:
- أ - المودة بين الأخوين متينة وعميقة ودائمة.
- ب - المودة بين الأخوين، عادة تكون من الطرفين وليست من طرف واحد.
- ج - العلاقة بين الأخوين مبنية على الفطرة وهي من مقتضيات الطبيعة الإنسانية، وليست مبنية على المصالح والمنافع الدنيوية.
- د - الأخ عضد الأخ وساعده الذي يواجه به الأعداء.
- هـ - يشترك الأخوان في أصل واحد.
- و - الالتفات إلى الأخوة من أسباب العفو والصفح، وغيّص النظر عن الإساءة.
- ز - يفرح الأخ لفرح أخيه ويحزن لحزنه.

تستخدم في هذه الأيام كلمات عدة للدلالة على المودة بين المشتركين في أمر، كالرفيق، وابن البلد، والزميل وما شابه ذلك، ولكن الإسلام يختار، للتعبير عن عمق العلاقة بين المؤمنين، كلمة «أخ». وقد ورد تشبيه المؤمنين باليدين «تغسل إحداهما الأخرى»^(١).

□ يتكرر الأمر بالإصلاح في هذه الآية، والآية السابقة، ثلاث مرّات، وهذا يكشف عن شدّة اهتمام الإسلام بنشر الصلح والمودة بين أفراد المجتمع.

□ يقول الله سبحانه، في الآية السابقة: ﴿فَأَصْلِحُوا... وَأَقِطُوا﴾؛ أي فليكن العدل والقسط هو الأساس الذي يبنى عليه الصلح. ويقول في هذه الآية: ﴿فَأَصْلِحُوا... وَأَتَّقُوا﴾؛ أي فلتكن التقوى هي رائد من يسعى إلى الصلح بين الناس، فلا ينبغي، لمن يسعى في الصلح بين المتخاصمين، أن يحيف على أحدهما لمصلحة الآخر.

الأخوة:

□ للإسلام خصائص عدة، وامتيازات متنوّعة، منها أنه ينطلق من الأسس والجذور، مثلاً: ﴿إِنَّ أَلَمْرَةَ لِلَّهِ جَيْبًا﴾^(٢). وعندما تكون العزة كلّها لله فلا ينبغي البحث عن العزّ عند غيره سبحانه. ويقول سبحانه: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَيْبًا﴾^(٣)، فلماذا يبحث الإنسان ليستجدي القوّة من هذا وذاك؟ وفي هذه الآية يؤسس سبحانه القاعدة الأساس في العلاقة بين المؤمنين، وهي أنّهم إخوة، وتقتضي هذه القاعدة أن تكون المودة هي الحاكمة على كل علاقاتهم، والنزاع هو خروج عن القاعدة، ينبغي أن يُحلّ فور حصوله.

□ قاعدة الأخوة من الأمور التي أسس لها الإسلام وتنقل كتب الأخبار أن النبي ﷺ كان بالنخيلة وحوله سبعة وأربعون رجلاً، فنزل جبرائيل، وقال: إن الله تعالى آخى بين الملائكة، فأخى رسول الله بين أصحابه، كما يأتي: بين

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(١) المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣١٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٦٥.

أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن، وبين سلمان وأبي ذر، وبين طلحة والزبير، وبين مصعب وأبي أيوب الأنصاري، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي الدرداء وبلال، وبين جعفر الطيار ومعاذ بن جبل، وبين المقداد وعمار، وبين عائشة وحفصة، وبين أم سلمة وصفية، وأخى بينه وبين علي عليه السلام^(١). وقد استشهد اثنان من أصحابه عليهم السلام أحدهما عبد الله بن عمر، والآخر عمر بن الجموح، وكانت بينهما مؤاخاة، فدفنا في قبر واحد.

□ الأخوة النسبية تنقطع يوم القيامة، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾^(٢)، وأما الأخوة الدينية فهي تبقى يوم القيامة، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٣).

□ يجب أن تكون الأخوة في الله، فمن يظهر الودّ من أجل مكاسب دنيوية لن ينال ما يسعى من أجله، وسوف تتحوّل هذه المودة الزائفة إلى عداوة يوم القيامة، ولا تبقى إلا الأخوة بين المتقين، ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

□ على الرغم من أهمية اكتساب الأخوة وتحقيقها، فإنّ الأهمّ منها هو الحفاظ عليها، ومن هنا نجد أن الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، تأمر بالحفاظ على الأخوة وعدم تضييعها: «صل من قطعك»^(٥).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده»^(٦).

حقوق الأخوة:

في الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله، أنّ للمسلم على أخيه المسلم ثلاثين حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو:

١ - يغفر زلته،

(١) بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ٣٣٥. (٢) سورة الزخرف: الآية ٦٧. (٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠١. (٤) سورة الحجرات: الآية ٤٧. (٥) الكافي، ج ٢، ص ١٣٣. (٦) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٧١.

- ٢ - ويرحم عبرته،
- ٣ - ويستر عورته،
- ٤ - ويقبل عشرته،
- ٥ - ويقبل معذرتة،
- ٦ - ويرد غيبته،
- ٧ - ويديم نصيحته،
- ٨ - ويحفظ خلته،
- ٩ - ويرعى ذمته،
- ١٠ - ويعود مرضته،
- ١١ - ويشهد ميتته،
- ١٢ - ويجيب دعوته،
- ١٣ - ويقبل هديته،
- ١٤ - ويكافئ صلته،
- ١٥ - ويشكر نعمته،
- ١٦ - ويحسن نصرته،
- ١٧ - ويحفظ حليلته،
- ١٨ - ويقضي حاجته،
- ١٩ - ويشفع مسألته،
- ٢٠ - ويسمت عطسته،
- ٢١ - ويرشد ضالته،
- ٢٢ - ويرد سلامه،
- ٢٣ - ويطيب كلامه،
- ٢٤ - وير إنعامه،
- ٢٥ - ويصدق أقسامه،

٢٦ - ويوالي وليه،

٢٧ - ولا يعاديه،

٢٨ - وينصره ظالماً ومظلوماً،

٢٩ - ولا يسلمه،

٣٠ - ولا يخذله،

٣١ - ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه^(١).

□ عن الصادق عليه السلام، «قال: خطب رسول الله ﷺ بمنى... إلى أن قال: «المسلمون إخوة تكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٢).

الصلح والسلام في القرآن:

تتكرر في القرآن الكريم كلمات: صلح، ﴿وَالصَّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣)؛ وإصلاح، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾^(٤)؛ وتأليف القلوب، ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾^(٥)؛ والسلم، ﴿أَدْخُلُوا فِي أَلْسِنَةٍ كَأَفْئَةٍ﴾^(٦). وتكرر هذه الكلمات له دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بانتشار السلم، والصلح، والاستقرار، والأمن في المجتمع الإنساني.

□ من النعم الإلهية التي يذكرها القرآن نعمة التأليف بين قلوب المسلمين، وذلك عندما يخاطب المسلمين، قائلاً: ﴿كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾^(٧)، وما يمكن أن تكون الآية بصدد الإشارة إليه، هو الحروب التي كانت تنشب بين الأوس والخزرج، في المدينة، قبل الإسلام.

□ ويشير الله سبحانه في آية أخرى إلى ترتب المغفرة ونيل الرحمة على السعي في الإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٨). وكذلك يؤكد القرآن أن الشفاعة الحسنة يصيب صاحبها نصيباً

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٨) سورة النساء: الآية ١٢٩.

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٣٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٩، ص ٧٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٢٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية ١.

منها، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا﴾^(١).
 □ وقد قرّر الإسلام مجموعة من الاستثناءات الخاصة بالإصلاح بين الناس، ومن ذلك:

١ - الكذب في الإسلام ليس من المحرمات فقط بل من الكبائر؛ ولكن في محاولة الإصلاح تسقط حرمة، ويجوز ارتكابه، «لا كذب على المصلح»^(٢).
 ٢ - النجوى والشوشة في الأذن والخفاء، من الأمور المنهي عنها في الإسلام^(٣)، ولكن عندما تكون وسيلة للإصلاح ترتفع حرمتها، ويرتفع قبها، ﴿لَا حَيْدَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٤).

٣ - العمل بالقسم والالتزام بمضونه من الواجبات المؤكدة، ولكن إذا أقسم أحد من الناس على عدم السعي في الإصلاح بين الناس، لا يجب عليه الالتزام بقسمه، بل يأمره الله بنقض ما أقسم عليه، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ... وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٥).

٤ - يجب العمل بالوصية، ولا تجوز مخالفة رغبات الموصي، ولكن إذا كانت المخالفة طريقاً للإصلاح، فيجوز ذلك، ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٦).

التعاليم:

١ - علاقة الأخوة مرهونة بالإيمان (ولا تحقق سائر الروابط الأخوة، سواء في ذلك العلاقات الاقتصادية، أو العرقية، أو الجغرافية، أو التاريخية أو غير ذلك)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٢ - لا تتوقف الأخوة في الإيمان، على شروط، كالسن، والعلم، والمستوى الاقتصادي، ولا غير ذلك، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٤.

(١) سورة النساء: الآية ٨٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٤٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٢.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١٠.

- ٣ - لا ينبغي لأحد من المؤمنين أن يرى نفسه أكبر من غيره من المسلمين، ﴿إِخْوَةٌ﴾ (فبين الآباء والأبناء تفاوت لمصلحة الآباء، وأما الإخوة فهم متساوون متكافئون).
- ٤ - في الدعوة إلى الصلح والإصلاح، لا بدّ من استخدام كلمات تتضمّن معاني ودلالات عاطفية، ﴿إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا﴾.
- ٥ - الأمر بالإصلاح وتصفية العلاقات الاجتماعية، موجّه إلى جميع الناس وليس إلى فئة خاصة منهم، ﴿فَأَصْلِحُوا﴾.
- ٦ - على المصلح بين الناس أن يلتفت إلى أنّه يصلح بين أخويه هو أيضاً، ولا يصلح بين أخوين فحسب، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.
- ٧ - على المصلح بين الناس، أن يتقي الله في محاولة الإصلاح، ﴿فَأَصْلِحُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٨ - الصلح والإصلاح، مقدّمة وعامل مساعد على نزول الرحمة الإلهية، ﴿فَأَصْلِحُوا... تَرْحَمُونَ﴾.
- ٩ - المجتمع الخالي من الصلح، والمبتلى بالنزاعات التي لا يوجد لها من يحلّها، مجتمع محروم من الرحمة الإلهية، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِثْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰكِرُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ اللمز كالغمز في الوجه، ورجل لمزة يعيبك في وجهك لا من خلفك، ورجل همزة يعيبك من خلفك^(١). والتنابز التداعي بالألقاب، وهو يكثر في ما كان ذمّاً^(٢).

(١) كتاب العين، ج ٧، ص ٣٧٢، مادة: لمز. (٢) لسان العرب، ج ٥، ص ٤١٣، مادة: نبز.

□ تعرضت الآية السابقة للأخوة بين المؤمنين، وتلقي هذه الآية الضوء على الأمور التي تخرب رابطة الأخوة بينهم. كما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الصلح والإصلاح، وهذه الآية تتحدّث عن الأسباب التي تؤدّي إلى إثارة الفتنة كالسخرية والتنازع بالألقاب. وعلى أي حال إنّ من أهم آثار العمل بتعاليم الإسلام، سيادة الهدوء والاستقرار على العلاقات الاجتماعية.

□ ربّما يمكن القول إنّ السخرية والتنازع ذكرا من باب المثال، وإلا فإنّ كلّ ما من شأنه نقض علاقة الأخوة بين المؤمنين ممنوع ومنهوّ عنه.

□ لعلّ المرأة تندرج تحت كلمة «قوم»، ولذلك ربّما كان ذكر النساء بشكل مستقلّ مؤشراً إلى خطورة هذه الأفعال بين النساء.

السخرية والاستهزاء:

السخرية في الظاهر ذنب ومعصية واحدة، ولكن يكشف تحليلها عن أنّها ذنب مرگّب من ذنوب عدّة، هي: الاحتقار، والإذلال، وكشف العيوب المستورة، وإثارة الاختلاف، والغيبة، وإثارة الأحقاد، والطعن على الآخرين، والتحريض على الانتقام.

اسباب السخرية:

- ١ - الغنى والثروة من أسباب السخرية في بعض الحالات، يقول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾^(١).
- ٢ - والعلم قد يتحول في بعض الأحيان إلى وبال على حامله، يدعو إلى السخرية من الآخرين الذين يرى أنّهم أقلّ منه علماً ومعرفة، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).
- ٣ - ومن أسباب السخرية من الآخرين، القدرة البدنية؛ إذ ينقل القرآن قول الكفار، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٣).

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

(١) سورة الهمزة: الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة غافر: الآية ٨٣.

٤ - الألقاب الاجتماعية، بدورها، من الأسباب التي تدعو إلى السخرية، فالكفار كانوا يرون عبر التاريخ أنّ ما يتمتعون به من موقع اجتماعي يعطيهم الحق في احتقار المؤمنين بالأنبياء، ﴿وَمَا زَلَّكَ آتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾^(١).

٥ - وقد لا يكون للسخرية أي مبرر سوى التسلية وملء أوقات الفراغ بتقريع الآخرين واحتقارهم.

٦ - وفي بعض الحالات يدعو الطمع في الحصول على الأموال إلى السخرية وتعبير أشرف الناس بما ليس عيباً، بل افتراء العيب عليه وتعبيره به، فبعض المنافقين لم يدعهم إلى تعبير النبي ﷺ في طريقة توزيع الصدقات إلا الطمع بالحصول على شيء منها: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْضِرُونَ﴾^(٢).

٧ - ومن أسباب السخرية والهزاء الجهل؛ إذ إن النبي موسى ﷺ استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين عندما اتهمه بنو إسرائيل باتخاذهم هزواً: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

٨ - ومن أسباب السخرية واللمز، الرغبة في إظهار الشرف وعلو الكعب رياءً، الأمر الذي يدعو هؤلاء إلى السخرية ممن هو أقلّ منهم مالاً أو أدنى موقعاً في سلم المواقع الاجتماعية، ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾^(٤).

□ من الأعمال المباركة التي أقدم عليها رسول الله ﷺ تغييره أسماء بعض أصحابه، ممن كانت أسماؤهم قبيحة^(٥)؛ وذلك أن الاسم القبيح قد يكون من أهمّ الدوافع إلى السخرية.

(١) سورة هود: الآية ٢٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ٧٩.

(٥) انظر: أسد الغابة، ج ٣، ص ٧٦، وج ٤، ص ٣٦٢.

□ دخل عقيل أخو الإمام علي عليه السلام على معاوية، فبادره ساخراً بقوله: مرحباً
برجل عمه أبو لهب، فقال عقيل: وأهلاً بمن عمته حمالة الحطب في جيدها
حبل من مسد^(١).

التعاليم:

- ١ - لا ينسجم الإيمان مع السخرية من عباد الله، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ...﴾.
- ٢ - لا ينبغي لمن ينهى عن السخرية أن ينهى بطريقة توحى بالإهانة، ﴿لَا يَسْخَرُ
قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾. فالله سبحانه في هذه الآية لم يقل: «لا تسخروا» وبالتالي لم
يوجه الخطاب بشكل مباشر، وإنما وجه النهي بطريقة خطاب الغائب.
- ٣ - السخرية مفتاح الفتنة وأحد منابع الأحقاد، ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ...﴾؛ (ويستفاد هذا
المعنى من النهي عن السخرية، بعد الحديث عن الأخوة بين المؤمنين
والدعوة إلى الإصلاح بينهم).
- ٤ - التكرار من الأساليب المناسبة في الدعوة والتبليغ، وخصوصاً في الأمور
المهمة، وفي حالة تنوع المخاطبين، ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ... نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾.
- ٥ - اعتقاد المرء أنه أفضل من غيره من الناس، من الدوافع التي تحرض الإنسان
على السخرية، ولذلك يلفت القرآن إلى احتمال العكس للتحذير من السخرية
والنهي عنها، ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن نحكم على الناس من خلال مظاهرهم، ومن خلال حالتهم
الراهنة، فربما كان الظاهر مختلفاً عن الباطن، وربما كان مستقبل الإنسان،
وموقعه عند الله تعالى، مختلفاً عما يشي به حاله الراهن، ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا
خَيْرًا...﴾.
- ٧ - تعبير الإنسان غيره من الناس وإشارته إلى عيوبهم، هو في الواقع تعبير
لنفسه، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١١٤؛ الفارات، ج ٢، ص ٣٨٠.

٨ - كشف عيوب الآخرين، يساعد على كشف عيوب الإنسان نفسه، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

٩ - نبذ الآخرين بالقباب قبيحة سوف يرتدّ على الفاعل عاجلاً أم آجلاً، ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّعْنَةِ﴾؛ (صيغة التفاعل تدلّ على المقابلة والتبادل).

١٠ - السخرية من الناس معصية تتوقف مغفرتها على التوبة، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

١١ - السخرية من الآخرين اعتداء عليهم وظلم لهم، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ تابع هذه الآية ما بدأت الآية السابقة باستعراضه، من الأمور التي تؤدي إلى نقض حالة الأخوة بين المؤمنين، والأمور التي تعدّها الآية في هذا السياق، هي: سوء الظنّ، والتجسس، والغيبة.

□ يدعو القرآن المسلمين إلى اجتناب سوء الظنّ، وحمل المؤمنين على أحسن الأحوال، يقول الله تعالى في سورة النور، ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾^(١).

□ لا يهتمّ القرآن بالأمن بمعناه العادي المتعارف، الذي تدعو الآية إلى تصديّ المؤمنين لمحاولات نقضه بإثارة الفتن، بين المؤمنين، بل يعتمّ مفهوم الأمن ليشمل الأمن المعنوي، على الأعراض والكرامات؛ وهذا ما تدعو إليه الآية.

□ يتحدّث علماء القانون في هذا العصر عن حقوق الإنسان؛ ولكنهم يغفلون مجموعة من الحقوق التي سبقهم إليها الإسلام منذ قرون، بتحريمه مجموعة من الأفعال التي فيها اعتداء معنويّ على حقوق الإنسان.

□ يبدو أنّ الغيبة من أقبح المعاصي، ولذلك شبهها القرآن بأقبح صورة عندما شبهها بأكل الإنسان لحم أخيه وهو ميت. فالحيوانات كما يقال تتجنب أكل لحم أبناء جنسها وتعتدي على سائر الحيوانات.

أقسام سوء الظن:

□ ينقسم الظن السيئ إلى أقسام عدّة، بعضها مقبول وبعضها مرفوض:

١ - سوء الظن بالله، وقد ورد في الحديث أن من ترك الزواج خشية العيلة فقد أساء الظن بالله، وكأنّ مثل هذا الشخص يظنّ أنّ الله قادر على تأمين رزقه عندما يكون وحيداً، وأمّا عندما تكون له زوجة ويكون له ولد أو أولاد فإنّ الله يعجز عن تأمين رزقه ورزقهم. وهذا من الظنّ السيئ المنهي عنه.

٢ - سوء الظنّ بالناس وهو المنهي عنه في هذه الآية.

٣ - سوء الظنّ بالنفس، وهو مرغوب فيه، ومدعوّ إليه؛ لأنّ الإنسان لا ينبغي أن يعتزّ بما عنده من صفات حسنة، ويرى نفسه خالياً من العيب والنقص. ومن هنا، نجد أن أمير المؤمنين يعد من صفات المتّقين أنهم لأنفسهم متّهمون. نعم على الإنسان أن يسيء الظنّ بنفسه، وينظر إليها بعين الريبة كي يرى معايها ويعمل على إصلاحها. والمبالغة بحسن الظنّ بالنفس تكشف عن ضعف نور الإيمان، وذلك أن النور الضعيف لا يكشف إلا الأشياء الكبيرة، وأما النور القويّ فإنّه يكشف كل الأشياء حتى صغارها.

والأمر عينه ينطبق على المعاصي والعيوب، فمن ضعف نور إيمانه لا يقدر إلا على رؤية العيوب والمعاصي الكبيرة، وأمّا من قوي نور إيمانه فإنه يكشف كل عيب أو معصية عنده حتى صفات المعاصي والعيوب. وحسن الظنّ بالنفس يمنع الإنسان عن الترقّي والتطوّر في مدارج الكمال. فرحلة التكامل المعنويّ أشبه بالسفر الطويل الذي على صاحبه أن ينظر إلى ما بقي أمامه ليصل إلى المقصد، لا أن ينظر إلى ما قطعه من مسافة ويغتزّ به، ومثل هذا يقنع بما سار ولا يجد في نفسه حافزاً على متابعة السير.

□ لا بدّ من الالتفات إلى أنّ حسن الظنّ لا يعني، بأيّ وجه من الوجوه، السذاجة وسرعة الوثوق بالناس من دون تبصّر؛ ولذلك على الأمة أن لا تحسن الظنّ إلا بمن يستحقّ هذه الطريقة من التعامل معه.

الغيبية وآثارها:

ورد في تعريف الغيبة عدد من الروايات عن أهل البيت، يستفاد منها أنّ الغيبة هي: أن يذكر الإنسان أخاه المؤمن بعبث ستره الله عليه، مما يكره كشفه^(١).

□ ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفّوا عن مساوئهم»^(٢).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «المغتتاب هو آخر من يدخل الجنة إن تاب. وإن لم يتب، فهو أوّل من يدخل النار»^(٣).

□ وعن الإمام الرضا عليه السلام، عن الإمام السجاد عليه السلام: «من كفّ عن أعراض المسلمين، أقال الله عشرته يوم القيامة»^(٤).

□ وعن رسول الله ﷺ: «من اغتاب مسلماً أو مسلمةً، لم يقبل الله له صلواته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلّا أن يفرّ له صاحبه»^(٥).

□ وعنه أيضاً: «يوتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي فإني لا أرى فيه طاعتي. فيقال له: إنّ ربك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثمّ يوتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: لأنّ فلاناً اغتابك فدفعت إليك حسناته»^(٦).

□ سؤال: لماذا كان عقاب دقيقة أو أكثر أو أقل من الغيبة، مذهباً لشواب عبادة ساعات طوال؟ أليس هذا خلاف العدل لعدم التناسب بين المعصية وجزائها؟

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٠ - ٦٠٤.

(٢) نهج الفصاحة، حديث ٢٦٤.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ٩، ص ١١٨.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٦.

(٥) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٨.

(٦) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٩.

الجواب: ربّما لأنّ الغيبة التي تحدث في لحظات تهتك كرامة إنسان وتريق ماء وجهه، الذي حصّله في سنوات من العمل وحسن الظاهر. ومن هنا، فإنّ الغيبة وجزءها بينهما كمال المناسبة.

□ عن رسول الله ﷺ، أنّه قال في آخر سفر له إلى مكّة: «أيّها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إنّ الله حرّم الغيبة كما حرّم المال والدم»^(١).

□ وفي بعض الروايات تقرن الغيبة بشرب الخمر والإدمان عليه: «تحرم الجنة على المغتاب ومدمن الخمر»^(٢).

□ وفي بعض الروايات عن النبيّ ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(٣).

□ وفي الرواية أنّ النبيّ ﷺ ذكر الربا وعظم شأنه، فقال: «إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإنّ أربى الربا عرض الرجل المسلم»^(٤).

□ وفي الرواية عن النبيّ ﷺ: «الجلوس في المسجد انتظار الصلاة عبادة ما لم يحدث. قيل: يا رسول الله وما يحدث؟ قال: الاغتياب»^(٥).

□ وقد شبّهت الغيبة بأكل لحم الميت وذلك أن لحم الحيّ إذا قطع منه ربما ينبت له ما يملأ ذلك الفراغ، وأما جسد الميت فلا يمكن أن يمتلئ محل النقص الذي طرأ عليه، ولعل وجه الشبه أنّ الغيبة تؤدّي إلى الهتك بما لا يمكن جبرانه، ﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.

(١) شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٦٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦٠.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٥٢؛ سنن أبي داود، ج ٢، ص ٥٦٨.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٢٢.

(٥) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧.

جبران الغيبة:

يمكن للإنسان أن يجبر ما ارتكبه من الغيبة في ماضي أيامه. وفي هذا المجال يرى بعض مراجع التقليد^(١) أنه لا يحسن أن نخبر الشخص الذي اغتبناه بما فعلنا؛ إذا كان ذلك يزعجه ويدخل عليه الغم، والحلّ هو بالاستغفار له في السرّ وتحسين سمعته بين من ذكرناه بسوء أمامهم. وإذا كان من تعرّضنا له بالغيبة لا ينزعج من إخباره، فيجب إخباره للتحلّل منه. هذا إذا كان صاحب الحقّ حياً وأمّا إذا توفاه الله قبل الوصول إليه للتحلّل منه، فتجب على الإنسان التوبة وطلب العفو من الله.

□ يفرّق الشيخ الطوسي بين حالة سماع من وقعت عليه الغيبة وحالة عدم سماعه، ففي الحالة الأولى يجب التحلّل منه، وفي الحالة الثانية يجب الاستغفار له كلما ذكره المغتاب؛ ويبدو أن مبنى هذا التمييز هو الرواية التي ورد فيها: «إنّ كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبه كلّما ذكرته»^(٢).

موارد جواز الغيبة:

□ تجوز الغيبة في موارد نشير إلى بعضها في ما يأتي:

- ١ - في مقام المشورة في القضايا المهمة، كما لو استشارك أحد في اختيار زوجة أو زوج، فيجوز لك ذكر العيوب المستورة التي تعرفها.
- ٢ - في حالة إبطال الأفكار الباطلة كي لا يتأثر الناس بهذه الأفكار المضلّة.
- ٣ - في حالة الشهادة أمام القاضي، على مجرم بجرم.
- ٤ - في حالة الشكوى والتظلم.
- ٥ - في حالة ارتكاب المنكر من دون تسرّ، فمثل هذا الشخص هو الذي هتك نفسه، فتسقط حرمة غيبته ما دام لا يستتر بالمعاصي التي يرتكبها.

(١) وقد سألت بنفسني المرحوم السيّد الكلبيكاني، فقال لا يجب إخباره؛ لأنّ ذلك يزعجه وإزعاج المؤمن معصية جديدة؛ يجب التوبة من الغيبة، والاستغفار للمؤمن، إلا إذا كان الأمر لا يزعجه.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٥.

٦ - لردّ الدعاوى غير الصحيحة، كما لو ادّعى أحدهم كذباً أنه مجتهد، أو طيب، أو غير ذلك من الدعاوى غير الصحيحة، ففي مثل هذه الحالة يجوز تكذيبه في دعواه كي لا يتضرر الناس بالأخذ بهذه الدعاوى.

سماع الغيبة:

□ لا تقتصر حرمة الغيبة على المغتاب، بل لا تجوز مشاركة المغتاب، ولو بالسماع والإنصات إليه، وعلى السامع أن ينهى عن الغيبة ويدافع عن المغتاب، فقد ورد في الحديث: «السامع شريك القائل»^(١).

□ وفي الرواية عن رسول الله ﷺ: «من ردّ عن أخيه غيبة سمعها في مجلس، ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدنيا والآخرة، فإن لم يردّ عنه وأعجبه كان عليه كوزر من اغتاب»^(٢).

□ وورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «الغيبه كفر، والمستمع لها والراضي بها مشرك»^(٣).

□ ورد في الآية ٣٦ من سورة الإسراء، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، وبالتالي على المؤمن أن يعلم أنه لا يحقّ له أن يستخدم أذنه لسماع كل ما يشتهي، أو لا يشتهي.

التعاليم:

١ - الإيمان هو التزام عملي، أي إنّ الالتزام بمجموعة من قواعد السلوك هو من لوازم الإيمان التي لا ينبغي أن تنفك عنه، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا﴾.

٢ - على المؤمن أن يجتنب ما يحتمل حرمة، حتّى لا يقترب من ارتكاب الحرام القطعي. (لأنّ الآية تنهى عن كثير من الظنّ، من أجل حرمة بعض أفرادها)، ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا... إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٢٦.

(١) غرر الحكم، الحديث: ٥١٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٦.

- ٣ - القاعدة الأساس في المجتمع المؤمن، هي كرامة الإنسان والحكم ببراءته، ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾.
- ٤ - لمنع الغيبة يجب قطع الطرق المؤدية إليها. (والطريق المفضية إلى الغيبة، هي: سوء الظن، والتتبع، والتجسس إلى غير ذلك؛ ومن هنا فإن القرآن لم يكتف بالنهي عن الغيبة فحسب، بل نهى عن سوء الظن والتجسس)، ﴿أَجْتَنُوا كَيْبَرًا مِّنَ الظَّنِّ... وَلَا جَمَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ﴾.
- ٥ - قد تبدو بعض المعاصي جميلة في الظاهر، إلا أنّ لها باطناً قبيحاً ربّما يفوق التوقع، ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (فالغيبة، في الباطن، هي أكل لحم الأخ ميتاً، ولا توجد بين المعاصي معصية شتبت بهذه الصورة).
- ٦ - من الطرق المناسبة والمؤثرة في الدعوة والتبليغ، الاستفادة من التشبيه وضرب الأمثلة، ﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ﴾.
- ٧ - من المناسب استخدام التعبيرات العاطفية في الدعوة إلى الله، والنهي عن المنكر، ﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.
- ٨ - الغيبة حرام مطلقاً، ولا فرق في حرمتها بين صغير وكبير، أو رجل وامرأة، ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَEْمَعْكُمْ بَعْضًا أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ﴾ (كلمة أحدكم تشمل كل فرد من أفراد الإنسان).
- ٩ - المؤمنون إخوة في الدين متكافئون، ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾.
- ١٠ - الغائب يشبه الميت في أنهما لا يقدران على الدفاع عن نفسيهما، وهذا ما يزيد في قبح الغيبة، لعجز الغائب عن الدفاع عن نفسه، وتصويب الأخبار أو إسكات المغتاب، ﴿مَيْتًا﴾.
- ١١ - الغيبة تكشف عن درجة من التوحش عند فاعلها، ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.
- ١٢ - الغيبة لا تنسجم مع التقوى، ﴿وَلَا يَغْتَبَ... وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾.
- ١٣ - التقوى من الأمور التي تدفع الإنسان إلى التوبة، ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

- ١٤ - لا يسدّ الإسلام الطريق على الإنسان، بل هو يفتح باب العودة والرجوع إلى الله سبحانه بالتوبة، ﴿وَلَا يَنْتَبِ... إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.
- ١٥ - لا يقبل الله التوبة والعذر فحسب، بل يقبلهما مع الرحمة. وإنَّ قبول الله العذر والتوبة يُعدّ من تجلّيات رحمته وعطفه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.
- ١٦ - قبول الله العذر والتوبة، من تجلّيات رحمته وعطفه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.
- ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- يرى بعض المفسرين أنّ هذه الآية مرتبطة بالآيات السابقة، ويقولون: إنّ أحد أسباب الغيبة الاعتقاد بشرف الأصل وكرامة المحتد، وهذه الآية أتت لتقرّر أنّ حكمة الله اقتضت تعدد الشعوب والقبائل، من أجل أن يتعارفوا، لا ليفخر بعضهم على بعض.
- تشير هذه الآية إلى أصول ثلاثة، هي: المساواة في الخلق بين الرجل والمرأة، تفاضل الناس في ما بينهم، وتأسيس هذا التفاضل على قاعدة التقوى. وفي القرآن آيات أخرى تدلّ على بعض المعايير التي تؤدّي إلى التفاضل بين الناس، كالعلم، والسبق إلى الإيمان، والهجرة في سبيل الله.

التعاليم:

- ١ - الذكورة والأنوثة، والانتساب إلى هذه القبيلة أو تلك، لا تبرّر الافتخار على الآخرين؛ فذلك فعل الله وليس كسباً من الإنسان، ﴿خَلَقْتَكُمْ... وَجَعَلْنَاكُمْ﴾.
- ٢ - الاختلاف بين الناس في الانتماء والشكل وما شابه من أشكال الاختلاف، من الأفعال الحكيمة لله تعالى، والتي تهدف إلى غاية هي التعارف، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.
- ٣ - الكرامة التي يكتسبها الإنسان بين الناس أو منهم، سرعان ما تزول؛ والمهمّ هو الكرامة التي يمنحها الله، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

٤ - لا يقَرّ الإسلام والقرآن أي شكل من أشكال التمييز والتفاوت بين الناس، على أسس اقتصادية، أو عرقية، أو لغوية، أو قبلية، أو جنسية، فمعيار التفاضل الوحيد هو التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾.

٥ - الرغبة في التمايز والتفاضل أمر فطري في الإنسان، ولم يبلغ الإسلام هذا الأمر، بل فتح له باباً هو التفاضل في التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾.

٦ - لا ينفع الإنسان التظاهر بتقوى لا وجود لها بين صفاته، فالله سبحانه يطلع على الأفتدة ويعلم ما تكن الصدور، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

□ المراد من الأعراب سكان البوادي الذين آمن بعضهم، حيث ورد في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١)، ولكن بعضهم كانوا يرون أنهم ذوو فضل على الناس، بينما هم ليسوا أكثر من مؤمنين حديثي الإيمان.

الاختلاف بين الإسلام والإيمان:

١ - الاختلاف في العمق: الإسلام هو لون ظاهري، بينما الإيمان هو تمسك قلبي. ففي الرواية عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام، في قول الله تعالى: ﴿سِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ سِبْغَةً﴾^(٢)، قال: الصبغة هي الإسلام، وقال في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْمَرْءِ الْوَتْقَى﴾^(٣) هي الإيمان^(٤).

٢ - الاختلاف في الدافع: قد يكون دافع الإسلام، هو حماية بعض المصالح

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ١٤.

(١) سورة التوبة: الآية ٩٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

المادية أو اكتسابها؛ ولكن الدافع إلى الإيمان لا يكون إلا دافعاً معنوياً. فمن الإمام الصادق عليه السلام: «الإسلام يُحَقَّنُ به الدم، وتوَدَى به الأمانة، وتستحلّ به الفروج، والثواب على الإيمان»^(١).

٣ - الاختلاف في العمل: قد يمكن اعتناق الإسلام من دون عمل، وأما الإيمان فلا يتحقق إلا مقترناً بالعمل؛ كما ورد في الحديث: «الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل»^(٢) وبناء عليه إنَّ الإيمان يتضمَّن الإسلام، والعكس غير صحيح. وفي الحديث تشبيه الإسلام بالمسجد الحرام، والإيمان بالكعبة وسطه^(٣).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان ما استقرَّ في القلب وأفضى به إلى الله تعالى وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل وهو الذي عليه جماعة الناس»^(٤).

٤ - الاختلاف في الرتبة: ورد في الرواية عن أبي الحسن عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين»^(٥).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن نصدّق كلّ شعار ودعوى، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا﴾.
- ٢ - لا يكفي عدم التصديق، بل يحسن إبطال هذه الدعوى، ﴿قُلْ لَمْ تَزِمْنَا﴾.
- ٣ - قد يُقبل من الإنسان أن يحفظ نفسه بالإسلام، ولكن لا يسمح للإنسان أن يدعي أكثر مما له في الواقع، ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.
- ٤ - الإسلام أمر له صلة بظاهر الإنسان، وأما الإيمان فهو من الأمور ذات الصلة بالقلب، ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ٢٦.

(٥) الكافي، ج ٢، ص ٥١.

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٤.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٤.

(٣) الكافي، ج ٢، ص ٥٢.

- ٥ - في مواجهة الدعاوى الباطلة يجب فتح الباب أمام أصحاب هذه الدعاوى، لتصحیح أوضاعهم، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (حيث يقول الله: «لما...» ولم يقل «لن»).
- ٦ - الطريق إلى الإيمان يمرّ عبر الطاعة والعمل، ولا يصل الإنسان إلى هذه المرتبة بالدعوى باللسان، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ... وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٧ - قرن الله الدعوة إلى طاعة الرسول بالدعوة إلى طاعته سبحانه، وهذا يكشف عن عصمة النبي ﷺ، وبالتالي تجب طاعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٨ - الله سبحانه عادل لا يضيع شيئاً من عمل الإنسان، ولا ينقص من ثوابه شيئاً. (وهذه القاعدة، أي قاعدة العدل، يجب أن تُراعى في إدارة الأمور كلها)، ﴿لَا يَلْتَكِرُ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئاً﴾.
- ٩ - طاعة الله سبحانه، من الأمور الممهّدة لنزول الرحمة ونيل المغفرة الإلهية، ﴿تُطِيعُوا... أَنْتَ اللَّهُ عَفْوَ رَجِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

سمات المؤمن الحقيقي:

- توجد في القرآن الكريم أربع آيات تبدأ بقوله تعالى: «إنما المؤمنون»، وهذه الآيات تحدد معالم الشخصية المؤمنة الرئيسة، وهذه الآيات هي:
- ١ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).
- ٢ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا﴾^(٢).

٣ - وفي هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٤ - هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها.

عندما تُجمع هذه الآيات معاً تكشف عن المعالم العامة الرئيسة لشخصية المؤمن الحقيقي، الصادق في إيمانه؛ أي أولئك المؤمنين الذين يقول الله عنهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾^(١)، ويقول عنهم في موضع آخر: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢). ومن السمات التي يتصف بها المؤمنون:

١ - وجل القلوب لذكر الله، ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٢ - هم في حال تكامل دائم، وفي حالة تعلق كامل بالرسالة الإلهية على مستويي العمل والإيمان، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

٣ - لا يعتمدون ولا يتوكلون على غير الله، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٤ - يلتزمون بمتابعة النبي في كل أمر من أمورهم، ولا يتقدمون عليه ولا يفارقونه حيث يجب أن يكونوا معه، ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

٥ - لا يرى أحدهم نفسه أفضل من أخيه المؤمن، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٦ - راسخو الإيمان، بنوا إيمانهم على العقل والمعرفة، ولم يلابس إيمانهم شك؛ ولذلك لا يرتابون في الزلازل، ولا تؤثر فيهم الدعاية المغرضة والشبهات التي تثار بين فينة وأخرى، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

٧ - مستعدون دائماً لبذل الأرواح والأموال، عندما يطلب منهم ذلك، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

التعاليم:

١ - يجمع القرآن بين ذكر معيار التفاضل والتكامل، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾، وبين الإشارة إلى النموذج الأكمل في ميدان التفاضل الاجتماعي، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾.

- ٢ - لا بدّ من أن يقترن الإيمان بالله بالإيمان بالنبى ﷺ، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٣ - من علامات صدق الإيمان وثباته، عدم الريب وانتفاء الشك، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.
- ٤ - الإيمان أمر باطنى، يكشف عنه العمل والسلوك الخارجى، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ... وَجَاهِدُوا﴾.
- ٥ - عندما لا يقترن الإيمان بالجهاد، يتحوّل إلى شعار وعنوان فارغ، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ (فكمال الإيمان بالاستعداد لبذل المال والنفس في سبيل الله).
- ٦ - يجب أن يكون الجهاد بالمال والنفس، في الثقافة الإسلامية، في سبيل الله، ﴿وَجَاهِدُوا... فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
 وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

إشارات:

- حاول بعض الناس التظاهر بالتدين بالقسم بين يدي الرسول ﷺ على صدق إيمانهم، فنزلت هذه الآية للفت أنظارهم إلى عدم الحاجة إلى القسم والتظاهر بالإيمان، فالله سبحانه يعلم السرّ وما يخفى.
- عرض الإيمان على أولياء الله، قد يكون بهدف التصحيح وتحصيل الاطمئنان، كما فعل السيّد عبد العظيم الحسينى عندما عرض إيمانه على الإمام الهادي عليه السلام، ومثل هذا الفعل مقبول وحسن. وقد يكون بهدف الرياء والتظاهر ومثل هذا الفعل لهذا الهدف يستحقّ فاعله الذمّ.

التعاليم:

- ١ - التظاهر بالإيمان بين يدي الرسول هو بمنزلة التظاهر بين يدي الله تعالى، فهؤلاء يقسمون بين يدي النبى ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿أَتَمَلُّونَ اللَّهَ...﴾.

- ٢ - لا داعي للتظاهر والادعاءات عندما تكون بين يدي الله تعالى، فالله عالم بالسرائر لا يخفى عليه شيء، ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.
- ٣ - يعلم الله سبحانه وجود الأشياء والأشخاص وخصائصهم وصفاتهم التي يتصفون بها، ﴿يَعْلَمُ... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- عندما آمن بنو أسد حسبوا أنهم يقدمون بإيمانهم خدمة للنبي وربما لله تعالى؛ ولذلك كانوا يطالبون بتقديرهم على إيمانهم، فنزلت الآية في لفت نظرهم إلى أنه إذا كان لا بد من المنّ فإنّ الله يجب أن يمنّ عليهم أن هداهم إلى الإيمان.
- يتحدث الله سبحانه عن منّهُ على الناس بالهداية في هذه الآية، وإرسال الأنبياء في الآية ١٦٤ من سورة آل عمران، وبورائة المستضعفين الأرض، وهذا يكشف عن أنّ أعظم المنن نعمة الهداية وإرسال الهداة المعصومين لقيادة البشرية.

التعاليم:

- ١ - تعد الهداية إلى الإيمان والإسلام من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ﴾.
- ٢ - لا حاجة لله تعالى في إيماننا وأعمالنا من عبادة وغيرها، ﴿لَا تَمُنُوا عَلَيَّ﴾.
- ٣ - من علامات صدق الإيمان الاعتقاد بأنّ الهداية إلى الإسلام منّة إلهية على الناس، لا العكس، ﴿لَا تَمُنُوا... بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.
- ٤ - المنّ على النبي ﷺ هو بمنزلة المنّ على الله تعالى، ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ... بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ...﴾ (وذلك أنّ الله سبحانه تولّى الجواب عن منّهم على النبي ﷺ).
- ٥ - الناس في بعض الحالات يحسبون أنهم بإيمانهم يسدون خدمة لله أو للنبي،

﴿يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، ولكن دقة النظر تكشف عن أن الله هو الذي من على الناس بتمهيد سبل الهداية إلى الإسلام، ﴿هَدَنَّاكَ لِلْإِيمَانِ﴾.

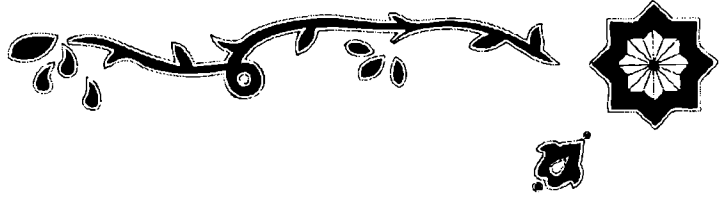
٦ - الإيمان هو المقصد والغاية لمسيرة التكامل الإنساني، ﴿هَدَنَّاكَ لِلْإِيمَانِ﴾، وليس التظاهر بالإيمان وادّعاؤه، وبعد هذا الأخير من فعل المنافقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - توجد أسرار مخفية في آفاق السماء وأقطار الأرض لا يعلم الإنسان منها شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢ - قد تكون الدوافع الخفية الكامنة في نفس الإنسان أخفى من غيب السماوات والأرض. (فالله سبحانه استعمل كلمة يعلم في الحديث عن غيب السماوات والأرض، وكلمة بصير في الحديث عن الإنسان).
- ٣ - لا محلّ للدعاوى وإطلاق الشعارات في ساحة التوحيد والقيم الإسلامية ولا مجال للمنّ، بل كل القيم والآثار والنتائج تترتب على الإخلاص والإيمان الصافي، الأمر الذي لا يعلمه سوى الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٤ - لو أن الإنسان يلتفت بشكل دائم إلى علم الله وبصيرته النافذة، لدقق في كلّ حركة وسكون، وفي كل قول وفعل يصدر عنه، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ٥ - علم الله وبصيرته توأمان، وبالتالي علم الله علم مطلق منزّه عن الإجمال والغموض والشك والترديد، أو التغيّر بحسب المستجدات والظروف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ... وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»



سورة قاف

السورة: ٥٠ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٤٥



ملاحح سورة ق

سورة «ق» مكية، عدد آياتها خمس وأربعون آيةً. سُميت بهذا الاسم بالنظر إلى الحرف المقطع الوارد فيها. المحور الأساس لهذه السورة، كما أكثر السور المكية، مسألة المعاد وبيان مصير الأمم السابقة، وشرح مصائر أهل الصلاح وأهل الفساد. تبدأ السورة بالحديث عن استبعاد المشركين فكرة العودة إلى الحياة بعد الموت، وتثبت إمكان ذلك من خلال الإشارة إلى بعض النماذج الطبيعية، والإشارة إلى خلق الإنسان. وتقدم السورة موت الإنسان والحوادث المذهلة قبيل يوم القيامة على أنها مقدمات لذلك اليوم، كما وتحدث عن الجنة والنار وصفاتهما.

وأخيراً تقدم السورة وصفاً لنجاة الإنسان وأمنه من كل المخاطر التي سوف تحيط به، وهذه الوصفة هي ذكر الله وطاعته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ

هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ هذه السورة من تسع وثلاثين سورة تبدأ بالحروف المقطعة، وكما قلنا مراراً ونعيد هنا إنَّ المعنى الذي ترمي إليه هذه الحروف هو الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، من جهة أنه مؤلف من حروف الهجاء المعروفة، ومع ذلك يعجز المشركون عن الإتيان بمثله؛ ولذلك نرى أن الله سبحانه بعد الحرف «ق»، يقسم بالقرآن: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

□ موارد التعجب تجاه رسول الله ﷺ وما نزل عليه من وحي وما صدر عنه من أوامر ونواه، اثنان أحدهما تعجب إيجابي والآخر سلبي، أما التعجب الإيجابي فهو تعجب الجن لما سمعوه من القرآن الكريم، إذ قالوا: ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(١).

وأما التعجب السلبي فهو تعجب المشركين إذ تعجبوا أن جاءهم منذر منهم: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾، كما وتعجبوا لدعوته إلى التوحيد وجعل الآلهة إلهاً واحداً: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٢). وتعجبوا أيضاً لحديثه عن الحساب على الأعمال يوم القيامة: ﴿أَفَمَنْ هٰذَا الَّذِي يَتَعَبَّوْنَ﴾^(٣). بل وتعجبوا لحديثه عن فكرة البعث والحياة بعد الموت: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَّبْ قَوْلَهُمْ أٰءِذَا كُنَّا تُرَابًا أٰءَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٤).

التعاليم:

١ - القسم بالقرآن عظيم، لعظمة القرآن ومجده، ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

(٣) سورة النجم: الآية ٥٩.

(٤) سورة الرعد: الآية ٥.

(١) سورة الجن: الآية ١.

(٢) سورة ص: الآية ٥.

- ٢ - من أراد المجد والعظمة عليه أن يعود إلى القرآن ويقبل عليه، ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾.
- ٣ - إذا كان القرآن مجيداً وكراماً، فعلينا نحن أن نمجده ونكرمه، ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(١).
- ٤ - غير العاقلين يرون المنكر معروفاً والكمال نقصاً. وكون الرسول من جنس المرسل إليهم ومن بينهم أمر حسن يتناسب مع الحكمة الإلهية؛ ولكن الكفار يرون فيه أمراً عجبياً، ﴿عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٥ - من الأمور المهمة التي تقع على عاتق الأنبياء وتدخل في مهامهم، إنذار الناس وتحذيرهم، ﴿مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٦ - إنكار البعثة وإرسال الله الأنبياء كفر، ﴿عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ... فَقَالَ الْكٰفِرُونَ﴾.
- ٧ - المنطق الذي يستند إليه الكفار عبر التاريخ هو إثارة التعجب والاستغراب، ﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (لا يملك الكافرون برهاناً أو دليلاً لردّ دعوات الأنبياء أو إثبات بطلان مقولاتهم فيلجأون بدل الدليل إلى التظاهر بالتعجب والاستغراب).

﴿لَوْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- مراد الكفار من استبعاد الرجوع، هو البعد بحسب العقل والعادة؛ أي إن عقولهم تستبعد عودة الإنسان إلى الحياة بعد موته، وهذا يكشف عن عجزهم عن إثبات استحالة العودة إلى الحياة بالدليل؛ ولذلك لجأوا إلى الاستبعاد.
- كلمة «مريج» تتضمن معنى الاختلاط والتشويش، كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ﴾

الْبَحْرَيْنِ يَلْقَانِ﴾^(١). وقد استعملت هذه الكلمة بصيغة الصفة المشبهة فقط في القرآن، للدلالة على دوام هذه الحيرة التي يصاب بها الكافرون.

التعاليم:

- ١ - التذكير بالمعاد والحياة بعد الموت، من المحاور الأساس في دعوة الأنبياء، ﴿جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ... ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.
- ٢ - على المؤمنين والدعاة إلى الله عدم تجاهل الشبهات، بل لا بد من التوقف عندها وتقديم الحلول والأجوبة الواضحة عنها؛ فالكفار ينكرون المعاد بعد مشاهدتهم تلاشي جسم الإنسان في التراب؛ ولذلك يردّ الله سبحانه بأنه يعلم ما تفعل الأرض بهم، ﴿أَوَدَا يَتَنَاءَا... قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾.
- ٣ - كل التحوّلات التي تطرأ على المادة والماديات يعلمها الله، بل هي خاضعة لنظام واضح وتقدير إلهي محدد، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾.
- ٤ - من الخواص التي تتصف بها الأرض إتلاف الأجسام التي تُدَقَّن فيها، ﴿تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.
- ٥ - علم الله سبحانه بذرات الوجود المادّي، لا يتنافى مع ضبط الأمور وإثباتها بالأدلة، ﴿عَلِمْنَا... وَعِنْدَنَا كِتَابٌ﴾ (كما عندما تقول لشخص أنا أعلم أمراً ما، ثم تأتي له بدليل يثبت ما تقول).
- ٦ - يتم الله الحجّة على الكفار قبل أن يحكم عليهم، ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾.
- ٧ - منشأ الاضطراب والحيرة إنكار الحقّ والتكذيب به، كما أنّ منشأ الاطمئنان والهدوء ذكر الله والإيمان به، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ... فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾.
- ٨ - من لا يشتمل قلبه على إيمان ثابت يصاب بالتشويش والحيرة في كل كلمة يقولها، ويواجهه الاضطراب في كل أمر يقدم عليه، (فتارة كانوا يتهمون النبيّ بالسحر وأخرى بالتعلّم من البشر، وثالثة بالجنون، ولم يستقرّوا في

مواجهتهم للنبي ﷺ على تهمة أو دليل يبطلون به دعواه النبوة، ﴿وَيَأْمُرُ مَرْيَمَ﴾.

﴿أَفَأَنْزَلْنَاهُمْ فَوْقَهُمْ سَمَاوَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَدَّلْنَا بَدِيبَهَا لِيُنبِتَ مِن تَحْتِهَا أَشْجَارًا وَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمَصْبُورُ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثَبِّرٍ﴾ (٨) ﴿

إشارات:

□ «رواسي» جمع راسية، والراسي هو الأمر الثابت المحكم.
□ الحديث عن قانون الزوجية من وجوه الإعجاز القرآني، ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

□ يستند استغراب المعاد والتعجب من عودة الإنسان إلى الحياة، إلى مجموعة من الأمور:

أ - استغراب واستبعاد إمكانية جمع أجزاء الجسد الذي تلاشى في التراب، فكيف يمكن التعرف إلى هذه الأجزاء المتلاشية لإعادة تركيبها؟

ب - وعلى فرض معرفة هذه الأجزاء فكيف يمكن تركيبها وإعادة جمعها؟

والآية الرابعة تجيب عن الشبهة الأولى، وتثبت علم الله بهذه الأجزاء ومعرفته إياها، ﴿عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾.

وفي ردّ الشبهة الثانية تتحدث هذه الآيات عن قدرة الله الواسعة، من خلال الإشارة إلى مظاهر قدرته في السماء والأرض.

□ التعقل والتفكير في الإسلام هما الأصل الذي ينبغي أن يبنى عليه الإيمان، ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثَبِّرٍ﴾؛ وأما الدعاء والمناجاة وما سواهما فهي الخطوة الثانية التي تترتب على الأصل الأول: ﴿وَتَنفَكُّرًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ...﴾^(١). والقرآن الكريم يشي على بعض المؤمنين ويسند

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

عواطفهم الصادقة إلى معرفتهم السابقة: ﴿أَعْيَنَهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الذَّمِّ مِمَّا عَرَفُوا مِن
الْحَقِّ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الطبيعة هي مدرسة معرفة الله، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ...﴾.
- ٢ - على الداعي أن يدعو إلى الله من خلال الإشارة إلى النماذج والأمثلة، فالله سبحانه في هذه الآية يثبت إمكان المعاد من خلال الإشارة إلى مظاهر قدرته في السماء والأرض، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا...﴾.
- ٣ - يستحقّ الذين لا يتأملون في خلق الله، ثم يستنكرون المعاد، اللوم والتأنيب، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا...﴾.
- ٤ - العالم كلّه والسماء والأجرام التي فيها، محكومة لنظام لا محلّ فيه للخلل، ﴿كَيْفَ بَيَّنَّهَا... وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ...﴾.
- ٥ - تشتمل الأرض على جبال راسخة ثابتة، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ...﴾.
- ٦ - المتانة والجمال صفتان من صفات خلق الله في السماء والأرض، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ... رَبَّنَا السَّمَاءَ... وَأَلْقَيْنَا... رَوَاسِيَ... زَوْجَ بَهِيمٍ...﴾.
- ٧ - خروج النبات من الأرض حياة لها بعد موتها، وهو نموذج تقريبي للمعاد ويوم القيامة، ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ... وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيمٍ...﴾.
- ٨ - النظر في النبات ومظاهر الجمال في الطبيعة من الأمور التي تثير البهجة في نفس الإنسان، ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ... وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيمٍ...﴾.
- ٩ - على الإنسان أن يستفيد من مظاهر القدرة الإلهية في الخلق كي لا تبقى ذرّة من الشكّ في نفسه، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا... وَبَيَّنَّاهُ... رَبَّنَا... مَدَدْنَاهُ... وَأَلْقَيْنَا... وَأَنْبَتْنَا...﴾.

- ١٠ - التبصّر في خلق الله من أعظم النعم، وأعمها، وأقربها، وأسلمها، وأدومها، وأكثرها إثارة للبهجة في النفس، ﴿بِهَيْجٍ﴾.
- ١١ - النظر والتأمل، في الرؤية النبوية، مقدّمة للفهم والتبصّر، والاعتبار، ﴿يَنْظُرُوا... بَصِيرَةً وَذِكْرًا﴾.
- ١٢ - طريق العودة إلى الله مفتوحة في وجه خلقه جميعاً، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾.
- ١٣ - عندما يتوقّف الإنسان على قلب مستعدّ للمعرفة، تتحول الدنيا كلها إلى مختبر وميدان للبحث والدراسة، ﴿بَصِيرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾.
- ١٤ - الجمال، وكل ما يبعث البهجة في النفوس، وسيلة للقرب من الله والفهم، وليس وسيلة للتسلية والترف، ﴿زَيْنًا... رَوْحَ بَهِيْجٍ... بَصِيرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾.
- ١٥ - التواضع مقدّمة للفهم، والغرور منشأ للحرمان من النعم، ﴿بَصِيرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ﴾.
- ١٦ - الإنابة إلى الله والتضرّع إليه من لوازم العبودية، ﴿عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعُ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مِّمَّنَّا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- الحصيد، من الحصاد، وهو جني الزرع. وباسقات جمع باسقة؛ أي طويلة القامة. والطلع براعم النخل التي تتحوّل إلى تمر. ونضيد أي متراكم بعضه فوق بعض.
- جمع المحاصيل الزراعية من أكثر الأمور إثارة للبهجة والسرور في نفس المزارعين، ﴿...وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.
- تمثل هذه الآيات لتقريب فكرة المعاد والبعث، بنموّ النباتات في الأرض واخضرارها بعد أن تكون ميتة لا حياة فيها.

- عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: «ليس من ماء في الأرض إلا وقد خالطه ماء السماء»^(١).
- عن الإمام علي عليه السلام، أنه كان إذا أصابه المطر مسح به صلعته، وقال: «بركة من السماء لم يصبها يد ولا سقاء»^(٢).

التعاليم:

- ١ - لا تنافي بين إسناد نزول المطر إلى إرادة الله تعالى، وبين وجود عوامل وأسباب طبيعية تساعد على نزوله، ﴿وَنَزَّلْنَا﴾.
- ٢ - المطر من الأسباب الضرورية للحياة على الأرض، وبه ترتفع الآفات والأمراض منها، وينمو الزرع، ويلطف الهواء، وتجري الينابيع، ﴿مُبْرَكًا﴾.
- ٣ - للنخل حسابه الخاص، وأهميته التي تفوق ما لسواه من أصناف الشجر والتمر؛ (فقد خصه الله سبحانه بالذكر دون سواه مما في الجنات)، ﴿جَنَّاتٍ... وَالنَّخْلِ﴾.
- ٤ - ظهور النبات في الأرض له أهداف وغايات مبنية على الحكمة الإلهية، ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾.
- ٥ - يجب أن يكون الرزق، الذي يمن الله به على العباد، سبباً لحسن العبودية، ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾.
- ٦ - من الأساليب الدعوية المناسبة، الاستفادة من المحسوسات لتقريب المعقولات إلى الأذهان، ﴿وَأَحْيَيْنَا يَدَ بِلْدَةٍ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.
- ٧ - التأمل في قدرة الله وجوده فهما تساعد الإنسان على تعقل إعادة الموتى إلى الحياة، ﴿بَيْنَهَا وَرَبَّتْهَا... مَدَدْتَهَا وَالْقَيْنَا... وَأَنْبَتْنَا... وَنَزَّلْنَا... فَأَنْبَتْنَا... وَأَحْيَيْنَا... كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.
- ٨ - تشتمل الأفعال الإلهية على الجامعية والشمول، فقد مزج سبحانه بين إتقان

الصنع والحكمة والمعرفة والهداية معاً (طول النخل، وجمال طلعه، من علامات القدرة الإلهية على الخلق. والارتزاق من هذا الخلق من علامات الحكمة، ودلالة اخضرار الأرض بعد بياسها على إمكان الحياة بعد الموت، من علامات الهداية ومن السبل إلى المعرفة الإنسانية بالقدرة الإلهية)، ﴿بَاسَقَتِ... نَفْسِي... رَفَا... كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١١﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿١٣﴾ وَقَوْمُ تَيْبَعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ ورد ذكر أصحاب الرسّ في القرآن مرتين، مرة في هذه السورة ومرة أخرى في سورة الفرقان الآية ٣٨. وأصحاب الرسّ قوم كانوا يسكنون في اليمامة، وكان لهم نبي اسمه حنظلة، فكذبوه وألقوه في البئر، فسّموا بهذا الاسم، والرس هو البئر. ويرى بعض المفسرين أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة الصنوبر^(١). وعن الإمام الصادق عليه السلام ما يدلّ على أنّ سبب نزول العذاب عليهم هو الشذوذ الجنسي عند نسائهم^(٢).

□ وثمود هم قوم النبي صالح عليه السلام، وعاد هم قوم النبي هود عليه السلام.

□ «الأيكة» شجر ملتفت. وأصحاب الأيكة هم قوم النبي شعيب عليه السلام، قيل نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل هي اسم بلد. وقد وردت الإشارة إليهم في القرآن في سورتي الحجر والشعراء.

□ «تبع»، لقب لملوك اليمن كما يقال لملك الفرس كسرى، ولملك الروم قيصر، وقوم تبع هم أتباع هؤلاء الملوك. وقد ورد ذكرهم في سورة الدخان الآية ٣٧. وعن الصادق عليه السلام: «إِنَّ تَبَعًا قَالَ لِلأَوْسِ وَالخَزْرَجِ كُونُوا هَا هُنَا حَتَّى يَخْرُجَ هَذَا النَّبِيِّ أَمَا أَنَا فَلَوْ أَدْرَكَتْهُ لَخَدَمْتَهُ وَخَرَجْتَ مَعَهُ»^(٣).

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٠٨.

(١) تفسير نمونه.

(٢) الكافي، ج ٥، ص ٥٥١.

□ سمي قوم لوط بإخوانه؛ لأنهم عشيرته وأقاربه^(١). إلا أن القرآن يعبر في موارد أخرى عن الأنبياء بالإخوان، وربما انطبق هذا على قوم لوط أيضاً، وبالتالي لا يكون لهذه التسمية دلالة خاصة في حق لوط عليه السلام.

التعاليم:

- ١ - التعرف إلى تاريخ الأنبياء السابقين ومعاناتهم فيه ما ينفع للتخفيف عن النبي ﷺ، ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ﴾.
- ٢ - التضاد بين الحق والباطل أمر مستمر طوال التاريخ الإنساني، ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ﴾.
- ٣ - يرسل الله الأنبياء لإتمام الحجّة على الناس. وإذا عاند الناس وأصروا على الكفر والتمرد ومواجهة دعوة الحق فعندها ينزل الله عقابه وعذابه، ﴿كَذَّبَ الرَّسُلِ... هُنَّ وَعِيدِ﴾.
- ٤ - يعاقب الله بعض الناس في الدنيا، ولا يؤجل عقابهم إلى الآخرة، ﴿هُنَّ وَعِيدِ﴾.
- ٥ - يوجد الكثير من العبر والدروس في تاريخ الأمم السابقة، ﴿كَذَّبَ الرَّسُلِ... هُنَّ وَعِيدِ﴾.
- ٦ - لا يبقى تكذيب الأنبياء دون أثر يربّبه الله عليه كالعقاب في الدنيا أو الآخرة أو في كليهما، ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ هُنَّ وَعِيدِ﴾.

﴿أَعْيَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا
بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ «عيينا» من العي وهو العجز وعدم القدرة. واللبس بمعنى الخلط والاشتباه.

□ الوسوسة في اللغة الصوت المنخفض الخفي، وفي الاصطلاح كناية عن الأفكار الباطلة التي يلقيها الشيطان أو غيره في روع الإنسان.

□ كلمة «وريد» من مادة «ورد»، والورود هو السير نحو الماء والوصول إليه. وربما يكون إطلاق هذا الاسم على أحد الشرايين الأساس في جسد الإنسان، من جهة أنه السبيل الأساس لحركة الدم بين القلب وسائر البدن.

□ على الداعي أن يستفيد من كل أساليب التعبير المشروعة لبيان الحق، فالله سبحانه في الآيات السابقة أشار إلى قدرته التي تتجلى في السماء والأرض، ثم أشار إلى عاقبة الأقسام الذين عاندوا الحق. وفي هذه الآيات يخاطب عقول الناس ووجدانهم، ويسأل: هل عجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الإعادة؟

□ بين هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَرْبُّ إِلَهٍ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(١) تشابه وشيء من الاشتراك.

□ منشأ الوسوسة أمور ثلاثة، هي:

أ - النفس ورغباتها، ﴿تُوسَّوْشُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

ب - الشيطان، ﴿فَوَسَّوَسَ لِمَا الشَّيْطَانُ﴾^(٢).

ج - بعض الناس والجن، ﴿الَّذِي يُوسَّوْشُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّكَاسِ﴾^(٣).

□ علم الله بأمورنا وأحوالنا له سببان، هما:

أ - لأنه خالقنا، والخالق يعلم أحوال المخلوق وأوضاعه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾^(٤).

ب - إحاطته بنا وقربه منا، ﴿نَعْلَمُ... وَمَنْ أَرْبُّ إِلَهٍ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

ولأجل هذين السببين كان علم الله دقيقاً وشاملاً، ومباشراً ومن دون واسطة.

(٣) سورة الناس: الآيات ٥ و٦.

(٤) سورة الملك: الآية ١٤.

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠.

□ منشأ الشك في المعاد، أمران هما:

أ - عدم الإيمان بقدرة الله على معرفة أفعال الإنسان والأماكن التي تفرقت أجزاء جسده فيها، ليجمعها ويحاسبه على ما فعل.

ب - عدم الإيمان بقدرته على إعادة الإنسان الميت إلى الحياة.

وهذه الآية تقدم الجواب عن الشبهتين معاً: فالله هو الذي أنشأ الإنسان في المرة الأولى، ومن ينشئ هو قادر على الإعادة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾. والشبهة الثانية حول إحاطة علم الله، ترد عليها الآية بإثبات علم الله بما يدور في خلد الإنسان وسره، ﴿وَتَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

التعاليم:

١ - خلق الكائنات كلها دليل على قدرة الله على إعادتها إلى الحياة بعد موتها. فعندما يكون الخلق الأول ممكناً يكون الثاني مثله في الإمكان، ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾.

٢ - في الجدل مع المختلفين والمعارضين، على الإنسان أن يستفيد من أوضح العبارات وأكثرها اختصاراً، ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ (فالقول بإمكان الخلق الأول واستحالة الثاني تناقض غير مقبول).

٣ - لا يملك الكافرون دليلاً يدل على استحالة المعاد، بل كل ما يستندون إليه هو الشك، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾.

٤ - على من يسعى إلى إصلاح عقيدته أن يبعد الوسوسة عنه ويردّ الشبهات التي تحوم على قلبه وتحاول السيطرة على عقله (فإنكار القيامة يستند بحسب هذه الآية إلى الوسوسة والشك الذي يدور في نفس الإنسان)، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ...﴾.

٥ - علم الله محيط بالإنسان ما دام حياً، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

﴿إِذْ يَنْفَلِي الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَقِيدٌ ﴿١٨﴾
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ «قعيد»، صفة للملائكة الملازمين للإنسان يحصون عليه أفعاله وأقواله، وليس المراد به الملكين عن يساره ويمينه.

□ «رقيب» أي مراقب، و«عتيد» أي مستعد للخدمة، و«السكرة» من السكر وهو حالة تصيب الإنسان فيفقد فيها جزءاً كبيراً من وعيه وعقله، و«تحيد» أي تعدل وتميل.

□ يعبر الله سبحانه في هذه الآية عن الحالة التي تصيب الإنسان عند الموت بالسكرة؛ وذلك لشدة هول تلك اللحظة، كما يعبر عن حالة الناس يوم القيامة بتعبير قريب من هذا المعنى: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾^(١).

□ تشير الآية من بين أفعال الجوارح كلها إلى: «ما يلفظ من قول»؛ وربما كان ذلك لسهولة عمل اللسان وخفته، ودوامه، وشدة أذاه في بعض الحالات.

□ الالتفات إلى الرقابة الإلهية الدائمة، وإحصاء الملائكة على الإنسان أنفاسه، والذكر الدائم للحظة الموت، من الأسباب المساعدة على ملازمة التقوى.

□ تعدد الشهود من الأسباب المساعدة على ملازمة التقوى، ومن الدوافع الأساس لفعل الخير وتجنب المنكر والشر، ﴿عَنِ الْيَمِينِ... وَعَنِ الشِّمَالِ... رَقِيبٌ عَقِيدٌ﴾.

التعاليم:

١ - على الرغم من الاطلاع الإلهي والإحاطة العلمية لله سبحانه، إلا أنه أراد ﷻ أن يكون ضبط الأفعال وإحصاؤها على يد ملائكة أوكل إليهم هذه المهمة، وربما كان ذلك من باب جريان الأمور بأسبابها، ﴿إِذْ يَنْفَلِي الْمُتَلَقِينَ﴾.

- ٢ - يخضع عمل الملائكة لنظام تقسيم المهام، ففي بعض الروايات ما يدل على أن ملائكة اليمين يسجلون أعمال الخير، وملائكة الشمال يسجلون أعمال الشر^(١)، ﴿التَّائِبِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَمِيْدًا﴾.
- ٣ - لا يُسأل الإنسان عن أفعاله فحسب، بل يُسأل أيضاً عن أقواله وما يصدر عن لسانه، ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾.
- ٤ - الرقابة التي يتعرّض لها الإنسان ذات قيمة ولها آثار تترتب عليها؛ ولذلك تضبط حركات الإنسان كلها، ﴿عَنِ الْيَمِينِ... وَعَنِ الشِّمَالِ... رَقِيْبٌ عَيْنِيْدًا﴾.
- ٥ - يفقد الإنسان في لحظات الموت توازنه وحالته الطبيعية المعتادة قبل الدخول في اللحظات الأخيرة من حياته، ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾.
- ٦ - سكرة الموت أمر حتمي يصيب البشر جميعاً، ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.
- ٧ - الرغبة بالتخلّص من الموت والفرار من لوازم الطبيعة البشرية ومقتضياتها، ﴿كُنْتَ مِنْهُ يَحِيْدًا﴾.

﴿وَحَامَتِ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَابِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ٢١ ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيْدٌ﴾ ٢٢ ﴿وَقَالَ فَرِيْنُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْنِيْدٌ﴾ ٢٣ ﴿أَلْفِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ٢٤ ﴿مَنَاجٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَمِرٍ مُّرِيْبٍ﴾ ٢٥ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيْدِ﴾ ٢٦

إشارات:

□ تشبه المراحل التي يمرّ بها الإنسان يوم القيامة عند محاكمته، مراحل صدور الحكم في الدنيا، فالإنسان يُضبط ويُقاد أولاً ثم يواجه بالشهود، ﴿سَابِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وبعد ذلك يقدم للمحاكمة وتبين له جرائمه حتى يعرف ما هو ذنبه، ﴿كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا﴾، ثم بعد ذلك يصدر الحكم وينفذ عليه، ﴿أَلْفِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾.

□ «عتيد» فيها إشارة إلى النظام والدقة في عمل الملائكة، و«عنيد» من العناد وهو اللجاجة في طلب أمر ما، و«متاع» كثير المنع بخيل، و«مريب» صفة لمن يشير الشك في نفوس الناس.

□ «كفار» مبالغة من الكفر؛ أي كثير الكفر، ومن يوصف بهذا الوصف يكون قد بلغ الغاية في الكفر والعناد، ولا يكفي بالكفر بل يدعو الناس إليه ويعيقهم عن الهداية، ومثل هذا الإنسان عاقبه النار من دون شك.

□ الناس تجاه فعل الخير على أقسام:

أ - منهم من يسارعون في الخير ويسبقون إليه: ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(١).

ب - ومنهم من هم مصدر الخير وأصله، ولذلك فهم يدعون الناس إليه: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(٢).

ج - ومنهم من يعادون الخير ولا يقدمون على فعله: ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾.

□ يوجد تناسب بين فعل الإنسان وبين العقاب الإلهي المترتب عليه؛ ومن هنا فإن من يمنع الخير، ومن هو كفار مثير للشبهات في أذهان الناس، مثل هذا لا بد من أن يكون عذابه شديداً، ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام، أن القرين هو الملاك الشاهد على الإنسان^(٣).

□ الملكان الموكلان بالقاء المجرمين في جهنم، هما: إما سائق وشهيد، وإما رقيب وعتيد.

التعاليم:

١ - يحضر جميع الناس يوم القيامة للحساب بين يدي الله تعالى، وكما في محاكم الدنيا يرافق كل واحد منهم ملاك يراقبه، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾.

٢ - لا مجال للفرار من محكمة يوم القيامة، ولا لإنكار التهم المنسوبة إلى الإنسان، ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

(٣) تفسير نمونه.

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

- ٣ - كل واحد من الملائكة له وظيفة ودور محددان، ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.
- ٤ - الغفلة التي تصيب بعض الناس في الدنيا عميقة ومستولية على كياناتهم، ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ (التنوين للتعظيم، و«في» تدل على الاشتمال والظرفية).
- ٥ - الدنيا وما فيها من مظاهر هي أحد أسباب الغفلة التي تصيب الإنسان، ﴿غَفْلَةً... غِطَاءَكَ﴾.
- ٦ - الغطاء الذي يؤدي إلى غفلة الإنسان هو غطاؤه هو، ولذلك نسب إليه، ﴿غِطَاءَكَ﴾.
- ٧ - الدنيا هي دار الغفلة، والآخرة هي دار اليقظة والوعي، ﴿كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ... فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَيْدٌ﴾.
- ٨ - الأفعال التي تصدر عن الإنسان في الدنيا تصيبه بالغفلة وتمنعه عن معرفة الحق وتحجب عنه الرؤية، وفي الآخرة ترتفع آثار هذه الأعمال ويغدو الإنسان قادراً على معرفة الحق والتمييز بينه وبين الباطل، ﴿غِطَاءَكَ... فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَيْدٌ﴾.
- ٩ - الإنسان غافل في الدنيا وسطحي النظر، وأما في الآخرة، عندما ترتفع الحجب، يصبح حاد البصر والبصيرة، ﴿فِي غَفْلَةٍ... فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَيْدٌ﴾.
- ١٠ - الأمر بإلقاء المجرمين في جهنم من المؤشرات إلى ذلهم وهوانهم، ﴿أَلْيَا﴾.
- ١١ - المعيار في التعامل مع الناس يوم القيامة هو العمل لا العرق ولا النسب، ولا غيرهما من الاعتبارات الموجودة في الدنيا، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾.
- ١٢ - ما يؤدي إلى الابتلاء بجهنم هو الكفر والعناد، ﴿كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾.
- ١٣ - الكفر والشرك، منشآن لكل شرّ ومفسدة اجتماعية، ﴿كَفَّارٍ... مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَرِئٍ مُرِيْبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ﴾.
- ١٤ - الأحكام الإلهية شديدة وصارمة لا تقبل الاستئناف والإبطال، ﴿أَلْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ... فَأَلْيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.
- ١٥ - لا تستوي منازل جنهم بل تختلف منازلها ومراتبها، في الشدة والضعف، ﴿أَلْيَا فِي جَهَنَّمَ... فَأَلْيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أن القرين في الآية هو الشيطان^(١). وفي تفسير الميزان أن المراد بهذا القرين في هذه الآية هو الشيطان الذي يلزم الإنسان^(٢).

□ رفيق السوء من العوامل المساعدة على دخول الإنسان إلى النار. وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى الشيطان بوصفه قرين سوء للإنسان، وفي آية أخرى يعرض سبحانه لصرخات الندم التي تصدر عن أهل جهنم إذ يقول بعضهم: ﴿يَوَيْلَ لِي لَيْتِي لَرَأَيْتُنِي لَوْ أَنِّي لَمْ أَخْجِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾^(٣).

□ تدور يوم القيامة حوارات ونقاشات بين المجرمين، وبينهم وبين قادتهم، وبينهم وبين الشياطين، ويحاول كل طرف من هؤلاء إلقاء اللوم على الآخر وتحميلة مسؤولية ما ارتكب من جرائم في الدنيا. وفي القرآن الكريم، مشاهد عدة من هذه الحوارات:

ففي بعضها يلوم بعضهم الآخر، فيقولون: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، ويسمعون الجواب: ﴿بَلْ لَرَأَيْتُمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وفي مشهد آخر يلقي التابعون على المتبوعين مسؤولية الجرائم التي ارتكبوها، فيقولون: ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْتَابُونَ عَنَّا﴾^(٦).

وفي مشهد ثالث، يلوم بعضهم الشيطان فيدافع عن نفسه قائلاً: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلَا تُلْمُوا أَنفُسَكُمْ﴾^(٧).

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣٢٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ٣٥٢.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٨.

(٤) سورة سبأ: الآية ٣١.

(٥) سورة الصافات: الآية ٢٩.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٢١.

(٧) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

وهذه الآية تصوّر أحد هذه المشاهد على لسان إبليس: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتَهُ وَلَكِنَّ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

التعاليم:

١ - على الإنسان أن يحذر رفيق السوء وأن يختار أحسن الرفاق لمعاشرتهم، فهو بين خيارين متناقضين، يصل أحدهما إلى الحضيض؛ حيث يكون الشيطان قرينه، ﴿قَرِينُهُ﴾.

٢ - من غرائب الأمور أن يعترف الشيطان بربوبية الله سبحانه، ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا﴾.

٣ - علينا نحن البشر أن نعي أنّ إبليس يوم القيامة يتبرأ منا ولا يتحمل أيّ مسؤولية تجاهنا، ﴿مَا أَفْقَيْتَهُ﴾.

٤ - ينحصر دور إبليس في الدعوة إلى الضلال والانحراف، وليس أكثر من ذلك، ﴿مَا أَفْقَيْتَهُ﴾.

٥ - يهبط بعض الناس إلى مستوى يتمكّن إبليس عنده من اتهامهم بالضلال، ﴿قَالَ قَرِينُهُ... فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

٦ - يتخاصم الناس مع الشيطان يوم القيامة، ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾.

٧ - لا ينفع الجدل مع إبليس يوم القيامة؛ ولذلك علينا أن نخاصمه ونجادله في الدنيا بدل تأجيل ذلك إلى يوم القيامة، ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾.

٨ - لا يعذب الله إلا بعد إتمام الحجّة، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ... وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَعِيدِ﴾.

٩ - لا ينفع التخاصم يوم القيامة، ولا يؤثر الاعتراض والجدال في تغيير حكم الله تعالى، ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ﴾.

١٠ - تغيير الأحكام الإلهية يوم القيامة ظلم؛ لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى، ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلنَّبِيِّ﴾.

١١ - دخول المجرمين إلى النار إن كان ظلماً فهو ظلم منهم لأنفسهم، وليس ظلماً من الله تعالى لهم، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ... وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلنَّبِيِّ﴾.

١٢ - تتوفّر جهنّم على نوع من الوعي والشعور، ولذلك يدور بينها وبين الله سؤال وجواب، ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

﴿وَأَزَلَّتْ أَلْبَنَةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

إشارات:

- الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك حُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.
- حسن الضيافة يقتضي أن يؤتى بالطعام إلى الضيف، لا أن يأتي هو إلى الطعام، كما فعل إبراهيم عليه السلام عندما قرَّب الطعام إلى ضيفه: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾^(١). وعلى القاعدة نفسها، نجد أنّ التي أعدّها الله للمتقين ليست بعيدة عنهم: ﴿وَأَزَلَّتْ أَلْبَنَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
- يُعلم الفرق بين المتقين وغيرهم، من هذه الآيات، فالله سبحانه عندما يتحدث عن المتقين يقول: ﴿وَأَزَلَّتْ أَلْبَنَةُ﴾. وأما عندما يتحدث عن الذين استحقوا غضبه، فيقول: ﴿أَلْفِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾^(٢).
- أهل جهنم سبق وعيدهم بالعذاب في الدنيا: ﴿قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾^(٣). والمتقون كذلك سبق لهم الوعد: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾.
- عن النبي صلى الله عليه وسلم، في وصية له لابن مسعود: «... يا ابن مسعود اخش الله تعالى بالغيب كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤). يقول الله تعالى: ﴿مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ...﴾^(٥).
- يحدثنا القرآن عن ثلاثة أنواع من القلوب، هي:

أ - القلب السليم الخالي من النفاق والشرك والحقد وغيرها من العيوب: ﴿إِلَّا مَن آتَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٦).

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١١١.

(٥) سورة ق: الآية ٣٣.

(٦) سورة الشعراء: الآية ٨٩.

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٧.

(٢) سورة ق: الآية ٢٤.

(٣) سورة ق: الآية ٢٨.

ب - القلب المنيب: ﴿وَجَاءَ يَقْلِبُ مُنِيبٌ﴾^(١)، وهو الذي القلب الذي قد ينحرف ولكنه سرعان ما يعود إلى الجادة والصرط المستقيم.

ج - القلب المريض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(٢)، وهو القلب المبتلى بأمراض النفاق والحقد وغيرهما من الأمراض التي تعشش في بعض القلوب، وإذا تركت فإن هذه الأمراض تتفاقم وتزداد يوماً بعد يوم.

التعاليم:

١ - الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، من القواعد الأساس في التربية، ﴿أَلْفَيَا فِي جَهَنَّمَ... وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ﴾.

٢ - تقرب التقوى والطهارة الجنة من الإنسان، ﴿وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ - المعيار عند الله هو العمل، لا الجنس ولا العرق، ﴿كُلٌّ كَفَّارٌ... لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٤ - على الدعاة إلى الله أن يحرضوا العاصين على التوبة والرجوع إلى الله، ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٥ - نيل الجنة مرهون بالعودة إلى الله والسعي نحوه، ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٦ - ليس الإنسان معصوماً، فقد تصدر عنه المعصية، ولكن المهم هو أن باب التوبة مفتوح، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٧ - لا ينبغي أن تتحول الرحمة الإلهية إلى منشأ غرور، بل على الإنسان أن يقرن الأمل بالرحمة، بالخشية والرغبة من الله سبحانه، ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ (فالله رحمن كما يصف نفسه، ولكن لا بد من خشيته على الرغم من رحمته).

٨ - قد يلتزم بعض الناس بالقوانين خوفاً من العقاب، أو حفظاً للسمعة، أو ما شابه ذلك، ومثل هذا الالتزام مقبول اجتماعياً وإن كان في المستوى الأدنى أخلاقياً، ولذلك يجب أن تكون الخشية من الله بالغييب، وبعيداً عن كل الأسباب والدواعي الخارجية، ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

(١) سورة ق: الآية ٣٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠.

٩ - ليس المتقي هو من لا يقدم على الذنب، بل يصدق هذا المفهوم على من قد يرتكب المعصية ولكنه يتوب توبة صادقة، ويتوقر على قلب منيب، ﴿لِلْمُتَّقِينَ... لِكُلِّ أَوَّابٍ... حَسْبِيَ... يَقَلِّبُ مُنِيبٍ﴾.

١٠ - المعرفة والخشية هما منشأ الإنابة والعودة إلى الله، ﴿حَسْبِيَ الرَّحْمَنُ... وَجَاءَ يَقَلِّبُ مُنِيبٍ﴾.

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْتِكُمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ أشار الله سبحانه في الآيات السابقة إلى أربع صفات كمالية للمتقين، هي: «أواب» (تواب)، و«حفيظ» (من الحفاظ على حدود الله)، و«الخشية» (الخوف من الله)، و«ذو قلب منيب» أي خاضع وخاشع لله سبحانه. وفي هذه الآية يشير سبحانه إلى صفات الجنة، وهي: ﴿بِسَلْتِكُمْ﴾ (دار الأمن والأمان)، ودار ﴿الْخُلُودِ﴾، ولأهلها ﴿مَّا يَشَاءُونَ﴾، ولدى الله المزيد من نعمها التي لا حد لها ولا حصر، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

□ نِعَم الدنيا مهما حسنت وعظمت، إلا أنها لا تخلو من كدر ينغصها، ومن ذلك:

١ - نِعَم الدنيا لا تأتي إلا مقرونة بالتعب والهَم، وأما نِعَم الجنة فينالها الإنسان، ﴿بِسَلْتِكُمْ﴾.

٢ - نعم الدنيا موقته تزول مهما طال أمدها، وأما نعم الآخرة فهي خالدة، ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾.

٣ - نعم الدنيا محدودة الأنواع والأصناف، وأما نعم الآخرة فلاهلها، ﴿مَّا يَشَاءُونَ﴾.

٤ - نعم الدنيا محدودة الكم، وأما نعم الآخرة فلا تنفذ، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - خشية الله في الدنيا من أسباب الأمن والسلام في الآخرة، ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ...
أَدْخُلُوهَا بِسَلْتَرٍ﴾.
- ٢ - ينال أهل جهنم الاحتقار قبل العذاب، ﴿أَلْفَيَا فِي جَهَنَّمَ﴾^(١)، وأما أهل الجنة فإنهم يكرمون قبل الثواب وبعده، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْتَرٍ﴾.
- ٣ - القهر والشدة من صفات الله، ﴿أَلْفَيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، كما أن الرحمة واللين من صفاته أيضاً، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْتَرٍ﴾.
- ٤ - من الصور اللافتة في المقارنة بين أهل جهنم وأهل الجنة أن أهل جهنم يُنهبون عن التخاصم بين يدي الله ويزجرون عنه، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ﴾، بينما يُدعى أهل الجنة إلى الدخول إليها بسلام واحترام، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْتَرٍ﴾، ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾^(٢).
- ٥ - من البشائر التي ينعم بها أهل الجنة خلودهم فيها، وعدم فقدانهم ما يُعطون من النعم، ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾.
- ٦ - من يترك الشهوات والأهواء في الدنيا من أجل الله يحصل على كل ما يشتهي يوم القيامة، ويعوّضه الله سبحانه ما فاته ملذّات، ﴿لِلْمُتَّقِينَ... لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾.
- ٧ - يعامل الله أهل جهنم يوم القيامة بعدله، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْقَبِيذِ﴾^(٣)، وأما أهل الجنة فإنه يعاملهم بلطفه وكرمه، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.
- ٨ - الإنسان موجود كثير المطالب، ولا يرضيه إلا ما لا ينفد، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.
- ٩ - لطف الله سبحانه وكرمه أوسع من حاجة الإنسان ومن رغباته، ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

(٣) سورة ق: الآية ٢٩.

(١) سورة ق: الآية ٢٤.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ القرن: الاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني. والقرن في هذه الآية القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون. ويطلق هذا اللفظ في عصرنا على المئة سنة.

□ البطش تناول الشيء بصولة.

□ «نقَّبوا» من النقب وهو ثقب الأرض أو غيرها بإحداث فجوة فيها. وربما كانت كلمة «منقبة» مشتقة من هذا الأصل؛ لأنها صفة راسخة في النفس. والمراد من النقب في هذه الآية هو السير في الأرض.

□ القلب في الآية ليس هو الجهاز العضلي الذي يتولى ضخ الدم إلى سائر أعضاء الجسم، بل المراد من القلب في الآية العقل. وقد ورد هذا المعنى عن الإمام الكاظم عليه السلام ^(١). ونظير هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ^(٢). إذ اقترن الحديث عن السمع في هذه الآية بالحديث عن العقل، وفي الآية التي هي محل الكلام جمع بين العقل والسمع.

□ «إلقاء السمع» كناية عن الاستماع بقصد الفهم والوعي. وبعبارة أخرى: المراد هو السمع بأذن القلب.

□ الشهيد في الآية هو الشاهد الحاضر في المجلس بحيث يعي ما يدور حوله، وليس كما يقال جسده هنا وهو في محل آخر.

التعاليم:

١ - هلاك الأمم السابقة بكفرها وشركها من المنارات التي يجب أن يستفيد منها

(٢) سورة الملك: الآية ١٠.

(١) انظر: الكافي، ج ١، ص ١٦.

- من أتى بعدهم ويعتبر من مصيرهم، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.
- ٢ - هلاك الجبارين الكافرين من الأمور التي تبعث العزاء والأمل في نفوس أهل الإيمان، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.
- ٣ - هلاك الظالمين سنة إلهية تجري عبر العصور والدهور، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.
- ٤ - يجب أن يتحوّل التاريخ إلى علم للبحث عن مصير الأمم الماضية من أجل أخذ العبر والدروس من مصائرهما وما جرى عليها، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.
- ٥ - القدرات المادية لا تساوي شيئاً في مواجهة الغضب الإلهي، ﴿أَهْلَكْنَا... أَشَدُّ... بَطْشًا﴾.
- ٦ - كانت قريش تعتدّ بقوتها وبطشها؛ ولذلك يلفت الله نظرهم إلى إهلاكه من هو أشدّ منهم قوة وبطشاً، ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.
- ٧ - القوّة عندما لا تقترن بالإيمان تتحوّل إلى مصدر للأذى والإضرار بالآخرين، ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾.
- ٨ - عندما يحلّ الغضب الإلهي، تنسدّ سبل النجاة في وجوه جميع المستحقّين سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء، ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيحٍ﴾.
- ٩ - الإنسان الذي يأخذ العبر والدروس من التاريخ، هو من يملك الاستعداد الداخلي للاعتبار، ﴿لَذِكْرِي لِيَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، أو هو مستعدّ لسماع الحقّ وللسماع له بالنفوذ إلى باطنه، ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾.
- ١٠ - لا ينبغي أن نمرّ على أحداث التاريخ بسذاجة، بل علينا أن نحلّلها ونستلهم منها العبر. وعدم الاعتبار من التاريخ دليل على موت القلب أو على عدم وجوده، ﴿ذَلِكَ لَذِكْرِي لِيَنْ كَانَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.
- ١١ - السماع والاستماع يؤثران عندما يتوقّف السامع على قلب حيّ مستعدّ للفهم والوعي، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿٣٨﴾

إشارات:

□ اللغوب: التعب والنصب، يقال أتانا ساغباً لاغباً أي جائعاً تعباً. وهذا محتمل في ذوي القدرة المحدودة كالبشر وغيرهم، وأمّا عند الله تعالى، فلا معنى له ولا محلّ، وهل يمكن أن يعجز عن إعادة بعث الإنسان إلى الحياة، من خلق السماوات والأرض وما فيها؟ والإنسان ليس سوى مخلوق من ملايين المخلوقات المشابهة.

□ «اليوم» هو مقدار من الزمان يقدر بأربع وعشرين ساعة، وهو ينتج عن دورة كاملة للأرض حول نفسها، ولذلك لا معنى له في حالة الحديث عن خلق السماوات والأرض، فلذلك قد يكون المراد منه الأيام الستة المراحل.

□ يرى الفخر الرازي أنّ هذه الآية هي جواب وردّ للعقيدة اليهودية المبنية على أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع!
□ للطريقة الإلهية في الخلق ولمخلوقاته سبحانه خصائص ومميزات، منها:

- ١ - الابتداء والابتكار، ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).
- ٢ - اشتغالها على الهدف وبعدها عن العبث، ﴿مَا خَلَقْتُ هَذَا بَطْلًا﴾^(٢).
- ٣ - اتصافها بالتحوّل والتطور، ﴿وَإِنَّا لَلْمُوسِعُونَ﴾^(٣).
- ٤ - كونها وفق مقادير ومخططات مدروسة، ﴿كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ يَقْدِرُ﴾^(٤).
- ٥ - كون كل منها على أحسن ما يمكن أن يكون، ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ﴾^(٥).
- ٦ - التدرّج والمرحلية، ﴿خَلَقْنَا... فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

□ يقول الله سبحانه في الآية الخامسة عشر: ﴿أَفَعِينَا بِالْأَوَّلِ﴾، وفي هذه الآية يؤكّد أنّ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

(٤) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٥) سورة السجدة: الآية ٧.

(١) سورة البقرة: الآية ١١٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن ننظر إلى السماء نظرة سطحية، فهي محلّ لتجلي القدرة الإلهية، وهي غاية في السعة وهي تتألف من طبقات، ﴿السَّمَوَاتِ﴾.
- ٢ - لا شك في أنّ الخلق التدريجي له أسرار وأسباب ربما لا يعلم الإنسان منها الكثير بل الأكثر، وما ينبغي أن يعلمه الإنسان هو أنّ قدرة الله سبحانه لا حدّ لها وهو قادر على خلق كل شيء دفعة واحدة، ﴿خَلَقْنَا... فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.
- ٣ - لا محلّ لمفهوم التعب والإرهاق في ساحة الصفات الإلهية، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

□ يدعو الإسلام إلى تسبيح الله في الفرح والحزن:

ففي الفرح يقول الله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ... فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾^(١).

وفي الحزن يدعو: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾.

□ لقد كانت كلمات المشركين وسخافاتهم تؤذي النبي ﷺ فيضيق صدره من أقوالهم، ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صِدْرًا بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٢)؛ ولذلك كان الله سبحانه يدعو إلى الصبر وتحمل هذا الأذى، ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

□ يخبرنا الله سبحانه ببعض عقائد المشركين الدينية، ولو كانت باطلة، فيخبرنا:

- أنهم كانوا يعتقدون أنّ الأوثان واسطة في الفيض ولها مرتبة الشفاعة.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩٧.

(١) سورة النصر: الآيات ١ - ٣.

- أنهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يتهمون النبي ﷺ بالسحر تارة والجنون تارة أخرى، وبالكهانة والشعر أحياناً.

ويدعو الله نبيه إزاء هذه الاتهامات الباطلة إلى الصبر والثبات، والتسلح بذكر الله وتسيحه.

□ تقترن الإشارة إلى التسيح في القرآن بذكر الحمد، وربما كان سبب ذلك أن الإنسان ناقص والله سبحانه منزّه عن النقص، فعندما ينزّه الإنسان ربّه عن النقص، يكمل الله نقصه، فيتوقّر داعي الحمد على نعمة الكمال.

□ يدعو الله النبي ﷺ في القرآن إلى الصبر ثماني عشرة مرّة، وفي أربع منها يدعوه إلى الصبر على أذى المشركين، وذلك في سورة طه الآية ١٣٠، وسورة ص الآية ١٧، وسورة المزمل الآية ١٠، وسورة ق الآية ٣٩.

□ عن ابن عباس أن المقصود من وقت ما قبل الطلوع صلاة الفجر، وقبل الغروب صلاة الظهر والعصر، والمراد من الليل صلاتا المغرب والعشاء، ومن «أدبار السجود» صلاة النوافل^(١).

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام، أن المراد من «أدبار السجود» صلاة النافلة بعد فريضة المغرب^(٢).

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَسَيَحِبُّ مُحَمَّدٌ رَّبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، فقال: تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير^(٣).

□ علامات الأوقات الشرعية الإسلامية، علامات طبيعية بسيطة تسهل معرفتها على الناس جميعاً، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

(٣) مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٥٠.

(١) تفسير المراغي.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٧٣.

التعاليم:

- ١ - الالتفات إلى قدرة الله من العوامل المساعدة على الصبر والثبات، في مقابل الأمور المزعجة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... فَأَصْبِرْ﴾.
- ٢ - الإرشاد والهداية، وتحمل مسؤولية تعليم الناس وتربيتهم، تحتاج إلى الصبر وطول الأناة، ﴿فَأَصْبِرْ﴾.
- ٣ - يتابع الأنبياء مسيرتهم في هداية الناس تحت عين العناية والتوجيه الإلهي، ﴿فَأَصْبِرْ﴾.
- ٤ - الصبر على الاتهام والأذى بالقول من الأمور التي تحتاج إلى طاقة وجهد؛ ولذلك يوصي الله بها أنبياءه، ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.
- ٥ - ذكر الله من العوامل المساعدة على الصبر، ﴿فَأَصْبِرْ... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ٦ - ينبغي أن يقترن التسبيح بالحمد، ولا يفي التسبيح من دون الحمد بحق الله تعالى، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ٧ - ربوبية الله تعالى من الدوافع إلى حمده سبحانه وتنزيهه، والتسبيح من أسباب الكمال، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ٨ - تسبيح الله مقدم على حمده، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ٩ - بعض الأوقات أفضل من بعضها الآخر للعبادة، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ...﴾.
- ١٠ - يتوقف التكامل الإنساني على تكرار العبادة ودوامها، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.
- ١١ - المؤمنون بالنبي ﷺ يقضون شطراً من الليل بالعبادة، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.
- ١٢ - يدعو الله المؤمنين إلى بعض الأعمال العبادية التي تزيد على الواجبات والفرائض، ﴿وَأَذِّنْ الشُّجُودَ﴾.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ
ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- يحدثنا القرآن، في الآية الحادية عشرة، عن خروج الموتى من قبورهم، وفي الآية الثانية والأربعين يخبرنا عن زمن هذا الخروج.
- يستفاد من قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أن هذا النداء يملأ الأرجاء حتى يشعر كل امرئ أنه يسمع النداء من مكان قريب، وكأنه يهتف به وحده دون غيره من الناس.
- المراد من الصيحة في هذه الآيات هو الصيحة الثانية التي تؤدّي إلى بعث الناس من قبورهم وعودتهم إلى الحياة، وليس الصيحة الأولى التي تميت الأحياء.

التعاليم:

- ١ - ذكر يوم القيامة، والعقاب الذي سوف يناله الكفار المؤذون للنبي ﷺ، من الأمور التي تبعث العزاء في النفوس، ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادُ﴾.
 - ٢ - صيحة إسرافيل يوم القيامة، من الأمور الحتمية التي لا مفرّ منها، ﴿الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾.
 - ٣ - المعاد جسماني، والإنسان يقوم بجسده من التراب يوم القيامة، ﴿يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾، وسوف يأتي في الآيات اللاحقة قوله تعالى، ﴿تَشْفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾.
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشْفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

- كلمة «جَبَّارٌ» لها معنيان على الأقل؛ أحدهما من الجبر في مقابل الكسر وهو صفة من الصفات الجمالية لله تعالى، كما في قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

الْمَتَكَبِّرُ^(١)، وتستعمل صفة سلبية بمعنى الجبر والإكراه على شيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾.

□ ينهانا الله عن الشك في يوم القيامة، لأسباب منها:

- أن الموت والحياة بيد الله تعالى، ﴿نُحْيِي وَنُؤَيِّتُ﴾.

- ولأن الله قادر على شق الأرض ليخرج الإنسان المدفون فيها، ﴿تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

- ولأن الله سوف يجمع الناس في ذلك اليوم، ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ﴾.

- وأخيراً لأن ذلك على الله، ﴿يَسِيرٌ﴾.

□ يدعو الله نبيه إلى الصبر على أذى المشركين واتهامهم في الآية التاسعة والثلاثين، بقوله ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، ثم يتابع سبحانه فيشير في الآيات اللاحقة إلى العوامل المساعدة على الصبر، ومن ذلك:

- ذكر الله وتسيحه، ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

- ذكر يوم القيامة، ﴿فَأَصْبِرْ... ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

- الالتفات إلى الحضور بين يدي الله في نهاية المطاف، ﴿فَأَصْبِرْ... وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾.

- الالتفات إلى علم الله تعالى بما يقول المشركون مما يؤذي ويزعج، ﴿فَأَصْبِرْ... نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

□ تفتح هذه السورة بالقسم بالقرآن، وتُختم بالإشارة إلى القرآن والدعوة إلى الاهتمام به.

التعاليم:

١ - لا شيء ولا أحد غير الله سبحانه يملك زمام الحياة والموت، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُؤَيِّتُ﴾.

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

- ٢ - الالتفات إلى أن المصير والعاقبة إلى الله من الأسباب المساعدة على الصبر والثبات، ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَإِنَّا لَاصْبِرُونَ﴾.
- ٣ - المهمة الملقاة على عاتق الأنبياء هي تبليغ الدين وليس إجبار الناس عليه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾.
- ٤ - ينبغي أن يكون القرآن هو محور العمل التبليغي والدعوي، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.
- ٥ - معارف القرآن تشتمل على التماسك المنطقي والقدرة على الإقناع بما يغني عن حمل الناس على الدين وإجبارهم عليه، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.
- ٦ - لا يقبل الموعظة إلا من يؤمن بالقيامة ويخاف وعيد الله، ﴿فَذَكِّرْ... مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.
- ٧ - حقائق الدين مغروزة في أعماق الإنسان وتمثل جزءاً من فطرته وطبيعته، ولا يحتاج سوى إلى التذكير، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.
- ٨ - من لا يؤمن بالقيامة، ولا يخشى وعيد الله، لا تنفع معه موعظة ولا نصيحة، ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

السورة: ٥١ الجزء: ٢٦ - ٢٧

عدد الآيات: ٦٠

ملامح سورة الذاريات

سورة الذاريات مكية، وعدد آياتها ستون آية.

وقد سميت بهذا الاسم بالنظر إلى مطلعها أي إلى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾. والمراد من الذاريات الرياح القوية التي تطير بالأشياء من مكان إلى آخر وتوزعها في أماكن شتى.

وتفتح السورة وتختتم بالحديث عن المعاد، والتوحيد والأمارات الدالة على وجود الله تعالى، وتشير إلى الملائكة الذين حلّوا ضيوفاً على إبراهيم عليه السلام، ليبشروه بالولد ويبلغوه بالعذاب النازل على قوم لوط، وفيها إشارات إلى قصص أنبياء آخرين كموسى ونوح، وإلى قوم عاد وثمود.

وربما كان الهدف من الإشارة إلى تاريخ الأنبياء وقصصهم وتضحياتهم في سبيل هداية الناس، تثبيت قلب النبي ﷺ، وشدّ عزيمته ودعوته إلى الصبر والثبات.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ ① ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ ② ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ③ ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ④ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ⑤ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ ⑥

إشارات:

- الذاريات جمع ذارية وهي الرياح، وأذريت الشيء إذا ألقيته، مثل إلقائك الحَبَّ في التراب عند زراعته. والوقر الحمل الثقيل، والمراد منه هنا الغيوم المثقلة بالماء. والجاريات أي السفن التي تجري في الأنهار بيسر.
- وفي الرواية عن عليٍّ عليه السلام، أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾، فقال: الريح، وعن الحاملات وقرأ، فقال: هي السحاب، وعن الجاريات يسراً، فقال هي السفن، وعن المقسمات أمراً، فقال: الملائكة. وعن الصادق عليه السلام قال في المقسمات أمراً: الملائكة تقسم أرزاق بني آدم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فمن ينام فيما بينهما نام عن رزقه^(١).
- اليسر ضد العسر، وهو السهولة. والمراد من «الجاريات يسراً» السفن التي تجري بيسر وسهولة.
- يقسم الله في هذه الآيات بالرياح التي تحرك السفن، وبالغيوم التي تحمل المطر والبركة إلى الأرض. ومن المعلوم أن الرياح والماء لهما دور مهم وأساس في حياة الإنسان على الأرض، فالرياح تحمل بخار الماء وتشره في السماء لتنال كل قطعة من الأرض نصيبها من المطر، وهي أيضاً تنقل حبوب الطلع لتلقح الأشجار فتثمر.
- ولا يخفى على الإنسان دور السفن ماضياً وحاضراً في حياة الإنسان. فهي سهلة الحركة، تقطع المسافات الطويلة وتختصر الأسفار، وتظهر قيمة الملاحة

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٣.

البحرية بالتأمل، وخاصة لو توقفت حركة السفن لأيام معدودة.

□ تقسم الأرزاق على الأفراد والأقوام والمناطق بطريقة محسوبة وخاضعة لنظام دقيق، فبعض الأشياء يُعطى للناس وبعضها لا يعطى والحكمة من ذلك ظهور حالة التنافس والتبادل والتعاون بين الناس، ليجبر بعضهم ما ينقصه بمد يد الحاجة والتعاون إلى الآخرين، ولكي لا يطغى إذا استغنى عن غيره ولم يعد بحاجة إليه: «قرن بسعتها عقابيل فاقتها»^(١).

□ الالتفات إلى قدرة الله تعالى في خلق الرياح والغيوم والسفن، يعين الإنسان على فهم المعاد. ومن هنا أقسم الله سبحانه بهذه الأمور الأربعة على قضية المعاد وأنه حق وواقع حتماً.

□ الحروف: «إنما» و«إن»، و«اللام»، والجملية الاسمية، كلها للدلالة على التوكيد.

□ كثيرة هي الوعود الإلهية التي تحققت في الدنيا، ومنها:

لقد وعد الله أم النبي موسى بأن يعيد ولدها إليها إذا ألقته في الماء، وكان لها ما وعدها الله به في قوله: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢).

وعد الله نبيه محمداً بأن يكفيه شرّ المستهزئين به بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٣)، كما وعده برفع ذكره في العالمين: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٤)، وكان له الأمران كما يخبرنا الله سبحانه في هاتين الآيتين.

وقد وعد الله المؤمنين وأهل الحق والتقوى بالنصر ولو بعد حين، وقد كان ذلك عبر التاريخ، فاسم الإمام الحسين عليه السلام خلده التاريخ مشرقاً، وقَاتِلُوهُ لا يشار إليهم إلا لذمهم.

□ من لا يفي بوعدته هو إما عاجز أو كاذب أو ناسٍ، والله سبحانه منزّه عن هذه الصفات كلها؛ ولذلك لا يحتمل في حقه سبحانه صدور الخلف عنه.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩٥.

(٤) سورة الشرح: الآية ٤.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

(٢) سورة القصص: الآية ٧.

التعاليم:

- ١ - يشير القسم الإلهي بالظواهر الطبيعية، كالغيوم والرياح والمطر وغيرها، إلى اهتمام الإسلام باكتشاف القوانين الحاكمة على هذه الظواهر، وخضوعها للتدبير الإلهي، وكونها من الدلائل على القدرة الإلهية، ﴿وَالذَّارِيَاتِ... فَالْحَافِيَاتِ... فَالْجَارِيَاتِ﴾.
 - ٢ - ينجز الله وعوده ويفعل ما يريد بالإنسان بواسطة الملائكة، ﴿فَالْمَقِينَتِ أَمْراً﴾.
 - ٣ - يلفت القرآن عناية الإنسان واهتمامه إلى الأمور المحسوسة وغير المحسوسة، من أجل رفع مستوى الوعي والإدراك عنده، ﴿وَالذَّارِيَاتِ... فَالْمَقِينَتِ أَمْراً﴾.
 - ٤ - على المؤمن أن يكون قاطعاً وصريحاً في مواجهة تشكيك الآخرين وترددهم، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ («إن» واللام، حرفان يدلان على التأكيد).
 - ٥ - الوعد بالمعاد ويوم القيامة مستمر ومتابع، ﴿تُوعَدُونَ﴾.
 - ٦ - الله سبحانه الذي له كل هذه المؤشرات والأدلة على قدرته وعظمته، لا يمكن أن يكون عاجزاً عن الوفاء بوعوده، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.
 - ٧ - ظواهر الكون الطبيعية وغير الطبيعية (الرياح والسفن والغيوم، والملائكة) ليست من أجل بضع سنوات من الأكل يلحقها الموت والعدم، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَغَّوْا﴾.
 - ٨ - لا فرق بين وعود الله في الدنيا وعوده في الآخرة، فكما تتحقق الوعود الإلهية في الدنيا تتحقق في الآخرة أيضاً، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَغَّوْا﴾.
- ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْمُبْتَكِرِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾
﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ حبك جمع حبيكة، وذات الحبك أي ذات الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، أو إن هذه النجوم تزئنها كما يزئ الموشى طرائق الوشي، أو هي

بمعنى الاعتدال، وقد ورد لكل معنى من هذه المعاني نموذج وصف الله تعالى السماء به:

فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾^(١)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَيْنَهُ الْكُرُوبِ﴾^(٢)، وقال أخيراً: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾^(٣).
□ الإفك كل مصروف عن وجهه، وأفك يؤفك يصرف عقله ورجل مأفوك العقل، والإفك الكذب.

□ الخرص حرز الثمرة... وحقيقة ذلك أنّ كلّ قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال خرص سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنّ والتخمين كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمّى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه. وأصل الغمر إزالة أثر الشيء ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل إثر سيله: غمر وغامر. والمراد به هنا الغرق في الجهل واستيلاؤه على الإنسان.

□ بعض الناس يتخصّصون في اختلاق الشائعات ونشرها بين الناس، بهدف التشكيك وإثارة الفتنة. وعادة تمرّ الشائعة من منتجها إلى مستهلكها عبر المراحل الآتية، فالعدوّ هو الذي يختلق الشائعة أو يوصي باختلاقها، والمنافقون هم الذين يتولون النشر أو الاختلاق، والسذج والبسطاء يصدّقون.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ مُّخَلَّفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ قال: «من أفك عن الولاية أفك عن الجنة»^(٤).

التعاليم:

١ - من لا يملك منطقاً سليماً لا يستقرّ على رأي أو حال؛ ولذلك له في كل

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٧.

(٢) سورة الصافات: الآية ٦.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٧.

(٤) الكليني، الأصول من الكافي، ج ١، ص ٤٢٢.

لحظة قول ورأي. ومن هنا، كان طريق الحقّ واحداً وطرق الباطل متعدّدة. ومن هنا، أيضاً كان المعتقد الحقّ واحداً وعقائد الباطل متعدّدة، ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

٢ - تعدّدت اتّهامات المشركين الموجهة إلى النبي ﷺ، فاتهموه تارةً بالشعر، وأخرى بالسحر، وثالثةً بالجنون ورابعةً بتلقّيه التعاليم من الآخرين، إلى غير ذلك مما أشار إليه القرآن، وربّما كان هناك ما لم يشر إليه، ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

٣ - كل انحراف ومعصية يؤسّس لانحرافات ومعاص أخرى، ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَيْكُ﴾.

٤ - القول بلا دليل، والتخرّص على الله من دون دليل ولا برهان، من موجبات الابتلاء باللعن الإلهي، ﴿قِيلَ لَمَفْرَصُونَ﴾.

٥ - شعار: «الموت ل...»، شعار له أصل قرآني، ﴿قِيلَ لَمَفْرَصُونَ﴾.

٦ - على المجتمع الإسلامي أن يكون حازماً في موقفه من أهل الباطل، ﴿قِيلَ لَمَفْرَصُونَ﴾.

٧ - قد يغفل الإنسان أو يخطئ، ولكن المشكلة الكبرى عندما تستولي هذه الأمور على كيان الإنسان، فلا يعود يعي ما يريد ولا ما يراد به، ﴿لَمَفْرَصُونَ... الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَوْ سَاهُونَ﴾ (على الإنسان أن يعتمد على العلم والمعرفة، وليس على الظنّ والحدس).

٨ - من يغرق في الجهل والغفلة، ويعيش في عوالم الظنّ والأوهام، لا قيمة لحياته ولا وزن، ﴿قِيلَ لَمَفْرَصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَوْ سَاهُونَ﴾.

﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٢﴾ ذُوقُوا فَنَتَكُزْ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ﴾

﴿تَسْمِعُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في الآية

للتعبير عن شدة العذاب الذي يتلى به الكفار.

□ كان المكذبون والكفار يستخفون بالعذاب الذي يتوعد به الأنبياء أقوامهم، ويقولون لهم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١)، وهذه الآية في جواب هذا الطلب؛ حيث يقول الله سبحانه لهم: هذا هو العذاب الذي كنتم تطالبون به وتستعجلونه.

□ من الملامح الأساس في شخصية أهل النار: التناقض في القول والرأي، ﴿إِن كَرِهْتَ لُنِي قَوْلِي مَخْلِفِي﴾، والانحراف عن الحق، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنِ أَفَكَ﴾، والغرق في الجهل والغفلة، ﴿فِي غَرَرٍ سَاهُونَ﴾، والاعتماد على الظن والحدس، ﴿قِيلَ لَلْفَرَّاسُونَ﴾، والاستعجال من دون وعي أو معرفة بما يستعجل، ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾.

التعاليم:

١ - لا مانع من السؤال بحثاً عن العلم والمعرفة؛ ولكن السؤال الذي بهدف الاستعجال أو الاستخفاف له حساب مختلف يستحق صاحبه التوبيخ واللوم، ﴿يَسْتَلُونَ﴾.

٢ - عدم الاطلاع على بعض جزئيات شيء ما، لا يبرر إنكار أصله، وهذا ما تشرحه الآية؛ إذ إن بعض الناس ينكرون المعاد، بسبب عدم معرفتهم بوقته، ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾.

٣ - ينبغي الحزم في مواجهة الذين ينكرون الحقائق الصحيحة، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ﴾.

٤ - الإنسان هو الذي يصنع مصيره يوم القيامة بيديه، ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾.

٥ - يجمع الله على الكفار عذابين يوم القيامة، فيعذب أجسامهم بالنار، ويعذب أرواحهم بالأمر بذوق العذاب، ﴿النَّارِ... ذُوقُوا﴾.

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٠، وسورة هود: الآية ٣٢.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ يَخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَأَنْتُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِمِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَاسْحَارٍ مِّمَّ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ «يهجعون»، الهجوع نوم الليل.

□ تحتل الآية ١٧ تفسيرين أحدهما، أَنَّ الْمُتَّقِينَ يقضون القسم الأكبر من ليلهم في العبادة وينامون في الجزء الآخر، والتفسير الثاني هو أَنَّ الْمُتَّقِينَ يقضون العدد الأكبر من ليلهم دون نوم يتفرغون للعبادة فيها وينامون في بعض الليالي. وعن الإمام الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، قال: «كانوا أقلَّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها»^(١).

□ وعنه عليه السلام: «يا فضل! إنَّ أفضل ما دعوتم الله بالأسحار، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَاسْحَارٍ مِّمَّ يَسْتَغْفِرُونَ﴾»^(٢).

□ وعن أبي بصير قال: قلت له (أي الإمام الصادق عليه السلام): المستغفرين بالأسحار؟ قال: «استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وتره سبعين مرة»^(٣).

□ وعن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: «المحروم الرجل الذي ليس بعقله بأس ولم ييسط له في الرزق وهو محارف»^(٤).

التعاليم:

١ - في الدعوة إلى الله، لا بدَّ من الجمع بين الترغيب والترهيب، والتحفيز والتهديد، ﴿ذُوقُوا فَنَتَكِرَّ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

٢ - يكرم الله المتقين بالكثير من الجنات ولا يكتفي الله بجنة واحدة لإكرامهم، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(٣) تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ١٣٠.

(١) الكافي، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٤) الكافي، ج ٣، ص ٥٠٠.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٢٠٠.

٣ - الزهد في الشهوات العاجلة في الدنيا يتحوّل إلى نعيم وهناء في الآخرة، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ... ءَأَخِذِينَ﴾.

٤ - ينعم الله على المتقين بالجنّات والعيون، ويضيف إليها نعمه التي تستجدّ في كلّ آن، ﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ﴾.

٥ - ما يعطيه الله للمتقين يوم القيامة، مرتبط بشأن ربوبيّته سبحانه، ﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ﴾.

٦ - ما يعطى للمتقين يوم القيامة، منسوب إلى الله سبحانه بما هو ربّ، ولعل في هذا التعبير نوعاً من الكرامة والاهتمام إذ ينسب الله ما يعطيه لهم إلى ذاته سبحانه، ﴿ءَأَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ﴾، وفي الآية ٢١ من سورة الإنسان، ﴿وَسَقَنَّهُمْ رُؤُوسَهُمْ﴾.

٧ - لا ينال نِعَمَ الآخرة إلا من تعب وعمل في هذه الدنيا، فكنوز الآخرة مقصورة على الذين يعملون لها في الدنيا، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾. بلى، إنّ الدنيا مزرعة الآخرة.

٨ - التقوى والإحسان متلازمان، ﴿الْمُتَّقِينَ... مُحْسِنِينَ﴾.

٩ - بين ثواب الله وعمل الإنسان تناغم وتناسب، فالإحسان في الدنيا يتبعه إحسان من الله في الآخرة، ﴿ءَأَخِذِينَ... مُحْسِنِينَ﴾.

١٠ - ينبغي أن يكون الإحسان سيرة دائمة، ﴿كَانُوا... مُحْسِنِينَ﴾.

١١ - إحياء الليل بالعبادة من علامات أهل التقوى، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾.

١٢ - إحياء الليل بالدعاء والاستغفار والتضرّع بين يدي الله تعالى، من الأعمال التي يداوم عليها المتقون، ﴿يَهْجُونَ... يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).

١٣ - كل الناس معرضون لصدور الخطأ عنهم، حتى لو كانوا من المتقين، ولذلك هم في حاجة إلى الاستغفار، ﴿...مَّ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (وقد ورد في الآية كلمة «هم» التي تدل على المتقين؛ أي على الرغم من اتّصافهم بالتقوى فإنهم يستغفرون).

١٤ - كل الأعمال العبادية في السحر لها قيمتها ومنزلتها عند الله، ولكن الاستغفار هو صاحب المقام الأسمى بينها، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ مِمَّ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

١٥ - الاستغفار في السحر، هو أوج العبادة، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ مِمَّ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

١٦ - من علامات جامعية الإسلام وشموله لكل جوانب الحياة، جمع القرآن بين الإشارة إلى الاستغفار وإحياء الليل، والإنفاق على الفقراء والمحتاجين، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ مِمَّ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾.

١٧ - بعض الفقراء يحجزهم الحياء عن السؤال والطلب، ومثل هؤلاء ينبغي المبادرة إلى الاهتمام بهم، ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

١٨ - عندما تساعد السائلين والمحرومين، فإننا نعطيهم حقوقهم التي فرضها الله لهم في أموالنا، ﴿حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

١٩ - لا ينبغي أن ننتظر حتى يضطرّ الفقير للسؤال، بل علينا المبادرة والمحافظة على ماء وجهه كي لا يبذل في السؤال، ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

٢٠ - لا تنافي بين التقوى والغنى، فقد يكون الإنسان تقياً وغنياً في وقت واحد. والقرآن يشير إلى أن بعض الناس المتقين أغنياء في أموالهم حقوق مفروضة للطبقات الاجتماعية المحتاجة في المجتمع، ﴿الْمُنْفِقِينَ... وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ ﴿٢٢﴾
فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ يعترف القرآن الكريم بالطبيعة والآيات الإلهية التي فيها كطريق للوصول إلى اليقين؛ ولكنه يعتبر أن ذلك مشروط بالتوقُّر على قلب صافٍ مستعدٍّ، ﴿آيَاتٌ

﴿لَتَرْوِينَّ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(١)، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾^(٣)،
 ﴿لَأَنبِئَنَّكَ لِكُلِّ صَكْبَارٍ شَكُورٍ﴾^(٤)، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥)، ﴿لَأُولَىٰ أَلْحَىٰ﴾^(٦)،
 ﴿لَأَنبِئَنَّكَ لِمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٧)، ﴿لَأَنبِئَنَّكَ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٨)، ﴿هُدًى لِّلشَّاقِينَ﴾^(٩).

□ في خلق الأرض والإنسان أسرار خفية وأمور غامضة تستحق التأمل والتفكير:

ومن ذلك حجم الأرض ومساحتها وعمقها، والجبال التي فيها والأودية التي تتشكل بين الجبال، وبعدها عن الشمس وغيرها من الأجرام السماوية، وحركتها، واشتمالها على المعادن الظاهرة وغير الظاهرة، وقدرتها على إنبات النبات، واحتضانها للماء في جوفها، وما تخرجه للإنسان من فاكهة وطعام يكفيه لتأمين حاجات جسده. ولم تعجز الأرض عن تأمين حاجة الكائنات الحية التي عليها على الرغم من ضخامة العدد وتنوع هذه الحاجات. كل هذه الأمور تستحق وبجدارة أن تكون محلاً للتأمل والتفكير في خلق الله سبحانه.

وأما في الإنسان فربما كان الأمر أعظم، إذ يبدأ الإنسان مسيرته من النطفة والبويضة. وكل ما في الإنسان من صفات ذاتية هي دلائل على عظمة الله وقدرته التي تتجلى في خلقه، ومن ذلك متانة جسم الإنسان وتماسكه، وفي الوقت عينه عدم احتكاك هذه العظام ببعضها البعض الآخر خلال حياة الإنسان، ناهيك عن غير ذلك من المنظومات الدفاعية والهجومية التي يتمتع بها الجسم، والمنظومات العصبية التي بها يستطيع الإنسان متابعة حياته على الأرض.

□ عن الإمام علي عليه السلام: قال: «خلقك [الله] سمياً بصيراً، تغضب مرة وترضى مرة، وتجوع وتشبع، وذلك كله من آيات الله»^(١٠).

- | | |
|----------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة يونس: الآية ٦٧. | (٦) سورة طه: الآية ١٢٨. |
| (٢) سورة الرعد: الآية ٣. | (٧) سورة الحجر: الآية ٧٥. |
| (٣) سورة الرعد: الآية ٤. | (٨) سورة الروم: الآية ٢٢. |
| (٤) سورة إبراهيم: الآية ٥. | (٩) سورة البقرة: الآية ٢. |
| (٥) سورة النحل: الآية ٧٩. | (١٠) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٢٣. |

□ يقدم الإنسان على البخل والسرقة والاحتيال والظلم، لزيادة رزقه نتيجة ضعف إيمانه بأن الله قدّر لكل إنسان رزقه.

□ نزول الرزق، وسعته وضيقه، خاضع لحساب وموازن دقيقة: ﴿وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(١).

□ يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، بأكثر من معنى:

أ - أن يكون المراد الإشارة إلى نزول المطر وغيره من أنواع الرزق الذي ينزل من السماء إلى الأرض.

ب - أن يكون المراد أن أرزاق أهل الأرض مقدّرة في السماء.

ج - أن يكون المراد الإشارة إلى الرزق الذي قدره الله للمتقين في الجنة.

د - أن يكون المراد أن ما قدره الله لأهل الأرض من العذاب والرحمة، ينزل إليهم من السماء^(٢).

□ قوله تعالى: ﴿...يَنْزِلُ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾؛ أي كما أن نطقكم وقدرتكم على الكلام أمر قطعيّ ومحسوس لكم، فإنّ وعود الله قطعية وسوف تتحقّق من دون أدنى شكّ أو تردّد.

التعاليم:

١ - في الأرض أسرار وأمارات تدلّ على قدرة الله وحكمته وعلمه، ويتوقّف اكتشاف هذه الآيات على تطوّر العلوم والمعارف عند الإنسان، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾.

٢ - آيات الله في الأرض كثيرة وهي تستحقّ التأمل والتدبّر: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ (النكرة والتنوين يدلان على الكثرة والتعظيم).

٣ - معرفة الله ينبغي أن تُبنى على اليقين والبصيرة الواضحة، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ (المؤمنين).

(٢) انظر تفسير راهنما، عند تفسير هذه الآية.

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.

- ٤ - ما لم تتوفّر عند الإنسان روحية الإيقان والتصديق، لا تنفع عشرات الآيات والدلائل الدالة على الله تعالى، ﴿ءَايَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.
- ٥ - التأمل في الطبيعة وآياتها من الطرق المفيدة لتقوية الإيمان وتعميق الاعتقاد بالتوحيد، ﴿ءَايَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.
- ٦ - الأسرار التي يشتمل عليها الإنسان عظيمة إلى حدّ يسمح بالإشارة إليها إلى جانب أسرار الطبيعة، ﴿وَفِي الْأَرْضِ... وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾.
- ٧ - معرفة النفس، مقدمة لمعرفة الله تعالى، ﴿ءَايَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾.
- ٨ - مشكلة الكفّار والمشرّكين هي السطحية والنظر إلى ظاهر الأشياء من دون التأمل في بواطنها ومحاولة النفوذ إلى أعماقها، وهذا ما يأخذه الله عليهم ويؤثّبهم بسببه، ﴿أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾.
- ٩ - النظرة السطحية إلى الأمور من التصرفات التي يستحقّ الإنسان التأنيب بسببها، ﴿أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾.
- ١٠ - السماء هي مصدر الرزق (الماء، والهواء، والنور...) ومنبعه، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾.
- ١١ - أشكال الخير والعذاب والثواب والعقاب كلّها تنزل من السماء، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.
- ١٢ - السماء والأرض خاضعة لربوبية الله سبحانه، ﴿فَوَرَّبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٣ - تقدير رزق أهل الأرض في السماء، من مظاهر الربوبية الإلهية الكاملة المحيطة بالسماء والأرض، ﴿فَوَرَّبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٤ - القدرة على النطق والكلام من المواهب الإلهية التي خصّ بها الله سبحانه الإنسان، وهي مهمّة إلى درجة أن يضرب الله بها مثلاً لصدق وعوده، ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ نَقْلِ مَا أَنْتُمْ نَنطِقُونَ﴾.

﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ «راغ» أي حاد والرواغ الحياد. والرواغ في اللغة الذهاب إلى الشيء في خفية.
 □ تحدثنا هذه الآيات عن عدد من الملائكة أتوا إلى النبي إبراهيم عليه السلام، ليشتروه بالولد. وفي أول الأمر لم يعرفهم، ومع ذلك استقبلهم وأمر بإعداد الطعام لاستضافتهم.

□ يخبرنا القرآن الكريم عن إمكان تجسد الملائكة بصورة الإنسان، ولذلك أمثلة عدة في القرآن، منها: ظهور جبرائيل لمريم عليه السلام^(١)، وظهور هاروت وماروت بصورة البشر في عهد النبي سليمان عليه السلام^(٢)، ومنها ظهور الملائكة للنبي إبراهيم عليه السلام^(٣).

آداب الضيافة:

□ تشير هذه الآيات، والآيات اللاحقة لها، إلى بعض آداب الضيافة، وهي ما يأتي:

- ١ - احترام الضيف، ﴿ضَيْفٍ... الْمُكْرَمِينَ﴾.
- ٢ - تسليم الضيف عند دخوله، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٣ - وجوب رد السلام، ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾.
- ٤ - ذهاب صاحب البيت لإعداد الضيافة من دون أن يشعر به الضيف، ﴿فَرَأَى﴾.
- ٥ - إعداد الطعام في البيت ومساعدة أهله فيه، ﴿إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٢٥.

(١) سورة مريم: الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

- ٦ - سرعة الضيافة وعدم الإهمال والمماطلة حتى يذهب الضيف، ﴿فَجَاءَ﴾
 (الفاء حرف عطف يدلّ على الفور بخلاف ثمّ الذي يدلّ على التراخي).
- ٧ - إعداد أفضل أنواع الطعام، ﴿بِعَجَلٍ سَيِّئٍ﴾.
- ٨ - الإتيان بالطعام إلى حيث يجلس الضيف وعدم الطلب من الضيف السعي إلى الطعام، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾.
- ٩ - إعداد الطعام من دون سؤال الضيف واستثذانه في ذلك، ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ (فإبراهيم عليه السلام) بدأ بإعداد الطعام من دون أن يسأل ضيوفه هل أكلوا أم لا).
- ١٠ - مباشرة صاحب البيت أمور الضيافة وعدم تكليف الخدم بها، ﴿فَجَاءَ﴾.
- ١١ - وضع الطعام في تناول يد الضيف، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾.
- ١٢ - الإصرار على الضيف للاطمئنان إلى أنه سوف يأكل الطعام، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.
- ١٣ - الاستضافة ثم الحوار والسؤال، ﴿فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَيِّئٍ﴾، ثم بعد ذلك سألهم، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.
- ١٤ - عندما يكون في جعبة الضيف خبران، أحدهما سيئ والآخر حسن، من الأنسب أن يبدأ بالخبر الحسن، ﴿وَيَشْرُوهُ... قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (فقد نقل الملائكة إلى النبي إبراهيم البشارة بالولد أولاً، ثم أخبروه عن عذاب المجرمين).

التعاليم:

- ١ - أهمية قصة إبراهيم وضيوفه، واستحقاقها للنقل والحديث عنها، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾.
- ٢ - من الأساليب المناسبة للدعوة والإرشاد استخدام الأمثلة والقصص الحاوية على العبر، ﴿يَتْلُ مَا أَنْزَلْنَا نَسْفُحُونَ﴾، قص الله علينا قصة إبراهيم وضيوفه.
- ٣ - الضيافة تكريم للضيف وهي سيرة إبراهيم، ﴿صَيِّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.
- ٤ - عند دخول جماعة إلى بيت الأفضل أن يسلموا جميعاً، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

- ٥ - من المناسب المبادرة إلى السلام فور الدخول إلى البيت، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾
 (الفاء تدلّ على الفور وعدم الفاصلة الزمانية الطويلة).
- ٦ - البدء بالسلام أدب سماويّ تلتزم به الملائكة، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٧ - ردّ السلام من الآداب المهمّة سواء عرفنا الشخص الذي سلّم أم لم نعرفه،
 ﴿قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.
- ٨ - ينبغي احترام الضيف كائناً من كان، ﴿صَيِّفٍ... الْمَكْرَمِينَ... قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.
- ٩ - علم النبيّ إبراهيم ﷺ محدود، ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.
- ١٠ - ينبغي تكريم الضيف والاهتمام به، حتى لو كان مجهولاً، ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ
 فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾.
- ١١ - يحسن أن يكون المطبخ بعيداً عن مشاهدة الضيوف، ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾.
- ١٢ - تحسّن مشاركة الرجل والمرأة في إعداد الطعام للضيوف، ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ
 فَجَاءَ بِمِجَلٍ﴾.
- ١٣ - على المضيف أن يبدي الاهتمام بحال الضيف ويطمئنّن إلى أنّه أكل أم لم
 يأكل، ﴿فَفَرَّقَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.
- ١٤ - الملائكة لا يأكلون حتى وإنّ ظهروا بصورة الإنسان، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعَلِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَوقٍ فَصَكَّتْ
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

□ «أوجس» الإيجاس هو إحساس الإنسان بشيء في داخله، خيفة من الخوف.
 والتنوين هنا للتنوع أي أحسّ بنوع من الخوف. «صرة» في هذا المورد بمعنى
 الصوت المرتفع. «صكّ» ضرب بقوة. والعجوز العاجزة المسنّة، والعقيم هي
 المرأة التي لا تلد.

□ سارة هي زوجة إبراهيم الأولى وقد كانت محرومة من الولد عقيماً؛ ولذلك

تزوج هاجر ليرزق منها الولد. وعندما أتى الملائكة مبشرين بالولد استغربت سارة أن ترزق الولد بعد أن كبرت في السن وهي كانت عقيم في عمر الشباب. فلذلك صرخت وصكّت وجهها مستغربةً لأنّ مثل هذا الأمر لا يحصل بالطرق الطبيعية.

□ هذه الآيات تتحدث عن بشارة النبي إبراهيم ﷺ بالولد من زوجته الأولى سارة، والمراد من الغلام العليم في الآية إسحاق. والآية ١٠١ من سورة الصافات تشير إلى إسماعيل ﷺ بـ «الغلام الحليم».

□ الخوف أمر طبيعي موجود في جميع البشر، حتّى في الأنبياء، وليس أمراً مذموماً من هذه الجهة. وإنّما المذموم منه ما يعيق الإنسان عن واجباته في مواجهة الكفر.

التعاليم:

- ١ - على المضيف أن يلتفت إلى تصرفات الضيف كلّها، ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.
- ٢ - الأنبياء من البشر ويعتريهم ما يعتري البشر من خوف وقلق، ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (عدم تناول الطعام قد يفسر نوعاً من العداوة في بعض الثقافات، ولذلك هو من موجبات القلق).
- ٣ - ينبغي أن نرفع الشبهات ولا نترك الأمور غامضة؛ لأنّ الغموض وعدم الوضوح يخرّب العلاقات القائمة أو يمنع من إقامة العلاقات الجديدة، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُمْ﴾.
- ٤ - العلم من أهم الصفات في الولد، ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.
- ٥ - بعض الأمور تغيب عن الأنبياء ويعلمون بها بواسطة الملائكة، ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.
- ٦ - المرأة مخلوق عاطفي؛ ولذلك يصعب عليها كتم عواطفها وانفعالاتها، ﴿فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾.

- ٧ - لا ينبغي للزوج أن يمنع امرأته من التعبير عن انفعالاتها وعواطفها، ﴿فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ﴾ (ولا تحدّثنا الآية عن اعتراض إبراهيم عليه السلام).
- ٨ - لا حدود ولا قيود لقدرة الله، فهو قادر على أن يرزق شيخاً كبيراً وامرأة عقيماً ولداً عليمًا، ﴿يُنْقِلُهُ عَلَيْهِ... عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.
- ٩ - إرادة الله حاكمة على العوامل والأسباب الطبيعية، ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾.
- ١٠ - عطاء الله ومنعه، وسائر أفعاله سبحانه، خاضعة للحكمة والعلم الإلهي، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (فهو سبحانه لم يرزق إبراهيم الولد من زوجته سارة وهي شابة، وفعل ذلك بعد أن كبرت وكبر في السن).

الجزء (٢٧)

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَوْحَيْنَا فِيهَا عِبْرَةً لِّمَن يَّتَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- «الخطب» الأمر المهمّ الذي يسعى فيه أحد الأشخاص. و«مسومة» أي ذات علامة.
- بين النبي لوط والنبي إبراهيم عليه السلام صلة قرابة. وكان لوط يسكن منطقة سدوم في الأردن. وأهل سدوم كانوا من أهل الفحشاء واللواط ولم يؤثر فيهم وعظ النبي ولا نهيه إياهم عن هذا المنكر وغيره من المنكرات التي يرتكبونها، فنزل غضب الله عليهم وزلزل الأرض بهم وجعل عاليها سافلها كما يخبرنا القرآن، حيث أشار إلى قصتهم في سور عدّة، هي: الأعراف، وهود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات.
- لا بدّ من احترام التراتبية وكرامات أهل الكرامة، ولذلك لما كان النبي

إبراهيم عليه السلام من أولي العزم وأفضل أنبياء عصره، مرّ الملائكة عليه لإبلاغه قبل نزول العذاب على قوم لوط.

□ نزل العذاب الإلهي بواسطة الحجارة على قوم لوط، كما نزل على أصحاب الفيل الذين كانوا يريدون بالكعبة سوءاً، فرماهم الله: ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾^(١). والأمر المشترك بين الجماعتين هو هتك الحرمه، فأصحاب الفيل أرادوا هتك حرمه بيت الله، وقوم لوط أرادوا هتك حرمه بيت النبوة بالاعتداء على ضيوفه.

□ أرسل الله الملائكة لمساعدة النبي لوط عليه السلام، كما أرسل ملائكته لنصرة النبي محمد عليه السلام في معركة بدر. والملائكة في الحالتين كانوا مسؤمين: ﴿يُؤَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

□ ليست أمة النبي محمد عليه السلام فقط من يطلق عليها صفة الإسلام، بل كل من سلم لله تعالى من أتباع الديانات السماوية السابقة ينطبق عليه هذا الوصف، ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - ليس السؤال عيباً فالأنبياء أيضاً يسألون عما لا يعرفون، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾.
- ٢ - لا ينحصر العقاب للمجرمين على الآخرة، فالدنيا أيضاً قد تشهد بعض العقوبات الموجهة إلى المجرمين في، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ ثَمُودَ﴾.
- ٣ - قد يكون الملائكة واسطة في نزول العذاب على المجرمين في الدنيا، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.
- ٤ - غضب الله كما رحمته وفق حسابات ونظام محدد المعالم، ﴿سُوءَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.
- ٥ - الإيمان مفتاح الفلاح والنجاة، ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٦ - ينبغي الالتفات إلى المسلمين الموجودين في منطقة ما حتى لو كانوا أسرة واحدة، ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٥.

(١) سورة الفيل: الآية ٤.

- ٧ - مهما عمّ الفساد وانتشر إلا أنّ سبل الصلاح لا تنسدّ، ويمكن لبيت واحد أن يحافظ على صلاحه في بيته منحرفة، ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
- ٨ - في بعض الحالات قد ينتشر الفساد ويعمّ إلى حدّ لا يبقى مع النبيّ إلا أهل بيته: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وليس جميع أهل بيته بل بعضهم، إذ إنّ زوجته كانت مؤيّدة لخصومه وداعمة لهم: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ أَمْرًا نَّهَىٰ﴾^(١).
- ٩ - آيات الله لا تنحصر في النعم وحدها، فالعذاب والغضب الإلهي آية من آياته سبحانه أيضاً، ﴿وَرَزَّكَآ فِيهَا آيَةٌ﴾.
- ١٠ - الحوادث المرّة لا تؤدّي بالضرورة إلى اعتبار جميع الناس، فالذين يخافون الله وعذابه هم وحدهم الذين يعتبرون، ﴿آيَةٌ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ﴾.
- ١١ - الخوف الدائم من العذاب والغضب الإلهي قيمة من القيم الممدوحة، ﴿يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ سُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ وَقَالَ لِسِحْرٍ أَوْ يَحْمُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ جُودَةً وَجُودُهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- السلطان المبين، في الآية، هو البرهان القاطع الذي يلزم الخصم، ويقطع حجّته بالدليل الواضح.
- «نبد» أي رمى، ويستعمل لإلقاء الأشياء الحقيرة. و«مليم» من اللوم والملامة.
- الركن في الآية: القوة والجيش، وكل العناصر التي كان يستقوي بها على غيره من الناس؛ أي إنّ فرعون أعرض عن دعوة موسى ﷺ وشرع في مواجهته معتمداً على كلّ عناصر القوّة التي كانت متوقّره له.

التعاليم:

- ١ - يحتوي تاريخ الأنبياء على الكثير من العبر، ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾.
- ٢ - إحدى طرق الإصلاح في المجتمع التوجه إلى رأس الفساد لإصلاحه، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ﴾.
- ٣ - السلاح الأمضى الذي يستخدمه الأنبياء للإصلاح هو الحجّة والبرهان القاطع، ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.
- ٤ - عناصر القوة متعدّدة وهي السلطة السياسيّة، والإعلاميّة، والعسكر، والمال، وهذه العناصر هي سبب من أسباب الاستكبار عندما تكون في يد الطاغوت، ﴿فَتَوَلَّىٰ رِجْهًا﴾.
- ٥ - يحاول المنحرفون الأقوياء الاستفادة من القوة بكلّ عناصرها لمواجهة الحقّ، وبعد عجزهم عن مواجهة الحجّة بالحجّة، يلجأون إلى الكذب والافتراء واتّهام أهل الحقّ بالسحر والجنون، ﴿وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جَحْمٌ﴾.
- ٦ - الغضب الإلهي لا ينزل إلا بعد إتمام الحجّة، ﴿...بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ... وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جَحْمٌ فَأَخَذْتَهُ﴾.
- ٧ - لا يبرّر الانتساب إلى جيش السلطة الظالمة سكوت الجيش نفسه، فالغضب الإلهي يصيب هذا الجيش عندما يسكت ويكون مطيعاً للظالم وأوامره، ﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ﴾.
- ٨ - الطاغوت وقوى الظلم لا تساوي شيئاً عندما تقاس بقدرة الله تعالى، ﴿فَنَسَبْنَاهُمْ﴾.
- ٩ - يعاني المنحرفون، مضافاً إلى العذاب الظاهري، الندم والإحساس باللوم الباطني، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.
- ١٠ - عندما يحلّ الغضب الإلهي يصيب الظالمين وأعاونهم، ولكنّ اللوم الأكبر يتوجّه إلى رؤوس الظالمين، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، ولم يقل ﴿لَيْسَ﴾: «وهم مليمون».

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ نبيّ عاد هو النبيّ هود عليه السلام، وقد سعى في إصلاحهم ودعوتهم إلى الله، فما سمعوا له ولا استجابوا، فكان عقابهم أن أنزل الله العذاب عليهم.

□ بعض الرياح منتجة ونافعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ ﴿١﴾﴾، وفي قوله: ﴿رُيْسَ الرِّيحِ مَبْشُرِينَ ﴿٢﴾﴾. وفي بعض الحالات تكون مصدراً للدمار ووسيلة للعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾؛ وهي الريح التي أرسلها الله على عاد وكانت حارة إلى حدّ أنها أبيست زرعهم وأعقمت حيواناتهم، وأماتت إنسانهم.

□ «ريم»: من الرّم وهو الفتات من الخشب والتبن، والرّم إصلاح الشيء البالي، ومنه الترميم.

□ وتشير هذه الآية إلى تحويل قوم عاد إلى ما يشبه العظم الرميم، بعد نزول الغضب الإلهي عليهم، بعد ما كانوا عليه من القوة والمنعة.

التعاليم:

١ - الظواهر الطبيعية كلها، وما فيها من نفع أو ضرر للإنسان، بيد الله سبحانه، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾.

٢ - قد تكون البلاءات والكوارث الطبيعيّة، كالقحط والجفاف، من نتائج الغضب الإلهي، ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ... جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

٣ - الماء والهواء من جنود الله التي يحارب بها الظالمين، ﴿فَنَبَذْنَهُمْ فِي الرِّيمِ... الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٢﴾﴾.

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٤٦.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَسْبَعُوا حَتَّىٰ جِبْنَ ﴿١٣﴾ فَعَتَرَا عَنْ آمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾﴾
 ﴿أَسْتَظْلَمُوا مِن قِيَامِ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿١٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ نبيّ ثمود هو النبيّ صالح عليه السلام، والمعجزة التي طلبها قومه هي الناقة التي تخرج من الجبل، فاشترط عليهم أن لا يمسوها بسوء؛ ولكنهم لم يفوا بشرطه وقتلوا الناقة وكفروا به.

□ المراد من قوله تعالى، ﴿حَتَّىٰ جِبْنَ﴾ مهلة الأيام الثلاثة التي أعطيت لهم لعلهم يتوبون ويندمون على ما اقترفت أيديهم. ولكنهم أصروا على ما فعلوا ولم يبادروا إلى التوبة، فنزل عليهم العذاب بعد ثلاثة أيام، كما يخبرنا الله سبحانه في الآية ٦٥ من سورة هود، ﴿تَمَعَّقُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - إمهال المجرمين من السنن الإلهية، ﴿تَسْبَعُوا حَتَّىٰ جِبْنَ﴾.
- ٢ - منشأ الأوامر الإلهية هو ربوبية الله تعالى، بهدف تربية الإنسان وتهذيبه، ﴿آمَرَ رَبِّهِمْ﴾.
- ٣ - تجاوز حدود الله من أسباب الهلاك، ﴿فَعَتَرَا... فَأَخَذَتْهُمُ﴾.
- ٤ - قد تتحوّل الرياح والصواعق إلى وسائل وأدوات للغضب الإلهي، ﴿أَلَيْمٌ... الرَّيْحُ... الصَّيْقَةُ﴾.
- ٥ - تكشف إشارة القرآن الكريم إلى رؤية العذاب والعجز عن الفرار منه عن أقصى حالات الذل التي يُبتلى بها المجرمون، ﴿يَنْظُرُونَ... فَمَا اسْتَظْلَمُوا...﴾.
- ٦ - من لا يعتبر بمن مضى قبله، يتحوّل هو نفسه إلى عبرة لمن يأتي بعده، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ...﴾ (وتشير الآية إلى قوم عاد الذين لم يعتبروا من قوم نوح والعذاب الذي أصابهم).

٧ - في قصة نوح عليه السلام الذي قضى ما يقرب من ألف سنة بين قومه يحاول هدايتهم إلى الحق ولم يهتدوا، وقصة قومه عبرة للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ...﴾.

٨ - الاستمرار على الفسق أقبح من الفسق نفسه، ﴿كَانُوا... فَاسِقِينَ﴾.

٩ - في بعض الحالات يتحوّل الفسق إلى ظاهرة اجتماعية عامة، ومثل هذا الفسق هو الذي يؤدي إلى نزول العذاب الإلهي، ﴿قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «أيدٍ» قد تكون جمع يد وهي العضو المعروف في جسم الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ أَتِي بِبُطْحُونٍ يَهَبُّونَ ﴿١﴾﴾. وقد تتضمن هذه المادة (الألف والياء والذال) معنى القوة. وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

□ تدلّ الكلمتان: «فرش» و«مهد»، على بسط الشيء لاستخدامه للاستراحة.

التعاليم:

١ - السماء في حالة توسع دائم، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

٢ - قانون الزوجية من القوانين الحاكمة على كثير من مظاهر الطبيعة، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ... زَوْجَيْنِ﴾.

٣ - تهدف الإشارة إلى مظاهر الطبيعة في القرآن الكريم إلى تذكير الإنسان واعتباره، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخِرٌ
 ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١)

إشارات:

□ وردت عبارة ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ في هاتين الآيتين مرتين، وفي غيرها من الآيات وردت عبارات مشابهة، من قبيل: ﴿وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾^(١)، و﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، و﴿عَرَفٍ مُبِينٍ﴾^(٣)، وهذه العبارات كلها تؤكد حقيقة أن رسالة الأنبياء وكلام الله سبحانه يحملان الهداية من دون تعقيد وإبهام.

□ نتيجة الفرار إلى الله هي الفرار من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن القلق إلى الاطمئنان، ومن الخرافات إلى الحق، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى التقوى. وعن الإمام الباقر عليه السلام أن سفر الحج من مصاديق الفرار إلى الله^(٤).

التعاليم:

١ - الإنسان محدود القدرة، وفي مقابل آلاف الأمور المادية والمعنوية، وبين الصراع الذي يدور في داخله بين الميل إلى الحق والانحراف إلى الباطل، يحتاج إلى ملجأ وركن وثيق، ولا يوجد أفضل من الله ملجأ ومأوى، ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.

٢ - لا خيار أمام الإنسان سوى الحركة باتجاه الله والفرار إليه، ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.

٣ - النظر في مظاهر الطبيعة وآلاء الله في الكون، لا بد من أن يثير في الإنسان الإحساس بالعبودية لله تعالى، ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (وذلك بالنظر إلى الآيات السابقة، وإلحاقها بالدعوة إلى الفرار إلى الله).

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.

(٤) الكافي، ج ٤، ص ٢٥٦.

(١) سورة الحجر: الآية ١.

(٢) سورة النحل: الآية ٨٢.

- ٤ - طريق الأنبياء واضح المعالم مشرق الجوانب، ﴿تَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
- ٥ - لا ملجأ حقيقي سوى الله، وغيره كائناً ما كان ومن كان، ليس ملجأ يعتمد عليه، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ...﴾.
- ٦ - الأنبياء لهم مهمة واضحة هي هداية الناس وإنذارهم، ﴿إِنِّي لَكَرَّةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ ۗ ﴿٥٢﴾ أَوْصَاؤًا بِهٖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۗ ﴿٥٣﴾ فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ مِمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۗ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْنَا فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

- الآية الثانية والخمسون هي نتيجة للآيات السابقة عليها، وفيها تطيب لخاطر النبي ﷺ وتهدئة لقلبه، من خلال بيان أنه ليس استثناء بين الأنبياء، فإذا كان مشركو مكة تعاملوا معه بتلك الطريقة، فإن كثيراً من الأنبياء السابقين عليه تعرّضوا للطريقة نفسها.
- لا مجال للوم للنبي ﷺ أو الاعتراض عليه لإعراضه عن جدال المشركين وتركه الحجاج معهم؛ وذلك لأنه بذل أكثر مما يجب في سبيل هدايتهم إلى سواء السبيل، وأتمّ الحجّة عليهم ولم يقصّر في شيء من ذلك.
- دعا الله سبحانه في الآية الأخيرة من هذه الآيات نبيه إلى التذكير وعلّل ذلك بأن الذكرى تنفع المؤمنين، وربما كان ذلك لكي لا يظنّ أحد أنّ الكافرين وحدهم بحاجة إلى التذكير.
- بين المعرفة والعلم وبين سماع الإنسان ما يعلم فرق شاسع؛ وذلك لأنّ الاستماع إلى متكلّم مثل النبي ﷺ يشتمل على أعلى درجات الصدق والإخلاص له أثره الكبير حتى على من يسمع ما يعلم. ومن هنا، يأمر الله نبيه ﷺ بالتذكير الدائم حتى للمؤمنين.

التعاليم:

- ١ - جميع الأنبياء واجهوا المعارضين واتهاماتهم الباطلة؛ وعليه لا ينبغي أن نخشى المعارضة والاختلاف في الرأي، ﴿كَذَلِكَ... قَالُوا سَلِيرٌ أَوْ بَجُونٌ﴾.
- ٢ - يقدم القرآن الأنبياء على أنهم بشر كسائر البشر على الرغم من اصطفاء الله إياهم للنبوة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١). إلا أن الكفار وسائر المعارضين للأنبياء يصرون على اتهامهم بالجنون والسحر والعلاقة بالجن، ﴿سَلِيرٌ أَوْ بَجُونٌ﴾.
- ٣ - يتفق الكفار عبر التاريخ في موقفهم من الأنبياء على الرغم من تعدد الأذواق والمشارب، وكان السابقين منهم يوصون اللاحقين بما ينبغي فعله تجاه الأنبياء، ﴿أَتَوَاصَوْا...﴾.
- ٤ - الطغيان هو الأصل الذي يتفرع منه اتهام الأنبياء، ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.
- ٥ - لا يتحمل الداعي إلى الله مسؤولية أهل العناد واللجاج، ﴿فَقَوْلٌ﴾.
- ٦ - يجوز الإعراض عن المعاندين للحق، بعد إتمام الحجة عليهم، ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.
- ٧ - لا تقبح المقاطعة والإعراض دائماً، ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.
- ٨ - على الداعية إلى الله أن يعرف مخاطبيه بشكل جيد، فيعرض عن بعضهم، ﴿فَقَوْلٌ﴾، ويواصل دعوة بعضهم وتذكيره بالحق، ﴿وَذِكْرٌ﴾.
- ٩ - علينا أن نشك في إيماننا أو في درجته، عندما نجد أننا لا نتأثر بالنصيحة ولا نستفيد من العبر؛ وذلك لأن المؤمن يعتبر ويقبل النصيحة، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَئِي نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٠ - المؤمن يقبل النصيحة كائناً ما كان مصدرها، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَئِي نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل سبحانه «إن ذكراك تنفع المؤمنين».

١١ - على الدعاء إلى الله أن لا يأسوا ولا يملوا من الموعدة والهداية، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نُنْفَعُ...﴾.

١٢ - لا تقتصر الحاجة إلى التذكير والوعظ على غير المؤمنين، فالمؤمنون أيضاً محتاجون إلى التذكير، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٣ - تعاليم الأديان تضرب بجذورها في أعماق الفطرة الإنسانية، ووظيفة الأنبياء هي إثارة الفطرة وتبنيها، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

□ في الرواية عن الإمام الحسين عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذَكَرَهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ، فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ»^(١).

□ خلق الله الجنَّ قبل الإنسان، وهم مطالبون بالتكاليف الشرعية. وفي هذه الآية ذكرهم قبل ذكره الإنسان، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾.

□ يقرر القرآن أن الله قد خلق كل شيء بالحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٢). وأن كثيراً مما خلق يقع في مسير خدمة الإنسان: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ﴿٣﴾، ﴿سَخَّرَ لَكُمْ ﴿٤﴾، ﴿مِنَّمَا لَكُمْ ﴿٥﴾﴾.

والإنسان نفسه مخلوق من أجل هدف عالٍ وهو عبادة الله سبحانه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والعبادة في الإسلام لها معنى عام ينطبق على كل ما يُفعل بقصد رضى الله سبحانه.

سؤال: أشار القرآن إلى أهداف عدّة من وراء خلق الإنسان، وفي هذه الآية

(٤) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٥) سورة النازعات: الآية ٣٣.

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣١٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٦٥) جعل العبادة هي الهدف من وراء خلق الإنسان، فهل تنسجم تلك الأهداف مع هذا الهدف المشار إليه؟

الجواب: يقول الله سبحانه في الآية الثانية من سورة الملك: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. ويقول في الآية ١٢ من سورة الطلاق: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وبالجمع بين هاتين الآيتين يظهر أن الهدف الأساس هو العبودية لله والعبودية لا تتحقق من دون المعرفة، الأمر الذي أوضحه سبحانه وتعالى، بقوله ﴿لِيَعْلَمُوا﴾. وفي العبادة التي هي معرفة طريق الحق والتسليم لله، يعرف الإنسان ويختبر كما في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

سؤال: إذا كان الهدف هو العبادة، فلماذا لا نجد أنه يتحقق بصورة كاملة، وعند جميع الجنّ وبني البشر؟

الجواب: لقد أكد القرآن مراراً أنّ الله قادر على إرغام أنوف المخلوقات على العبادة لو أراد، ولكنه شاء أن تكون عبادة العباد نابعة من حرية إرادتهم.

سؤال: هل يحتاج الله إلى عبادة العباد؟

الجواب: يكرّر القرآن تأكيداً أنّ الله مستغن عن العباد بل عن جميع المخلوقات. فإذا دُعينا إلى فتح نوافذ بيوتنا على الشمس، فهذا لا يعني بأي وجه حاجة الشمس إلينا أو إلى بيوتنا، بل نحن المحتاجون إليها ليدخل ضوءها إلى حجرتنا لننتفع بها، ونستضيء بنورها. وفي هذه الآيات يشير الله إلى حقيقة استغنائه عن عباده بقوله ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾.

سؤال: إذا كان الرزق من الله، فلماذا لا يكون لجميع الناس بالسوية؟

الجواب: صفة الرازق هي إحدى الصفات الإلهية، والحكمة صفة أخرى من صفاته تعالى. وليس من الحكمة التسوية في الرزق بين جميع المخلوقات، لأن ذلك يؤدي إلى تخاذل الإنسان عن السعي في طلب الرزق، والله يدعونا إلى ذلك بقوله ﴿فَامشُوا فِي مَنَآكِبِكُمْ﴾^(١)، ويقول أيضاً: ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢). فكما

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الجمعة: الآية ١٠.

لا يصحّ من المعلّم أن يساوي في نتائج الامتحانات بين المجدّ والكسول، ولو فعل كان خلاف الحكمة، فكذلك لا يفعل الله سبحانه ذلك، بل ميّز بين الناس في الرزق تبعاً لحكمته المطلقة.

سؤال: إذا كان الله هو الرازق فما الذي يبرّر القحط؟

الجواب: القحط، وغيره مما يزعج الإنسان، له أسباب شتى، فتارة يكون هو التأديب والعقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا﴾^(١)، وطوراً يكون الهدف هو الاختبار والابتلاء، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾^(٢)، وثالثة تكون الغاية هي التربية، والأخذ بيد الإنسان ليلتفت إلى الله، ويتضرع إليه، ﴿فَأَخَذْتَهُم بِالْأَسْأَةِ... لَعَلَّهُمْ يَفْضَرُونَ﴾^(٣)، ورابعة تكون الحكمة هي الغضب الإلهي الناتج عن تخريب الإنسان الأحوال الأصلية للبيئة، كتخريب الغابات والمراتع، وتلويث مياه الأنهار، وكسر التوازن القائم في الطبيعة، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى آثار مدمرة ربّما يكون أهونها القحط، إذا قيس بغيره من الآثار المتوقّعة لما جتته يد الإنسان على نفسه.

□ الإيمان الصادق بأنّ الرزق بيد الله يسدّ الأبواب في وجه كثير من التصرفات المشينة، كالسرقة والظلم، والاحتيال والاختلاس، والتطيف والبخس إلى غير ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾.

التعاليم:

- ١ - التكليف سمة مشتركة بين الجنّ والإنسان، ﴿الْجِنِّ وَالْإِنْسِ... لِيَعْبُدُونِ﴾.
- ٢ - المهمّ هو صدور العبادة عن الإنسان، ومسيره في الصراط الإلهي، لا عبادة الله، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لِيَعْبُدُونِي﴾، ولم يقل ﴿لِيَعْبُدُوا﴾: «لأعبد»، باستخدام الفعل المبني للمجهول، بل استخدم الفعل ونسبه إلى الفاعل، وهذا يكشف عن أهمية الفاعل ودوره الأساس، ما يمنع من إغفاله وتجهيله.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٤٢.

(١) سورة النساء: الآية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

٣ - المعرفة من اللوازم القريبة للعبادة؛ ولذلك يمكن القول إن معرفة الله والسير نحوه من الأهداف المرادة من الخلق لملازمتها وكونها مقدّمة للعبادة، ﴿لِيَعْبُدُونَ﴾.

٤ - الإنسان في معرض الغفلة والنسيان، ومن هنا كان من المناسب تذكيره بالغايات المرادة من خلقه بشكل دائم، ﴿وَذَكِّرْ... وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ...﴾.

٥ - ليس الله في حاجة إلى الخلق وعبادتهم ويستوي في ذلك الجن والإنس، فالغاية من العبادة هي حاجة الإنسان إلى التكامل بها، لا حاجة الله إليها، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ...﴾.

٦ - الرزاق ليس به حاجة إلى الرزق من أي مخلوق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ... إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾.

٧ - توجد الكثير من الوسائل والمقدّمات التي يتوقّف عليها وصول الرزق إلى الإنسان؛ ولكنّ الرزاق هو الله سبحانه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾.

٨ - لا يعجز الله عن إيصال أيّ رزق يريد إيصاله إلى عباده، ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ﴾.

٩ - لا يؤثر مرور الزمان على قدرة الله على الرزق، ﴿الْمَتِينُ﴾ (المتين هو الثابت المحكم).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠)

إشارات:

- كلمة «ذُنُوب» في هذه الآية معناها النصيب والسهم^(١).
- بدأت الآية بكلمة «تواعدون» ونُحِتت بها، وهذا يدلّ على أنّ هدف السورة وموضوعها الأساس هو المعاد.

(١) الكسرة على النون في كلمة: «يستعجلون» للإشارة إلى حذف ياء المتكلم من الكلمة.

□ تلفت هذه السورة إلى أنّ لبعض الناس من هذه الأمة نصيبهم من العذاب، كما لسائر العصاة والجبابرة من الأمم السابقة، فلماذا استعجال ذلك ومطالبتهم بسرعة نزول العذاب عليهم؟

□ الشرك والكفر، في منظومة القيم القرآنية، من أشكال الظلم. وهو ظلم الله تعالى بجعله في مصاف خلقه، وظلم من الإنسان لنفسه بالسعي في رضا المخلوق بدل السعي في رضا الخالق، وظلم من الإنسان لأسرته بحرمانها من الهداية وتقديمه المثل السيئ لها. ويرى العلامة الطباطبائي، في «الميزان في تفسير القرآن» أن المراد من الظلم في هذه الآية هو الشرك والكفر، وليس ظلم الناس والاعتداء على حقوقهم.

□ قيل إنّ المراد من اليوم الذي يوعدون في الآية هو يوم بدر، ولكن يحتمل بقوة أن يكون المراد منه يوم القيامة^(١).

التعاليم:

١ - من لا يضع نفسه في طريق الهدف الذي خلُق من أجله، وهو العبادة، يكن ظالماً لنفسه أولاً ولحقوق الله سبحانه وتعالى ثانياً، بل لا يكون ظالماً فحسب بل يكون كافراً أيضاً، ﴿إِلَّا لِعَبْدُوهُ... لِلَّذِينَ ظَلَمُوا... كَفَرُوا﴾.

٢ - ستة الله واحدة عبر التاريخ تجري على الظالمين من الأمم جميعاً، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٣ - تاريخ الأمم الماضية شاهد على المصير الذي سوف يصير إليه الظالمون، ﴿ذُنُوبًا يَمْثَلْ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

٤ - الأعمال المتشابهة لها جزاءات متشابهة، ﴿ذُنُوبًا يَمْثَلْ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

٥ - بين المتشابهين في السلوك نوع من أنواع التقارب والصحبة، ﴿يَمْثَلْ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ٣٩٠.

- ٦ - الغضب والقهر الإلهي له أوقاته المحسوبة تبعاً لحكمة الله وإرادته المنزهة عن العيب والعجلة، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.
- ٧ - مصير الإنسان مرهون بأعماله خيراً كان أم شراً، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (الظلم والكفر من أسباب الابتلاء بالعذاب الإلهي).
- ٨ - التفكير في المستقبل يصون الإنسان من سوء العاقبة، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سُورَةُ الطُّورِ

السورة: ٥٢ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٤٩

ملاحح سورة الطور

سورة الطور مكّية، وعدد آياتها تسع وأربعون آيةً. وقد سمّيت بهذا الاسم بالنظر إلى أولها. وقد وردت كلمة «الطور» في القرآن عشر مرّات، ويقصد بها الجبل حيث كان ميقات النبي موسى ﷺ، ومحلّ نزول التوراة عليه.

وتشبه هذه السورة سائر السور المكّية من جهة اهتمامها بالموضوعات الاعتقادية، والحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وعن عقاب الكافرين، وثواب المتّقين. وتشير إلى التوحيد، وفيها حديث عن النبي محمّد ﷺ وصفاته كصبره وثباته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَمْ يَمُنْ دَافِعٌ ﴿٨﴾

إشارات:

□ الطور في اللغة الجبل، والمراد به هنا جبل محدد في سيناء كان محلاً لميقات الله لموسى ﷺ، وهو المكان المقدس الذي يتحدث عنه القرآن، ويوصف فيه بما يأتي: ﴿الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (١)، و﴿يَالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ (٢)، و﴿فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ (٣).

□ قوله تعالى: «كتاب مسطور» يراد به الكتب السماوية كالتوراة والقرآن، إذ كانت تكتب على صفحات منشورة وليس في لفائف، الأمر الذي يشار إليه بقوله تعالى ﴿فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ﴾.

□ «الرق» من الرقة، وهو الجلد الذي يعدّ للكتابة عليه بعد معالجته بالدباغة أو غيرها من العمليات التي تجعل الكتابة عليه أمراً سهلاً وممكناً. و«منشور» أي مبسوط مقابل الملفوف. و«المسجور» المشتعل المضطرم، وقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الامتلاء.

□ والمراد من «البيت المعمور» بيت الله سبحانه المعمور بالزائرين والحجيج، وقد ورد التعبير بالبيت عن الكعبة في القرآن الكريم أكثر من مرة، كما في قوله تعالى ﴿الْبَيْتِ الْقَتِيبِ﴾ (٤). كما أنه ورد في بعض الروايات الحديث عن محلّ موازٍ للكعبة في السماء هو محلّ طواف الملائكة (٥).

□ «البحر المسجور» الموقد يوم القيامة، والسجر تهيج النار. وقد ورد هذا المعنى في الآية السادسة من سورة التكويد: ﴿وَإِذَا أَلْحَاظَ سُجْرَتَكَ﴾؛ وربما يكون في

(١) سورة مريم: الآية ٥٢.

(٤) سورة الحج: الآية ٢٩.

(٢) سورة طه: الآية ١٢.

(٥) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥١.

(٣) سورة القصص: الآية ٣٠.

الآية إشارة إلى المواد المشتعلة الذائبة في الأرض، والتي تفور في بعض الأوقات والأماكن على شكل براكين.

□ مرّ قوله تعالى في آخر سورة الذاريات ﴿يَوْمَ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى صدق وعيده بالعذاب بعد خسمة أقسام، بقوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفٌ﴾.

□ يقسم الله سبحانه بالطور الذي كان مكاناً لنزول الوحي على موسى ﷺ، وبالتالي تبقى قداسة هذا المكان على الرغم من انقضاء العصور والدهور، ولا أدري كيف يجروّ بعض قساة القلوب على القول إنّ النبي ﷺ قد فقد قداسته بذهابه من الدنيا، وقد كان قلبه محلاً لنزول الوحي.

□ القسم بالكتاب والرق، في ذلك الزمان، من الأدلة على اهتمام الإسلام بالعلم والمعرفة وأدواتها.

التعاليم:

- ١ - حفظ قداسة الأماكن المقدسة المرتبطة بالأديان السماوية، من الأمور المطلوبة شرعاً، ﴿وَالطُّورِ﴾.
- ٢ - علينا أن نجذب قلوب أهل الكتاب باحترام الأماكن المقدسة عندهم، كما يقسم الله بالطور وهو محل نزول الوحي على موسى ﷺ، ﴿وَالطُّورِ﴾.
- ٣ - يقسم الله سبحانه من أجل تثبيت الإيمان عند العباد بنظام التشريع والتكوين بالجبل والكتاب، والكعبة والسماء والبحر، ﴿وَالطُّورِ وَكُنْبِ مَسْطُورٍ... وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾.
- ٤ - ينبغي أن نستخدم أفضل أدوات الكتاب ووسائلها لكتابة الوحي الإلهي، ﴿وَكُنْبِ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾.
- ٥ - الكتاب مقدس ينبغي أن يبقى مفتوحاً دائماً للاستفادة منه في كلّ وقت، ﴿كُنْبِ... مَنشُورٍ﴾.
- ٦ - العلم مفيدٌ ومباركٌ؛ ينبغي أن ننشره ونفيد الناس منه، ﴿مَنشُورٍ﴾.

- ٧ - يحترم القرآن سائر الكتب السماوية ولذلك يقسم الله بها في كتابه، كما يشير إلى نظمها وطريقة كتابتها، ﴿وَكُتِبَ مُتَّطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾.
- ٨ - عمارة البيت لا تكون بالتزيق والتزيين، بل بالتردد إليه وقصده للعبادة، ﴿وَأَلْيَبْتِ الْمَمُورِ﴾ (بيت الله من أبسط البيوت؛ ولكنه من أكثرها قداسة وبركة).
- ٩ - دراسة الطبيعة، والتأمل فيها، تمهد للإنسان سبل اليقين بقدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْوَعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.
- ١٠ - ينقل القرآن الكريم الإنسان، من المحسوسات والمشاهدات، إلى ما لا يمكن إدراكه بالحواس، ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.
- ١١ - القهر والتأديب من صفات الله سبحانه، ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾.
- ١٢ - ينبغي أن يتعاضم إيمان المؤمنين بيوم القيامة كلما ازداد شك الكافرين والمعاندين فيه، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَرَافِعٌ﴾.
- ١٣ - يجب أن يكون نزول الكتب السماوية، ﴿وَكُتِبَ مُتَّطُورٍ﴾، وتجلي القدرة الإلهية في الوجود، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْوَعِ﴾ منشأ للإيمان، وإلا فإن العذاب هو الخيار الحتمي، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَرَافِعٌ﴾.
- ١٤ - لا مفر من العذاب الإلهي، عند من يحكم عليه الله سبحانه بذلك، ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٥﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكذِبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ المور في اللغة الجريان السريع. وهو الدوران غير المنظم، كالحركة الناجمة عن تأثير الرياح في الأشياء الخفيفة.

□ «الخوض» في الأصل دخول الماء والعبور فيه، وفي الاصطلاح هو الدخول في الباطل.

□ «الدع» هو الطرد بعنف. وقد ورد في القرآن التعبير بالدع عن طرد اليتيم ومنع الطعام عنه، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتِيماً﴾.

□ خلق الوجود الإمكانى من أجل الإنسان، وبمجرد انتهاء الوجود الإنساني على الأرض، تضطرب أحوال الكون وتبدل، ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾. وفي آية أخرى يشير الله سبحانه إلى طي السماء كما الأوراق في الملقات، ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِّيلِ﴾^(١).

□ الثابت الوحيد هو الله سبحانه، وأما السماوات فإنها على الرغم من متانة بنائها وإحكامه، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَمَا شِدَادًا﴾^(٢)، فإنها تدور وتزول من مكانها كما تدور الأشياء الخفيفة عندما تضربها الرياح، ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾. والجبال التي هي من أسباب استقرار الأرض، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسَ شِيخْلَتٍ﴾^(٣)، تهتز يوم القيامة وتفقد استقرارها، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾.

التعاليم،

١ - تصوير أحداث يوم القيامة، من الأسباب التي تحول بين الإنسان وبين التكذيب والعناد، ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ... وَتَسِيرُ الْجِبَالُ...﴾.

٢ - لا تنهار الأرض وحدها قبيل يوم القيامة، بل تنهار معها السماوات وما فيها، ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ... وَتَسِيرُ الْجِبَالُ...﴾.

٣ - لا يتوَقَّر المكَذَّبون على منطِق يستندون إليه، ومن أهم أسباب تكذيبهم خوضهم في الباطل ولهوهم ولعبهم، ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

٤ - ربَّما يصدر عن الإنسان اللهو واللعب، وقد يغفر له ذلك؛ ولكن المشكلة الكبرى عندما يغرق في اللعب نتيجة الخوض فيه، ﴿فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

(٣) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٢) سورة النبأ: الآية ١٢.

- ٥ - سعي الكفار لإبطال القرآن ليس إلا لعباً ولهواً لا يجنون منه شيئاً، ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.
- ٦ - يجمع الله للكفار الذين يكذبون الأنبياء بين التوبيخ والإهانة وبين العذاب، ﴿يُدْعُونَ... هَذِهِ...﴾ (فهو جمع بين العذاب النفسي، والعذاب الجسدي).
- ٧ - لا تنتفي النار بإنكارها، بل سوف يواجهها المنكر يوم القيامة، ﴿هَذِهِ النَّارُ﴾.
- ٨ - التكذيب الشديد لا يناسبه إلا العذاب الشديد يوم القيامة، ﴿مُكذِّبِينَ﴾.
- ٩ - العقاب المناسب الوحيد للتكذيب في الدنيا هو النار في الآخرة، ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ السحر، والتأثير على العيون لكي ترى الواقع على غير ما هو عليه، هو التهمة التي كانت توجه إلى الأنبياء ومعجزاتهم؛ ولذلك فإن الله، يوم القيامة، يخاطبهم بالطريقة التي تناسب مع ما كانوا يقولون ويفعلون في الدنيا، ويسألون: هل هذه النار سحر أيضاً، أم المشكلة في عيونكم التي أعماها العناد فعشيت عن معرفة الحقيقة؟

□ يُوبَخ الكافرون المكذبون يوم القيامة بالكلمات التي يؤذون بها الأنبياء، فيقال لأصحاب تهمة السحر، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾، ويقال للذين كانوا يقولون لنبيهم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظتْ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾^(١)، يقال لهم، ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - يعرض الله يوم القيامة الأشياء التي كان يكذب بها الكافرون، ويقدمها لهم أمام عيونهم، ﴿هَذِهِ النَّارُ... أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾.
- ٢ - انعدام البصيرة واعوجاجها من أسباب التكذيب وعلله، ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ... أَمْ أَنْتَ لَا تُبْصِرُونَ﴾.
- ٣ - يترتب على التكذيب المتواصل والمستمر، ﴿كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾، العذاب المتواصل والمستمر، ﴿يَدْعُونَ... أَفَسِحْرٌ هَذَا... لَا تُبْصِرُونَ... أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾.
- ٤ - عقاب الدخول في اللهو واللعب هو الدخول إلى النار والخوض فيها، ﴿فِي خَوْضٍ... أَصْلَوْهَا﴾.
- ٥ - يخضع العقاب، يوم القيامة، لقانون العدل، ومن هنا يكون الجزاء من جنس العمل ومتناسباً معه، ﴿إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَدَّهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَعِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحْتَهُمْ بِيُحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- «الهنيء» هو الأمر الذي لا تعب فيه ولا ألم، وهذا بخلاف لذات الدنيا ونعمها، فإنها مشوبة بكدر يقلل من جمالها وحسنها.
- «البحور العيين»، تركيب مؤلف من كلمتين الأولى هي الحور جمع حوراء، والحوَر هو السواد في العين، و«عين» جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين. وقد عبّر عن نساء الجنة بذكر صفتهم.
- الأنس برفقة المتقين من النعم التي يمنّ الله بها على أهل الجنة. وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في أكثر من مورد في القرآن الكريم.

□ تذكر الآيات من ١٦ إلى ١٩ العقاب والثواب لأهل النار وأهل الجنة، وبينهما تشابه وتقابل واضح؛ إذ يقول سبحانه عن أهل النار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَسْأَلُونَ﴾، ثم يشرح حال أهل الجنة بقوله: ﴿هَيْبَتًا بِمَا كُنتُمْ تَسْأَلُونَ﴾؛ مع فارق وهو أن عقاب أهل الجنة يتناسب مع فعلهم لا يزيد ولا ينقص، وأما ثواب أهل الجنة فهو أكثر وأعظم من الفعل، وذلك يستفاد من قوله تعالى: «ما كتتم» بالنسبة إلى أهل النار، و«بما كتتم» بالنسبة إلى أهل الجنة.

التعاليم:

- ١ - التقوى هي مفتاح الجنة، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾.
- ٢ - المقارنة بين عاقبة المتقين وعاقبة الكافرين من الوسائل المؤثرة في معرفة الحق والدعوة إليه، ﴿هَذِهِ النَّارُ... فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾.
- ٣ - ينعم الله على أهل الجنة بالكثير من الجنات والنعم التي تشمل عليها، ﴿جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾.
- ٤ - توجد في الدنيا نعم كثيرة ولكن الإنسان قد لا يشعر بلذتها ولا يأنس بها، وأما نعم الآخرة فهي مصدر فرح وسرور لمن يمتعه الله بها، ﴿جَنَّاتٍ... فَتَكِينٍ﴾.
- ٥ - تصل لذة النعمة إلى حدّها الأقصى، عندما ينالها الإنسان من الله، ﴿إِنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ﴾، ثم لا تكون مقرونة بما ينقص لذتها، ﴿وَوَقَّعْتُهُمْ رُؤُوسَهُمْ﴾.
- ٦ - من يحفظ في الدنيا نفسه بالتقوى، يقيه الله النار يوم القيامة، ﴿الْمُتَّقِينَ... وَوَقَّعْتُهُمْ﴾.
- ٧ - لا ينبغي للمؤمنين أن يحسبوا أن ما ينالونه من أجر وثواب، هو استحقاق على الله، وإنما هو من منه سبحانه، حتى لو كان مسبوقاً بالعمل، ﴿إِنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ... وَوَقَّعْتُهُمْ رُؤُوسَهُمْ﴾.
- ٨ - الحرّية والتكريم، يرفعان من لذة النعمة يوم القيامة، ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا وَهَيْبَةً﴾؛

حيث لا يقدم الطعام والشراب يوم القيامة لأهل التقوى، فحسب بل يُقرن تقديمه بالتكريم والتهنئة.

٩ - الأمن من الأمور التي ترفع منسوب الإحساس بقيمة النعمة والتمتع بها، ﴿وَوَقَّهَتْ رَبُّهُمْ... كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

١٠ - مأكولات الدنيا، مهما كانت لذیذة، إلا أنها لا تخلو من منغص يكدرها، وأما لذات الآخرة ونعمها فلا يشوبها كدر، ﴿هَيَّأْنَا﴾.

١١ - السرور والرضا، إلى جانب التمتع بالنعم، من شروط اكتمال اللذاذ بها، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَكَّهَيْنَ... مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ...﴾.

١٢ - المتقون الذين يغضون أبصارهم عن غير محارمهم في الدنيا، ينعم الله عليهم بما تركوه في الدنيا لأجل الله سبحانه، ﴿الْمُنْفِقِينَ... وَرَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَبَّعْتُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِزْقًا غَيْرَ كَسَبٍ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِزْقًا غَيْرَ كَسَبٍ يُسَاءَلُونَ عَنْ رِزْقِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَسَبُوا﴾ (٢١)

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَبَّعْتُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢٢) ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٣)

إشارات:

□ «التنا»، من اللوت، ولاته يلوته لوتاً نقصه حقه. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾، أن أجرهم لا ينقص بالحق ذريرتهم بهم.

□ «رهين» من الرهن وهو ما يوضع وثيقة للدين... ولما كان الرهن يتصور منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَبَّعْتُمْ...﴾، أنه قال: «قَصَّرت الأبناء عن عمل الآباء، فألحقوا الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم»^(١).

□ يلحق الله الأبناء المؤمنين بأبائهم، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا... أَلْفَقْنَا بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾، ثم يمن عليهم بالنعم المعدّة لهم، ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ﴾.

□ خصائص فاكهة الجنة هي على النحو الآتي:

- ١ - الكثرة، ﴿فَتَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾^(١).
- ٢ - الأمن وخلوها من الضرر، ﴿فَتَكِهَةٌ ءَامِنِينَ﴾^(٢).
- ٣ - الزوجية، ﴿مِنْ كُلِّ فَنَكِهَةٍ زَوْجَانٍ﴾^(٣).
- ٤ - الدوام، ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَنَكِهَةٍ﴾^(٤).
- ٥ - الإباحة والجواز، ﴿وَلَا مَمْرُوعَةٍ﴾^(٥).
- ٦ - التكريم مع تقديمها، ﴿فَوَرَكَةٌ وَهِيَ مَكْرُمُونَ﴾^(٦).
- ٧ - التنوع، ﴿وَفَوْرَكَةٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(٧).
- ٨ - مقرونة بغيرها من النعم، ﴿بِفَنَكِهَةٍ وَلَحِيرٍ﴾^(٨).
- ٩ - القدرة على التخيّر بينها، ﴿وَفَنَكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾^(٩).
- ١٠ - سهولة تناولها والوصول إليها، ﴿تَطْوِفُهَا دَائِبَةٌ﴾^(١٠)، ﴿وَذَلَّتْ تَطْوِفُهَا نَذِيلًا﴾^(١١).

التعاليم:

١ - المحور الأساس للتقييم في الإسلام هو الإيمان، لا القرابة العائلية وصله الدم، ﴿وَاتَّبَعْتُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ﴾.

(٧) سورة المرسلات: الآية ٤٢.

(٨) سورة الطور: الآية ٢٢.

(٩) سورة الواقعة: الآية ٢٠.

(١٠) سورة الحاقة: الآية ٢٣.

(١١) سورة الإنسان: الآية ١٤.

(١) سورة الزخرف: الآية ٧٣.

(٢) سورة الدخان: الآية ٥٥.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٥٢.

(٤) سورة الطور: الآية ٢٢.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٣٣.

(٦) سورة الصافات: الآية ٤٢.

٢ - الإلحاق بالصالحين في الآخرة، من آثار الالتحاق بسبيلهم في الدنيا، ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ... الْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

٣ - مرافقة الأبناء من نعم الآخرة التي ينالها الصالحون، ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

٤ - المحبة للذرية والولد تبقى إلى يوم القيامة، ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

٥ - لا يؤثر إلحاق ذرية الإنسان به يوم القيامة، بشكل سلبى عليه، فلا يضيق مسكنه عليه ولا ينقص رزقه بالإلحاق منه على عياله، ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ... مِنْ شَيْءٍ﴾.

٦ - إلحاق ذرية الإنسان به يوم القيامة، من آثار أعماله في الدنيا، ﴿الْحَقْنَا... بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾.

٧ - تناول الفاكهة مقدّم على تناول اللحم، ﴿بِفَيْكِهِمْ وَلَحْمٍ﴾.

٨ - لا تزول الشهوة والرغبة يوم القيامة، ويختلف الناس فيما يشتهون ويرغبون فيه، فكلّ منهم يتناول ما يرغب ويشتهي، ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

﴿يَشْتَهُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُزُوفٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ «الكأس» هو الممتلئ، و«القدح» هو الفارغ. كلمة «مشفق» عندما تقترن بـ «من» تدلّ على الخوف والقلق، وعندما تقترن بـ «في» تدلّ على الشفقة والعطف.

□ «يتنازعون» أي يخطف بعضهم كأس بعضهم الآخر، في حالة فرح وسرور كما يحصل في بعض الحفلات، ومجالس الفرح.

□ الشراب في الدنيا يذهب بعقل الإنسان ويدعو إلى صدور قبيح القول عنه، مضافاً إلى تحريكه الشهوة الجنسيّة والميل نحو الرذيلة، وأما شراب الآخرة فإنه لا يؤدي إلى أيّ شيء من ذلك، ولذلك يصفه الله بقوله: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١).

- وردت في القرآن عبارة: ﴿أُولَؤُا مَكُونُ﴾ مرتين، مرة لوصف حوريات الجنة^(١)، ومرة لوصف غلمانها^(٢).
- «سموم» وهي الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، أو تترك أثرها فيه كما يترك السم أثره في جسد الإنسان. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لوفتح الله من عذاب السموم على أهل الأرض مثل الأنملة أحرقت الأرض ومن عليها»^(٣).
- وعن أمير المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قال: «الولدان أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات فيثابون عليها، ولا سيئات فيعاقبون عليها فأنزلوا هذه المنزلة»^(٤).

التعاليم:

- ١ - التنزه والترفيه عن النفس أمر مقبول، شرط أن لا يصل إلى اللغو ولا يدخل الإنسان في المعصية، ﴿يَتَنَزَّعُونَ... لَا لَغْوٌ... وَلَا تَأْتِيَةٌ﴾.
- ٢ - على الرغم من أن في الجنة أنهاراً من عسل وماء جارٍ، فإن الماء والطعام والشراب تُقدّم إلى أهل الجنة في أوانٍ وأكواب؛ لأن ذلك أوجب للأنس وأجلب للذة، ﴿كَأْسًا﴾.
- ٣ - لا وجود للهو واللغو والإثم في الجنة، ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيَةٌ﴾.
- ٤ - كل حركة لا لغو فيها ولا معصية، لا مانع من فعلها وارتكابها، ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيَةٌ﴾.
- ٥ - خدم الجنة في حالة طواف دائم حول أهلها كما تطوف الفراشة حول النور، ﴿يَطُوفُ...﴾.
- ٦ - ينعم الله في الجنة على أهلها بمجموعة من الخدم الخاصين الملائمين لكل واحد منهم، ﴿غِلْمَانًا لَهُمْ﴾.

(٣) السيوطي، الدر المشور، عند تفسير الآية.

(٤) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٩١.

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٣.

(٢) سورة الطور: الآية ٢٤.

٧ - جمال الخدم الموكلين بالضيافة في الجنة، نعمة إضافية ينعم الله بها على أهلها، ﴿كَانْتُمْ لَوْلَوْ مَكُونُونَ﴾.

٨ - من المناسب والمطلوب، تغطية الأشياء القيّمة والثمينة، ﴿لَوْلَوْ مَكُونُونَ﴾.

٩ - من متع الجنة ولذاتها تبادل الحديث بين أهلها، ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ﴾.

١٠ - ينبغي البحث عن مفتاح الجنة في الدنيا، ﴿كُنَّا قَبْلُ فِي آهْلِنَا﴾.

١١ - الإشفاق على الأهل والأقارب، من مفاتيح الجنة، ﴿فِي آهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

١٢ - على الإنسان أن يهتم بأهله وعائلته، ويظهر لهم المودة والعطف، ﴿فِي آهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

١٣ - يعتقد أهل الجنة أنّ نيلهم إيّاها منّ من الله وليس استحقاقاً على العمل، ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا﴾.

١٤ - من يستحق أن يقصد بابه هو البرّ الرحيم، بل مصدر البرّ والرحمة، ﴿نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٥ - لا أحد سوى الله مصدر للبرّ والرحمة، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٦ - إحسان الله إلى الناس وغيرهم، من لوازم رحمته (وليس نابعاً من حاجته إليهم)، ﴿الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٧ - نجاة المتقين من العذاب، ونيلهم الجنة من تجليات الرحمة الإلهية والإحسان الإلهي، ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السُّمُورِ... إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِدَعْوَةِ رَبِّهِ

الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ الكاهن هو الشخص الذي يخبر بالغيب، ويدعي العلاقة بالجنّ، والتعرّف إلى

الأسرار والخفايا بواسطتهم. ﴿رَبِّ أَلْمُونٍ﴾ تعبير يراد به الحوادث والمصائب التي تصيب الإنسان في حياته.

□ صفة الجنون التي كان ينسبها المشركون إلى الأنبياء، لا يراد بها الجنون بمعنى زوال العقل، بل المراد بها العلاقة بالجنّ، وذلك بقريئة وقوعها في سياق الاتهام بالكهانة، وكانوا يطلقون هذه الصفة على الأنبياء لاعتقادهم بأنّ من تنشأ بينه وبين الجن علاقة يصبح قادراً على اكتشاف الأسرار ومعرفة بعض الحقائق التي قد تخفى على غيره من الناس. ومن القرائن المؤيِّدة لهذا المعنى قول الله على لسانهم ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي الخوف من الاتِّهَامات التي يطلقها الكافرون المعاندون للحقّ، وعلى الداعي إلى الله والعامل في سبيله العمل بما يقتضيه التكليف، حتى لو كانت التهم كبيرة وشنيعة كالاتِّهَام بالسحر، والجنون، والكهانة، وغيرها، ﴿فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ... بِكَاهِنٍ...﴾.
- ٢ - يضمن الله سلامة أوليائه، ويتعهد بالدفاع عنهم، ﴿فَمَا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.
- ٣ - الداعي إلى الله غرض دائم لسهام الكافرين، ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ... يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾.
- ٤ - نأي العيوب عن الإنسان، هو في ظل رعايته الله ونعمة منه، ﴿فَمَا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.
- ٥ - الكهان والمخبرون بالغيب، بعيدون عن نعمة الله، ﴿فَمَا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾.
- ٦ - لا يكتفي العدو بإطلاق تهمة واحدة، بل يطلق كل أشكال التهم التي تتوفّر بين يديه وعلى لسانه، ﴿بِكَاهِنٍ... مَجْنُونٍ... شَاعِرٍ﴾.

٧ - يتربص العدو بالأمة الإسلامية وينتظر موت قائدها ليفتك بها، ولذلك على الأمة أن تتخذ التدابير التي تؤدي إلى يأس الأعداء وتحقق فشلهم، ﴿تَنْرِيضُ يَهُ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾.

٨ - على القائد الديني أن لا يترك الساحة فراراً من التهم التي تطلق ضده، بل عليه الثبات والمواجهة، ﴿تَنْرِيضُ يَهُ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾.

٩ - على المؤمنين أن يبقوا على أمل دائم بالفوز والنصر، و يتربصوا بأعدائهم كما يتربصون بهم، ﴿تَنْرِيضُ يَهُ... فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنَرِّضِينَ﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحَلُّهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

إشارات:

□ يطرح الله سبحانه على الكافرين، في هذه الآيات والآيات اللاحقة، أربعة عشر سؤالاً، تهدف إلى سدّ أبواب العذر وإبطال الحجج الواهية التي يمكن أن يتسلحوا بها، من أجل تبرير عدم إسلامهم. وربما لا يوجد في القرآن كلّ حالة أخرى فيها هذه الدرجة في الانتقاد والتبكيث للكفار.

□ «أحلام» جمع «حلم» أي العقل. وحيث كان يدعي سادة قريش المشركون رجاحة العقل والفهم، فإنّ القرآن يسألهم هل عقلهم هو الذي كشف لهم استناد القرآن إلى الكهانة، أم الطغيان هو الذي قادهم إلى مثل هذا الاستنتاج؟

□ «تقول» اخترع القول من نفسه، من دون استناد إلى مصدر ينقل عنه.

□ «حديث» أي جديد. وقد عبّر عن القرآن بالحديث لجدة مضامينه.

□ يكرّر القرآن في أكثر من موضع تحديّه للكافرين ويدعوهم إلى المواجهة، فيطالبهم مرّة بالإتيان بقرآن من عند الله، في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (١). ثمّ يخفف عنهم، ويكتفي بتحديهم بالإتيان بعشر سور: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ (٢)، بل يخفف حتّى يكتفي بالإتيان بسورة واحدة مشابهة

لسور القرآن: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(١). وفي الآية ٣٤ من هذه السورة، يطالبهم بالإتيان بحديث مثله ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾، من دون أن يشير إلى حجمه من سورة أو أكثر.

التعاليم:

- ١ - لا يستند اتهام النبي بالسحر والكهانة والجنون، إلى التأمل والتفكر في آيات القرآن، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ﴾.
- ٢ - أصل الكفر والشرك، الطغيان والعناد في مواجهة الحق، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.
- ٣ - كل من يصرّ على كلامه من دون أن يكون كلامه مستنداً إلى حجة منطقية دامغة، هو إنسان طاغ، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.
- ٤ - يبرّر المشركون شركهم، بإطلاق التهم والافتراء، ﴿يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٥ - على الإنسان أن يركز في مواقفه الفكرية والعملية على العقل، أو على الوحي، والمشركون محرومون من كلا السبيلين، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ... بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٦ - في مواجهة إعصار التهم والافتراء، لا ينبغي التخلي عن المنطق والمواجهة الفكرية، فالتحدّي العاقل يبقى هو السلاح الأقوى في مواجهة المعارضين، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ...﴾.
- ٧ - القرآن يتوقّر على الحجّة البالغة، فهو بكلّ بساطة يقول لهم، إذا كان النبي ﷺ تقول هذا القرآن واخترعه ونسبه إلى الله، فافعلوا مثل ما فعل وأتوا بمثل ما أتى، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾.
- ٨ - المواجهة وطلب المبارزة في ميدان الحرب الثقافية، من الأمور المطلوبة، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ لا ينبغي أن تكون التهم مانعاً للداعي إلى الله عن حمل مشعل الهداية وإنارة الطريق للضالّين، فالله سبحانه يحاول في هذه الآيات إيقاظ ضمائر المشركين بطرح الأسئلة عليهم، علّ ذلك يوقظهم من غفلتهم.

□ يقدّم القرآن أعقد المسائل الفلسفية، بلغة سلسلة سهلة الفهم. فالآية الأولى تطرح فرضيتين الأولى منهما أنّهم خُلِقُوا من غير شيء، والثانية أنّهم هم الذين خَلَقُوا أنفسهم، وكلتا الفرضيتين باطلة مستحيلة، فلا يمكن للعدم أن يفيض الوجود، ولا يمكن للإنسان أن يخلق نفسه، وهذا ما يعبر عنه الفلاسفة بالدور المستحيل؛ وهو توقّف الشيء على نفسه.

□ يؤمن المشركون على الرغم من شركهم بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض؛ ولذلك يؤكّد القرآن في غير موضع، على هذه الحقيقة، وهي أنّك لو سألت المشركين من خلق السماوات والأرض، فسوف يقولون «الله». وبالتالي تسائل هذه الآيات المشركين، وتقول لهم لماذا لا تؤمنون بمن بعثه الله الذي تؤمنون بأنّه الخالق، لهدايتكم وإرشادكم؟

التعاليم:

١ - طرح الأسئلة بهدف إيقاظ الفطرة وإحيائها، من الأساليب القرآنية في مجال الحديث عن التوحيد، ﴿أَمْ خُلِقُوا... أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

٢ - إذا لم يكن الإنسان موجوداً من قبل، فكيف خُلِقَ؟ وإذا كان موجوداً فكيف أعاد خلق نفسه من جديد؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

٣ - علينا طرح الأسئلة بطريقة تدعو إلى بعث الجواب من ضمير الإنسان ووجدانه، ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

٤ - لا قدرة للإنسان على خلق نفسه، ولا خلق غيره، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ... أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ﴾.

٥ - العناد، يدعو الإنسان إلى عدم الإيمان ويعيقه عن الوصول إلى اليقين حتى لو
سدت كل السبل في وجهه، وأبطلت حججه كلها، ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِمَّهُمْ
بِسُلْطَنِ مَيْمِنٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ يؤمن المشركون بخالقيّة الله، ولكنهم ينكرون عليه ربوبيّته التشريعيّة ولا يقبلون
نبيّه المرسل لهداية الناس. وهذه الآيات توتّج المشركين بصيغة طرح الأسئلة،
وتقول لهم لماذا لا تؤمنون بالنبّي؟ أفهل عندكم خزائن قدرة الله؟ أم عندكم
سبيل إلى السماء تنالون عبره الوحي فتستغنون عن الهادي والمرشد؟

□ كان يعتقد أهل الجاهليّة أنّ الملائكة إناثٌ وأنهنّ بنات الله؛ ولذلك يؤتّبهم الله
في هذه الآيات، على هذه القسمة بينهم وبين الله، واختيارهم الذكور لهم
وجعل البنات حصّة الله سبحانه، وهذه قسمة غير عادلة. كما يقول سبحانه
وتعالى في آية أخرى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾^(١).

التعاليم:

١ - في مواجهة العدو المختلف فكراً علينا أن نلاحقه حتى الاستسلام بين يدي
الحجج والبراهين، ومن هنا فإنّ القرآن يواجه بالأدلة، ليوضح للمشركين أنّ
سبب شركهم هو الطغيان والعناد، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ... أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ... أَمْ لَهُمْ
سُلَّمٌ﴾.

٢ - على الإنسان أن يسلم بالدليل، ولا يتجاهل البرهان والحجّة حتى لو كانت

(١) سورة النجم: الآية ٢٢.

حجة للخصم، فلا بد من الاستماع والتأمل في كلامه قبل الحكم عليه،
﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِيْمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٣ - أيها النبي لا تخش اتهماتهم، فهم يتهمون الله ذاته، ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ
الْبَنُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ «مغرم» الخسارة المالية من غير سبب أو مبرر، و«المثقل» من يحمل الثقل.

□ لا محلّ للشريك في دائرة القدرة الإلهية؛ وذلك:

- لأنّ له خزائن الأرض كلّها، ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

- لأنه الخالق وحده دون غيره من الموجودات، ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

- لأنه عالم الغيب، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

- لأنّ الملك والسلطة له لا ينازعه في شيء منهما أحد، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

□ لا ينبغي أن تنتظر الجواب عن بعض الأسئلة، وذلك لأن السؤال في بعض الأحيان يحمل رسالة. وفي هذه الآيات يطرح الله سبحانه مجموعة من الأسئلة لا يشفعها بالجواب؛ وذلك لأنّ الغاية من السؤال هي أمرٌ آخر غير تحصيل الجواب، بل الغاية هي إيقاظ المعارضين لرسالة الله سبحانه.

□ يجب أن يُعلم أنّ الواجبات المالية كالخمس والزكاة وغيرهما، ليست أجراً للنبي ﷺ على أداء رسالته، بل هي من أجل إدارة المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتلبية حاجات المحتاجين من الناس.

(١) سورة المنافقون: الآية ٧.

(٣) سورة هود: الآية ١٢٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٧.

التعاليم:

- ١ - لا يطلب الأنبياء الأجر المالي من الناس، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾.
- ٢ - يظهر الناس حساسية تجاه الأموال التي تدفع لمن يعمل في الدعوة إلى الله، ولا بد من مراعاة هذه الحساسية، من قبل الدعاة والمبلغين، ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.
- ٣ - في الإرشاد والدعوة إلى الحق، يجب على الداعي أن يجتنب الحديث عن القضايا المالية لما فيها من إثارة للشبهات وتشويش الأذهان، ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.
- ٤ - لا مانع من الاستفادة في العمل الديني من الأموال التي يبذلها المؤمنون عن طيب نفس، والمحذور هو تصدّي الداعي للطلب والسؤال، ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا... مُثْقَلُونَ﴾.
- ٥ - لا يستند معارضو الأنبياء وأعداؤهم، إلى حجة منطقيّة، ولا إلى بيّنة من عالم الغيب، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾.
- ٦ - السؤال والجواب، من الأساليب التي يستخدمها القرآن في الإقناع والدعوة إلى الحق، ﴿أَمْ... أَمْ... أَمْ... أَمْ...﴾.
- ٧ - كيد الأعداء ليس أمراً مرحلياً، بل هو ردة فعل دائمة منهم تجاه أي دعوة إصلاحية، ﴿رُبُّيْدُونَ كَيْدًا﴾.
- ٨ - عاقبة الحيلة والخداع ترتدّ على المخادع نفسه، ﴿رُبُّيْدُونَ كَيْدًا... هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.
- ٩ - على من يستخدم طريقة الاستجواب في الدعوة، أن يقرّر الحقيقة واضحة في نهاية المطاف، ﴿أَمْ لَمْ يَلِدْهُ عَيْرُ اللَّهِ﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ «الكسف» هو القطعة، والمقصود من هذه الكلمة في هذه الآية هو القطعة من

الحجر أو غيره تنزل كعذاب سماوي. «مركوم» متراكم بعضه فوق بعض. و«يصعقون» الصعق هو الإغماء وشبهه الذي يصيب الإنسان إثر الصاعقة. وقد استعملت صيغة المجهول للدلالة على الاضطرار والعجز.

□ لا يعدم المعاند المبرر لعناده؛ فإن بعض الكافرين كانوا يطلبون أسوأ الأشياء من أنبيائهم وهو نزول العذاب، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(١)، وعندما يرون العذاب فوق رؤوسهم يقولون هذا سحاب متراكم، ﴿وَإِن يَرَوْا... يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

□ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الواجبات التي لها حدود وضوابط، فتارة يطلب الأمر والوعظ وأخرى الإعراض والتجاهل. ففي الآية ٢٩ يقول سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، ولكنه سبحانه يقول في هذه الآية: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾؛ أي دعهم وأعرض عنهم.

التعاليم:

- ١ - العناد يدعو الإنسان إلى الخطأ في تقدير الموقف والتحليل، ﴿...كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ... يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.
- ٢ - من ينكر البديهيات ترك الحديث معه أولى، ومثله ينعدم الأمل في هدايته وعودته إلى الصراط المستقيم، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ فَذَرَّهُمْ﴾.
- ٣ - ليس جميع الناس مرشحين صالحين للهداية والإرشاد، ﴿فَذَرَّهُمْ﴾.
- ٤ - لا ينبغي للداعي إلى الله، أن يسارع إلى اليأس من استجابة الناس، فالقرآن لم يدع النبي إلى الإعراض عن القوم إلا بعد طرح أربعة عشر سؤالاً، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ... أَمْ... أَمْ... فَذَرَّهُمْ﴾.
- ٥ - لطف الله عميم إلى حدود لا مجال لحصرها، فهو سبحانه حتى بعد اتضاح عناد القوم وظهور عدم إمكان استجابتهم للحق، ودعوته إلى الإعراض عنهم،

ينهي الحديث عنهم بتحذيرهم من سوء العاقبة يوم القيامة، ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾.

٦ - الكفر والعناد من أسباب سوء العاقبة، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾.

٧ - ليست العجلة من السنن الإلهية في التعامل مع المعاندين والكافرين، ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾.

٨ - عندما تحين ساعة الحقيقة الإلهية، لا مناص للكافرين سوى الاستسلام الكامل، ﴿يُضَعَّفُونَ﴾.

٩ - عندما يحلّ الغضب الإلهي لا ينفع كيد أو خطط سرية، ولا صداقات ومساعدة من الخارج، ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٧)

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية ومما قبلها، أن رفض دعوة الأنبياء ظلم. وربما يكون المراد، تقسيم الكافرين إلى فئتين إحداهما تتصف بالكفر وحده، والثانية تتصف بالكفر والظلم في آن معاً، وهذه الأخيرة يشدّد عليها العذاب.

□ ورد في تفسير القميّ بعض الروايات في تفسير قوله تعالى: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾، بالعذاب قبل يوم القيامة وهو العذاب في الرجعة، وهو العذاب الذي يناله من ظلم آل محمد.

التعاليم:

١ - يجمع الله على الظالمين عذاب الدنيا مضافاً إلى عذاب الآخرة، ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾.

٢ - لا يعلم الظالمون ماذا أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَادْبُرْ لُتُجُورِ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

- افتتحت هذه السورة بالقسم بمحلّ المناجاة وهو الطور، وختمت بالدعوة إلى المناجاة والتسبيح في الليل، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.
- على الرغم من أنّ أعمال العباد جميعاً في عين الله وتحت رقابته الدائمة، إلا أنه سبحانه يولي عناية واهتماماً خاصاً بأوليائه وعباده الصالحين، إذ يقول سبحانه للنبي نوح عليه السلام: ﴿وَأَصْنَعْ أَلْفُكَّ بِأَعْيُنِنَا﴾، ويقول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.
- التسبيح أهمّ من الحمد؛ ولذلك تكرّرت الدعوة إلى التسبيح مرتين، بخلاف الأمر بالحمد فقد ذكر مرّة واحدة.
- «إدبار النجوم» هو وقت الفجر عندما تغيب النجوم قبيل طلوع الشمس. ويرى المفسّرون أن المراد من التسبيح في الآية هو صلاة الليل ووقتها في السحر. وورد في الحديث في تفسير عبارة «إدبار النجوم» أنّهما «ركعتان قبل الصبح»^(١).

التعاليم:

- ١ - على الداعي إلى الله أن يتحلّى بالصبر والثبات في مواجهة المعاندين، فالدعوة إلى الله والحقّ ليست سياحة أو متعة؛ بل هي عمل مضمّن يحتاج إلى صبر وطول أناة، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.
- ٢ - الإصرار على الموقف يجب أن يكون صبراً لحكم الله، وإلا يكون عناداً، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

(١) الكافي، ج ٣، ص ٤٤٤.

- ٣ - الأحكام الإلهية تصبّ في النهاية في خدمة تربية الإنسان ورعاية الله له، ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.
- ٤ - لا يستغني النبي عن الحماية والرعاية الإلهية، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.
- ٥ - الالتفات إلى العناية الإلهية يحرض الإنسان على الصبر والثبات، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.
- ٦ - ذكر الله وتسيحه من الأمور المعينة على الصبر والثبات، ﴿وَأَصْبِرْ... وَسَبِّحْ﴾.
- ٧ - تسبيح الله مقدّم على حمده، فعلينا أن ننزه الله أولاً ثم نحمده ونثني عليه ثانياً.
- ٨ - تعين مناجاة الله في الليل الإنسان على أعمال النهار وأعبائه، ﴿وَأَصْبِرْ... وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.
- ٩ - للدعاء والمناجاة أوقات خاصة، يترتب على المناجاة فيها آثار ربّما لا تترتب في غيرها، ﴿حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ... وَادْبُرَ النُّجُومُ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سورة النجم

السورة: ٥٣ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٦٢

ملاحح سورة النجم

سورة النجم مكية، عدد آياتها اثنان وستون آية. وهي من السور التي تسمى بسور السجدة لوجوب السجود عند قراءة إحدى آياتها. وقد أخذت السورة اسمها من مطلعها الذي يقسم الله فيه بالنجم.

وتتحدث هذه السورة عن الوحي وكيفية نزوله على النبي ﷺ، وتشارك مع سورة الإسراء في الإشارة إلى معراج النبي ﷺ. كما وتتحدث السورة عن معتقدات المشركين والخرافات التي يؤمنون بها.

والجوّ المسيطر على السورة هو الحديث عن المعاد، وعاقبة الصالحين والطالحين، وما يجري لهم أو عليهم من ثواب، أو عقاب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- هوى من «الهوى» وهو الميل إلى السقوط. وتدل كلمة هوى في اللغة العربية، على الميل نحو رغبات النفس، وربما كان ذلك لانتهائه بالمائل إلى هواه إلى السقوط. «ضل» أي انحرف عن الصراط المستقيم. و«غوى» من الغواية وهي الانحراف عن عقيدة الحق إلى الباطل.
- «الصاحب» كلمة لها معنيان، أحدهما الصديق والمعين، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى مرّات عدّة في وصف النبي ﷺ^(١). وذلك لصدق هذه الصفات على النبي ﷺ في طريقة تعامله مع قومه، من حرصه عليهم وعونه إيّاهم في الهداية.
- آخر كلمة في سورة الطور هي «النجوم»، وأول كلمة في سورة النجم هي «النجم». وهذا من وجوه التناسب بين السور.
- يحتمل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ القسم بالنجم وقت طلوع الشمس حيث يختفي ضوء النجوم مع بداية إشراق الشمس، أو يراد به يوم القيامة عندما تتساقط النجوم وتهوي.
- يتبادل الله وأنبيأه «التأييد والنصرة» في ميدان التوحيد، فالله سبحانه يوثق أنبياءه ويدافع عنهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾؛ والأنبياء بدورهم ينزهون الله سبحانه عن كلّ عيب ونقص.
- يصف الله القرآن بقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٢)، ويصف نبيّه ﷺ بقوله

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦؛ وسورة الأعراف: الآية ١٨٤؛ وسورة التكويد: الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وذلك لكي لا يبقى للناس حجة، وتزول أسباب الشك والتردد كلها.

□ يُرجع القرآن أمر التعرف إلى حال النبي ﷺ وبعده عن الضلال والغواية إليهم، ولذلك يقول: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وكأنه يقول هو صاحبكم الذي عاشركم وعاشرتموه وعرفتم أحواله وأوضاعه.

□ للقادة الإلهيين سمات تميزهم عن غيرهم من الناس، منها:

١ - لا عهد لهم بالضلال، ﴿مَا ضَلَّ﴾.

٢ - لم يمزوا بتجربة فسق أو غواية، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾.

٣ - قرييون من أهلهم وأقوامهم، ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

□ ينقل الشيخ الصدوق في أماليه أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكأ إليه قائلاً: «إنَّ الناس ينسبوننا إلى عظام الأمور، وقد ضاقت بذلك صدورنا» فقال عليه السلام: «يا علقمة، إنَّ رضا الناس لا يملك، وألستهم لا تضبط، فكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله، ألم ينسبوه [أي النبي ﷺ] إلى أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام؟ حتى كذبهم الله ﷻ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(١)».

□ ورد في تفسير الدر المنثور عن ابن مردويه عن حبة العرني وأبي الحمراء، قالوا: أمر رسول الله ﷺ أن تسد الأبواب التي في المسجد فشق عليهم، قال حبة: إني لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو يقول: أخرجت عمك وأبا بكر وعمر والعباس، وأسكنت ابن عمك؟ فقال رجل يومئذ: ما يألو يرفع ابن عمه! قال: فعلم رسول الله ﷺ أنه قد شق عليهم، فدعا الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا صعد المنبر، فلم يُسمع لرسول الله خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال: «يا أيها الناس ما أنا سددها ولا أنا فتحتها ولا أنا

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص ١٦٥.

أخرجتكم وأسكنته ثم قرأ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ... إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمٌ يُوْحَىٰ﴾^(١). ويبدو أن اعتراض تقديمه ابن عمه تكرر في موارد آخر منها يوم الغدير، فأجاب ﷺ بقراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمٌ يُوْحَىٰ﴾.

□ يتهم المشركون القرآن بأنه أساطير، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)، ويجب القرآن بكلمة حاسمة عن هذه الفرية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمٌ يُوْحَىٰ﴾.

□ ليس القرآن شعراً ولا يريد الله له أن يكون، فإنه وعلى الرغم من ذلك يتوقر على إيقاع موسيقي رائع يلفت سمع كل من أصغى إليه ولا سيما أولئك الذين اهتموا بهذا البعد من أبعاد القرآن الكريم. ويتجلى هذا البعد في آيات عدة منها ما في هذه السورة، ﴿هَوَىٰ، غَوَىٰ، أَمْوَىٰ، يُوْحَىٰ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا مانع من حيث المبدأ من القسم بمظاهر الطبيعة؛ وذلك لأنها من الآيات الدالة على وجود الله سبحانه، ﴿وَالنَّجْمِ... وَالنَّهْمِ، وَالْقَمَرِ﴾.
- ٢ - تسير النجوم والكواكب نحو الاندثار، وهي سوف تتلاشى ويخبو ضوءها في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.
- ٣ - التهم التي تواجه الداعي إلى الله كثيرة، ولكن الله هو الذي يتولى الدفاع وردّ التهم عن الداعين إليه، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.
- ٤ - يقضي الأنبياء عمراً طويلاً بين المنحرفين؛ ولكن لا يصيبهم من ضلال قومهم وانحرافهم شيء، وهذا من أمارات عظمة الأنبياء وعلو مقامهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.
- ٥ - الأجرام السماوية تؤول إلى التلاشي، وأما رسالة الأنبياء فهي محفوظة مصونة من الانحراف والضلال، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

(١) السيوطي، الدر المشور، ج ٦، ص ١٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

- ٦ - ما ينطق به النبي ﷺ حجة ويجب اتباعه وتنفيذه، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.
- ٧ - النبي بعيد عن الضلال في ماضيه، ﴿مَا ضَلَّ﴾، مصون من الانحراف والتقول على الله في مستقبله، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.
- ٨ - كلما ارتفع مقام الإنسان، كلما كانت الحاجة إلى عناصر الأمان من الضلال والانحراف أشد، ﴿مَا ضَلَّ... وَمَا غَوَىٰ... وَمَا يَنْطِقُ﴾.
- ٩ - في الإدارة يجب الدفاع عن العاملين الذين يستحقون الدفاع لردّ التهم الموجهة إليهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ...﴾.
- ١٠ - النبي ﷺ على حق وقوله مطابق للوحي الإلهي، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ... إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.
- ١١ - لا يستند القرآن وما ينقله النبي ﷺ عن الله إلى الأهواء والميول والرغبات، بل إلى الوحي وحده، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.
- ١٢ - كل ما يرتبط بالوحي من حيث المكان والزمان والمقدار، وما سوى ذلك، مرتبط بإرادة الله واختياره، ﴿يُوحَىٰ﴾.
- ١٣ - بين الرغبات والأهواء والوحي، تنافر وتباعداً، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪﴾

إشارات:

□ «مرّة»، أمررت الحبل إذا فتلته، والمرير المفتول، ومنه فلان ذو مرّة كأنه محكم الفتل. و«ذو مرّة» أي ذو قوّة وشدة. وعن رسول الله ﷺ: «ولا تحلّ الصدقة لغنيّ، ولا ذي مرّة سويّ»^(١).

(١) أورده الألويسي، في تفسير روح المعاني، عند تفسير هذه الآية.

□ «دنا» أي اقترب، وقاب قوسين، أي ضعفي طول القوس، وهو كناية عن القرب.

□ «شديد القوى» في المراد منه احتمالان هما جبرائيل أو الله سبحانه وتعالى، وقد اختلف المفسرون بين هذين الاحتمالين؛ ولكن النظر في سائر الموارد التي استخدم فيها هذا الوصف، يكشف عن استخدام هذا التعبير لوصف الله سبحانه. فمثلاً في دعاء الندبة نقراً: «وأره سيده يا شديد القوى»^(١). وفي الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «يا شديد القوى، يا شديد المحال».

أضف إلى ذلك وجود آيات تشير إلى الله سبحانه بوصفه معلماً للقرآن، كما في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(٢)، وقوله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(٣). نعم ورد في وصف جبرائيل قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾^(٤)، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى الفرق الكبير بين تعبيريّ: «ذِي قُوَّةٍ» و«شديد القوى».

□ في هذه السورة إشارة إلى المعراج، وقد أشرنا إلى قضية المعاد في الجزء السابع من تفسيرنا هذا فلا نعيد.

□ وورد في تفسير روح المعاني أن كانت العرب في الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقاً للآخر، حتى كأنهما ذا قاب واحد، ثم ينزعونهما معاً ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أنّ رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه.

□ الملك لا يصل إلى الأفق الأعلى الذي وصل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هو الأفق المبين، وكان يرى النبي صلى الله عليه وآله وينظر إليه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾^(٥).

□ ليس الله جسماً حتى يكون في مكانٍ محدّد، بل المراد من هذه العبارة الدلالة على علوّ المقام ورفعة المنزلة.

□ ينزل الوحي إلى الأرض بواسطة الملاك وملاك الوحي هو جبرائيل الذي يعبر

(١) ابن المشهدي، المزار الكبير، ص ٥٨٣. (٤) سورة التكويد: الآية ٢٠.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١. (٥) سورة التكويد: الآية ٢٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٣.

عنه القرآن بالروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(١)، وأما في قصة المعراج فلا واسطة بين الله ورسوله، بل تلقى للوحي من الله مباشرة: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ﴾.

□ سئل الإمام السجاد عليه السلام عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان، فقال: «تعالى عن ذلك». ف قيل له: فلم أسرى بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء؟ قال: «ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه، وبدائع خلقه»^(٢).

□ تلقى النبي صلى الله عليه وآله دروسه في أرقى الصفوف والقاعات الدراسية، ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾، وكان أستاذه الله سبحانه وتعالى، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾، والمحتوى التعليمي الذي تلقاه هو وحي من الله مباشرة، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَىٰ يُوْحَىٰ﴾.

□ سئل الإمام أبو الحسن عليه السلام، هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه صلى الله عليه وآله؟ فقال: «نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله صلى الله عليه وآله يقول: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي لم يره بالبصرة، لكن رآه بالفؤاد»^(٣).

□ وعن الإمام الرضا عليه السلام: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى». فآيات الله غير الله.

التعاليم:

١ - الدين أمر مهم بحيث يجب أن يكون المعلم هو الله سبحانه الذي يصف نفسه بأنه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾، والتلميذ هو نبيّ منزّه عن الضلال والانحراف، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

٢ - تلقى العلوم والمعارف الإلهية يحتاج إلى قدرات خاصة، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ... عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾.

٣ - يمكن أن نتعرّف إلى التلميذ من خلال التعرّف إلى أستاذه، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ... عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾.

(١) سورة الشعراء: الآية ١٩٣.

(٢) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج ١، ص ١٣١.

(٣) الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١١٦.

٤ - الوحي هو التعاليم الإلهية التي ينقلها الأنبياء إلى أممهم، ﴿يُوحَىٰ... عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

٥ - لا ينبغي السكوت في مقابل التحليلات الخاطئة والتهم الكاذبة. فالله سبحانه في مقابل دعوى الكافرين تعلم النبي ﷺ من البشر: ﴿يُعَلِّمُهُ الْبَشَرُ﴾^(١)، يقول: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

٦ - علم النبي ﷺ مستمد من الله، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

٧ - العلم الإلهي ليس منفصلاً عن القدرة والقوة الإلهية، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

٨ - الله وحده هو ذو القدرة المطلقة التي لا حد لها، وأما سائر الأقوياء والقادرين فقدرتهم مزوجة بالضعف، ﴿...شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

٩ - على المعلم أن يكون قوياً، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

١٠ - بالتعليم الإلهي يمكن أن يتحول شخص أُمي إلى معلم للبشرية كلها، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

١١ - كل البشر هم تلاميذ بين يدي الله سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢)، إلا أن لرسول الله مكانة خاصة يفوق بها سائر الناس، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

١٢ - البرامج الإلهية الموجهة إلى الناس، هي غاية في القوة والإحكام، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ... ذُو مِرَّةٍ﴾.

١٣ - التقرب إلى الله يتم بالتدرج وعلى مراحل، ﴿دَنَا فَذَلَّكَ﴾.

١٤ - يجب أن تكون العلاقة بين المعلم والتلميذ علاقة حميمة وقوية، ﴿دَنَا فَذَلَّكَ﴾.

١٥ - على الداعي إلى الله أن يخاطب الناس بلغتهم ويستخدم مصطلحاتهم في التعبير عن الأفكار التي يريد إيصالها إليهم، ﴿فَإَبْ قَوْسَيْنِ﴾. فالقوس ومثل هذه الأمور كانت من وحدات قياس المسافة وتقديرها عند العرب.

(٢) سورة العلق: الآية ٥.

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

- ١٦ - قرب الناس من الله لا حد له، ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، وقد يصل الإنسان إلى حيث لا تصل الملائكة.
- ١٧ - رجال الله أينما كانوا فهم عباد الله، في الأرض كانوا أم في السماء، ﴿أَسْرَىٰ بِعَبِيدِهِ﴾^(١)، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِيهِ﴾.
- ١٨ - العبودية من الأمور الممهدة لتلقي الوحي والفيض الإلهي، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِيهِ﴾.
- ١٩ - النبي ﷺ معصوم في تلقيه للوحي، كما في نقله وتبليغه إلى الناس، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ... مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.
- ٢٠ - الشهود الباطني لا يكون حجة إلا بعد أن يحظى بالتأييد الإلهي، ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

﴿أَفْتَشْرِبُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤)
 ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (١٥)

إشارات:

- «تमारونه» من المرية وهي التردد في الأمر وهو أخص من الشك، والامتراء والممارسة المحاجة في ما فيه مربة. و«نزلة» المرة من النزول. و«سدرة المنتهى» اسم مكان في الجنة، بحسب الروايات الإسلامية، لم يصل إليه أحد من خلق الله غير رسوله محمد ﷺ.
- وفي الحديث أن سدرة المنتهى هي شجرة عن يمين العرش، فوق السماء السابعة، انتهى إليها علم كل ملك. كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «رأيت على كل ورقة من أوراقها ملكاً قائماً، يسبح الله تعالى»^(٢).
- المعراج من الأمور التي تثير الجدل؛ ولذلك يشير الله سبحانه إلى تنزّهه عن

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٩٢.

اللغو والعبث ويلمّح إلى الأهداف العالية التي تراد من المعراج والإسراء، فيقول في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾، وفي هذه السورة يقول سبحانه: ﴿أَفْتَرُونَهُ...﴾.

□ الخلق كلّهم في نظر الله وتحت عين رعايته، ولكنّه سبحانه يتولّى بعض الناس بعناية خاصّة من أجل أهداف خاصّة، كما يستفاد من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. والأمر عينه يقال عن معيّة الله وتأيدته للناس جميعاً كما في قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾^(١)، ولكنّه في الوقت عينه يخصّ المتقين بمعيّة خاصّة فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٢). وقد ورد هذا المعنى في تفسير «أطيب البيان». وفي غيره من التفاسير نقرأ تفسيراً مختلفاً للآية مثل تفسيرها بأنه ﷺ رأى جبرائيل بصورته الأصليّة عند سدرة المنتهى، أو أنّه شاهد الله بقلبه في تلك المحطة من رحلة المعراج.

وما يدعوننا إلى ترجيح تفسير «أطيب البيان» أنّ قضية المعراج وسياق الآيات هو سياق تمجيد النبيّ وتجليله، وليس في مشاهدة النبيّ ﷺ لجبرائيل أي امتياز في تلك الرحلة، إذ إنّنا نعتقد أنّه ﷺ أرفع مقاماً ومنزلةً من جبرائيل عليه السلام. وأمّا مشاهدة الله بعين قلبه فهي أمر دائم للنبيّ لا يقتصر على تلك المرحلة من محطات حياته. وهذه الملاحظات لا تتوجّه إلى التفسير الذي اخترناه، فإنّ الرعاية الإلهيّة كلّما تكرّرت وزادت خصوصيّة كلّما كشفت عن رفعة مقام النبيّ وعلوّ شأنه.

□ ورد في بعض الروايات، عن رحلة رسول الله وعروجه إلى السماء، أنّه لمّا بلغ ﷺ سدرة المنتهى فأنتهى إلى الحجب، فقال جبرائيل: «تقدّم يا رسول الله ليس لي أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحتقرت»^(٣).

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٨.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٥.

التعاليم:

- ١ - بعض المشاهدات والمكاشفات تحتاج إلى بلوغ درجة الإيمان، فلا يقوى غير أهل الإيمان على مشاهدة ما يشاهده أولياء الله تعالى، بل إن قصور نظر هؤلاء، وتورطهم في أودية الشك، يثير فيهم الجدل والنزاع تجاه ما يسمعون من الأنبياء، ﴿أَفَتَتَّبِعُونَهُ﴾.
- ٢ - الجدل والنقاش ربّما يكون مقبولاً في الأمور النظرية والفكرية، وأما المحسوسات والمشاهدات فلا مجال للنقاش فيها، ﴿أَفَتَتَّبِعُونَهُ عَلَىٰ مَا بَرَأْتُمْ﴾.
- ٣ - لا يشترط في التبليغ أو في وجوبه إحراز تصديق جميع الناس، بل يجب التبليغ والدعوة إلى الله على الرغم من أن بعض الناس لا يقبلون ما يدعون إليه، ﴿أَفَتَتَّبِعُونَهُ﴾.
- ٤ - السؤال وطلب الدليل من الأمور المندوب إليها، ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾^(١)؛ ولكن السؤال شيء والجدال والمماراة شيء آخر، ﴿أَفَتَتَّبِعُونَهُ﴾.
- ٥ - ليست الجنة أرقى وأعلى ما خلق الله، بل يوجد ما هو فوقها، وهو سدرة المنتهى، التي عندها جنة خاصة أرقى وأعلى من الجنة المعروفة، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمَتَلَبِّشُونَ ﴿١٦﴾ مَا زَأَعِ الْبَصُرُ وَمَا طَعَنَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- يقول الله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿لِئَلَّيْتُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾، وذلك في تعليل قضية الإسراء، وفي هذه السورة يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.
- النبي ﷺ معصومٌ من جهاتٍ عدّة:
- أ - العصمة في الفكر من الضلال، ﴿مَا سَلَ صَاحِبِكُمْ﴾.

- ب - العصمة من زلل السان، ﴿وَمَا يَطَّقُ عَنِ الْمَوْتِ﴾.
 ج - الاعتصام بالعلم والمعرفة، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾.
 د - عصمة القلب، ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.
 هـ - عصمة العين، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

التعاليم:

- ١ - حق العين أن لا تنحرف ولا تطغى، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.
 ٢ - العين المؤهلة لمشاهدة آيات الله الكبرى، هي العين القادرة على رؤية الحق ومعرفته، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.
 ٣ - آيات الله سبحانه، لا يتاح لأحد معرفتها ومشاهدتها بكل أبعادها حتى رسول الله ﷺ، ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا
 قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- أين الله القادر على رفع أحد مخلوقاته البشرية إلى أعلى المراتب التي تسمح لهم بمشاهدة آياته الكبرى، من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؟
 □ ذكر الله في القرآن أسماء تسعة من أصنام العرب في الجاهلية، وهذه الأصنام هي: «اللات»، و«عزى»، و«مناة»، في هذه السورة، و«بعل» في سورة الصافات، و«ود» و«سواع»، و«يعوق»، و«يغوث»، و«نسر» في سورة نوح.

التعاليم:

- ١ - لا بد أن يكون النظر والتأمل هادفاً، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ...﴾.
 ٢ - على المبلّغ أن يكون عالماً بأسباب الانحراف وأدواته، ﴿أَلَّتَّ وَالْعُزَّىٰ وَمَنْوَةَ...﴾.

- ٣ - تدعو الحاجة في بعض الأحيان للكشف عن عناصر الانحراف وأدواته، بهدف الاعتبار وإرشاد المدعوين إلى الحق، ﴿الَّتْ وَالْعَزَىٰ وَمَنْزُةٌ...﴾.
- ٤ - أفضل طرق الإصلاح استئصال الفساد من جذوره ومنابعه (كما في قوله تعالى ﴿فَقْتُلُوا آلَ مِمْكُنٍ﴾^(١))، وعلى ضوء ذلك فإن الوسيلة الأقرب إلى محاربة عبادة الأصنام، مواجهة الأصنام نفسها، ﴿الَّتْ وَالْعَزَىٰ وَمَنْزُةٌ...﴾.
- ٥ - لا ترض لغيرك ما لا ترضاه لنفسك، ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ (كان أهل الجاهلية يرجحون الذكر على الأنثى، ومع ذلك كانوا يعتقدون أن الملائكة هم من الإناث وأنهم بنات الله).
- ٦ - يمكن للداعية والمرشد أن يطرح الأسئلة للفت نظر المخاطبين، وإيصال الرسالة التي يريد إيصالها، ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾.
- ٧ - التمييز بين الذكر والأنثى على أساس الجنس من مصاديق الظلم والبعد عن العدالة، ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾

إشارات:

- تستخدم كلمة «سلطان» في القرآن للدلالة على البرهان والدليل.
- كان أهل الجاهلية وعباد الأصنام ينسبون مظاهر الطبيعة إلى الأصنام، فأحد الأصنام هو إله السلطة، وآخر إله العلم، وثالث إله المحبة، ورابع إله الغضب، إلى غير ذلك. ويعلن القرآن موقفه من هذه الآلهة كلها فيقول للمشركين: ما هذه الآلهة وما ينسب إليها إلا أسماء ليس لكم على أي منها دليل أو برهان.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للإنسان أن يسير خلف الشعارات والأسماء، مهما كانت براءة وخادعة، ﴿أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.
- ٢ - يؤدي الآباء دوراً بالغاً ومؤثراً في تشكيل ثقافة الأبناء، ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾.
- ٣ - التقليد الأعمى والاتباع المطلق، غير مقبول ولا مسموح به، حتى لو كان تقليداً للآباء واتباعاً لهم، ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾.
- ٤ - ينشأ الشرك من الأوهام والخيالات الباطلة، ولا يستند إلى دليل ولا برهان، ﴿سَمَّيْتُمُوهَا... مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.
- ٥ - يجب أن تُبنى المعتقدات والأفكار على البرهان وليس على الحدس والظن أو التقليد الأعمى، ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.
- ٦ - الهداية من الله، ﴿جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾، والضلال يستند إلى اتباع أهواء النفس، ﴿تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾.
- ٧ - اتباع الهوى مدان ومذموم، ﴿يَتَّبِعُونَ... وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾.
- ٨ - لقد أتم الله حجته على الناس، ولا عذر لأحد بعد إرسال الأنبياء وتبليغ الوحي عن الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.
- ٩ - الإرشاد والهداية من شؤون الربوبية ومقتضياتها، ﴿مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.
- ١٠ - على من ينكر على الناس اتباعهم الباطل وخطأهم في الطريق، عليه أن يقدم لهم الطريق الصحيح، ﴿جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.
- ١١ - طريق العلم والوحي، هو طريق الحق، ﴿سُلْطَانٍ... مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾. وأما الأذواق الشخصية، ﴿أَنْتُمْ﴾ والاعتماد على السلف لأنهم آباء وسلف، ﴿وَءَابَاؤُكُمْ﴾، واتباع الظن، ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾، والسير خلف الأهواء، ﴿تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾، فهذه الطرق كلها باطلة لا توصل إلى الحق.

﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ لِلَّهِ الآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّ مِنَ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُلْقِي
شَفَعَتَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَى ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

- «تمنى» من التمني وهو تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رؤية وبناء على أصل؛ لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمني تصوّر ما لا حقيقة له^(١). ويميّز بعض أهل اللغة بين التمني والرجاء بأن التمني هو طلب المحال، وأما الرجاء فهو طلب الممكن، و«الطمع» هو طلب الممكن القريب الوقوع، في مقابل الأمل الذي هو طلب الممكن البعيد المنال^(٢).
- يصلح الإسلام السلوك، من خلال إصلاح الفكر؛ لأنه هو الأصل والأساس. ولذلك من يأمل بالحصول على العزة عليه الذهاب إلى مصدر العزة كلها، ﴿إِنَّ أَلْمِزَةَ لِلَّهِ جَبِيحًا﴾^(٣). ومن يرغب في الحصول على القوة عليه أن يعول على مصدر القوة كلها، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَبِيحًا﴾^(٤). وفي هذه الآية يؤكد سبحانه أن الدنيا والآخرة له ﷻ، فلماذا يذهب من يرغب في شيء منهما إلى غيره.
- الكون كله يسير وفق إرادة الله ومشيئته، وليس وفق رغباتنا وميولنا. وعن عليّ ﷺ: «عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم»^(٥) أي أنّ الأمور لا تسير بالضرورة وفق ما نهوى وما نعزم عليه.
- عن الإمام الصادق ﷺ: «واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»^(٦).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: «مني».

(٢) فروق اللغات.

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٥) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة رقم: ٢٥٠.

(٦) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٣.

سؤال: هل الشفاعة نوع من الوساطة وخرق للقانون؟

الجواب: أبداً؛ وذلك لما يأتي:

أ - لا ينال الشفاعة إلا من مهّد لها بالعمل الذي يستحقّ عليه الشفاعة. والفرق بين الشفاعة عند الله والشفاعة في الدنيا هو أنّ نيل الشفاعة في الدنيا ليس مبنياً على الاستحقاق، بخلاف الشفاعة في الآخرة.

ب - الشفاعة في الآخرة لا تضيّع حقّ أحدٍ من الناس، بخلاف الشفاعة في الدنيا.

ج - الشفيع في الآخرة لا يتوقّع من المشفوع له شيئاً، بخلاف الشفاعة في الدنيا.

د - هدف الشفاعة في الآخرة صلاح حال المشفوع له وفلاحه، وأما شفاعة الدنيا فلها أهداف أخرى.

هـ - الشفاعة في الآخرة من وسائل التربية والرشد؛ وذلك لأنّ الاعتقاد بشفاعة بعض الشفعاء يؤدّي إلى علاقة معنوية تربط بين الشفعاء والمشفوع لهم.

□ يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ بوجهين:

أ - أنّ الله يعطي مقام الشفاعة لمن يشاء سبحانه من الشفعاء.

ب - أنّ الله سبحانه يسمح بالشفاعة لمن يريد من المشفوع لهم.

□ سؤال: ألا تؤدّي الشفاعة إلى التشجيع على المعصية؟

الجواب: أبداً؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يعلم أنّه سوف يكون ممن ينال

الشفاعة، وثانياً نساءل في المقابل هل اكتشاف دواء لعلاج السمّ مثلاً يؤدّي إلى تشجيع الناس على تناول السمّ؟

نظرة إلى التمني والأمل في الآيات والروايات:

قيمة الأمل:

الأمل من الأسباب التي تثير في الإنسان الرغبة في السير إلى الإمام، فقد

ورد عن رسول الله ﷺ: «لولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجراً»^(١).

بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويشير الأرض، فقال عيسى عليه السلام: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى عليه السلام: اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل، فسأله عيسى عن ذلك، فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بدّ من عيش ما بقيت، فقامت إلى مسحاتي^(٢).

تقصير الأمل:

ينبغي أن تكون الآمال مطابقة للإمكانات، والقدرات، والظروف، وإلا تحوّل الأمل إلى خيال وهم. فعن علي عليه السلام: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل»^(٣).

الأمانيات السلبية:

بعض الأماني مذمومة في القرآن الكريم، مثل تمنّي ثروة مساوية لثروة قارون: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾^(٤).

أو تمنّي الإنسان ورغبته في أن يحمد بما لم يفعل: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٥).

أو تمنّي العلوّ في الأرض والتعالي على الآخرين: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَّةِ الَّتِي لَا يَرْيَدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾^(٦).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٢٩.

(٣) نهج البلاغة، باب الخطب، الخطبة رقم: ٢٨.

(٤) سورة القصص: الآية ٧٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٦) سورة القصص: الآية ٨٣.

ومن هنا فإن الله سبحانه ينهى عن الطمع في بعض الأمور التي لا ينبغي أن يطمع فيها الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾^(١)، وقوله: ﴿لَا تَمَدَّنْ عَيْنَكَ﴾^(٢).

الأماني التي لا تتحقق:

يتمنى بعض الناس يوم القيامة لو أنهم كانوا تراباً، ﴿يَلْتَنِي كُتُّ تَرَابًا﴾^(٣) فالتراب ينتج الورد والزرع، ويمتص الرواسب المضرة من الماء ويصفيه، بينما بعض الناس لا يصدر عنهم إلا الفساد. وبعض الناس يتمنى لو أنه اتبع سبيل الرسول، ﴿يَلْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾^(٤)، وآخرون يتمنون لو أنهم لا يؤتون كتب أعمالهم، ﴿لَوْ أُرْتُ كِتَابِيَّ﴾^(٥)، وبعض الناس يتمنى لو أنه قدم بعض الأعمال الصالحة لحياته في الآخرة، ﴿يَلْتَنِي قَدَمْتُ لِحَابِي﴾^(٦) وبعض الناس يتمنون لو أنهم يعودون إلى الدنيا فلا يكذبون الأنبياء، ﴿يَلْتَنِنَا نُرْدُ وَلَا نُكْذِبُ﴾^(٧). هذا، ولكن كل هذه الأماني انقضت وقتها وأمدتها ولم يعد لها من محل.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن نترك العمل ونراهن على شفاعة الشافعين، فمثل هذه الأماني لا تتحقق، ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَّى﴾.
- ٢ - ترك سبيل الهداية الإلهية، ﴿مِنْ رَّبِّهِمْ الْمُدَّةَ﴾، والاعتماد على التمنيات والآمال العراض من الأمور المذمومة في القرآن الكريم، ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَّى﴾.

(١) سورة التوبة: الآية ٥٥ و٥٥.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨ وسورة طه: الآية ١٣١.

(٣) سورة النبأ: الآية ٤٠.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٢٧.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٢٥.

(٦) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٧) سورة الأنعام: الآية ٢٧.

- ٣ - الولاية المطلقة والحاكمية الكاملة في الدنيا والآخرة من شؤون الله وحده، فلا ينبغي أن نقصد غيره، ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾.
- ٤ - كل ما سوى الله تعالى، لا ثبات له ولا استقرار، ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾.
- ٥ - الأساس في كل ما يحدث في الكون هو الإرادة الإلهية، سواء وافق رغباتنا وتمنياتنا أم خالفها، ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾.
- ٦ - يتجلى الملك الإلهي يوم القيامة بدرجة أعلى، ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (يستفاد هذا المعنى من تقديم الآخرة على الأولى).
- ٧ - لا يملك أحد الشفاعة إلا بإذن إلهي، حتى الملائكة، فكيف بالأصنام والأوثان، ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا... وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾.
- ٨ - لما كانت الدنيا والآخرة مملوكة له سبحانه، فمن البديهي أن تكون الشفاعة فيهما منوطة بإذنه ﷻ، ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ... إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾.
- ٩ - ليست الشفاعة ثابتة لمن يرغب، ولا تحقق كل الرغبات، بل هي تابعة للمشيئة الإلهية وتجري وفق نظام خاضع لحكمته سبحانه ومشيئته، ﴿...لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْأُنثَىٰ ﴿٧٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْتَعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

□ كل ما ينطبق عليه مفهوم العلم هو حق، وكل ما هو حق مطابق للعلم الواقعي، ولذلك يجوز استعمال أحد المفهومين محل الآخر. ومن هنا فإن القرآن الكريم بدل أن يقول: إن الإنسان لا يستغني عن العلم؛ يقول: إن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

□ تبني تسمية الملائكة بأسماء الإناث على أساس باطل، هو الاعتقاد بأنهم بنات الله. ومن هنا فإن الرسامين الذين يصورون الملائكة بصورة الإناث، يعتمدون على هذه الفكرة الجاهلية.

التعاليم:

- ١ - من يشعر بالمسؤولية تجاه محكمة الآخرة، لا ينطق بكل ما يخطر بباله، ولا يتبنى أي عقيدة إذا لم تكن مبنية على البرهان والدليل، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِيُسُوتُوا اللَّاتِ كَكَ﴾.
- ٢ - لا ينبغي أن نستخف بالتسمية وإطلاق الأسماء على أصحابها، فالتسمية غير الصحيحة ترتب على الإنسان مسؤوليات ومطالبات، ﴿لِيُسُوتُوا اللَّاتِ كَكَ قَسِيَةً الْأُنثَى﴾.
- ٣ - على المرء أن يتكلم في ما يعلم، ويسكت عما لا يعلم، ﴿لِيُسُوتُوا اللَّاتِ كَكَ... مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾.
- ٤ - الظن والحدس مسرحهما المجالات التي لا يتوقر فيها العلم، ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.
- ٥ - لا يكفي الظن في القضايا ذات الطابع الاعتقادي، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٩) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ (٢٠)

إشارات:

- ورد الأمر بالإعراض في القرآن عن مجموعات من الناس، هم: الكفار^(١)، المشركون^(٢)، المنافقون^(٣)، الجاهلون^(٤)، الفارزون من الزحف والجهاد^(٥)، والذين يسخرون من آيات الله^(٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

(٥) سورة التوبة: الآية ٩٥.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

(١) سورة السجدة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٦.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٤.

صورة الدنيا في القرآن:

يحدثنا الله سبحانه في القرآن كثيراً عن الدنيا، ويرسم صورتها في عدد من الآيات، على النحو الآتي:

- ١ - الدنيا وما فيها قليلة لا قيمة لها، ﴿قُلْ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^(١).
- ٢ - كل ما فيها معرض للنفاد ولذلك لا ينبغي أن تكون مستقرًا، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾^(٢).
- ٣ - الدنيا لهوٌ ولعبٌ، والتعلق بها كذلك، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾^(٣).
- ٤ - الدنيا وسيلة من وسائل الخداع، ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الضُّرُورِ﴾^(٤).
- ٥ - يصعب الجمع بين التعلق بالدنيا والآخرة معاً، ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنِ الْآخِرَةِ﴾^(٥).
- ٦ - الدنيا جذابة تشد الإنسان إليها وتدعوه إلى طلبها، ﴿يَلْتَمِتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ قَدَرُونَ﴾^(٦).
- ٧ - يذكر الله تعالى مجموعة من خصائص الدنيا في الآية ٢٠ من سورة الحديد، تتطابق كل خصوصية منها مع مرحلة من مراحل عُمر الإنسان، ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ...﴾.
 - أ - لعبٌ (مرحلة الطفولة).
 - ب - ولهوٌ وتسليه (مرحلة المراهقة).
 - ج - زينة وتجمّل (مرحلة الشباب).
 - د - تفاخر (مرحلة الرجولة).
 - هـ - تكاثر وكنز للثروات (مرحلة الكهولة والكبر).

(٤) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٥) سورة التوبة: الآية ٣٨.

(٦) سورة القصص: الآية ٧٩.

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٦.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

نعم، الدنيا ينبغي أن تكون وسيلة لا هدفاً وغاية؛ ولذلك ينبغي أن نطلب من الله أن تبقى الدنيا في أنفسنا كما ينبغي أن تكون، ففي دعاء شهر شعبان، نقرأ «ولا تجعل الدنيا أكبر همّاً...»^(١).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن نتساهل مع أو نغض الطرف عن الذين يعرضون عن الله، ويجعلون الدنيا هي المحور والأساس، ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾.
- ٢ - ينبغي الإعراض وعدم التعامل مع الذين يولّون ظهورهم للدين ويقبلون على الدنيا بكل كيانهم، ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾.
- ٣ - البراءة من أعداء الدين، من الأصول الثابتة، ﴿فَاعْرِضْ﴾.
- ٤ - لا ينبغي على الداعية إلى الله أن يضيع أوقاته وجهوده في الموارد الميؤوس منها، ﴿فَاعْرِضْ...﴾.
- ٥ - المقابلة بالمثل مطلوبة في بعض الحالات، فيجوز في الإسلام مقاطعة المعرضين عن الدين وذكر الله، ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾.
- ٦ - التعلّق بالدنيا والإعراض عن ذكر الله متلازمان، ﴿تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٧ - المذموم هو حصر الرغبة في الدنيا وجعل الإنسان إياها أكبر همّه، وأما العمل للدنيا وتحصيل نصيبٍ منها فلا مشكلة فيه، ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٨ - التعلّق بالدنيا من العلامات الدالة على سطحية التفكير والسذاجة، ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾.
- ٩ - الذين لا يفكّرون إلا بالدنيا، هم ضالّون منحرفون، ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... ضَلَّ...﴾.
- ١٠ - الإيمان بسعة العلم الإلهي وشموله لأعمال الإنسان، من الأمور التي تعزّي المؤمنين، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.
- ١١ - الإعراض عن الله، والاهتمام الزائد بالدنيا، من أبرز علامات الانحراف

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٣، ص ٩٢.

والضلال، ﴿تَوَلَّىٰ عَن دِرْكِنَا وَلَوْ يَرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾.

١٢ - يعلم الله أفعال الناس فرداً فرداً، كما يعلم نواياهم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ﴾.

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾ (٣١)

إشارات:

□ حَدَّثَنَا الآية السابقة عن بعض الناس الذين يتولون عن ذكر الله ويقبلون على الدنيا بكل كيانههم. وهذه الآية تشير إلى أنّ العاقل الذي يريد الدنيا لا ينبغي له أن يعرض عن الله، فالدنيا وكل ما فيها هي له سبحانه.

□ السماوات أعظم من الأرض؛ ولذلك يقدّم ذكر السماوات على الأرض في القرآن دائماً.

التعاليم:

١ - الجزاء العادل، يتوقف على العلم والقدرة، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ... لِيَجْزِيَ﴾.

٢ - من وراء الكون كلّ بل الوجود بأسره أهداف وغايات، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ... لِيَجْزِيَ...﴾.

٣ - ثواب الله أكبر من حسنات الإنسان، وأما العقاب فإنه لا يزيد عن الجرم، ﴿الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا... الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾.

٤ - يرتبط مصير الإنسان بقراره، ﴿بِمَا عَمِلُوا... الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَحْيَاءُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّقَىٰ﴾ (٣٢)

إشارات:

□ «فواحش» جمع فاحشة، تطلق على كلّ معصية، كالزنا.

□ ذُكِرَتْ لكَلِمَةٌ «لَمْ» معانٍ عَدَّةٌ، فِي كِتَابِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ، وَفِي الرِّوَايَاتِ^(١)، مِنْهَا:

١ - المَعْصِيَةُ الَّتِي تَصْدُرُ عَفْوَاً مِنْ دُونِ قَصْدٍ وَإِصْرَارٍ.

٢ - المَعْصِيَةُ الَّتِي يَعْزِمُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ وَلَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهَا.

٣ - المَعْصِيَةُ الَّتِي تَلْحَقُهَا التَّوْبَةُ، وَيَعْقِبُهَا النَّدَمُ.

٤ - المَعْصِيَةُ الَّتِي لَمْ يَتَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْعَذَابِ.

٥ - المَعْصِيَةُ الَّتِي لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْحَدُّ.

□ يُشِيرُ الْقُرْآنُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْرَدٍ إِلَى كِبَرِ الْمَعَاصِي وَصِغَرِهَا^(٢)، كَمَا وَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ مَحْصِيَةٌ عَلَيْهِ، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾^(٣)، وَسَوْفَ يَفْتَحُ لِلْإِنْسَانِ كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَعْرُضُ عَلَيْهِ، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾^(٤)، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَصْرُخُ الْإِنْسَانُ وَيَصْدَمُ لِمَا يَرَاهُ فِي كِتَابِهِ، ﴿يَوَيْلٌ لَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٥).

□ عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا عليه السلام فِي تَعْدَادِ الْكَبَائِرِ: «وَاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ وَهِيَ قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ، وَالزَّانَا، وَالسَّرِقَةَ، وَشَرَبَ الْخَمْرِ، وَعَقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ ظُلْماً، وَأَكَلَ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ، وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَأَكَلَ الرِّبَا بَعْدَ الْبَيْتَةِ وَالسَّحْتِ، وَالْمَيْسِرَ وَهُوَ الْقِمَارُ، وَالْبَخْسَ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ، وَاللُّوَاطِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَالْيَأْسَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْقَنُوطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعُونَةَ الظَّالِمِينَ وَالرُّكُونَ إِلَيْهِمْ، وَالْبِمِينَ الْغُمُوسَ، وَحَبْسَ الْحَقُوقِ

(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٣١؛ وسورة الكهف: الآية ٤٩؛ وسورة الشورى: الآية ٣٧؛ وسورة القمر: الآية ٥٣.

(٣) سورة القمر: الآية ٥٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٣.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

من غير عسر، والكذب، والكبر، والإسراف والتبذير، والخيانة، والاستخفاف بالحجج، ومحاربة أولياء الله، والاشتغال بالملاهي، والإصرار على الذنوب»^(١).

□ عن الإمام الباقر عليه السلام، في تعليق له على قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾: «لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه؛ لأن الله تعالى أعلم بمن اتقى منكم، فإن ذلك من اللمم»^(٢).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن جواز مدح الرجل نفسه، فأجاب لا بأس إن اضطرّ إلى ذلك، واستشهد بتزكية النبي يوسف عليه السلام نفسه عندما قال: ﴿أَجْمَلَنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(٣).

□ في بعض الروايات عن الإمام علي عليه السلام، أنه سمع من يفتخر بإحيائه الليل وصومه النهار، فقال: لقد كنت نائماً البارحة، وكنت مفطراً أمس.

□ في بعض الروايات أن يهودياً أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله واستعرض أمامه معجزات النبي موسى عليه السلام فلفته إلى أنه لا ينبغي للمرء أن يمدح نفسه، ولكن إذا كان من أجل الحق فلا بأس، وشرع بالحديث عن نفسه صلى الله عليه وآله، فأخبره أن آدم عليه السلام توسل إلى الله بحق محمد وآله ليتوب عليه، ولو أن موسى كان في عصره لآمن به.

بعض النقاط في المعصية والتمرد:

□ معصية الله والتمرد على أوامره ونواهيه قبيحة ومذمومة، ولكن المعاصي تتفاوت عندما يقاس بعضها إلى بعضها الآخر، فبعض المعاصي كالكذب والغيبة، أقبح من غيرها، والعذاب المترتب عليها أشد. ويزداد قبح المعصية بدخول بعض الخصوصيات عليها، بالنظر إلى الفاعل، أو الزمان، أو المكان، أو العلم والجهل.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٦٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٣٣.

□ قيمة الإنسان مرهونة بما يقدم عليه من معاصي، فمن يعص الله في مثقال ذهب يساوٍ مثقالاً ومن يعصه في أقل يساوٍ أقل، وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»^(١). وعنه عليه السلام: «إن أشد الذنوب ما استخفت به صاحبه»^(٢). وعنه: «إن وليّ محمّدٍ من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدوّ محمّدٍ من عصي الله وإن قرّبت قرابته»^(٣).

تبديل الصغائر إلى كبائر:

تحوّل بعض المعاصي من صغائر إلى كبائر نتيجة بعض العوامل، منها: الإصرار على المعصية الصغيرة، والفرح بالمعصية عند ارتكابها، الطغيان والتمرد عند المعصية، الاغترار بالإمهال الإلهي، والتجاهر بالمعصية، وكون الفاعل ممن لا يتوقع منه ذلك.

آثار المعصية:

للمعاصي آثار تترتب عليها، منها: قسوة القلب، وسلب النعمة، وردّ الدعاء، وتغيير الرزق، والحرمان من بعض العبادات، والبلاء المفاجئ، وحبس المطر، وخراب البيوت، والفضيحة، وقصر العمر، والزلازل، والفقر، والمرض، وتسلط الأشرار. وهذه الآثار كلّها مذكورة في الآيات والروايات الواردة عن أهل بيت العصمة.

طرق الإصلاح ووسائله:

١ - الصلاة، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾^(٤).

(١) نهج البلاغة، باب الخطب، الخطبة: ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة: ٤٧٧.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٣٨.

(٤) سورة هود: الآية ١١٤.

٢ - الاستغفار واستغفار الآخرين للعاصي، ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
الرَّسُولُ﴾^(١).

٣ - الإنفاق والصدقة، «صدقة السر تكفر الخطيئة»^(٢).

٤ - قضاء حوائج الناس، «من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف»^(٣).

٥ - الإيمان والعمل الصالح، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(٤).

٦ - اجتناب الكبائر، ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ... نُكَفِّرَ عَنْكُمْ﴾^(٥).

٧ - التوبة وجبران ما سلف، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ
يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٦).

٨ - القتال في سبيل الله تعالى، ﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(٧).

٩ - إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلاة الليل، «ثلاث كفّارات، إفشاء
السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(٨).

١٠ - ذكر الصلاة على محمد وآل محمد، «من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه،
فليكثر من الصلوات على محمد وآل محمد، فإنها تهدم الذنوب»^(٩).

□ على الإنسان أن يميّز بين تزكية النفس، وبين الحديث عن نعم الله تعالى، فالله
سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾، ويقول في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا
يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١٠).

التعاليم:

١ - ينبغي أن نعرف المحسنين بذكر علاماتهم، ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ... الَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ﴾.

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة النساء: الآية ٦٤. | (٦) سورة الفرقان: الآية ٧٠. |
| (٢) الأمدى، غرر الحكم. | (٧) سورة آل عمران: الآية ١٩٥. |
| (٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٧٣. | (٨) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٩. |
| (٤) سورة العنكبوت: الآية ٧. | (٩) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٤٧. |
| (٥) سورة النساء: الآية ٣١. | (١٠) سورة الضحى: الآية ١١. |

- ٢ - الأعمال الحسنة تكون حسنة، عندما تقترن بالتقوى واجتناب الكبائر، وإلا فإنها تفقد قيمتها في حالة صدورها عن مرتكبٍ للكبائر بعيدٍ عن التقوى، ﴿أَحْسَنُوا... يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا﴾.
- ٣ - يجب أن يكون اجتناب الكبائر سيرة دائمة، ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾. (يستفاد المعنى المذكور من استخدام الفعل المضارع الذي يدلّ على الاستمرار والتكرار).
- ٤ - أبرز خصائص المحسنين، هي اجتنابهم الكبائر والمعاصي الواضحة القبح، ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا... يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا الْإِثْمَ وَالْفَوَاحِشَ﴾.
- ٥ - القرب من المعصية يجرّ الإنسان إلى الوقوع فيها، (ولأجل ذلك يستخدم القرآن كلمة «يجتنبون» التي تدلّ على الابتعاد وليس الترك فقط)، ﴿يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا﴾.
- ٦ - الأرض ليست موطناً للملائكة، والإنسان حتّى لو كان من المتّقين قد يقع في بعض المعاصي ولا يفقد صفة الإحسان بالوقوع فيها، ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا... الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ... إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٧ - على المرّبي أن يغيّض النظر عن بعض الأخطاء ويتجاوز عنها، ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٨ - التجاوز عن الأخطاء الصغيرة التي قد يقع فيها بعض الناس، أمرٌ مطلوبٌ وحسنٌ، ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٩ - الدوافع نحو الأعمال لها أثرها في تقييمها، فالأخطاء التي تصدر عفواً ومن دون إصرار لا ينبغي أن تُساوى بما يصدر عن سبق إصرار، ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ١٠ - لا يجوز استغلال الغفران الإلهي لمزيد من التورّط في المعصية، فاجتناب المعصية واجبٌ حتّى مع العلم بالمغفرة الإلهية، ﴿يَجْتَنِبُونَ... وَسِعَ الْمَغْفِرَةُ﴾.
- ١١ - لا ينبغي اليأس من المغفرة، حتّى مع ارتكاب الكبائر، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾.
- ١٢ - يجمع الله بين صفّتي العلم والقدرة، ولكنّه مع ذلك غفورٌ، بل واسع المغفرة، ﴿وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

١٣ - لا يعلم الله حالنا الراهن فحسب، بل يعلم بأحوالنا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا، وإذا كان الحال كذلك، فلماذا التفاخر، ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

١٤ - على الذين يجتنبون المعاصي، الحذر من الفخر وتزكية النفس، ﴿يَجْتَنِبُونَ كِبِيرًا... فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

١٥ - الالتفات إلى ضعف الإنسان وقلة حيلته يوم كان جنيناً في بطن أمه، يحول بينه وبين تزكية النفس والاعتقاد بصفاتهما، ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

١٦ - الإصلاح ينبغي أن يبدأ في مستوى الاعتقاد، فالاعتقاد بعلم الله تعالى يحول دون تزكية النفس، ﴿هُوَ أَعْلَمُ... فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

١٧ - صفاتنا الحسنة وكمالاتنا، هي من الله تعالى، فلا ينبغي أن نزكي أنفسنا ونفخر بما عندنا من صلاح، ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ... فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

١٨ - لا يتصف الإنسان بالتقوى إذا تظاهر بذلك، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ انْفَقَ﴾.

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ «أكدي»، من الكدية أي البخل وترك الإنفاق، وأصل الكلمة يدل على الأرض الصلبة والوعرة. «وفى» أي إبراهيم الذي أنجز وعوده وتعهداته كاملة.

□ روي في سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات، أنها نزلت في رجل ترك الإنفاق في سبيل الله بعد أن خوَّف بالفقر^(١).

□ يشني الله سبحانه على النبي إبراهيم ﷺ، ويصفه بأوصاف عدة، على غرار: أواه، وحليم، ومخلص، وقانت، وشاكر، وصديق، ومؤمن، ومحسن، ووفى، وخليل، وإمام، وأسوة، وأمة، وعابد، وحنيف، ومسلم.

- ورد تعبير ﴿مُحِبِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُؤَسِّنٍ﴾ في القرآن مرتين، مرّة في هذه السورة، ومرّة أخرى في سورة الأعلى الآية ١٩.
- ربّما يكون سبب الجمع بين اسمي النبيّ إبراهيم وموسى ﷺ، هو إيمان أهل الكتاب بالنبيّ موسى، وإيمان مشركي مكّة بالنبيّ إبراهيم واحترامهم إياه.
- في سياق الحديث عن البخل ذكر الله أبرز الحالات المعاكسة وهي حالة النبيّ إبراهيم ﷺ الذي لم يبخل بشيء في سبيل الله؛ «فقد بذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للإخوان».

التعاليم:

- ١ - عندما تريد تقديم القدوة والنموذج أشر إلى ما هو قريب من الفهم وسهل تناول، ﴿أَفَرَأَيْتَ...﴾.
- ٢ - لا يحسن العمل إلا إذا اجتمعت فيه الرغبة، مع الاستمرار والكثرة. («تولّى» فيها إشارة إلى الإعراض وعدم الرغبة، و«أعطى قليلاً» فيها انتقاد للقلّة، و«أكدى» فيها انتقاد للانقطاع عن العمل).
- ٣ - في مقام التربية ليس من المهمّ الإشارة إلى أسماء الأشخاص، فالمهمّ هو العبرة والمضمون، ﴿الَّذِي تَوَلَّى... وَأَعْطَى... وَآكَدَى﴾.
- ٤ - الإنسان في حالتي عروجه ورقية، وسقوطه وهويّة، يمرّ بمراحل أولها المعتقد، ﴿تَوَلَّى... وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾.
- ٥ - من لا يملك إلا القليل يُقبل منه، بل يُمدح على القليل الذي ينفقه، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾^(١)، وأما الغنيّ الموسر فلا يُكتفى منه بالقليل، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾.
- ٦ - إعطاء القليل ليس مذموماً في الحالات جميعاً، فمن يعطي الطعام القليل للطفل لا يذمّ لأنه يعطي بمقدار الحاجة، وإنّما يكون إعطاء القليل مذموماً إذا كان كاشفاً عن البخل، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَآكَدَى﴾.

٧ - من وسائل علاج البخل، الإشارة إلى نماذج من أهل السخاء والكرم، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى... وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

٨ - على من يبخل أن يسأل نفسه: كيف تعلم بأنك سوف تفتقر بالإنفاق، إذا لم تكن تعلم الغيب، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرِئَى﴾.

٩ - على الرغم من التحريف الذي طرأ على بعض الكتب السماوية، فإنها لا تزال صالحة للاستناد والاستشهاد بها، ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾.

١٠ - الأديان السماوية تشترك في كثير من الأصول، ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ﴾.

١١ - الإشارة إلى إحسان العظماء من وسائل تكريمهم وتخليد أسمائهم، ﴿مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ﴾.

١٢ - على الداعي إلى الله أن يستشهد بنماذج مقبولة عند المدعوين، ﴿مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ﴾.

١٣ - في مقام التربية والدعوة إلى الله، ينبغي الإشارة إلى نماذج صالحة وأخرى فاسدة، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا... وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

١٤ - الوفاء في سبيل الحق من أبرز الكمالات، ﴿وَفَّى﴾.

﴿أَلَا نُرِزُّ زُرَّةً وَرَزَّزْنَا آخَرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

□ تشمل الآيات من ٣٨ إلى ٥٤ من هذه السورة على التعاليم المشتركة بين الإسلام وبين الكتابين السماويين الموحى بهما إلى إبراهيم وموسى ﷺ.

□ «الوزر» الحمل الثقيل، ويطلق على المعصية والذنب لأنهما حملان ثقلان على عاتق العاصي. وربما كان تعبير «وزير» من هذا الأصل لأنه يحمل أثقال الملك، وأعباء المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

□ يغفر الله السيئات بالحسنات، أو بالتوبة والاستغفار، أو يبذل السيئات بالحسنات، ولكنه لا يحمل أحداً أعباء أخطاء قام بها شخص آخر.

□ يذكر في قضاء أمير المؤمنين عليه السلام أنه استشهد بقوله تعالى ﴿أَلَا نُرِذُّ وَرِزَّةً وَرَزَّ أُنْرًا﴾، عندما حكم الخليفة الثاني على امرأة حاملٍ بحدِّ الزنا، فتدخل أمير المؤمنين عليه السلام، وطلب تأجيل الحدِّ حتى تلد^(١).

□ ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استشهاده بقوله تعالى ﴿أَلَا نُرِذُّ وَرِزَّةً وَرَزَّ أُنْرًا﴾ لنفي تحميل ولد الزنا أعباء أبويه^(٢).

□ سؤال: ورد في هذه الآية ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، بينما يحدثنا القرآن في آيات أخرى عن الشفاعة ودورها في المغفرة ودخول الجنة.

الجواب: أولاً؛ إنَّ هذه الآية بصدد الردِّ على مشركي مكة وأهل الجاهلية الذين كانوا يعتقدون بما يشبه شراء الذنوب؛ إذ كان يقول أحدهم أعطني مبلغاً من المال، وأنا أحمل وزر أخطائك. وفي مقابل هذا المعتقد الجاهلي يقول القرآن لا يمكن لأحدٍ أن يحمل وزر أحدٍ، بل الإنسان مسؤول عن أعماله فحسب.

وثانياً: هذه الآية ناظرة إلى العدل الإلهي، وليس إلى الفضل؛ وبعبارة أخرى، بحسب قانون العدل الإلهي، يحاسب الإنسان على أعماله فحسب ويثاب ويعاقب عليها، ولكنَّ الله من باب التفضل والرحمة، فتح أبواباً لزيادة الثواب وللتخفيف من العقاب، غيرَ باب العمل، هو باب الشفاعة، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

ثالثاً: عندما يرد في الحديث الشريف أنّ من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وكذلك عكسه أي المشاركة في عقاب من عمل بالسنة السيئة التي سنّها هذا الشخص، فهل نرى أيّ تناقض بين هذا الحديث وبين قوله تعالى ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾؟ ووجه عدم التناقض هو أنّ التأسيس

(١) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٩.

(٢) تفسير راهنما، والدر المثور، عند تفسير هذه الآية.

(٣) سورة النساء: الآية ١٧٣.

للخطّ الصحيح هو صدقة جارية تبقى إلى يوم القيامة، وبالتالي يدخل في عمل الإنسان وجهوده، والأمر عينه يقال عن الشفاعة، فإن دخول بعض الناس في المرشحين ليُشفع لهم هو نتيجة جهد قاموا به في خلال حياتهم.

□ ورد في الحديث والقرآن الكريم مجموعة من الحالات ينال فيها الإنسان ثواباً من دون عمل قام به بشكل مباشر، ومن ذلك: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجزاها في حياته، فهي تجري إلى يوم القيامة، أو سنة هدىّ سنّها فكان يعمل بها، وعمل بها من بعده غيره، أو ولد صالح يستغفر له»^(١). ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٢). وأخيراً، ما ورد في الحديث حول إشراك بعض الناس في الحج، فقد سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: أشرك أبيّ في حجّتي؟ قال: نعم! قلت: أشرك إخوتي في حجّتي؟ قال: نعم، إنّ الله تعالى جعل لك حجّاً ولهم حجّاً ولك أجرٌ لصلتك إياهم^(٣).

التعاليم:

- ١ - الثواب والعقاب الإلهيّان يجريان، وفق موازين العدل، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.
- ٢ - لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على غيره، لظنّه أنّهم يحملون عنه أوزاره يوم القيامة، فذلك اليوم لن يكون يوم تبادل الأوزار، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.
- ٣ - في العزل من الوظائف والمهام الاجتماعية، لا تؤاخذوا الناس بانحرافات أقاربهم، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.
- ٤ - الكون هو ساحة للجهد وبذل الجهد، والحصول على النتائج، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

(٣) الكليني، الكافي، ج ٤، ص ٣١٥.

(١) الشيخ الصدوق، الخصال، ص ١٥١.

(٢) سورة الطور: الآية ٢١.

- ٥ - نحن مكلفون بالسعي وأداء الواجب، ولسنا مسؤولين عن النتائج، ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾.
- ٦ - الإيمان بترتب الآثار على العمل، ونيل الإنسان ثوابه، ومؤاخذته بما عمل، من الدوافع نحو العمل من جهة، ومن العوامل التي تدعوه إلى الاحتياط من جهة أخرى، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾.
- ٧ - الأعمال التي يؤديها الإنسان لا يضيع شيء منها، خيراً كان أم شراً، ﴿سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾.
- ٨ - على المحسنين أن لا يستعجلوا نتائج أعمالهم، ﴿سَوْفَ يُرَى﴾.
- ٩ - لا تستوعب الدنيا جزاء الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته، ولا بد من يوم هو يوم القيامة، لتحقق الجزاء الكامل على الأعمال، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾.
- ١٠ - ينال الإنسان ثواباً متناسباً مع أعماله، بل أوفى منها، ﴿وَأَفَى... الْأَوَّلَى﴾.
- ١١ - على الرغم من وجود بعض الجزاء في الدنيا، فإنَّ جزاء الآخرة هو الجزاء الأوفى، ﴿الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾.
- ١٢ - يمرّ الإنسان يوم القيامة بمراحل ومواقف عدّة. (ويستفاد هذا المعنى من تعبير «سوف» وتعبير «ثم»، اللذين يدلّان على أنّ الإنسان يرى عمله أولاً ثم يحظى بجزائه ثانياً).

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- لا شك في وجود وسائط يفعل الله من خلالها ما يريد، إلا أنه سبحانه هو الفاعل الحقيقيّ والأوّل والأخير. وما يدلّ على ذلك، تكرار ضمير «هو».
- التضادّ بين الموت والحياة، والضحك والبكاء، وهو تضادّ في عين الإنسان ومن وجهة نظره هو. وأمّا في عين الله، فكلّ هذه الحالات هي خير مطلق ولا تضادّ بينها من هذه الجهة.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للمؤمنين أن يتعبوا، ولا للكافرين أن يغتروا بما هم عليه، فمتهى الفريقين إلى الله، وبين يديه ينال كل منهما حسابه، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.
- ٢ - الوجود الإمكانى كله يسير نحو الله تعالى، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.
- ٣ - العقاب والثواب بيده سبحانه، ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ كما أن الحالات العاطفية والروحية التي يمر بها الإنسان خاضعة لإرادته ﷻ، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.
- ٤ - الضحك والبكاء أمران طبيعيان، وتعبيران عن حالات طبيعية يمر بها الإنسان، ولا ينبغي إعاقة أحد هذين التعبيرين ومنعه من الظهور، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.
- ٥ - قدرة الله على الضدين على حد سواء، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى... أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.
- ٦ - يوم القيامة، هو يوم ضحك قوم، ويوم بكاء قوم آخرين، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ... وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.
- ٧ - الموت والحياة، من تجليات ربوبية الله، ﴿رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ... هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.
- ٨ - من أساليب القرآن في التربية، الإشارة إلى التوحيد حتى في الحالات المتضادة، ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى... هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۗ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ ۗ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۗ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّمْعَىٰ ۗ (٤٩)﴾

إشارات:

□ «أغنى» من الغنى بمعنى انتفاء الحاجة، و«أفنى» من القنية، بمعنى المال المدخر^(١). والمعنى بناء على هذا التفسير: أعطى ما فيه القنية على حد تعبير

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة: قني.

الراغب الأصفهاني. ويرى آخرون أنّ في الآية مقابلة بين الغنى والفقير، وبالتالي يرون أنّ معنى أفقر^(١).

□ عن الإمام عليّ عليه السلام، في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أنّه قال: «أغنى كلّ إنسان بمعيشته، وأرضاه بكسب يده»^(٢).

□ الشعرى نجم كان يعبده جماعة من المشركين، ويعتقدون أنّه ربّ الغنى والفقير؛ ولهذا يردّ الله سبحانه بهذه الآية ويقرّر أنّ الغنى والفقير بيد الله؛ لأنّه هو ربّ الشعرى أيضاً. ويرى بعض المفسّرين أنّ الشعرى اسم صنم من أصنام الجاهليّة.

□ الزوجيّة سرّ بقاء الكون، ولو انتفت الزوجيّة من الكون الفعلّي لتحوّل إلى شيء آخر، بل ربما خبا وانطفأت شعلة وجوده.

التعاليم:

١ - قانون الزوجيّة من القوانين التي أقرّها الله في الوجود، وليس من القوانين الاعتباريّة التي توافق عليها الناس، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

٢ - تنظيم الوجود على أساس التضادّ والحالات المتنافرة، من دلائل وجوده سبحانه وتعالى، ﴿أَضْحَكَ وَبَكَى... أَمَاتَ وَأَحْيَا... الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

٣ - خلق الذكر والأنثى من الظواهر العجيبة، ومن ضروريّات الحياة، ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

٤ - يشترك الرجل والمرأة في الأصل الأوّل للوجود، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

٥ - إنّ من يخلق الإنسان من قطرة من الماء، قادر على أن يعيد خلق الإنسان من الأجزاء التي يتحلّل إليها بعد الموت، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَتَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْآخَرَىٰ﴾.

(١) قاموس القرآن.

(٢) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٣٩.

٦ - إعادة الناس إلى الحياة بعد الموت، من الأمور التي أزم الله نفسه بها، ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَى﴾.

٧ - أصل الخلق يستند إلى الله، ﴿خَلَقَ﴾، كما أن تنوع الخلقة والزوجية التي فيها منه سبحانه، ﴿الزَّوْجِينَ﴾، ومنه الأصل الذي يخلق منه الناس، ﴿تُطْفِئُ﴾، وييده إعادة الناس إلى الحياة بعد الموت، ﴿النَّشَأَ الْآخِرَى﴾، وييده تدبير أمور المخلوقات وأحوالهم، ﴿أَعْنَى وَأَقْنَى﴾.

٨ - علينا أن نسأله وحده سبحانه إذا كنا نريد الغنى، ﴿هُوَ أَعْنَى﴾.

٩ - ما الحاجة وما الداعي إلى البخل والغرور، إذا كان الغنى والفقر منه سبحانه ويده، ﴿هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى﴾.

١٠ - يخضع كل ما في الكون للتدبير الإلهي، من النطفة في الرحم، إلى النجم في السماء، ﴿تُطْفِئُ...﴾.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أظْلَمَ وَأَطْفَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَفَشَنُهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءآلَاءَ رَبِّكَ نَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

□ «المؤتفكات» جمع مؤتفكة، يقال انتكفت بهم الأرض إذا انقلبت، وفي الآية إشارة إلى مدائن عاد الذين جعل الله عالي بلادهم سافلها.

□ «أهوى»، من الهوى أي السقوط. و«نتمارى» من المماراة أي المجادلة مع الشك والتردد.

□ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أظْلَمَ وَأَطْفَى﴾ ربّما يكون المراد به وصف قوم نوح، بأنهم أشدّ ظلماً من عاد وثمود، وربّما يكون المراد وصف هؤلاء جميعاً بأنهم أظلم وأطفى من غيرهم من الأمم التي حكم الله عليها بالعذاب.

التعاليم:

- ١ - لا يقتصر الجزاء والعقاب على يوم القيامة، فبعض الأمم تعاقب في الدنيا أيضاً، ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾.
- ٢ - علينا أن نأخذ العبر والدروس من الأمم التي سبقتنا، ﴿أَهْلَكَ عَادًا... وَثَمُودًا... وَقَوْمَ نُوحٍ﴾.
- ٣ - يعدّ الظلم والطغيان، ولا سيما استمرارهما، من مقدمات الهلاك والزوال، ﴿أَهْلَكَ... كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى﴾.
- ٤ - علينا، عندما ندرس التاريخ، أن نلتفت إلى علل الأحداث وأسبابها: ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى﴾.
- ٥ - هلاك الظالمين والطاغين، من النعم والألطف الإلهية، ﴿يَأْتِي آيَاتِنَا رَيْكًا﴾.
- ٦ - أهمّ مهام الأنبياء وأول واجباتهم، الإنذار والتحذير، ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾.

﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَإِن هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَكُونُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْتَجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۗ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

- «الأزفة» أي القربة الوقوع، و«سامدون» أي ساهون غافلون.
- تنقل بعض كتب التفسير أنّ النبي ﷺ لم يرُ باسمًا بعد نزول هذه الآيات عليه.
- ربّما يكون المراد بقوله تعالى: ﴿هَذَا الْحَدِيثُ﴾، القرآن، إذ ورد التعبير عن القرآن بهذه الطريقة في سورة الزمر، الآية ٢٣، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن نحسب أنّ يوم القيامة بعيد عتّا، ﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ﴾.

- ٢ - كلّ ما يمكن أن يتوقّر بين يدي الإنسان، لا يكفي لتخفيف أهوال يوم القيامة، والوسيلة الوحيدة للتخفيف هي الإذن الإلهي، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.
- ٣ - ينبغي أن نتعجّب من تعجّب بعض الناس من الحديث عن يوم القيامة، ﴿تَعْجِبُونَ﴾.
- ٤ - على من يعتقد بيوم القيامة، أن يخفّف من حالة الفرح والسرور التي تعتريه، ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.
- ٥ - الضحك في بعض الحالات يكون من علامات الغرور والغفلة، ﴿تَضْحَكُونَ... وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ﴾.
- ٦ - السجود بين يدي الله، من وسائل علاج الغرور والغفلة، ﴿فَأَسْجُدُوا... وَأَعْبُدُوا﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

سُورَةُ الْقَمَرِ

السورة: ٥٤ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٥٥

ملاحح سورة القمر

سورة القمر مكّية، عدد آياتها خمس وخمسون آيةً.
سمّيت بهذا الاسم للحديث عن شقّ القمر في مطلعها.
تنتهي آيات هذه السورة بحرف الراء.

انتهت السورة السابقة بالحديث عن المعاد، وافتتحت سورة القمر بالحديث عن الموضوع نفسه. والقسم الأكبر من محتوى السورة مرتبط بالمعاد ويوم القيامة، وبالحديث عن النبوة وعاقبة معارضي الأنبياء.
ويخبرنا الله سبحانه وتعالى، في هذه السورة، عن مصير خمس جماعات، هي: قوم نوح، وعاد، وشمود، وقوم لوط، وفرعون وقومه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفْقَرَّتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾
 وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ تذكر كتب السيرة والحديث حادثة شق القمر التي حصلت في أول البعثة، بوصفها معجزة من معجزات النبي ﷺ. وقد كانت هذه المعجزة استجابة لاقتراح مشركي مكة؛ وذلك أنهم كانوا يتهمون النبي ﷺ بالسحر، فقالوا إذا كان قادراً على السحر في الأرض، فهو لا يقدر على السحر في السماء، فلا يمكن الشك في صدقه إذا كان قادراً على شق القمر.

والملفت، بحسب الروايات الواردة في كتب المسلمين جميعاً سنة وشيعة، أن هذه الحادثة وقعت من دون أن تسبق بدعاية، بل حدثت في منتصف الليل، وقد شهد بها عدد من المسافرين بين مكة وبلاد الشام، بل ورد ذكرها في بعض كتب الهنود المعاصرين لتلك المرحلة^(١).

□ ومن المناسب الإشارة إلى أن علم الفلك الحديث يثبت أن عدداً من الأجرام السماوية انفصلت عن الشمس في المراحل الأولى لتشكلها، وبالتالي يكون شق القمر أمراً ممكناً، مع فارق هو أن هذه الحادثة تشتمل على معجزتين، هما الانفصال وإعادة الوصل والرتق.

التعاليم:

١ - يوم القيامة قريب، وحتمي الوقوع، ولم يبق من الدنيا إلا أقل مما انقضى؛ ولذلك على الإنسان أن يتزود لآخرته ولا يغفل عن اليوم الذين هو ملاقيه،
 ﴿أَفْقَرَّتْ السَّاعَةُ﴾.

(١) تفسير راهنما، في تفسير سورة القمر.

٢ - يوم القيامة زمان حساس وعلى درجة عالية من الأهمية، ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، (ويستفاد المعنى المذكور من بدء السورة بالحديث عن اقتراب الساعة من دون تمهيد ومقدمات، وهذا معروف في حالات التحذير من الأمور الخطيرة، كمن يصرخ: نار نار، أو زلزال زلزال).

٣ - من المناسب التحذير من يوم القيامة، في الحوار مع قساة القلوب، ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، (كما نقرأ في مطلع سورة الأنبياء، قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾).

٤ - شق القمر من معجزات النبي ﷺ الخاصة به، ومن المؤشرات الدالة على اتصال الأمة الإسلامية بيوم القيامة، ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

٥ - للنبي ﷺ معجزات عده وكان يعدها المشركون سحراً، ﴿سِحْرٌ مُّسْتَجَرٌّ﴾.

٦ - الأسلوب الذي يعتمد المعاندون للحق، في مواجهة الآيات والمعجزات، يتألف من الإعراض، والتكذيب، والاتهام، ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ﴾.

٧ - اتباع الأهواء هو منشأ الإعراض عن الحق والتكذيب بالدين، ﴿...يُعْرِضُوا... وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٨ - آخر الليل المظلم صباح مشرق، هذه هي سنة الله في خلقه، ففي نهاية المطاف سوف يثبت من دون لبس أن المعاد والقيامة حق، ﴿وَكَأَنَّ أَمْرًا مُّسْتَفْرَقًا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ ﴿٥﴾ فَنُؤَلِّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ «مزدجر» من الزجر وهو الطرد والمنع، والمعنى أن الحديث عن يوم القيامة، قد يكون مانعاً عن ارتكاب المعاصي. «نكر» الأمر المجهول غير السعيد.

التعاليم:

- ١ - على المصلحين والدعاة إلى الله، أن يستفيدوا من التاريخ وأحداثه المهمة وأن يكونوا على معرفة بما في التاريخ من عبر ووقائع نافعة، ﴿جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾
- ٢ - المعرفة بالتاريخ، قد تنفع في الزجر عن المعصية والوقوع في الآثام، نتيجة الاعتبار بمصائر الماضين، ﴿وَمِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾.
- ٣ - أخبار المعاد ويوم القيامة، من الوسائل المجدية في مواجهة الكفر والمعاصي، ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ... مِّنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾.
- ٤ - التاريخ وما فيه من أحداث ووقائع حقيقية، من المنابع الأساس للحكمة والمعرفة، ﴿جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ... حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾.
- ٥ - يتم الله الحجّة على الناس قبل إدانتهم، ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾؛ ولكن المشكلة هي عند الناس الذين يتجاهلون ولا يعتبرون مما يلقي عليهم، ﴿فَمَا تَنْنِ النَّذْرُ﴾.
- ٦ - عندما يكون الهوى هو صاحب القرار، لا ينفع لا تبليغ ولا دعوة مباشرة، ولا غير مباشرة، ﴿...وَأَبْعَمُوا أَهْوَاءَهُمْ... جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ... فَمَا تَنْنِ النَّذْرُ﴾.
- ٧ - على المرابي الحكيم، أن يحذر الناس بواسطة الوقائع الصحيحة، والقصص الحقيقية، ﴿أَنْبَاءٌ... حِكْمَةٌ... النَّذْرُ﴾.
- ٨ - الرسائل التي يحملها القرآن للناس، معقولة يمكن فهمها، وليست بعيدة عن متناول فهمهم، ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾.
- ٩ - الرفق والإحسان لهما حدود، وإلا انقلبا إلى شيء آخر؛ ولذلك لا بد في بعض الأحيان من الإعراض. (فعندما يؤدي المرابي ما عليه، ويستنفذ وسائله، ولا تؤثر في المدعويين، لا بد من الحفاظ على الجهد والوقت، والإعراض عن المعاندين)، ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ وإلا تكون الدعوة كالزراعة في الأرض السبخة.

١٠ - يوجد في يوم القيامة منادون دورهم دعوة الناس إلى النار، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾.

١١ - ساحة يوم القيامة من الساحات المزعجة للمنحرفين والمعرضين عن الأنبياء، ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُكْرٍ﴾.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- «أجدات» جمع «جدث»، وهو القبر.
- خشوع الأبصار إما من الخوف، وإما من الخجل، الموجب للذل.
- المقصود من تشبيه المجرمين بالجراد، هو الإشارة إلى الحيرة والضياع الذي سوف يكونون عليه يوم القيامة.

التعاليم:

- ١ - تظهر الحالات الروحية التي يعيشها الإنسان على جسده الخارجي، ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾.
- ٢ - المعاد جسماني، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾
- ٣ - من الوسائل الناجحة في التربية، استخدام الأمثلة والتشبيه، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، وأفضل الأمثلة هي الأمثلة المحسوسة والملموسة.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

- «مهطعين» من الإهطاع وهطع الرجل ببصره إذا صوّبه؛ أو رفع رأسه للنظر بحيرة وقلق، أو بمعنى سرعة الجري.
- تواجه الكافرين، يوم القيامة، شدائد عداة:

شدة العجز، وشدة العطش والجوع، وشدة الفضيحة، وشدة الحساب،
 وشدة فقدان الشفيح، وشدة انعدام الزاد، وشدة طول الانتظار، وشدة جوار
 السوء، وشدة التحسر على ما فات، وشدة الاحتقار، وشدة فراق أهل الخير،
 وشدة الشكاوى التي تلاحقهم.

هذا بينما يصور الله حال المؤمنين، في ذلك اليوم، بأحسن صورة، فلا
 خوف عليهم ولا همّ يؤرقهم، ولا حسرة على الماضي، ولا خوف من المستقبل.

التعاليم:

١ - مسارعة الناس إلى الخروج من قبورهم؛ بعد دعوتهم إلى الخروج، ﴿مُهَيِّبِينَ
 إِلَى الدَّاعِ﴾.

٢ - وجود دعاة ومنادين يوم القيامة، يوجهون دعواتهم إلى الناس، ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾.

٣ - يوم القيامة من الأيام الشديدة على الكفار وحدهم، ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ
 عٰسِرٌ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ

فَأَنْصِرْ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ وردت في الآية العاشرة كلمة «انتصر» بدل «انصر»، وإنما قال ذلك ولم يقل
 انصر تنبيهاً إلى أن ما يلحقني يلحقك، من حيث إنني جنتهم بأمرك؛ فإذا
 نصرتني فقد انتصرت لنفسك، والتناصر التعاون^(١).

□ «منهمر» أي جارٍ وهمر ما في الضرع حلبه كله^(٢).

□ عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «لبث فيهم نوح ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً
 يدعوهم سرّاً وعلانيةً، فلما أبوا وعتوا قال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾^(٣)».

(٣) نور الثقلين، ج٤، ص ١٥٤.

(١) مفردات الراغب، مادة: «نصر».

(٢) المصدر نفسه، مادة: «همر».

□ وردت كلمة «مغلوب» في القرآن كله، مرة واحدة، في سياق الحديث عن نوح عليه السلام، كما وردت كلمة «سلام» مرة واحدة مقرونة بـ «في العالمين» في سياق الحديث عنه عليه السلام في قوله تعالى ﴿سَلِّدْ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - في هذه الآيات، يطيب الله خاطر النبي عليه السلام، ويقول له إن ما يصيبك من أذى أصاب من سبقك من الأنبياء، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.
- ٢ - التأمل في تاريخ الأمم الماضية، يدعو إلى الصبر على الشدائد والمصاعب، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.
- ٣ - افتتاح الله سبحانه الحديث عن الأقوام السابقة، بكلمة «كذب»، يدل على خطورة الكذب وعظيم أثره السلبي على الأمم وتاريخها، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودٌ﴾، و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾.
- ٤ - العبودية لله، من أهم صفات الأنبياء والأولياء الصالحين، ﴿عَبَدْنَا﴾.
- ٥ - يبزر العاصون والمنحرفون أعمالهم السيئة بالانتهاكات الباطلة التي يوجهونها إلى خيار عباد الله ولو كانوا الأنبياء، ﴿كَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾.
- ٦ - يعلّق الأنبياء آمالهم في حالات الشدة على الله، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾.
- ٧ - ليس الضعف من لوازم الباطل، ولا الغلبة من لوازم الحق، فقد يغلب الحق وقد يُغلب، ﴿أَنِّي مَقْلُوبٌ فَاَنْصِرْ﴾.
- ٨ - دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿فَدَعَا... فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾.
- ٩ - الدعاء وقطع الأمل عما في أيدي الناس، واليأس منهم، من العوامل المساعدة على استجابة الدعاء، ﴿أَنِّي مَقْلُوبٌ... فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾.
- ١٠ - العوامل الطبيعية من الجنود التي يستخدمها الله في ما يريد تحقيقه، ﴿يَمَأْوُ مُنْتَهِرٍ﴾.

١١ - بعض مظاهر الرحمة قد تتحوّل في بعض الحالات إلى مظاهر ووسائل للعذاب، ﴿يَمَّاؤُا مُتَهِّرًا﴾.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَّ فُؤِدًا ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُورًا ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ «دسر» جمع «دسار» وهو المسمار، و«نُذُر» جمع «نذير»، ولكن المراد من هذه الكلمة في مثل هذا المورد مضمون الإنذار وليس الشخص المنذر.

□ تتوفّر سفينة نوح ﷺ على خصائص عدّة منها:

أ - صنعت بأمرٍ من الله، ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ﴾.

ب - صانعها نبيّ.

ج - تصنع السفن عادة على السواحل وفي الموانئ، وأما هذه السفينة فقد صنعت على اليابسة وفي صحراء جافّة. وفي بعض الروايات أنها صنعت في مسجد الكوفة، وقد كان هذا الأمر من أسباب سخرية الكافرين.

د - حملت أنواع الحيوانات من ذكر وأنثى.

هـ - كانت تتحرّك تحت عين الله ورعايته، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

و - كانت تسير على أمواج عالية كالجبال، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

ز - حملت المؤمنين في الأرض جميعاً.

ح - كانت الوسيلة الوحيدة للأمن من الغرق.

□ وهذه السفينة على الرغم من خصوصيّاتها المشار إليها، يعبر الله عنها بأنّها ذات ألواح ودسر، وكأنّه سبحانه يريد من ذلك الإشارة إلى أنّ نجاة من عليها لم يكن يستند إلى السفينة بقدر ما كان يستند إلى الرعاية الإلهيّة.

□ يصف الله سبحانه السفينة المصنوعة من الخشب والمسامير، بأنّها آية من آياته، ووسيلة لنجاة النبيّ والمؤمنين به من الموت غرقاً. وهنا نسأل ما المانع من كون قبور الأنبياء الذين هم سفينة النجاة الأهمّ، آية من آيات الله سبحانه؟

التعاليم:

- ١ - نبع الماء من الأرض وجريانه فيها، خاضع لإرادته سبحانه وتعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾.
- ٢ - تبدأ السماوات والأرض بالاستجابة والخضوع، بمجرد أن تتعلق الإرادة الإلهية بتحقيق شيء، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾.
- ٣ - الغضب الإلهي، وانسجام الأسباب الطبيعية في السماء والأرض، خاضع لنظامٍ محكمٍ دقيق، ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَّ قُدْرًا﴾.
- ٤ - عندما تتوفر صفة العبودية الحقيقية لله تعالى فينا، يسعفنا الله بكل ما نحتاج ونريد، ﴿عَبَدْنَا، رِيحًا، وَنُذْرًا، وَفَجَّرْنَا حَمَلْنَا﴾.
- ٥ - تجري إرادة الله وتتحقق بواسطة الأسباب الطبيعية، ومن خلال الجهد الإنساني، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾. فالألواح والمسامير متوقفة بكثرة، والإرادة الإلهية قد تتعلق بالنجاة من دون توقف هذه الوسائل، ولكن الإرادة الإلهية الحكيمة اقتضت نجاة النبي نوح عليه السلام ومن معه بهذه الوسيلة.
- ٦ - لم يكن صنع السفينة تحت عين الله، بل حركتها ومسيرها أيضاً؛ إذ يقول الله سبحانه في سورة هود الآية ٣٧، ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾، وهنا يقول: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.
- ٧ - الأنبياء نعمة من النعم الإلهية، لا يجوز كفرانها، وإذا كفرها الإنسان نال جزاءه العادل، ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾.
- ٨ - لا تؤجل العقوبات كلها إلى يوم القيامة، ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾.
- ٩ - بقيت سفينة نوح مدة طويلة من الزمن وربما لا تزال موجودة حتى عصرنا هذا، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾. (وقد أخبرنا الله سبحانه عن بقاء فرعون آية لمن بعده من الناس؛ إذ يقول: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِئَلَّا نَكُونَنَا لِمَن خَلَقَ آيَةً﴾^(١)).

- ١٠ - الآثار التاريخية تتضمن الكثير من العبر حول سقوط الأمم ونهوضها؛ ولذلك علينا أن نحافظ عليها ونصونها لتبقى لمن بعدنا كما وصلت إلينا، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً﴾.
- ١١ - العمل الذي يتم بإرادة الله ويبد أوليائه مبارك. (فسفينة نوح كانت وسيلة من وسائل الحفاظ على الحياة على وجه الأرض، على الأقل في المنطقة التي أصابها الطوفان)، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً﴾.
- ١٢ - ينبغي أن نعلم النظر وندقق في آيات الله، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.
- ١٣ - لهداية الإنسان، لا تكفي الأسباب والعوامل المساعدة الخارجية، بل ينبغي أن تتوفر القدرة الاستيعابية عند الإنسان نفسه، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.
- ١٤ - يجب أن تكون الأحداث التي مرت على الأمم السابقة، مصدر عبرة لنا، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾.
- ١٥ - لا ينزل العذاب الإلهي فجأة، بل ينزل بعد الإنذار وإتمام الحجّة، ﴿عَذَابِي وَنُذْرِي﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- في القرآن أبعاد متنوّعة أضفت عليه الجمال في الشكل والمضمون، فهو سهل القراءة، عميق المضمون، يشتمل على القصص والأمثلة، ومطابق للقطرة الإنسانية، وذلك كلّه يسرّ قبوله على الإنسان.
- لقد تكرّرت هذه الآية أربع مرّات، وذلك في الآيات: ١٧، ٢٢، و٣٢، و٤٠.
- على الرغم من تيسير القرآن وتسهيله، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾، إلا أنّه لا مثيل له ولا شبيهه، بل لا يمكن الإتيان بمثله وهذا هو معنى إعجازه، ﴿...قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴿١﴾﴾.

التعاليم:

- ١ - على الدعاة إلى الله أن يخاطبوا الناس بلغة سهلة يسيرة الفهم، ﴿يَسْرَنَا﴾.
- ٢ - القرآن ميسر؛ ولكنه ليس مبتذلاً. فقد مرّ في آيات سابقة وصف القرآن بأنه حكمة بالغة، ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾، وهذا الوصف يدلّ على عمق المضمون ومثاقته، على الرغم من التيسير الذي فيه، ﴿يَسْرَنَا الْقُرْآنَ﴾.
- ٣ - رسالة القرآن، هي إيقاظ الناس وتذكيرهم، ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾.
- ٤ - كلما كانت لغة الخطاب أيسر وأقرب إلى الأذهان، كلما زاد عدد المستمعين، ﴿يَسْرَنَا... فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.
- ٥ - يشتمل القرآن على آيات تكوينية وأخرى تشريعية، وكل من الصنفين ينبغي أن يُصغى إليه، ويُبَهِّمَ به، وعن النوع الأول يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾، وعن الثاني يقول: ﴿يَسْرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.
- ٦ - ليس كلّ من قرأ القرآن استفاد منه، وإنما من يستفيد منه هو الشخص الذي يتوقّر على قابليات خاصة، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.
- ٧ - لا يتوقّف القبول والإذعان للحقّ على توقّر الظروف الخارجيّة المساعدة، فقد تتوقّر مثل هذه الظروف، ولكن يحول العناد واتباع الهوى دون تأثيرها في المتلقّي، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَزْبَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسْرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ يراد به أيام عذّة، وكلمة «مستمر» هي التي تدلّ على تعدّد الأيام، وقد كشفت آيات أخرى عن تعدّد هذه الأيام، كما في قوله تعالى، في الآية ١٦، من سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

مِحْسَاتٍ، وكما في قوله تعالى، في الآية السابعة من سورة الحاقة: ﴿سَبَّحَ لِلَّيْلِ وَثَمِينَةَ آيَاتِهِ﴾.

□ منقعر، من القعر، وهو الاجتثاث من الجذور. و﴿أَعْجَازُ﴾، جمع «عجز» وهو القسم الأسفل من الشيء كجذع الشجرة وما شابه.

□ قبح الأيام وحسنها، تابع لقبح الأحداث التي تقع فيها وحسنها؛ أو لوجود سرّ خاص في الزمان يجعله شرّاً أو خيراً ولا نعلم سبب اتّصافه بذلك.

التعاليم:

١ - لم يعتبر قوم عاد بهلاك قوم نوح قبلهم، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ... كَذَّبَتْ عَادٌ﴾.

٢ - السمة البارزة في قوم عاد الكذب والإنكار، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾.

٣ - بين العذاب والإنذار علاقة تلازم؛ حيث يسبق الإنذار أولاً، فإذا لم يؤثر لحقه العذاب، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾.

٤ - على الإنسان أن يتفكّر في التاريخ ويعتبر مما فيه من أحداث، ﴿فَكَيْفَ كَانَ...﴾.

٥ - الكذب يلحقه الغضب الإلهي والعذاب، ﴿كَذَّبَتْ... عَذَابِي﴾.

٦ - تتحوّل الظواهر الطبيعيّة إلى وسائل للعذاب والعقاب، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ... رِيحًا صَرَّارًا﴾.

٧ - لا تتساوى الأزمان ولا تتحد في خصوصيّاتها، فبعض الأزمنة مباركة قليلة القدر، ﴿لَيْلَةٌ مُّبْرَكَةٌ﴾، وبعضها بعيد عن البركة كأيام العذاب، ﴿يَوْمٍ نَخْتِمُ﴾.

٨ - إرادة الله هي تغبّر طبائع الأشياء والظواهر، فالرياح وسيلة للنموّ والتكاثر، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾^(١)، وهي نفسها عندما يريد الله تتحوّل إلى مصدر للموت والهلاك، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

٩ - الإنسان، مهما تعالى وتعاضم، ليس سوى قشة في مهب الريح في مواجهة الإرادة الإلهية، ﴿تَنْزِجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ...﴾.

١٠ - كان قوم عاد أمة عظمية الشأن راسخة الجذور، ولكن عندما غضب الله عليهم، اقتلعهم من جذورهم، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ﴾.

١١ - التكرار من الأساليب المؤثرة في التربية والتعليم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ فقد تكررت هذه الجملة أكثر مرة.

١٢ - الهدف من نقل التاريخ هو التربية والاعتبار؛ ولذلك لا ينبغي إهمال محل العبرة والإلفات إليها، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّثَّا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَمَلِقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الكَذَّابِ الْآئِثِرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّ لَهُمْ فَاذْقَبْنَهُمْ وَأَصْطَرِبُوا ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ «سعر» جمع «سعير» وهي النار الحامية، وكذلك جمع «سعر» وهو الجنون. و«أشر» الشخص المغرور بنفسه.

□ يقول الكافرون للأنبياء بحسب الآية ٢٤: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّثَّا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي إننا في ضلال وجنون لو اتبعنا بشراً مثلنا. ويرد الله سبحانه في الآية ٤٧، فيقول: ﴿إِنَّ الشَّجَرِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾.

□ في قصة النبي صالح عليه السلام، أن قومه طلبوا منه أن يخرج لهم من الجبل ناقة، ولكنهم عندما تحققت المعجزة عقروا الناقة وقتلواها.

□ يتعلل الكافرون لرد دعوة الأنبياء، بحجج واهية، من قبيل:

أ - أن النبي بشر مثلهم.

ب - أنه واحد منهم.

ج - أنه واحد وهم كثيرون، ﴿أَبَشْرًا مِّثَّا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾.

ولكن هذه الحجج بعيدة من المنطق، ومجانبة للصواب، وذلك:
 أولاً: لأن بشرية الأنبياء نقطة قوة لهم، وليست مصدر ضعف، وذلك
 ليكونوا قدوةً صالحَةً.
 وثانياً: إنّ مسيرة الإصلاح النبوية عبر التاريخ كانت تبدأ بمصلحٍ واحدٍ،
 تتبعه أمتة في دروب الإصلاح والصلاح.
 وثالثاً: الحق لا يقاس بالعدد والكثرة والقلة، والحق يجب أن يتبع، سواء
 قلّ قاداته وأتباعه أم كثروا.

التعاليم:

- ١ - التكذيب هو الفعل الذي تكرر صدوره عن قوم ثمود، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾.
- ٢ - لا يملك الكفار في مقابل دعوة الأنبياء أي منطق أو حجة داحضة، بل يقولون: لماذا هو النبيّ ولسنا نحن، ﴿أَبَشْرًا مِثَّا...﴾.
- ٣ - لا يسعى الأنبياء لتمييز أنفسهم بحياةٍ مختلفةٍ عن حياة الناس، ﴿أَبَشْرًا مِثَّا﴾.
- ٤ - يسقط الإنسان في بعض الحالات إلى مستويات غريبة، فلا يقبل النبيّ المعصوم، ويردّ دعوته قائلاً: ﴿أَبَشْرًا مِثَّا﴾؛ ولكنه في الوقت عينه يعبد الحجر والصنم.
- ٥ - ويسقط الإنسان في بعض الحالات إلى درجة يرى فيها أتباع النبيّ المعصوم الذي يؤيدّ دعوته بالحجج والمعجزات، يرى أتباعه ضلالاً وجنوناً، ﴿إِنَّا إِذَا لَفِئَتَ سَبَلٍ لَّسْنَا بَنِيهَا لَمَّا وَحَدَّ لَنَا﴾.
- ٦ - إثارة الشك بين الناس، من العوامل الممهّدة للتكذيب بالحق وإنكاره، ﴿كَذَّبَتْ... أَبَشْرًا مِثَّا... لَهُ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ﴾.
- ٧ - القرآن ذكر، ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾^(١)، كما أنّ ما نزل على الأنبياء السابقين ذكر أيضاً، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِ﴾.

٨ - يتهم الكافرون المعاندون الأنبياء بالكذب والغرور والاعتداد بالنفس، ﴿كَذَّابٌ أَشْتَرٌ﴾.

٩ - الكذب والغرور والأنانية من الصفات القبيحة حتى بحسب تقويم الكافرين المعاندين؛ ولأجل هذا التقويم، يتهمون الأنبياء والعباد بالله بهذه الصفات، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْتَرٌ﴾.

١٠ - على الدعاة إلى الله أن يوطنوا النفس على تلقي أقبح الاتهامات، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْتَرٌ﴾.

١١ - لا بد من الرد على الكلام البذيء، ﴿فَقَالُوا... سَيَعْمُونَ﴾.

١٢ - يوم القيامة، هو يوم ظهور الحقائق، ويوم فضيحة الكافرين، ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشْتَرِ﴾.

١٣ - المعجزات هي من وسائل امتحان الناس واختبارهم، ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَةً لَهُمْ﴾.

١٤ - الأنبياء يخضعون أمهم للرقابة الدائمة، ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾.

١٥ - على القادة الدينيين أن يتحلوا بالصبر والأناة، ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾.

﴿وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمٌ مِّنْهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُّحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ تقسيم الماء بين الناس والناقة، امتحان إلهي. وكان على قوم النبي صالح عليه السلام أن يراعوا تكليفهم في هذا المجال ولا يقربوا الماء في اليوم المخصص للناقة. وفي الآية ١٥٥ من سورة الشعراء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَمَّا شَرِبُوا وَلَكُرَّ شَرِبُهُمْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾.

□ «شرب» أي سهم ونصيب من الماء، وتستخدم كلمة شرب بهذا المعنى للماء.

□ «تعاطى» التعاطي هو أخذ الشيء الذي لا ينبغي أخذه. وتدلّ هذه الصيغة، التي هي من باب تفاعل، على نوع من التبادل والتفاهم بين القاتل وبين سائر الناس.

□ «هشيم» العشب اليابس المقطع. و«محتظر» هو الشخص الذي يعدّ العشب اليابس ويجمعه للأنعام والحيوانات.

□ على الرغم من أنّ قاتل الناقة كان شخصاً واحداً، فإنّ القرآن ينسب هذا الفعل إلى الجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾^(١)، وقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾^(٢). وذلك لرضا الباقيين بفعله، وسكوتهم عنه.

التعاليم:

- ١ - قد يكون تقنين الماء وتوزيعه بين الناس وغيرهم، وسيلة من وسائل الامتحان والاختبار الإلهيين، ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ﴾.
- ٢ - بعض العاجزين يخشون القيام بالأفعال المنكرة، ولكنهم يدعون غيرهم من أهل الجرأة إلى فعل ما يعجزون عن فعله، ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾.
- ٣ - إهانة المقدّسات تتوقّف على الجرأة، ﴿صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى﴾.
- ٤ - أهل الشرّ مستعدّون للقيام بقبائح الأفعال، ولا يفوتون فرصة مناسبة لارتكاب شرورهم، ﴿فَنَادُوا... فَعَقَرُوا﴾.
- ٥ - ينبغي شكر النعمة وتقديرها، وإن لم يتحقّق التقدير، فالعذاب هو الجواب المناسب، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً﴾.
- ٦ - في نقل الأحداث التاريخية بحسب المنهج القرآني، لا أهميّة للزمان والأشخاص، وإنّما المهمّ هو العبرة والدوافع والنتائج. (فلم يذكر الله سبحانه في هذه الآية لا اسم عاقر الناقة، ولا زمان الحادثة، ولا مكانها المحدّد).

(١) سورة الشعراء: الآية ١٥٧، سورة الشمس الآية ١٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٧.

- ٧ - على الرغم من أن القاتل واحد، فإن فعله أدى إلى هلاك قومه جميعاً، ﴿فَنَعْلَمَنَّ فَعَقْرًا... أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾.
- ٨ - عندما يريد الله، من الممكن أن تزول أمة كاملة، بصيحة واحدة، ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.
- ٩ - من الممكن أن يؤدي التمرد والعناد إلى هلاك الأمم، ﴿كَهَشِيرِ الْخَضِرِ﴾.
- ١٠ - عندما يحلّ الغضب الإلهي، لا يقف شيء في وجهه، ولا يصمد قويٌّ في مواجهته، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْخَضِرِ﴾.
- ١١ - يقدم القرآن أدقّ المعلومات التاريخية وأصحّها، وأكثرها امتلاءً بالعبر، بلغة سهلة يسيرة الفهم، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ حَمِيْنُهُمْ بِسَحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنَّا عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَنُكِمْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- «نذر» جمع نذير بمعنى المنذر وبمعنى الإنذار أيضاً. و«حاصب» الرياح القوية التي تحمل معها الرمل والحصى.
- البطش تناول الشيء بصولة. والطمس المحو والإزالة. والمماراة المجادلة.
- يبدو أن الأشخاص الذين أرادوا بضيف لوط عليه السلام سوءاً، أصيبوا بالعمى أولاً ثمّ أبادهم الله بقلب مدينتهم رأساً على عقب. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أن قوم النبي لوط تكاثروا عليه ودخلوا بيته عنوة، فصاح جبرئيل يا لوط دعهم يدخلوا، فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، وهو قوله: ﴿فَنُكِمْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾^(١).

□ وردت كلمة «نذر» أربع مرّات في قصّة قوم لوط، كما وردت كلمة «عذاب» ثلاث مرّات، وهذا يشير إلى أهميّة الإنذار قبل نزول العذاب.

التعاليم:

١ - وكان الله سبحانه يريد أن يقول لنبيه محمّد ﷺ، لا تحزن ولا تهتمّ بتكذيبهم إياك، فإنّ الأنبياء الذين سبقوك جميعاً تعرّضوا لمثل ما تعرّض له، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾.

٢ - تختلف ثمود وعاد، وقوم لوط وقوم نوح، في خصائص كلّ منهم، إلا أنّ الخصلة المشتركة بينهم هي التكذيب، ﴿كَذَّبَتْ... كَذَّبَتْ﴾.

٣ - تكذيب نبيّ واحد بمثابة تكذيب الأنبياء جميعاً، ﴿كَذَّبَتْ... بِالنُّذُرِ﴾.

٤ - لا شيء يقيد يد الله في ما يريد أن يختاره من أصناف العذاب، ﴿يَمَاءٌ مُّنْتَهَرٍ... رِيحًا صَرْصَرًا... صَيْحَةً وَجِدَةً... حَاصِبًا﴾.

٥ - يتولّى الله نجاة المؤمنين في موارد عدّة، ﴿بَجَّيْنَهُمْ إِسْحَارٍ﴾.

٦ - عندما ينزل العذاب لا يحرق الأخضر واليابس، والغثّ والسمين دائماً، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ بَجَّيْنَهُمْ إِسْحَارٍ﴾.

٧ - لا تنحصر النعمة في الأمور المادّية، بل إنّ النجاة من العذاب من أهمّ النعم التي يمنّ الله بها على من يستحقّها، ﴿نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا﴾.

٨ - الإيمان بالأنبياء شكر الله، وسبب من أسباب النجاة، ﴿كَذَلِكَ نَجِّرِي مَنْ شَكَرَ﴾.

٩ - يتمّ الله الحجّة أولاً، ثمّ ينزل العذاب، ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾.

١٠ - على الرغم من أنّ الإنذار والبشارة كلاهما من مهامّ الأنبياء، فإنّ الإنذار هو الأكثر بين ما يقومون به؛ وذلك لغفلة الناس وحاجتهم إلى من ينبّههم من غفلتهم، ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾.

١١ - التشكيك في الحقّ وزلزلة اعتقاد الناس به، بمثابة التكذيب، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ... فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

- ١٢ - التلوث والفساد لا حدود لهما. (فقوم لوط فعلوا الفاحشة علناً، ولم يكتفوا بذلك، بل تجرأوا على مراودة النبي ﷺ عن ضيوفه)، ﴿زَادُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾.
- ١٣ - عندما يكبر الجرم، لا يجوز تأخير العقوبة، ﴿زَادُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا﴾.
- ١٤ - يجب على العين التي تتطلع إلى ضيوف المعصوم في بيته، وتنظر إليهم بسوء، أن تغمى، ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾.
- ١٥ - عندما يحلّ العذاب الإلهي لا مجال لإبطال فعله وآثاره، ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾.
- ١٦ - من الوسائل التي يعتمدها القرآن في التربية والإرشاد، نقل القصص المشتملة على العبر، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾.
- ١٧ - لا تغني قراءة القرآن عن تدبره وإنعام النظر في آياته، ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارًا كَذِبًا ﴿٤٣﴾ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ﴿٤٥﴾ سَيَهْمُهُمُ الْبَعْعُ وَيَقُولُونَ الدُّبُرُ ﴿٤٦﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

- «سيهزم»، أصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشنّ، وهزم القثاء والبطيخ ومنه الهزيمة؛ لأنه كما يعبر عن ذلك بالحنط والكسر. والداهية المصيبة الكبيرة.
- ينحصر التكذيب الذي صدر عن قوم نوح ولوط، وعن عاد وثمود، بتكذيب الإنذار، وأما فرعون وجماعته فقد كذبوا الإنذار وأنكروا المعجزات.
- تشير هذه الآيات إلى الجماعة الخامسة والأخيرة من الكفار الذين تتحدث عنهم هذه السورة.
- أسباب الغرور متعدّدة منها:

أ - إحساس الإنسان بأنّ عنده من الكمال أو القيمة ما ليس عند غيره من الناس، ﴿أَكْفَارًا كَذِبًا﴾.

ب - ظنّ الإنسان الخاطيء بأنه في أمن من الغضب الإلهي والعذاب، ﴿أَمْ لَكُمْ
بَرَآءَةٌ﴾.

ج - اعتماده على أنصاره وأعدائه، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - من يطلع شخصاً يحسب من آله وجماعته، ﴿ءَأَلٌ فِرْعَوْنَ﴾.
- ٢ - كان النظام الاجتماعي السائد في عصر فرعون نظاماً محوره الفرد، ﴿ءَأَلٌ
فِرْعَوْنَ﴾، وأما سائر الأمم فإنّ نظامهم كان نظاماً جماعياً يعتمد على القومية
والجماعة، ﴿قَوْمٍ نُوحٍ... قَوْمٍ لُوطٍ﴾.
- ٣ - يتمّ الله الحجّة على الناس، قبل إدانتهم، ﴿جَاءَهُ... النُّذُرُ﴾.
- ٤ - شمل التكذيب، الصادر عن فرعون وآله، كلاً من الإنذارات الإلهية الموجهة
عبر الأنبياء، والمعجزات التي أتوا بها، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾.
- ٥ - الناس هم الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم، ﴿كَذَّبُوا... فَأَخَذْنَاهُمْ﴾.
- ٦ - عندما يسدّ الإنسان سبل الحقّ في وجهه، فلا بدّ من أن ينزل عليه الغضب
الإلهي، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾.
- ٧ - تقتضي الحكمة التعامل مع المتكبرين بالطريقة التي تناسب مع طبائعهم،
﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾.
- ٨ - القدرات والسلطات كلّها إلى زوال، إلا سلطة الله سبحانه واقتداره، ﴿عَزِيزٌ
مُّقْتَدِرٌ﴾.
- ٩ - الغضب الإلهي مقرون بالقدرة والصلابة، ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾.
- ١٠ - ينزل الغضب الإلهي على الكفار بسبب كفرهم، ولا تمييز بين كافر وكافر
من جهة استحقاقه العذاب ونزول الغضب عليه، ﴿أَكْفَاكُرُ خَيْرٌ...﴾.
- ١١ - عندما يكون الداعية في مقام الاستدلال والتبليغ، عليه أن يستدلّ بطريقة
تسقط حجج الخصم وادّعاءاته كلّها، ﴿أَكْفَاكُرُ خَيْرٌ... أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ... أَمْ يَقُولُونَ
نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾.

١٢ - من الأساليب التي يعتمدها القرآن في الدعوة والإرشاد، المزج بين التاريخ، والتهديد، والاستدلال، وبيان المعتقد، فمن التاريخ قوله تعالى: ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾، ومن التهديد: ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ... سَيِّئُكُمْ لَجْمَعٌ...﴾، والاستدلال في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ... أَمْ... أَمْ...﴾، وبيان المعتقد في قوله تعالى: ﴿السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾.

١٣ - في مقام الجدل مع الكفار المعاندين لا بد من كسر هيبة الخصم، فالكفار كانوا يعتقدون أنّ المعيار الأساس في كلّ شيء هو المادّة والماديات، وكانوا غافلين عن الغيب والأمور الغيبية، ﴿مَنْ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ... سَيِّئُكُمْ لَجْمَعٌ﴾.

١٤ - يجب التعامل مع العدو المغرور بجديّة وحسم، ﴿سَيِّئُكُمْ لَجْمَعٌ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾.
١٥ - الكفر والتكذيب من أسباب التشتت والتفرقة، في أيّ أمة وجداء، ﴿سَيِّئُكُمْ... وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾.

١٦ - على الكفار الذين يغترون بجمعهم وعددهم، أن يلتفتوا إلى أنّه لن يدوم هذا الجمع، ﴿سَيِّئُكُمْ لَجْمَعٌ﴾، وإذا كانوا يحسبون أنّ بعضهم سوف يحمي بعضهم الآخر، فهم واهمون لأنهم ﴿وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾.

١٧ - يجتمع على الكافرين عذاب الاقتلاع من الأرض، مع عذاب الآخرة الذي ينتظرهم: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.

١٨ - إنّ أشدّ مصائب الدنيا وأعظمها، لا يعدل شيئاً من مصائب الآخرة وشدائدها، ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾.

١٩ - هزيمة الكفار في الدنيا مقدّمة لعذاب أشدّ في الآخرة، ﴿سَيِّئُكُمْ لَجْمَعٌ... وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي سَلَاحٍ وَسَعِيرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ «يُسْحَبُونَ» أي يُجْرُونَ على وجوههم، وسمّي السحاب سحاباً؛ لأن الرياح

تجرّه من مكان إلى آخر. و«سقر» اسم من أسماء جهنم، وهو في الأصل حرق الجلد من شدة الحرارة، واللمح ضوء البرق وانطفاؤه.

□ عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، قال: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ لِأَهْلِ النَّارِ بِقَدَرِ أَعْمَالِهِمْ»^(١).

التعاليم:

١ - يتلى المجرمون يوم القيامة بالضللال والتهيه والحيرة، ونار جهنم، ﴿فِي ضَلَالٍ وَشُعْرٍ﴾، بناء على أن المراد من كلمة «سعر» النار.

٢ - ليس عاقلاً من يختار بنفسه لنفسه نار جهنم، ﴿فِي ضَلَالٍ وَشُعْرٍ﴾، بناء على أن المراد من كلمة «سعر» الجنون.

٣ - إنكار دين الله والتكذيب به، من أشنع أنواع الجرائم، ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ...﴾.

٤ - المغرورون في الدنيا، من الأذلاء في الآخرة، ﴿مَنْ جَمِيعٌ مَّنْصُورٌ... يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

٥ - الوجود خاضع للنظام والتقدير الدقيق، ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

٦ - كل مظاهر الوجود من ظهور الأمم، وبعث الأنبياء، والعقاب والشواب، يجري وفق نظام دقيق وقواعد محددة، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

٧ - أعمال الله تتم وفق حكمته سبحانه، وبسرعة فائقة، ﴿بِقَدَرٍ... كَلْتَجِ بِالْبَصْرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلَّ صَغِيرٍ

وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرًّا ﴿٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ الأشياع هم الأتباع والموافقون في الفكر والسلوك. «زُبُر» جمع «زبور» وهو الكتاب، و«مستطر» أي مكتوب ومصنوف.

□ بدأت هذه السورة بالإنذار والتحذير، وختمت به.

التعاليم:

- ١ - سنة الله في عذاب الكفار تجري على الجميع على حد سواء، ﴿أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾.
- ٢ - علينا أن نأخذ التهديد الإلهي على محمل الجد.
- ٣ - على العاقل أن يأخذ العبر من أحداث التاريخ، ﴿فَهَلْ يَنْ مَذَكِيرٍ﴾.
- ٤ - لا يمكن أن يضيع أي عمل من أعمال الإنسان أو يسقط من الحساب، ﴿فِي الرَّزِيءِ﴾.
- ٥ - ضبط الأعمال وإحساؤها مبعث أمل للمتقين، ومصدر قلق وخوف للمجرمين، ومعيق عن الكفر والمعصية، ﴿فِي الرَّزِيءِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾.
- ٦ - الأعمال التي تحصى تدون بطريقة منظمة، ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾.
- ٧ - تتم محاكمة الناس، يوم القيامة، على أساس الوثائق والشواهد الموثقة ضدّهم، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾.
- ٨ - ينعم الله على المتقين، يوم القيامة، بالنعم المادّية، ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾، وبالنعم المعنوية، ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ﴾.
- ٩ - الله سبحانه مقدر، في كل من حالتي غضبه، ﴿فَلَاخَذْنَاهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقَدِّرٍ﴾ ولطفه: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ﴾.
- ١٠ - تعج الجنة وتمتلئ بالصدق والوفاء، ولا محلّ فيها للغلّ والكرامية، ﴿مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

السورة: ٥٥ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٧٨

ملامح سورة الرحمن

سورة الرحمن، عدد آياتها ثمان وسبعون آية. وهي من السور المدنية. وقد سُميت بهذا الاسم بالنظر إلى الكلمة الأولى منها بعد البسملة. وكلمة «الرحمن» اسم من أسماء الله سبحانه، ومن الصفات الخاصة به تعالى. وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «كُلُّ شَيْءٍ عَرُوسٌ، وَعَرُوسُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الرَّحْمَنِ»^(١).

تتكرر آية ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾، في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة، وهي الآية الأكثر تكراراً في القرآن كله. والملفت في هذه السورة أنها تتوجه بالخطاب إلى الإنسان والجنّ على حدّ سواء. وتساثلهم أيّ النعم الإلهية يمكنهم إنكارها وتكذيبها؟

والأمر المشترك بين هذه السورة وسابقتها، هو تكرار الإشارة إلى العذاب والإنذار في السورة السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ وَنُذُرٌ﴾، وفي هذه السورة يتكرر السؤال عن النعم: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ...﴾.

والسورة السابقة تبدأ بالحديث عن يوم القيامة، وتُختم بالإشارة إلى القدرة الإلهية التامة: ﴿أَفَتَرَبَّيْتَ السَّاعَةَ... مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾، وأما هذه السورة فتبدأ بالحديث عن رحمة الله وتُختم بالإشارة إلى جلال الله وإكرامه: ﴿الرَّحْمَنُ... ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾

إشارات:

□ الله سبحانه رحمان، ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

رسول الله مصدر الرحمة ومنشأها، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

القرآن أيضاً رحمة للناس ولا سيما المؤمنين منهم: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

□ «الرحمن» من الأسماء الخاصة بالله سبحانه، وقد ورد في القرآن الكريم ١٦٩ مرة، كما تكررت عبارة «بسم الله» ١١٤.

□ في بعض الموارد من القرآن الكريم، استعملت كلمة «الرحمن» محل اسم «الله»:

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾^(٤).

وكما في قوله تعالى: ﴿أَتُنكِّمُ عَذَابَ اللَّهِ﴾^(٥) وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾^(٦).

وأخيراً في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٧).

□ من المعروف أنّ عنوان الكلام دالّ على مضمونه، وفي هذه السورة لما كان المراد الحديث عن النعم الإلهية، فقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

□ القرآن يجب أن يكون المحور والمعيار، ففي سورة القمر حدّثنا الله عن تيسير

- | | |
|-------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧. | (٥) سورة الأنعام: الآية ٤٧. |
| (٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢. | (٦) سورة مريم: الآية ٤٥. |
| (٣) سورة البقرة: الآية ١١٦. | (٧) سورة الاسراء: الآية ١١٠. |
| (٤) سورة مريم: الآية ٨٨. | |

القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، وفي هذه السورة يحدثنا عنه بأشكال مختلفة، إذ يبدأ بنسبة تعليم القرآن إليه، فيقول: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

□ العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يعلمه الله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ﴾.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يكون تبياناً لكل شيء، ﴿بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي لا يُطلبُ عليه الأجر، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ﴾.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي ينفع في كل وقت وزمان.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يولد التقوى وينير البصيرة.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يضمن سعادة الفرد والمجتمع.

□ تعليم الله القرآن، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، يعني في ما يعنيه:

تعليم الحق، ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾^(٢).

تعليم الحكم، ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣).

تعليم ما لا يمكن تعلمه من الطرق العادية المتعارفة، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾^(٤).

تعليم البرهان، ﴿فَدَّ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾^(٥).

تعليم العمل الصالح، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُصْلِحِينَ﴾^(٦).

تعليم الموعدة والهدى والرحمة، ﴿فَدَّ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

الْصُدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

تعليم الغيب، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾^(٨).

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٧٠.

(٧) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٨) سورة يوسف: الآية ١٠٢.

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٣.

تعليم أحسن القصص، ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١).

تعليم الحقائق والتعريف بها، ﴿بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

تعليم الأفضل والأحسن، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٣).

تعليم الميزان الذي يظهر الفرق بين الحق والباطل، ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(٤).

تعليم الأمور المصونة من التحريف، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٥).

تعليم الموعدة، ﴿فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ﴾^(٦).

تعليم الرشد، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٧).

تعليم الكتاب الذي يتعهد الله بحفظه وحمايته، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٨).

□ مصدر القرآن ومنشأه:

القدرة والعظمة، ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾^(٩).

العزة والحكمة، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١٠).

اللطف والرحمة، ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١١).

الربوبية والرشد، ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٢).

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| (١) سورة يوسف: الآية ٣. | (٧) سورة الجن: الآية ٢. |
| (٢) سورة النحل: الآية ٨٩. | (٨) سورة الحجر: الآية ٩. |
| (٣) سورة الفرقان: الآية ٣٣. | (٩) سورة طه: الآية ٤. |
| (٤) سورة الشورى: الآية ١٧. | (١٠) سورة الزمر: الآية ١. |
| (٥) سورة فصلت: الآية ٤٢. | (١١) سورة فصلت: الآية ٢. |
| (٦) سورة ق: الآية ٤٥. | (١٢) سورة الواقعة: الآية ٨٠. |

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه هو معلّم القرآن الأول، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٢ - الشريعة مبنية على الرحمة، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٣ - على الداعي أن يردّ الشبهات التي توجه إلى الدين والفكر الديني، فمن يتهم النبي بأنه تعلّم القرآن من البشر، ﴿يَلْمُهُ بَشَرًا﴾^(١)، ينبغي أن يقال له: إن الله هو معلّم النبي ﷺ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٤ - تعليم الإنسان القرآن، هو من تجليات الرحمة الإلهية ومظاهرها، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٥ - التعليم من الشؤون والصفات الإلهية، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٦ - ينبغي أن تكون ممارسة مهمة التعليم، مقرونة بالرحمة، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٧ - القرآن كتابٌ يمكن فهمه وتعلّمه، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾

إشارات:

- خَلَقَ الْإِنْسَانَ جدير بالتأمل والانتباه من جهاتٍ عدّة:
- من جهة التكامل، وكيف يبدأ من التراب ويتحوّل إلى مخلوق حيّ عاقلٍ وحساس.
- من جهة تأمين حاجاته المادّية، من الطبيعة التي سخرها الله سبحانه له.
- من جهة الميول الإيجابية والسلبية الموجودة في تركيبته النفسيّة والعاطفيّة:
- سرعان ما يقنط ويُصاب باليأس، ﴿هَلُوعًا﴾^(٢).

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة المعارج: الآية ١٩.

- بخيل، ﴿قَتُورًا﴾^(١).
- قليل التحمل، ﴿جَزُوعًا﴾^(٢).
- في خسر، ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾^(٣).
- يرغب في تجاوز الحدود المرسومة له، ﴿يُلْتَفَى﴾^(٤).
- ميال إلى الظلم، ﴿ظَلُومًا﴾^(٥).
- يتصرف بجهالة، ﴿جَهُولًا﴾^(٦).
- متسرع، ﴿عَجُولًا﴾^(٧).
- لا يشكر النعمة، ﴿كُفُورًا﴾^(٨).
- لا يقدر الأمور حق قدرها، ﴿لَكَنُودٌ﴾^(٩).

وفي القرآن آيات أخرى تصف الإنسان بطريقة مختلفة، وتشير إلى خصائصه الإيجابية، من قبيل:

- تحمله المسؤولية، وحرية، قدرته على الاختيار؛
- قدرته على تغيير أوضاعه السيئة إلى الأحسن بالتوبة؛
- توفقه على الاستعدادات والقدرات الكبيرة على المستوى الباطني؛
- ميله إلى المطلق؛
- استخلاف الله إياه في الأرض؛
- استحقاقه سجود الملائكة له؛
- قدرته على التقليد والافتداء بالقدرات الحسنة؛

-
- | | |
|------------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الإسراء: الآية ١٠٠. | (٦) سورة الأحزاب: الآية ٧٢. |
| (٢) سورة المعارج: الآية ٢٠. | (٧) سورة الإسراء: الآية ١١. |
| (٣) سورة العصر: الآية ٢. | (٨) سورة الإسراء: الآية ٦٧. |
| (٤) سورة العلق: الآية ٦. | (٩) سورة العاديات: الآية ٦. |
| (٥) سورة الأحزاب: الآية ٧٢. | |

- اشتماله على تركيب من الأضداد، كالعقل والفطرة، في مقابل الغريزة والشهوة؛

- توفّره على ملكة التفكير والخلافة والإبداع.

□ لَمَّا كَانَ السِّيَاقُ هُوَ سِيَاقُ الْحَدِيثِ عَنِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ ذَكَرَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِنْسَانِ وَخَلَقَهُ، فَقَالَ: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؛ وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَكُونُ السِّيَاقُ سِيَاقَ الْحَدِيثِ عَنِ الْإِنْسَانِ وَالْعُلُومِ الْآخَرَى غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ قَبْلَ التَّعْلِيمِ، فَيَقُولُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ... الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(١).

التعاليم:

١ - الله سبحانه هو خالق الإنسان وليس الطبيعة غير العاقلة، ﴿الرَّحْمَنُ... خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

٢ - يعدّ خلق الإنسان من تجليات الرحمة الإلهية، ﴿الرَّحْمَنُ... خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

٣ - صاحب كتاب التشريع، هو ذاته صاحب كتاب التكوين، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

٤ - القرآن أكرم من الإنسان وأشرف (الفكر والمعرفة، أهم من الجسد المادي)، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

٥ - القرآن أفضل الكتب السماوية، والإنسان أفضل المخلوقات، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

٦ - يتكامل خلق الإنسان بتعلمه القرآن، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

إشارات:

□ عن عليّ عليه السلام: «لا تجعلنّ ذرب لسانك على من أنطقك، وبلاغة قولك على من سدّدك»^(١).

□ القدرة على البيان، من المواهب الإلهية للإنسان، وقد أقرّ الله مجموعة من الضوابط والقواعد لاستغلال هذه النعمة، ومن ذلك:

- أن يكون القول سديداً، ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٢).

- أن يكون معروفاً، ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾^(٣).

- أن يكون ليّناً، ﴿قَوْلًا لَيِّنًا﴾^(٤).

- أن يكون بليغاً، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٥).

- أن يكون كريماً، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٦).

- أن يكون حسناً، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٧).

- أن يكون الأحسن، ﴿يَقُولُوا أَلْحَنَ مِنْ أَحْسَنَ﴾^(٨).

بل دعا الله إلى اعتماد الطريقة الأحسن، حتى في حالات الجدل والخصام، ﴿وَجَدِّدْ لَهُم بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنَ﴾^(٩).

التعاليم:

١ - العلم هو أحسن الكمالات التي منّ الله بها على الإنسان، ﴿عَلَّمَ... عَلَّمَهُ﴾ (إذ ذكر الله العلم والتعليم قبل ذكر الخلق وبعده).

(١) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ٤١١. (٦) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٩. (٧) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٥. (٨) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(٤) سورة طه: الآية ٤٤. (٩) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٥) سورة النساء: الآية ٦٣.

- ٢ - ليس المهمّ هو اللغة التي يتكلّم بها الإنسان، بل المهمّ هو القدرة على الكلام والبيان، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٣ - اللسان وسيلة للبيان ليس أكثر، وأمّا البيان نفسه، فهو هبة من الله، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٤ - دور الأب والأم لا يتجاوز التدريب ونقل خاصيّة البيان، الممنوحة من الله، من حالة الاستعداد والقوّة إلى حالة الفعل، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٥ - يقع خلق الإنسان بين تعليمين إلهيين، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٦ - القدرة على البيان من تجلّيات الرحمة الإلهية، ﴿الرَّحْمَنُ... عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٧ - على من يجيد التكلّم بلغة واحدة أو أكثر أن يلتفت إلى قدر هذه النعمة الإلهية، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.
- ٨ - العلم الذي يستحقّ أن يمدح هو العلم الذي يمكن بيانه، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ «حسبان» على وزن غفران، مصدر من الحساب. والمراد هو خضوع حركة الشمس والقمر لحسابات دقيقة، ومن ذلك وزنهما، وحجمهما، وحركتهما، ومدار هذه الحركة، والمسافة التي تفصل بينهما، وبين سائر الأجرام السماوية، ومقدار حركتهما سرعة وزمناً، والتأثير المتبادل بينهما، والكسوف والخسوف، ومدتهما.

□ «النجم» هو كل نبات يخرج من الأرض وليس له جذع، وما له جذع يسمّى «شجراً» وتدلّ كلمة نجم كما هو معروف على الجرم السماوي المضيء، ولكن المراد منها هنا المعنى الأوّل، والقريظة على ذلك ذكر النجم مع الشجر.

□ يستفاد من آيات القرآن الكريم، أنّ الكواكب والأجرام السماوية كلّها ومنها الشمس والقمر، تتحرك في مدار محدد لا تحيد عنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١). ولها عمر محدود لا تؤجل بعده: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٢).

□ ينتج الليل والنهار، والشهور والفصول، عن حركة الشمس والقمر، وهي حركة تبدو في ظاهرها بسيطة يمكن إدراكها وحسابها، إلا أنها في الوقت عينه غاية في الدقة. وقد ربط الله الأعمال العبادية بهذه الحركة، فربط بين حركة الشمس والصلاة والصوم؛ يقول سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾^(٣)؛ ويقول أيضاً: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^(٤)، وعن الصوم يقول عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾^(٥). وورد في الحديث عن النبي ﷺ: «صم للرؤية وأفطر للرؤية»^(٦).

□ ربّما يكون المراد من سجود النباتات، الخضوع التكويني لهذه المخلوقات بين يدي الله تعالى؛ إذ إنّه سبحانه وضع لها مسيراً ومساراً محدداً، لا تحيد عنه ولا تميل.

التعاليم:

- ١ - السماوات والأرض، وما فيهنّ من مخلوقات، خاضعة لإرادة الله، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾.
- ٢ - النباتات، وغيرها من الكائنات الحيّة، مرهونة في وجودها واستمرارها للشمس والقمر، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٣، وسورة يس: الآية ٤٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢؛ وسورة فاطر: الآية ١٣؛ وسورة الزمر: الآية ٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٤) سورة طه: الآية ١٣٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٦) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٢٥٧.

٣ - الموجودات كلها خاضعة للنظام الأكمل الذي أقره الله في الوجود،
﴿يَحْسَبَانِ... يَسْجُدَانِ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

□ تحدّث الآيات السابقة عن الرحمة الإلهية وتعليم البيان والحسابات التي يخضع لها القمر والشمس، وفي ذلك شكل من أشكال بيان العلاقة بين الله ومخلوقاته؛ وهذه الآيات تتحدّث عن العلاقة بين الإنسان والمجتمع.

□ القسط في الميزان هو الحدّ العادل بين الزيادة والنقصان.

□ يوجد بين الكتاب والميزان تلازم تشير إليه هذه الآيات، بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾، ويقول سبحانه في سورة الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ﴾.

□ يدلّ التكرار على الأهمية والاهتمام. وقد تكرّرت الإشارة إلى الميزان في هذه الآيات ثلاث مرّات، وهذا يكشف عن ضرورة الالتفات إلى المعايير والموازين في التصرفات كلّها، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ... وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

□ عدم الالتفات إلى الميزان، بما هو معيار لأداء الحقوق والقيام بالواجبات، يؤدي إلى الفسق والفجور، وهذان يؤديان إلى التكذيب. يقول سبحانه وتعالى، في سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ثم يقول بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، ويختم بالقول: ﴿وَيْلٌ يُّؤْمَذُ لِّلْمُكْذِبِينَ﴾، وكأنّ اللقمة الحرام مقدّمة للفجور، والفجور باب يذلف منه الإنسان إلى الكفر والتكذيب ومنه إلى جهنّم.

□ لقد اهتمّ الإسلام بتحقيق العدالة إلى أقصى الحدود التي يمكن تصوّرها،

وخصوصاً في مجال القضاء، بدءاً من شروط القاضي والشهود، إلى آداب القاضي الذي نُهي عن القضاء مثلاً إذا كان يلبس حذاءً ضيقاً؛ خشية أن يدعوه ذلك إلى العجلة في الحكم من دون تأمل.

آداب التجارة:

ورد في الحديث الشريف: «التاجر فاجر والفاجر في النار، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام، في الدينار المغشوش، يقول: «ألقيه في البالوعة حتى لا يباع بشيء فيه غش»^(٢).

وكان عليه السلام، يتردد إلى أسواق الكوفة وينادي بالتجار: «قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيتوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم»^(٣).

التعاليم:

١ - موقع السماوات والأرض لم يكن عشوائياً، فرفع السماء وحجمها والمسافات التي تفصل بين النجوم والكواكب، وغير ذلك من التفاصيل المتعلقة بالنظام الحاكم على الكون، ما هو إلا تجلّ من تجلّيات الرحمة والحكمة الإلهية، ﴿الرَّحْمَنُ... وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

٢ - العدالة كالصلاة، لا بدّ من إقامتها في المجتمع، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾.

٣ - يجب أن يكون الميزان عادلاً مهما كان الموزون، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾.

٤ - نظام الكون قائم على أساس موازين العدل، يجب أن تكون حياتنا قائمة على أساس هذا الميزان، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ... أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

(٣) الكافي، ج ٥، ص ١٥١.

(١) الكافي، ج ٥، آداب التجارة.

(٢) الكافي، ج ٥، ص ١٦٠.

٥ - العدل والتوازن في الكون هما أحد أسباب ثباته وبقائه، والعدل في المجتمع من أسباب استقرار المجتمعات وثباتها، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ... أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

٦ - تحتاج المجتمعات لتصل إلى الفلاح إلى جناحين، أحدهما العلم والآخر العدل. (وفي المجتمعات المعاصرة، مع الأسف، يوجد أحد الجناحين من دون الآخر، فالعلم متوقر بكثرة، وأما العدالة فهي مفقودة)، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

٧ - السبيل للوصول إلى العدالة هو العمل بالقرآن، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

٨ - المطلوب في الأعمال كلها أن تكون بعيدة عن الإفراط، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾، والتفريط، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾.

٩ - مفهوم الإخسار ينطبق على العمل ولا يختص بالبيع وحده، فعمل موظفي الدولة، أو غيرها من المؤسسات، لا يجوز أن يكون أقل من الحد الواجب، والأمر عينه ينطبق على العلماء في مجال الدعوة والتبليغ، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۗ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۗ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۗ وَالرِّيحَانَ ۗ ۝١٦﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ نَكَذِبَانِ ۝١٧﴿

إشارات:

□ «الأنام» المخلوقات وتشمل الإنس والجنّ وسائر الموجودات الأرضية. و«الريحان» هو كلّ نباتٍ حسن الرائحة.

□ «الأكمام» جمع «كمّ» وهو الغلاف الذي يحيط بالورد أو الغصن الجديد قبل ظهوره، وتستخدم هذه الكلمة في كمّ القميص الذي يحيط باليد. وربما كان المراد بالأكمام في الآية خصوص الألياف التي تحيط ببعض النباتات كالألياف

التي تحيط بالتمر قبل ظهوره.

□ «الحبّ» معروف كالقمح والعدس وغيرهما من الحبوب، و«العصف» هو أوراق الشجر وغصونه التي تفصل عنه.

□ «آلاء» جمع «إلى» وهي النعمة.

□ تكرر السؤال يشير إلى أنّ الإنسان والجنّ لا يعترفان بهذه النعم الإلهية كما ينبغي.

□ ورد في الحديث الدعوة إلى قول: «لا بشيء من آلائك ربّ أكذب»، بعد قراءة قوله تعالى: ﴿فِي آيِ آلاءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١).

بحث التكرار:

تجدد الإشارة إلى قضية التكرار بمناسبة ورود هذه الآية التي سوف تتكرّر مرّات عدّة في هذه السورة. والتكرار له أسبابه وموجباته، كما له فوائده وآثاره.

التكرار الإيجابي:

التكرار من الوسائل المهمّة لتأكيد الثقافة الجديدة.

فالنبي ﷺ كرّر مرّات عدّة الحديث عن أهل بيته، ليؤكد على المسلمين الاهتمام بهم، واتباعهم، فقال: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي».

وبعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾^(٢)، ظلّ النبي ﷺ أشهراً ينادي كلّما مرّ عند الصباح ببيت عليّ وفاطمة عليهما السلام، «الصلاة الصلاة»^(٣)، وذلك ليؤكد أهمية الصلاة، ويلفت نظر الناس إلى أنّ أهل هذا البيت هم أهلي.

وفي علل الشرائع: «فإن قال قائل: فلم جعل التكبير في أوّل الأذان أربعاً؟ قيل: لأنّ أوّل الأذان إنما يبدأ بغفلة وليس قبله كلام، ينبّه المستمع له فجعل الأوّلين تنبيهاً للمستمعين لما بعده في الأذان»^(٤).

(١) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٣٠٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٢٠٧.

(٢) سورة طه: الآية ١٣٢.

(٤) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج ١، ص ٢٥٩.

وقد كرّر الإمام عليّ عليه السلام لفظ الجلالة أكثر من مرّة في وصيته لأولاده قبيل وفاته، فقال: «الله الله في الأيتام، الله الله في جيرانكم، الله الله في الصلاة، الله الله في القرآن»^(١).

تكرار الصلاة في الليل والنهار، يراد به اقتراب الإنسان من الله، وذلك أشبه ما يكون بحركة الإنسان الذي يصعد السلم، فقد تبدو حركته تكرارية ولكنها في الواقع تكامل وتطور، يؤدي بالإنسان إلى القرب، كما في وصف حال رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢).

تكرار الدعوة إلى التقوى في خطبتي الجمعة، من هذا الباب أيضاً، وهو يدلّ على أهمية التكرار في التربية والإرشاد.

بل إن بقاء الحياة الإنسانية، مرهونٌ بتكرار التنفّس مرّة بعد أخرى، والأمر عينه يقال عن التكرار في القضايا الأخلاقية، فالإنفاق لمرّة واحدة لا يجعل الإنسان كريماً، بل تکرّر الإنفاق هو الذي يضيف صفة الكرم على المنفق.

دواعي التكرار في القرآن:

للتكرار في القرآن دواعٍ عدّة، منها التكرار من أجل التذكير بالنعمة، كما في قوله تعالى ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾.

وفي بعض الحالات يكون الغرض من التكرار التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَبَّ بَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾^(٣).

وفي بعض الحالات ربّما يكون الغرض من التكرار تأسيس ثقافة جديدة، كما في تكرار البسملة مطلع كلّ سورة.

وأحياناً ربّما يكون الغرض من التكرار إتمام الحجّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾^(٤).

(٣) سورة المرسلات: الآية ١٥.

(٤) سورة القمر: الآية ١٥.

(١) نهج البلاغة، باب الكتب، ٤٠.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٨ - ٩.

ومن الأغراض الداعية إلى التكرار الأنس وتأكيد الفكرة، كما في قوله تعالى ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

ومن دواعي التكرار اختلاف المطالب المراد بيانها، كما في تكرار الخطاب بقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلى غير ذلك من الأسباب التي تختلف باختلاف الآيات والمضامين التي تحملها.

التعاليم:

١ - الوجود له مدبر واحد، وليس كما يعتقد المشركون ياله لكلّ مظهر من مظاهر الطبيعة، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾.

٢ - خُلِقَتِ الْأَرْضُ مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا وَمِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْإِنْسَانُ، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

٣ - يذكر الله سبحانه النعم المعنوية قبل النعم المادية، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... عَلَّمَهُ الْبَيَانَ... فِيهَا فَكِيهَةٌ...﴾.

٤ - للفاكهة دور مهم في غذاء الإنسان، إذ ذُكِرَتْ بَعْدَ الْأَرْضِ مَبَاشَرَةً، وَكَانَتْهَا تَلْوَاهَا فِي الْأَهْمِيَّةِ، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ... فِيهَا فَكِيهَةٌ﴾.

٥ - ربّما يدلّ فصل التمر عن سائر الفاكهة، وتخصيصه بالذكر، على كونه أهمّ من سائر أنواع الفاكهة، ﴿فِيهَا فَكِيهَةٌ وَالنَّخْلُ﴾.

٦ - ليست الفاكهة وحدها، أو الحبّ وحده هما النعمة، بل أكمال الفاكهة وأوراق الشجر كلّها نعمٌ إلهية يجب على الإنسان شكرها، ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ... وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾.

٧ - النباتات العطرية من النعم الإلهية أيضاً، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾.

٨ - يترتّب على التكذيب بآيات الله لوم وعتاب، فضلاً عن العقاب، ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

٩ - الجنّ، كما الإنسان، مسؤول عن النعم الإلهية الموجودة في السماوات والأرض، ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

١٠ - النعم التي منّ الله بها على الإنسان والجنّ، يراد بها تربية هذين الصنفين من المخلوقات ورشدهما، ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ (١٥) ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ (١٦)

إشارات:

□ «الصلصال» الطين المجفف، والفخار هو الجرار الخزفية؛ وأصل المرج الاختلاط، و«مارج» من نار أي لهيب مختلط.

□ يعبر القرآن الكريم عن خلق الإنسان بطرق شتى، نشير إلى بعضها في ما يأتي:

١ - التراب، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكَ مِنْ تُرَابٍ﴾^(١).

٢ - التراب الممزوج بالماء (الطين)، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

٣ - الطين السيّء الرائحة، ﴿مَنْ حَمَلْ مَسْنُونٍ﴾^(٣).

٤ - الطين الجاف، ﴿وَمِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٤).

□ الجنّ مخلوق من مخلوقات الله غير المرئية، ويذكر القرآن بعض المعلومات عنه، ومن ذلك خلقه من نار، في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾. بينما يحدّثنا الله سبحانه عن خلق الإنسان من طين، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

ويخبرنا عن خلق الجنّ قبل خلق الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَالجَانَّ خَلَقْتَهُ

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٨.

(٤) سورة الرحمن: الآية ١٤.

(١) سورة الحج: الآية ٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢.

مِن قَبْلُ ﴿١﴾ وعن انقسامه، كما الإنسان، إلى: مؤمن وكافر، وذكر وأنثى، وعن توالده وتناسله، وعن علمه وشعوره، وقدرته على التمييز بين الحقّ والباطل، وعن قدرته على القيام بما يعجز الإنسان عن فعله، وأخيراً عن موته وبعثه للحساب بعد الموت.

التعاليم:

- ١ - النظر إلى الماضي من العوامل المساعدة على تثبيت الإيمان والتواضع، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ...﴾.
- ٢ - يخلق الله الكائنات الحيّة من مادة باردة لا روح فيها ﴿مَلْصَلٍ﴾، ومن مادة حارة لا روح فيها أيضاً ﴿مَآرِجٍ﴾، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ... وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾.
- ٣ - منشأ الإنسان مادة لا قيمة لها ﴿مَلْصَلٍ﴾ (وربما يكون التنكير مشيراً إلى قلة القيمة).
- ٤ - الجنّ مخلوقٌ وموجودٌ واقعيّ، على الرغم من أننا لا نراه ولا نشعر بوجوده، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّآرِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.
- ٥ - الإنسان والجنّ من المخلوقات الأرضيّة، ومن أصول مادية، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ... وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّآرِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.
- ٦ - التكذيب بالنعمة وإنكارها من الأسباب المؤدّية إلى اللوم والتأنيب، ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنزِّلُ الْغُرَابَ مَنزِلًا ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنزِّلُ الْغُرَابَ مَنزِلًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنزِّلُ الْغُرَابَ مَنزِلًا ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ للشمس مشارق ومغارب متعدّدة تختلف باختلاف أيام السنة، ولكنّ الله سبحانه في الآية ١٧ يتحدّث عن مشرقين ومغربين فقط، وقد يكون المراد الإشارة إلى

أقصى نقطتين للشروق ومثله للغروب مع السكوت عما بينهما. وهذه الحركة ينتج عنها الليل والنهار والفصول. ويرى بعض المفسرين أن المراد من الآية هو مشرقا الشمس والقمر ومغربهما^(١).

□ وعن الإمام علي عليه السلام: «وأما قوله ربّ المشرقين وربّ المغربين، فإنّ مشرق الشتاء على حدّه ومشرق الصيف على حدّه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟»^(٢).

التعاليم:

- ١ - تستوي إحاطة الله ومعرفة بشرق العالم وغربه، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾.
- ٢ - في القرآن إشارة ودعوات للإنسان إلى التعرف على الكون واكتشاف أسراره، ﴿الْمَشْرِقَيْنِ... الْمَغْرِبَيْنِ﴾.
- ٣ - يدعو القرآن الإنسان إلى التعرف إلى آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ... رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ... وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾.
- ٤ - مظاهر الطبيعة نعمة للإنسان والجن، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَيَأْتِيءُ آيَاتُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾.
- ٥ - حركة الأرض تسبب الشروق والغروب، وهذا الأمر من النعم الإلهية على الإنسان، ﴿فَيَأْتِيءُ آيَاتُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٢﴾ فَيَأْتِيءُ آيَاتُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿١٣﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالزَّيْتُونَ ﴿١٤﴾ فَيَأْتِيءُ آيَاتُ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ «مرج» أي أطلق وترك، و«البرزخ» الحاجز بين الشيئين، و«اللؤلؤ» نوع من

الجواهر يتشكّل داخل الصدف في البحار، و«المرجان» حيوان بحريّ يستخدم للزينة، وتطلق الكلمة على اللؤلؤ الصغير الحجم أيضاً.

□ «البحر» مجمع الماء الكثير، وتطلق على كلّ ماء كثير حتى لو لم يكن مالِحاً. والمراد من البحرين في الآية الماء العذب والماء المالح، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾^(١).

□ وردت عبارة: «مرج البحرين» في القرآن مرتين، مرةً في الآية ٥٣ من سورة الفرقان، ومرةً في هذه السورة. في سورة الفرقان يحدثنا الله سبحانه عن الجهاد الأكبر، ﴿فَلَا تَطْلِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، ثم يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ... وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾؛ وأما في هذه السورة فيحدثنا أولاً عن الميزان والحساب والعدل، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ... وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ... وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾، ثم يقول سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وبين الآيات تناسب واضح، فإنّ عدم اختلاط المائين من لوازم العدل ومقتضياته، وعندما يسود العدل والعدالة تخرج الأرض والبحار والسموات خيراتها، ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

□ دين الإسلام هو دين الفطرة، والله سبحانه كتب على نفسه، في مجال الخلق والتكوين، تلبية جميع الحاجات الفطرية للإنسان، ومنها إشباع الحاجة إلى الزينة والتجمل؛ ولذلك خلق له الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة في البرّ والبحر.

□ لم تستخدم كلمة «له» مع سائر النعم التي ذُكرت سابقاً، واستخدمت عند الحديث عن السفن، ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾، وربما كان في ذلك لفت لنظر الإنسان إلى ملك الله سبحانه لكلّ شيء حتى ما يصنعه الإنسان بيديه، وذلك أنّ الإنسان وقدرته وفكره وخبرته، والموادّ الأوّلية التي يستخدمها لصناعة السفن، مملوكة له سبحانه وتعالى.

□ استشهد الإمام علي عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُجُودُ وَالْمَرَجَاتُ﴾، ليدعو أحد أصحابه إلى الاستفادة من نعم الدنيا، فاعترض عليه بقوله: «يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الخشونة، وفي ملبسك على الخشونة؟ فقال: ويحك إن الله ﷻ فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبغ بالفقير فقره»^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ يَنْهَمَا بُرُحًا لَا يَتَذَكَّرَانِ﴾، قال: علي وفاطمة بحران عميقان لا يبغى أحدهما على صاحبه، ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُجُودُ وَالْمَرَجَاتُ﴾ الحسن والحسين عليه السلام.

التعاليم:

- ١ - الكون، بما فيه من سماء وأرض وبحار، مدرسة للتوحيد، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا... وَالْأَرْضَ وَصَّعَهَا... مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ...﴾.
- ٢ - البحر نعمة من الله على الإنسان والجن، سواء أكان يسكن على سواحل البحر أم كان بعيداً عنها، ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ... فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا﴾.
- ٣ - في كل شيء آية لله تدل على وجوده، وتكشف عن قدرته، فماء البحر وماء النهر يتلاقيان ولا يختلط أحدهما بالآخر، ويبقى ماء البحر مالحاً وماء الأنهار والينابيع عذباً، ﴿يَنْهَمَا بُرُحًا لَا يَتَذَكَّرَانِ﴾.
- ٤ - الاستفادة من النعمة تتوقف على الجهد والسعي، ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُجُودُ...﴾.
- ٥ - الماء والتراب مصدر لكل ما تتوقف عليه الحياة الإنسانية، بل مصدر للكماليات أيضاً، ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّحْلُ... وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ... يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُجُودُ وَالْمَرَجَاتُ﴾.
- ٦ - البحر طريق مجاني للمواصلات استفاد منه الإنسان منذ القدم، وفي هذه الآية يلفت الله سبحانه نظر الإنسان إلى هذه النعمة العظيمة، ويذكره بها، ﴿الْمَجَارِ الْمُنْتَفَاتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْنَامِ﴾

٧ - نعمة البحر، وكونه وسيلة للسفر والانتقال بين أطراف الأرض، من النعم العظيمة، التي يستحق منكرها التائب والتوبخ، ﴿فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾، ومن هنا تكرر هذا التائب ثلاث مرّات في هذه الآيات.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ يقول سبحانه في الآية ١٨٥ من سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ويقول في الآية الأخيرة من سورة القصص: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وفي هذه السورة يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

□ عدّدت الآيات السابقة النعم الإلهية على المخلوقات، وفي هذه الآيات يذكّرنا الله بأنّ العمر ينفد والفرصة قصيرة على الإنسان أن يستغلّها، فكلّ الأشياء إلى فناء.

□ على الرغم من أنّ الموجودات المادّية كلّها تسير إلى الفناء، فإنّ الأعمال التي يقصد بها وجه الله تبقى وتقوم.

التعاليم:

١ - الموت قانون عامّ شامل ينطبق على جميع الكائنات الحيّة، بل وغير الحيّة أيضاً، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

٢ - على الإنسان أن يعتمد على الله وحده، فما سواه لا دوام له ولا استقرار، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٣ - قيمة الإنسان بقربه من الله، وعمله لوجهه، وليست بما يملك من ثروة أو جاه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٤ - الموت خطوة في مسيرة تربية الإنسان، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٥ - النبيّ تحت عناية الله ورعايته الخاصّة، ﴿رَبِّكَ﴾.

٦ - موت الكائنات ليس دليلاً على نقص عند الله أو قصور في قدرته، فهو

سبحانه الأجل الأكرم، المنزه عن كل أشكال النقص، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّا فَإِنَّ رَبِّي... ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

٧ - الجلال والمهابة الإلهية مقترنان بالكرم والرحمة، ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

٨ - الموت ليس شراً، بل هو نعمة من النعم الإلهية، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّا فَإِنَّ... فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكَ﴾ (إذ لم يرد في هذه الآيات حديث عن أي نعمة مادية ومع ذلك يقول الله سبحانه: ﴿فَإِنِّي ءَأَلَاءَ...﴾).

٩ - الموت ليس حكراً على الإنسان وحده، فالجن أيضاً تموت؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، والضمير يعود على الإنس والجن، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّا فَإِنَّ... فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكَ﴾.

﴿بَشَلُّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكَ﴾ ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٠﴾

إشارات:

□ الطلب والسؤال، تارة يكونان بلسان الحال وأخرى بلسان المقال، والإنسان سواء طلب بلسانه وأظهر حاجته إلى الله، أم لم يفعل، هو محتاج إليه سبحانه وحاله حال السائل دائماً.

□ المراد من اليوم في الآية هو مطلق الزمان؛ لأن الله سبحانه خارج إطار الزمان والمكان.

□ ورد في الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: «من إحداث بديع لم يكن»^(١).

□ عن الإمام علي عليه السلام، بمناسبة تلاوته قوله ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»^(٢).

(١) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج ٧، ص ٧٠.

(٢) تفسير البرهان.

التعاليم:

- ١ - لا تقتصر حاجة المخلوقات إلى الله على الإنسان والمخلوقات الأرضية، بل الملائكة الذين هم مخلوقات سماوية، بحاجة إليه سبحانه، وفي حالة سؤال دائمة، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢ - أفعال الله وأعماله ليست تقليداً لنموذج سابق، بل إبداع وخلق من العدم، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.
- ٣ - تقتضي الحاجة الدائمة من المخلوقات، لطفاً دائماً ومستمراً من الله تعالى؛ ولذلك هو في حالة فيضٍ دائمة على مخلوقاته كلها، ﴿يَسْأَلُهُ... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.
- ٤ - لا يمكن أن يكون الله قد خلق العالم، ووكله إلى نفسه وتركه لحاله، بل هو يتولى إدارته وتدبيره، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي آءِآءٌ رَّبِّكُمْ نَكِّدَانِ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾، لا يراد به الفراغ بعد الانشغال، فالله لا يشغله شأن عن شأن، بل المراد الاهتمام الكامل.
- عندما تُستعمل كلمة «سنفرغ» في مجال الحديث عن الحساب الإلهي، فهي تدلّ على أنّ العدل في القضاء البشري يتوقف على الفراغ الكامل والاهتمام الكافي من القاضي.
- يرى صاحب مجمع البيان أنّ التعبير عن الإنس والجن بـ «الثقلان»، يدلّ على أنّ هذين النوعين من المخلوقات أرقى من غيرهما؛ لما يتّصفان به من عقل وإرادة واختيار.

الحساب يوم القيامة

- المحاسب هو الله، ﴿...وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾^(١).
- الحساب سريع لا تأخير فيه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾^(٢)، وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرتهم.
- لا يعفى أحد يوم القيامة من السؤال، حتى الأنبياء والمرسلون، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣).
- يكون حساب بعض الناس يسيراً، ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٤).
- ويكون حساب بعضهم عسيراً، ﴿...وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٥) ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾^(٦).
- ورد في الحديث عن أنّ الحساب يكون على قدر العطايا: «إنما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة، على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»^(٧).
- ورد في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام، قوله لرجل شكاه بعض إخوانه: ما لأخيك يشكوك؟ فقال: أيشكوني أن استقصيت حقي؟ قال: فجلس مغضباً ثم قال: كأنك إذا استقصيت حَقَّك لم تسيء؟ رأيت ما حكى الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، أخافوا أن يجور الله عليهم؟ لا والله ما خافوا إلا الاستقصاء، فسَمَّاهُ اللهُ سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء^(٨).
- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يومٍ، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»^(٩).

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.
 (٢) سورة الأنعام: الآية ٦٢.
 (٣) سورة الأعراف: الآية ٦.
 (٤) سورة الإنشاق: الآية ٨.
 (٥) سورة الرعد: الآية ٢١.
 (٦) سورة الطلاق: الآية ٨.
 (٧) أصول الكافي، ج ١، ص ١١.
 (٨) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٦.
 (٩) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٧ (الطبعة القديمة).

التعاليم:

- ١ - المحاسبة من لوازم التربية والإدارة، ومقتضياتهما، ﴿وَجَهُ رَبِّكَ... سَنَفَعُ لَكُمْ...﴾.
- ٢ - يحاسب الإنسان على جميع النعم التي يمنّ الله بها عليه، سواء كانت نعماً مادية أم منعوية، ففي هذه السورة يحدثنا الله عن النعم ويستعرض كثيراً منها، ثم يعقب بقوله جلّ وعلا، ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ﴾.
- ٣ - على جميع المخلوقات أن تستعدّ للحساب والمساءلة، وخصوصاً الإنس والجنّ، ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ﴾.
- ٤ - الله سبحانه كل يوم هو في شأن، فالיום يوم العطاء دون حساب، وغداً يوم الحساب، ﴿...كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ... سَنَفَعُ لَكُمْ﴾.
- ٥ - يسخر الله جميع الأشياء ويستخدمها لمحاسبة الناس. (ربّما يستفاد هذا المعنى من تعبير «نفرغ» بدل «أفرغ»).
- ٦ - على الرغم من أنّ الله لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ كما ورد في القرآن في محلّ آخر، فإنّ تعبير ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾، يدلّ على الاهتمام والعناية الخاصة بالحساب.
- ٧ - الإنس والجنّ كلاهما من المخلوقات العاقلة المسؤولة التي تتعرض للحساب والمساءلة، ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ﴾.
- ٨ - ينبغي أن يترك الإيمان بالحساب أثره على كيفية الاستفادة من النعم الإلهية، ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ﴾.

﴿يَلْمِزُكَ الْبَلِغِينَ وَالْإِنْسَ إِذَا اسْتَلْظَمْتَ أَن تَفْذُرُوا مِنَ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ

إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكَ ۗ قَبَائِلَ آلِ رِبِّكَ لَا تُكَذِّبُونَ ﴿٣٤﴾

إشارات:

- وردت كلمة «معشر» في القرآن ثلاث مرّات، وهي تشترك مع «العشيرة» والعدد «عشرة»، في أصل واحد، وهي تعني الجماعة والفتنة.

□ «السلطان» كلمة تطلق على القدرة القهرية والمادية التي تؤدي إلى التسلط على الآخرين، وتطلق على البرهان والدليل الذي يؤدي إلى إلزام الخصم وإسقاط حجته، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(١) ﴿يَجْتَدِلُونَ فِيَّ ءَأَيْدِيَ اللَّهِ يَبَدِّلُ سُلْطَانِي﴾^(٢).

□ ربّما تدلّ الآية ٣٣ على الخروج من أقطار الأرض وارتياح الفضاء، وقد تكون خاصةً بيوم القيامة، ودالةً على عدم إمكان الفرار من الحساب والعقاب.

□ الأرض في أعماقها والسماء في ارتفاعاتها الشاهقة، يمكن للإنسان والجنّ أن يستخرها ويسيطر عليها. ويدلّ على ذلك استخدام تعبير ﴿إِنْ أَسْتَقْتُمُ﴾، بدل «لو استطعتم»؛ حيث إنّ «لو» تدلّ على الامتناع، بخلاف «إن» التي تستخدم في الممكنات. ومن الإشارات الدالة على ذلك تعبير ﴿إِلَّا يَسُلْطَنُ﴾، فكلمة سلطان تستخدم في القرآن في معنى السلطة العلميّة والفكريّة.

التعاليم:

١ - يخاطب الله الإنس والجنّ يوم القيامة بخطابٍ واحدٍ، ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...﴾.

٢ - الالتفات إلى العجز الإنساني، وإلى القدرة الإلهية، يحجز الإنسان عن الانحراف والتورط في المعاصي، ﴿لَا تَنْفُذُوا...﴾.

٣ - حتّى الكائنات اللطيفة الشفافة كالجنّ، لا تقدر على الفرار من محكمة العدل الإلهية، ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ... لَا تَنْفُذُوا...﴾.

٤ - التخلص من العقاب الإلهي، لا يُتاح لا للجنّ ولا للإنسان، إلا بحجّة ودليل يثبتان البراءة، ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ... لَا تَنْفُذُوا إِلَّا يَسُلْطَنُ﴾.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٥.

(١) سورة غافر: الآية ٢٣.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ آءَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ «الشواظ» الشعلة العظيمة الملتهبة من النار، و«النحاس» هو المعدن المعروف، والمقصود منه هنا النحاس الذائب من شدة الحرارة.

□ يصوّر الله يوم القيامة في هذه الآيات على النحو الآتي:

- يحاسب الله المخلوقات بعناية بالغة، ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾.

- لا يقدر أحدٌ من المخلوقات المعرضة للحساب، على الفرار من المساءلة، ﴿إِنِ اسْتَفْتَمْتُمْ أَن تَفُدُّوا... فَأَفُدُّوهُ﴾.

- يسلط الله كل أنواع العقاب على المخلوقات التي تستحقّ العذاب والعقاب، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ... وَنُحَاسٌ﴾.

- وأخيراً لا مجال للتدخل وطلب العون أو النصرة من أحد، ولو طلب ذلك فلن يجدي الطالب نفعاً، ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾.

□ من لم يستفد من بركة الرسل في الدنيا، ﴿يُرْسَلُ رَسُولًا﴾^(١)، ومن لم يستخدم نعم الله عليه بالشكل المطلوب، ﴿يُرْسَلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ يَدْرَارًا﴾^(٢)، ﴿يُرْسَلُ الرِّيحُ بَشْرًا﴾^(٣)، لا بد من أن ينتظر رسالة من نوع آخر، هي رسالة العذاب والجزاء العادل، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.

التعاليم:

١ - سهام العذاب الإلهي تلاحق المستحقين، فلا يقدر أحدٌ منهم على الفرار، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾.

٢ - كون أصل الجن من النار لا يحميه من العذاب الإلهي بالنار، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٣.

(١) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٢) سورة هود: الآية ٥٢.

٣ - المعرفة المسبقة بالعقاب على الجرائم، من النعم التي تستحق الشكر؛ لأنها تقي الإنسان من التصرفات غير المسؤولة، ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تُكذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

□ في معنى قوله تعالى ﴿لَا يُسْئَلُ﴾، احتمالات عدّة:

١ - لا يسأل أحدٌ من الناس عن ذنب غيره، فكلّ مجرمٍ يحاسب وحده على ما اقترف من جرائم.

٢ - ورد في بعض الروايات أنّ في القيامة خمسين موقفاً^(١)، في أحد هذه المواقف يصدر الأمر بالتوقف والحساب، ﴿وَقِفُوهُمْ لِأَنَّهُمْ قَسْوُلُونَ﴾^(٢)، وفي موقف آخر يختم على أفواههم، فلا ينطق أحدهم إذا سئل، ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾^(٣)، وفي موقف ثالث يطلب كل مجرم من المجرمين العون من الآخر، وفي رابع لا يصدر عنهم غير البكاء وعندما نجد في بعض الآيات حديثاً عن عدم السؤال، فربّما يكون المراد الإشارة إلى بعض هذه المواقف.

٣ - وأحد الاحتمالات في معنى الآية هو أنّ السؤال لا يكون عن الجرم والذنب فقط، وذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(٤)، وبالتالي كأنّ السؤال عن الذنب ليس مهمّاً فالأعمال حاضرة، بل والأسرار مكشوفة واضحة، ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلرَّائِبِ﴾^(٥)، فما يُسأل عنه الإنسان يومئذٍ هو العمر والنعم في ما صرفها وأبلاها.

(٤) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٥) سورة الطارق: الآية ٩.

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٦.

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤.

(٣) سورة يس: الآية ٦٥.

□ سوف تتعرض السماء على الرغم مما تبدو عليه من متانة وقوة، ﴿سَبَمَا شِدَادًا﴾^(١)، إلى الانهدام والذوبان، ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

التعاليم:

١ - يبدأ يوم القيامة بتغير نظام الطبيعة وقوانينها الحاكمة عليها، ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ...﴾.

٢ - ينتهي هذا العالم بالانهيار، ولكن يبدأ بعد ذلك يوم جديد وعالم مختلف، ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ... فَيَوْمَئِذٍ...﴾.

٣ - الجنّ كائن مختار كالإنسان؛ ولذلك يتعرض للحساب والمساءلة، ﴿لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

﴿يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿١١﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاةٌ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ «السيما» من السوم وهو العلامة الظاهرة. و«النواصي» جمع ناصية وهي مقدم شعر الرأس.

□ تبدو الآية وكأنها جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان المجرمون لا يُسألون عن ذنوبهم، فكيف يحاسبون؟ فتقول هذه الآية: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ﴾. والمعرفة بالعلامات الظاهرة صفة مشتركة بين المجرمين والمؤمنين، فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾^(٢).

□ العلامات الظاهرة يوم القيامة متعددة، هي:

- بياض الوجوه، ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾^(٣).

- اسوداد الوجوه، ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾^(٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٠.

(١) سورة النبا: الآية ١٢.

(٢) سورة المطففين: الآية ٢٤.

- النضرة البادية على الوجوه، ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ بِأَصْرَةٍ﴾^(١) ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ بِأَعْمَةٍ﴾^(٢).
- الوجوه البائسة، ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ بِأَسْرَةٍ﴾^(٣).
- الوجوه الضاحكة، ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ بِسَفِيرَةٍ﴾^(٤).
- الوجوه المغبرة، ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ عَلَيَّهَا عِبْرَةً﴾.
- الوجوه الخاشعة الذليلة، ﴿وُجُوهُ يُؤْمِنُ بِخَشِيعَةٍ﴾^(٥).

التعاليم:

- ١ - تظهر أفكار الإنسان وأعماله في وجهه، ﴿يَعْرِفُ الْجُرُومَ بِلِجْنَتِهِمْ﴾.
- ٢ - مآل المجرم إلى منتهى الذل، والخضوع التام للقهر الإلهي، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.
- ٣ - بعض الناس لا يتركون معصية إلا ويفعلونها، ويفرقون من أخامص أقدامهم إلى منابت شعورهم في الإجرام والانحراف، هؤلاء سوف يصيبهم العذاب الإلهي ويؤخذون بنواصيهم وأقدامهم، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.
- ٤ - التمييز بين أهل الخير، وأهل الشر، من النعم الإلهية، ﴿يَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ ذَيْنِ حَمِيمٍ ءَأَنۡ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

إشارات:

- «حميم» الماء الحار، وكلمة «حمّام» مأخوذة من هذا الجذر. و«آن» السائل الشديد الحرارة.

(٤) سورة عبس: الآيتان ٣٨ و٣٩.

(٥) سورة الغاشية: الآية ٢.

(١) سورة القيامة: الآية ٢٢.

(٢) سورة الغاشية: الآية ٨.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٤.

□ التّكذّيب بالجنّة والنّار ويوم القيامة، من الأسباب التي تودي بالإنسان إلى جهنّم. وقد ورد هذا المعنى في سورة المدثر أيضاً، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْلَا نُرُوكُمْ مِنَ الْمَصَلِينَ... وَكُنَّا تُكَذِّبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

□ أهل الجنّة هم محور طواف الخدم والغلمان فيها، فهم يطوفون على أهلها بآنية تليق بالجنّة:

- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾^(١).

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾^(٢).

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾^(٣).

- ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِإِنَائٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِرًا﴾^(٤).

وأما أهل النار فهم فيها أذلاء يطوفون بين النار وبين الماء الحارّ، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتِنٍ﴾.

التعاليم:

١ - سوف يُجازى المجرمون بالشيء الذي كانوا به يكذبون: ﴿هَذَا لَهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢ - الجرم والمعصية من الأسباب الداعية إلى التّكذّيب وإنكار الحقائق: ﴿يُكذِّبُ بِهَا الْمُجرِمُونَ﴾.

٣ - يستبدّ الخوف بأهل النار إلى درجة تدعوهم إلى الانتقال من عذاب إلى عذاب طلباً للفرار والنجاة من العذاب، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتِنٍ﴾.

٤ - العدل الإلهي الذي يقتضي نزول العذاب بمستحقّيه من النعم الإلهية التي تستحقّ الشكر، ﴿فِي أَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

(٣) سورة الصافات: الآية ٤٥.

(٤) سورة الإنسان: الآية ١٥.

(١) سورة الواقعة: الآية ١٧.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُ رِبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُ رِبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُ رِبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهُمُ رِزْقَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِنِّي ءَأَلِّئُ رِبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ «أفنان» جمع فنن، وهو الغصن الغضّ الطريّ، أو جمع «فان» وهو النوع والأنواع.

□ ورد في دعاء الجوشن الكبير، في الفقرة الأربعين، «يا خير المحبوبين»، وعليه فإنّ خوفنا هو من مقامه سبحانه وتعالى، وليس من ذاته، أي من حضوره وعلمه وإحاطته بالأشياء والأفعال.

□ الخوف من مقام الله سبحانه من الروادع عن المعصية والتورط في الجرم، وذلك كما ورد في الآية ٤٠ من سورة النازعات، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

□ الخوف الإيجابي والمطلوب، هو الخوف الناشئ عن المعرفة بمقام الله وشأنه، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾، كما أنّ الدمعة التي يقدرها الله هي الدمعة الناجمة عن المعرفة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿تَفِيضٌ مِنْ أَلْدَمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾^(١).

□ ورد في سورة الإنسان في حقّ أهل البيت عليهم السلام الذين قدّموا طعامهم لثلاثة أيام لمن يحتاجه من المسلمين وغير المسلمين، ورد الحديث عن تبرير فعلهم ذلك بخوفهم من الله، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾^(٢)، وفي هذه الآية يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾، وبالجمع بين الآيتين يظهر أنّ أهل البيت عليهم السلام من أهل الجنة من دون لبسٍ أو شك.

□ ورد في عدد من الروايات أنّ الخوف من الله في الدنيا يعقبه الأمن في الآخرة، وأنّ الأمن في الدنيا يعقبه الخوف في الآخرة.

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١٠.

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»^(١).

□ وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ الخوف من الله، في السرّ والعلن، من أسباب النجاة والأمن^(٢).

□ معاشرّة العلماء الربانيّين تثير في النفس خصلة الخشية من الله تعالى، فقد ورد في الحديث: «من مشى في طلب العلم خطوتين، وجلس عند العالم ساعتين، وسمع من العلم كلمتين، أوجب الله له جنتين، كما قال: ﴿وَلَيَنْتَاقَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾»^(٣).

□ الخوف من الله في الدنيا من أسباب الأمن يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْأَلْبَابُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤).

□ فاكهة الجنة متاحة لأهلها بأيسر سبيل وأقلّ مؤونة، فهي لا تحتاج إلى قطاف، ﴿وَمِنَ الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾، و﴿فَقَطُوهَا دَائِبَةً﴾^(٥)، ولا تنفذ أو تنتهي لقلّة العدد، ﴿فَلِكَلِمَةٍ كَبِيرَةٍ﴾^(٦)، وليس لها موسم خاص لا تتوقّر في غيره، ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(٧).

□ ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، عمّا كان في وصيّة لقمان لابنه: «كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله تعالى خيفة لو جثته ببرّ الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جثته بذنوب الثقلين لرحمك»^(٨).

□ وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله تعالى: لا

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٩٧.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) إرشاد القلوب، ج ١، ص ١٩٥.

(٤) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٢٣.

(٦) سورة الواقعة: الآية ٣٢.

(٧) سورة الواقعة: الآية ٣٣.

(٨) الكافي، ج ٢، ص ٦٧.

يَتَكَلَّ الْعَامِلُونَ لِي عَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِثَوَابِي، وَلَكِنْ بِرَحْمَتِي فَلْيَثِقُوا،
وَبِفَضْلِي فَلْيَرْجُوا، وَإِلَى حَسَنِ الظَّنِّ بِي فَلْيَطْمَئِنُّوا»^(١).

التعاليم:

١ - ليس المعيار في محكمة العدل الإلهي هو الجنس، ولا السن، ولا العرق،
ولا غير ذلك من الأمور، فكلّ هذه الاعتبارات تسقط وتفقد قيمتها، ﴿وَلَمَنْ
خَافَ... جَنَّانٍ﴾.

٢ - الخوف من الله من أهمّ مناشئ قبول الحقّ والخضوع له، والعمل الصالح؛
ولذلك كان شرطاً كافياً لدخول الجنة لم يُضَمَّ إليه شرط آخر، ﴿وَلَمَنْ خَافَ...
جَنَّانٍ﴾.

٣ - الله سبحانه هو منشأ للرحمة، والتفات الإنسان إلى مقامه سبحانه، في نظام
الوجود، يولد الدقة والخشية من الإقدام على ما لا يرضاه سبحانه وتعالى،
﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾.

٤ - التربية تقوم على عمودين هما التهديد والترغيب، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ... جَنَّانٍ﴾.

٥ - نِعَمُ الجنة تجتمع فيها صفات التنوع، ﴿زَوَّجَانٍ﴾، والوفرة، ﴿مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾،
وسهولة تناول، ﴿وَحَيْ أَلْجَنَّةِ دَانَ﴾.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَيْ أَلْجَنَّةِ دَانَ ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رِيكَمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ
قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رِيكَمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ
الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رِيكَمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ «بطائن» جمع بطانة، وهي القماش الناعم الذي يُجعل من الجهة الداخلية
للثوب وشبهه، و«استبرق» الحرير السميك.

- «جنى» قطاف الشجر، و«دان» قريب في تناول اليد.
- «قاصرات الطرف» إما بمعنى اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، أو بمعنى اللواتي يأسرن أزواجهن فلا يفكر الزوج في النظر إلى غيرهن.
- في هذه الآيات يحدثنا الله سبحانه عن النعم ذات الطبيعة المادية في الجنة:
- ١ - السكن في البساتين العامرة بالشجر والعيون، ﴿جَنَّانٍ﴾ ﴿أَفْنَانٍ﴾ ﴿عَيْنَانَ﴾.
 - ٢ - التمتع بأنواع الفواكه والثمار، ﴿مِنْ كُلِّ فَكْهَةٍ زَوْجَانٍ﴾.
 - ٣ - الراحة الكاملة والرفاهية التامة، ﴿مُتَكِينٍ﴾.
 - ٤ - الأزواج المطهرات والجميلات، ﴿قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ﴾.
- نساء الجنة فيهن خصال عدة، فهن عفيفات، ﴿قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ﴾، وأبكار لم يصل إليهن مخلوق قبل أزواجهن، ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ...﴾، ومضافاً إلى ذلك كله يشتملن على جمال ليس فوقه جمال، ﴿كَأَنَّهنَّ أَلْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

التعاليم:

- ١ - خوف اليوم في الدنيا، أمن الغد في الآخرة، ﴿وَلَمَنْ سَافَ... مُتَكِينٍ عَلَن فُرْتِب...﴾.
- ٢ - يبقى الميل والرغبة الجنسية عند أهل الجنة، ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ﴾.
- ٣ - لا يخلو الجن من الغريزة الجنسية، ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ إِسْنُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانَّ﴾.
- ٤ - الميل الموجود عند الإنسان، إلى الطهارة والبكارة، وجمال الزوج، من الخصائص الأصيلة والفطرية عنده، وليس من الأمور التي يتلقاها من البيئة والمحيط الاجتماعي والثقافي، ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ إِسْنُ قَبْلَهُمْ...﴾.
- ٥ - ينعم الله في الجنة على أهلها غير أزواجهن في الدنيا؛ وذلك لوصفهن بعدم مقاربتهم من قبل الإنس والجن، ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ إِسْنُ قَبْلَهُمْ...﴾.
- ٦ - في صفات النساء، العفة هي الصفة الأولى ومن بعدها يأتي الجمال: فالله ذكر العفة أولاً، ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ﴾، ثم تلى بذلك الجمال، ﴿كَأَنَّهنَّ أَلْيَاقُوتُ﴾.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّ آيَةَ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ لكلمة إحسان معنيان: أحدهما العمل الحسن بحدّ ذاته، والآخر العمل الحسن تجاه الآخرين؛ أي الإحسان إليهم. والمراد من هذه الكلمة في المرّة الأولى المعنى الأوّل، والمراد منها في المرّة الثانية المعنى الثاني^(١). ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: آية في كتاب الله مسجّلة. قلت: ما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ...﴾، جرت في الكافر والمؤمن، والبرّ والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء^(٢).

□ تكرر في القرآن ذكر قاعدة المقابلة بالمثل، مرّات:

- ﴿فَأَذْكُرُوا مَا آذَكُرْتُمْ﴾^(٣).
- ﴿وَلِإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا﴾^(٤).
- ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ مَا آَعْتَدْتُمْ عَلَيَّ﴾^(٥).
- ﴿وَلَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيَّ﴾^(٦).
- ﴿وَلِإِنْ عَابَقْتُمْ قَعَابِقُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ﴾^(٧).
- ﴿إِنْ تَصُرُّوا لِلَّهِ يَصُرْكُمْ﴾^(٨).
- ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ﴾^(٩).

□ عن الإمام علي عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قوله: «هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد، إلا الجنة»^(١٠).

(١) تفسير راهنما، عند تفسير الآية.
 (٢) مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٤٨.
 (٣) سورة البقرة: الآية ١٥٢.
 (٤) سورة الإسراء: الآية ٨.
 (٥) سورة البقرة: الآية ١٩٤.
 (٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
 (٧) سورة النحل: الآية ١٢٦.
 (٨) سورة محمد: الآية ٧.
 (٩) سورة الصف: الآية ٥.
 (١٠) أمالي الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ١٨٢.

التعاليم:

- ١ - علينا أن نقابل المحسنين إلينا بالإحسان إليهم، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (وإذا طبقتنا القاعدة نفسها على إحسان الله إلينا، فبأي شيء نقابل إحسانه إلينا ونعمه علينا).
- ٢ - يجب أن تكون القاعدة والأساس هي القيم، وليس العرق، ولا الجنس، ولا القبيلة، أو القومية، أو أي معيار آخر، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.
- ٣ - جزاء الإحسان، يجب أن يكون الإحسان وحده، في كل زمان ومكان، ومع أي شخص كان، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.
- ٤ - أهم الأسباب التي تستند إليها فكرة المعاد والجزاء يوم القيامة، هي العدل ومكافأة المحسنين، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.
- ٥ - ثواب الله وإحسانه إلينا في مقابل إحساننا، نعمة من النعم التي تستحق الشكر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿١٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نُضَاحَتَانِ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «دون»، تستعمل أحياناً بمعنى غير، وأحياناً بمعنى تحت. ومن هنا فقد تردّد معناها في هذه الآية بين المعنيين:

- أ - المعنى الأول، هو وجود جنتين غير الجنتين المشار إليهما.
- ب- المعنى الثاني، أنّ لأولياء الله جنتين خصّهم الله بهما، ولسائر عباده سبحانه جنتين أدنى مقاماً منهما^(١).

□ «مدهاتان» من الدهم، والادهمام هو الاسوداد، والأدهم الأسود، والمراد من الآية هنا وصف الجنة بكثرة الشجرة واشتداد الخضرة حتى تكاد تميل إلى السواد. و«نضاح» من النضح وهو الفوران.

□ ورد في الرواية عن أبي الحسن الأول عليه السلام: «ثلاثة يجلبن البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن»^(١). ويقول الشاعر العربي:

ثلاثة يذهبن عن القلب الحزن الماء والخضراء والوجه الحسن
وقد أشار الله سبحانه في هذه الآية إلى هذه النعم الثلاث: الماء، ﴿عَيْنَانِ
نَضَّاحَتَيْنِ﴾، والخضرة، ﴿مُدَهَّاتَيْنِ﴾، والجمال، ﴿كَأَنَّ الْيَابُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾.

التعاليم:

- ١ - شجر الجنة دائم الخضرة وشديدها، ﴿مُدَهَّاتَيْنِ﴾.
- ٢ - يهتم القرآن باللون الأخضر، ﴿مُدَهَّاتَيْنِ﴾.
- ٣ - أكبر اللذات وأقربها إلى النفس، هي التمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة، ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَيْنِ﴾.
- ٤ - الماء بحد ذاته نعمة، وفورانه نعمة أخرى تضاف إلى أصله، ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَيْنِ﴾.
- ٥ - فوران الماء من العيون، ﴿نَضَّاحَتَيْنِ﴾، وجريان الأنهار، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ووجود شلالات تسكب الماء، «ماء مسكوب»، وتنوع الأنهار في الجنة من العسل والخمر واللبن والماء، كل ذلك نعم تستحق من الإنسان الشكر، وعدم التكذيب، ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (٧٨) فَإِذَا رَأَىٰ آيَاتِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ فِيهَا خَيْرٌ حَسَانٌ ﴿٧٩﴾ فَإِذَا رَأَىٰ آيَاتِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبِيَارِ ﴿٧٩﴾ فَإِذَا رَأَىٰ آيَاتِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٩﴾ فَإِذَا رَأَىٰ آيَاتِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ مُشْكِبِينَ عَلَىٰ رُفُوفٍ خُضِرَ وَعَبَقْرِيُّ حَسَانٌ ﴿٧٩﴾ فَإِذَا رَأَىٰ آيَاتِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ بَدْرًا أَمْ رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

إشارات:

□ «رُفُوفٍ» ضرب من الثياب مشبه بالرياض الخضراء. «عَبَقْرِيُّ» من عبقر قيل هو موضع للجنّ ينسب إليه كلّ نادر من إنسان وحيوان وثوب، وعبقري حسان هو ضرب من الفرس في ما قيل جعله الله تعالى مثلاً لفرش الجنة.

□ الرمان والتمر من الفواكه التي يبدو أنّ قيمة خاصة؛ ولذلك نجد أنّها تُذكر في القرآن إلى جانب كلمة فاكهة العامة.

□ عن النبي ﷺ، في وصف نساء الجنة، «خيرات الأخلاق حسان الوجوه»^(١).

□ يبدو أنّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ﴾ غير ﴿خَيْرَاتٌ حَسَانٌ﴾، فالجملة الأولى ليست وصفاً لحوريات الجنة، وربّما كان المراد من ﴿خَيْرَاتٌ حَسَانٌ﴾ نساء الدنيا، ومن ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ حوريات الجنة، وقد ورد في بعض الروايات، في وصف النساء المؤمنات في الدنيا أنّهنّ في الجنة أجمل من حور العين^(٢).

□ بين الحدائق والبساتين المشار إليها في هذه الآيات فوارق نشير إليها في ما يأتي:

أ - الأقمشة في الطائفة الأولى من هذه الحدائق من حرير ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ سواء في ذلك الظاهر منها والباطن، وأما في الثانية فالظاهر وحده من أقمشة جيّدة وغيرها مسكوت عنه، ﴿رُفُوفٍ﴾.

ب - جنان المتقين ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ﴾، وأما جنان المؤمنين العاديين فـ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾، وقد سكت الله عن زوجة الفاكهة فيها.

(٢) الكافي، ج ٨، ص ١٥٦.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠١.

ج - في الحديث عن النساء أشار الله سبحانه إلى نساء المرتبة الأولى من الجنان بقوله: ﴿قَصِرَتْ اَلْطَّرْفُ﴾، وأما نساء المرتبة الثاني فقد وصفهن سبحانه بقوله: ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي اَلْجَنَاتِ﴾.

د - والأمر المشترك بين صنفى الجنان هو بكاراة النساء، إذ ورد في وصفهن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ اِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآءٌ﴾.

□ وردت عبارة ﴿ذِي اَلْاَلْبَالِ وَالْاِكْرَامِ﴾، مرتين في القرآن الكريم إحداهما في هذه السورة.

□ افتتحت هذه السورة بأحد أسماء الله تعالى، وهو اسم «الرحمن»، واختتمت بكلمة «الإكرام»، وفي هذا إشارة إلى أنّ هذه النعم كلّها منشأها رحمة الله وكرمه وإكرامه للإنسان.

التعاليم:

١ - قد يحتاج الحثّ على بعض الأفعال إلى استخدام بعض الأمور التي يعرفها ويحبها، ﴿فَكَفَّهُمْ وَغَلَّ وَرَمَانٌ﴾ .

٢ - ينبغي خصّ الأشياء المميّزة بالذكر، إلى جانب ذكرها بوصف عامّ مشترك بينها وبين غيرها، ﴿وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾

٣ - نساء الجنّة يجمعن بين حسن السيرة والمضمون، ﴿خَيْرَاتٌ﴾، وبين حسن الوجوه، ﴿جَسَانٌ﴾.

٤ - السائر لها قيمتها وأهميتها حتى في الجنّة، ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي اَلْجَنَاتِ﴾.

٥ - الله سبحانه مصدر الخير والبركة كلّها، والتبرّك باسمه سبحانه مطلوبٌ ومندوبٌ إليه، ﴿تَبَرَّكْ اَنْتُمْ رَبِّكَ﴾.

٦ - النعم كلّها من جمال وثواب، بل ومن عقاب، من تجلّيات ربوبيّة الله سبحانه، ﴿تَبَرَّكْ اَنْتُمْ رَبِّكَ﴾.

٧ - جلال الله سبحانه مقترنٌ بالكرم والإكرام، ﴿ذِي اَلْاَلْبَالِ وَالْاِكْرَامِ﴾.

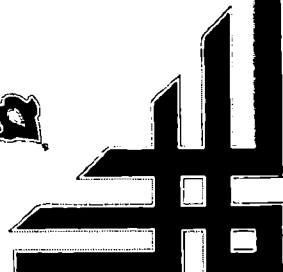
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الْوَاقِعَاتِ

السورة: ٥٦ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٩٦



ملاحح سورة الواقعة

عدد آيات هذه السورة، ست وتسعون آية، وهي من السور المكيّة. لهذه السورة أسماء أخرى، منها «القيامة»، وقد اشتقَّ اسمها الأكثر تداولاً «الواقعة»، من الكلمة الواردة في مطلعها، وهي كلمة تدلّ على حتمية الوقوع. أكثر آيات هذه السورة تتحدّث عن يوم القيامة، وأشراط الساعة، وتقسيم الناس إلى جهنّمين وأهل الجنّة؛ ولأجل ذلك ورد في فضل هذه السورة أنّها تمنع من الغفلة.

وقد ورد في بعض كتب التفسير، أنّ عثمان بن عفّان، دخل على عبد الله بن مسعود، يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له: «ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا تدعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا تأمر بعطائك؟ قال: منعته وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه؟ قال: يكون لبناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه، فقد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة، لم تصبه فاقة أبداً»^(١).



(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٥٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ ﴾

إشارات:

□ الخفض والرفع معنيان متعاكسان، أولهما يدل على التوجيه أو الدفع إلى أسفل، والثاني عكسه. و«الرج» الهز الشديد الذي يكاد يقلع الشيء من مكانه.

□ الـ«بس» هو الفت أي طحن الشيء وجعله ناعماً، و«الهباء» هو التراب الناعم كالذي يرى في الهواء عند سطوع الشمس من نافذة أو كوة، و«المنبث» المنتشر.

□ الأمور المحسومة والمقطوعة التحقق والوقوع، يمكن التعبير عنها بصيغة الفعل الماضي، ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾، وذلك كما رأى أحدنا السيل قادماً نحو قرية أو مدينة، فإنه يمكنه القول، ولو قبل وصول السيل إليها: «جرف السيل المدينة».

□ قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴾؛ أي عندما تبدأ أحداث يوم القيامة بالوقوع لا يبقى مجالاً للإنكار والتكذيب، بل يؤمن كل من يشاهدها بشكل قاطع بوقوعها، وفي القرآن الكريم آيات أخرى تشبه هذه الآية في هذا المعنى، منها:

- ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾^(١).

- ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾^(٢).

- ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾^(٣).

□ عن الإمام السجّاد عليه السلام، قال: من لم يتعرّز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا

(٣) سورة الحج: الآية ٥٥.

(١) سورة غافر: الآية ٨٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٠١.

حسرات، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفتي ميزان فأتيهما رجح ذهب بالآخر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ... خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾، يعني القيامة ليس لوقعتها كاذبة خافضة والله بأعداء الله في النار، رافعةً والله أولياء الله إلى الجنة^(١). بلى، في ذلك اليوم تعرف قيمة الغنى والفقير، والجاه والعزّ والذل: ف«الغنى والفقير بعد العرض على الله»^(٢).

حال الأرض والجبال على أعتاب يوم القيامة:

الأرض الآن في الدنيا مستقرّة كالمهد على حد وصف الله سبحانه إياها^(٣)، وهي معدّة لمعيشة الإنسان وحياته، ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾^(٤)، وأما بين يدي يوم القيامة فإنها تهتزّ كما لم تهتزّ من قبل، كما يصفها الله بقوله ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) والجبال التي هي الآن ساكنة نسبياً ولو بالقياس إلى الأرض نفسها، تتحرك يوم القيامة من مكانها وتسير بإرادة الله، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾^(٦)، بل تُدَكُّ، ﴿فَذُكِّتَا دَكًّا وَجِدَةً﴾^(٧)، إلى أن تتلاشى وتفتت وتباعد أجزاءها كما تباعد أجزاء القطن المضروب، ﴿كَأَلْمُهْنِ الْمَنْشُورِ﴾^(٨). بل أكثر من ذلك تتحوّل إلى غبار، يعود بها إلى حالة الخلق الأولى، ﴿وَيَهَى دُخَانٌ﴾^(٩).

التعاليم:

١ - لا شك في وقوع يوم القيامة، والزلازل العظيمة التي تحدث قبيله، ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، يستعمل الفعل الماضي مع إذا، للإشارة إلى أمور لم تقع ولكنها محققة الوقوع.

٢ - القيامة هي الحادثة الوحيدة التي لا نظير لها ولا مثل، ﴿الْوَاقِعَةُ﴾.

- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| (١) نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠٤. | (٦) سورة النبأ: الآية ٢٠. |
| (٢) غرر الحكم ودرر الكلم. | (٧) سورة الحاقة: الآية ١٤. |
| (٣) انظر: سورة النبأ: الآية ٦. | (٨) سورة القارعة: الآية ٥. |
| (٤) سورة الملك: الآية ١٥. | (٩) سورة فصلت: الآية ١١. |
| (٥) سورة الحج: الآية ١. | |

- ٣ - في الدعوة إلى الله والتبليغ، من المناسب الإشارة أحياناً إلى بعض الأمور من دون تمهيد أو مقدمات، ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، ولذلك أمثلة أخرى في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿الْحَاقَّةُ﴾^(١)، وقوله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(٢).
- ٤ - إنكار يوم القيامة ممكن ومتاح في الدنيا، نتيجة الغرق في الرفاه والرخاء، وأما قبيل وقوعه أو عند وقوعه، فلا مجال للتكذيب والإنكار، ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾.
- ٥ - على الإنسان أن يغتنم الفرصة ويؤمن بيوم القيامة، في الدنيا، وأما مع اقتراب ذلك اليوم، فلا يبقى مجال إلا للخجل والندم، ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾.
- ٦ - يوم القيامة هو يوم تجلّي الحقائق على حقيقتها (بظهور القيم والاعتبارات على حقيقتها فيرفع الوضع ويوضع الوجه الرفيع)، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾.
- ٧ - زلازل يوم القيامة، في غاية الشدة والعنف، ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾.
- ٨ - على أعتاب يوم القيامة، كل ما يحصل مقطوع الحصول لا يشوبه شك، ﴿إِذَا وَقَعَتْ... إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ... وَدَسَّتِ الْجِبَالُ﴾.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٩﴾ وَالسَّادِقُونَ وَالسَّادِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّارِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ «الميمنة» من اليمن بمعنى البركة والسعادة، و«المشامة» من الشؤم وهو الشقاء، ويرى بعض المفسرين أنّ المراد من هاتين الكلمتين: هو الجهتان اليمين واليسار؛ وقد صنّف البشر يوم القيامة، على أساس الجهة التي يؤتى أحدهم كتابه بها، فأهل الجنة يؤتون كتابهم بيمينهم بخلاف أهل النار. وقيل إن الشام واليمن سمّيتا بهذين الاسمين بالنظر إلى موقعهما من الكعبة.

(٢) سورة التكويد: الآية ١.

(١) سورة الحاقّة: الآية ١.

□ «ثلة» أي الجماعة من الناس وربما كان المراد الجماعة الكثيرة منهم؛ وذلك لورود قوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ بعدها. «سرر» جمع سرير وهو المكان المرتفع للنوم أو الجلوس، وربما كانت التسمية من باب أنه يجلب السرور. «موضونة» مصفوفة. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «يعني أوساط السرر من قضبان الدر والياقوت مضروب عليها الحجال»^(١).

□ الملائكة فريق واحد هم جميعاً مؤمنون، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢)، وأما الجن فإنهم صنفان مؤمن وكافر، ﴿وَأَنَّا إِنَّا الْغَالِبُونَ وَإِنَّا الْفَائِزُونَ﴾^(٣)، وأما الناس والبشر فإنهم ثلاثة أصناف، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، وفي سورة فاطر يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾^(٤).

□ يذكر الله سبحانه في القرآن أمثلة ونماذج للمسارعين والمسابقين، منها:

- السبق إلى الإيمان، ﴿سَبِقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(٥).

- السبق إلى الإنفاق والجهاد، ﴿لَا يَسْتَوِي سِنكُم مِّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِكُمْ﴾^(٦)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾^(٧).

- السبق في عمل الخير، ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(٨).

- السبق إلى النعم الإلهية الموعودة، وربما كان هو المراد من قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام أن أبرز مصاديق السابقين هم الأنبياء^(٩). وورد عن الإمام علي عليه السلام، أن السبق المذكور في الآية هو السبق إلى الصلاة^(١٠).

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢١٨. | (٦) سورة الحديد: الآية ١٠. |
| (٢) سورة التحريم: الآية ٦. | (٧) سورة المطففين: الآية ٢٦. |
| (٣) سورة الجن: الآية ١٤. | (٨) سورة البقرة: الآية ١٤٨. |
| (٤) سورة فاطر: الآية ٣٢. | (٩) بصائر الدرجات، ص ٤٦٨. |
| (٥) سورة الحشر: الآية ١٠. | (١٠) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠٩. |

□ القرب في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ﴾، هو قرب المنزلة والدرجة وليس قرب المكان. والقرب من الله لا يكون بالادعاء والتمني، بل يكون بالعمل وأتباع المنهج، فاليهود كانوا يدعون أنهم ﴿أَبْنَوْا لِلَّهِ وَأَجَبْتُمْ^(١)﴾، وأما القرآن فهو صريح في أنّ أهل القرب هم أهل العمل والمسارة إلى الخير، ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ﴾.

□ في تقسيم الناس إلى ثلاث فئات، ذكر الله سبحانه السابقين أخيراً؛ وربّما كان ذلك لقلّة عددهم، وأما عندما كان السياق سياق ثناء وتبجيل، فقد ذكرهم أولاً، ثمّ ذكر أصحاب اليمين وألحقهم بغيرهم، وربّما كان ذلك من باب الاحترام والتقدير.

التعاليم:

- ١ - الحشر والحضور بين يدي الله يوم القيامة، أمر محتوم إلى درجة تسمح بالتعبير عنه بصيغة الماضي، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾.
- ٢ - من الأساليب المناسبة للدعوة والتبليغ، ذكر إجمال الفكرة ثمّ الشروع في تفصيلها، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً... فَأَصْحَابُ... وَأَصْحَابُ... وَالسَّيِّئُونَ﴾.
- ٣ - السعادة والشقاء يوم القيامة دئمان، ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ... وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ﴾ أو على الأقل طويلا الأمد؛ إذ إنّ الصاحب هو الرفيق الملازم.
- ٤ - السبق إلى الإيمان وعمل الخيرات من الأعمال القيّمة، ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾.
- ٥ - الذين يسارعون إلى فعل الخير في الدنيا، يُقدّمون على غيرهم في الثواب يوم القيامة، ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ﴾.
- ٦ - السابقون إلى الخير في الدنيا، ينبغي أن يكونوا في المقربين في المجتمع، ﴿أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ﴾.
- ٧ - الجنّة هي محلّ لرفاه المؤمنين وراحتهم، ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

٨ - المقام المعنويّ مقدّم وأكثر أهميّة من النعم والرفاه، فقد تحدّثت الآيات عن القرب أولاً، ﴿أَوْلَيْكَ الْمَقَرُّونَ﴾، ثمّ بدأت بالحديث عن الجنّة ونعيمها، ﴿فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

٩ - ينبغي أن نحفظ ذكر المتقدّمين والسابقين المؤسّسين للسنن الصالحة، ولا ننساهم، ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٠ - يذكر الله سبحانه بعض خصوصيات الجنّة وصفاتها لتشويق الناس إليها، ﴿سُرُرٌ مَّوْضُونَةٌ﴾، وكالإشارة إلى كيفية الجلوس، ﴿مُنَقَّبَاتٍ﴾.

١١ - يجلس أهل الجنّة وجهاً إلى وجه فيرى أحدهم الآخر، ﴿مُنَقَّبَاتٍ﴾.

١٢ - من آداب الضيافة كون مكان الضيف ومحلّ استضافته مريحاً، ﴿عَلَى سُرُرٍ... مَثْكَبِينَ عَلَيْهَا﴾.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَعُونَ عَلَيْهَا وَلَا يَزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهَمٌ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَّ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ طَلَبْنَا مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ «أكواب» جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له، وهو يشبه ما يستخدم في هذا العصر لشرب الماء. و«أباريق» جمع إبريق وهو الإناء الذي له عروة. و«الكأس» هو الكوب الممتلئ، و«المعين» هو السائل الصالح للشرب. «يصدعون» من الصداع وهو وجع الرأس. «ينزفون» من نزف وهو سيلان الماء حتى يجفّ مصدره، ومنه نزف الدم، والمراد منها هنا هو فقدان العقل.

□ من أجمل أشكال التعبير عن النساء في الجنّة التعبير عنهنّ بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾، وهو يتضمّن الإشارة إلى الجمال والصون من أعين الدخلاء.

التعاليم:

- ١ - الخدم الموكلون بالضيافة في الجنة لهم خصائص، منها:
 - أ - دوام الطواف على نزلاء الجنة، ﴿يَطُوفُ﴾.
 - ب - الشباب وكونهم في مقتبل العمر، ﴿وَلَدَانٌ﴾.
 - ج - دوامهم وخلودهم، ﴿عُخْلَدُونَ﴾.
 - د - حملهم لكل ما تتوقف عليه الضيافة والاهتمام بالضيف، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ﴾.
 - هـ - يبدؤون بالمائعات والسوائل، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.
 - و - ما يقدمونه لضيوفهم ليس فيه ما يزعج، ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾.
 - ز - ما يقدمونه متنوع ومختلف الألوان، يسمح للضيف بأن يختار منه ما يشتهي، ﴿وَفَنَكِهِتٍ مِّمَّا يَتَخَوَّذُونَ﴾.
 - ح - السائل يقدم أولاً، ثم يتبعه الفاكهة، وبعدهما يأتي دور اللحم وغيره من أنواع الطعام، ﴿مَّعِينٍ، وَفَنَكِهِتٍ، وَتَلَيَّرَ طَيْرٍ﴾.
- ٢ - اللحم الأبيض (لحم الطير) مقدم على اللحم الأحمر (لحم البقر والغنم) إلى غير ذلك، ﴿وَتَلَيَّرَ طَيْرٍ﴾.
- ٣ - في أي نوع من أنواع الطعام، الرغبة إلى الطعام والميل إليه هو الأساس، ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.
- ٤ - نساء الجنة يجتمعن بين الجمال والصون والبعد عن أعين الدخلاء، ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمَكْنُونِ﴾.
- ٥ - كل أسباب الرفاه والتنعم متوفرة في الجنة، ﴿فَنَكِهِتٍ... وَتَلَيَّرَ طَيْرٍ... وَحُورٌ عِينٌ﴾.
- ٦ - لذات الجنة دائمة خالدة، ﴿يَتَخَوَّذُونَ... يَشْتَهُونَ﴾. (ويستفاد هذا المعنى من استعمال الفعل المضارع).

٧ - في الدعوة إلى عمل الخير، من المناسب الإشارة إلى آثار الأعمال ونتائجها، ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا فَيَلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ (٦٦)

إشارات:

□ «اللغو» هو الكلام الذي لا فائدة منه ولا طائل من ورائه. و«التأثيم» بمعنى النسبة إلى الإثم.

□ وصِفَ العقل في الروايات، بأنه: «ما عِدَّ به الرحمن واكْتُسِبَ به الجنان». وذلك أَنَّ الإنسان لو فَكَّرَ قليلاً وتأمَّلَ في أَنَّ طاعة أيام معدودة في الدنيا، تفضي بالإنسان إلى نعيم خالد ودائم، لا بدَّ من أن يدعو عقله إلى اغتنام الفرصة والاستفادة منها، وبالتالي من يترك الآخرة ونعيمها لأجل لذة عاجلة لا شكَّ في ضعف عقله. ولا شكَّ في أَنَّ ذلك هو الخسران المبين، على حد قوله تعالى: ﴿قَدْ إِنَّ لَ الْخٰتِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (١).

□ يتلقَى أهل الجنة السلام من جهات عدّة:

أ - من أصحاب اليمين (وهم رفقاء الجنة)، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَحْصَبِ الْيَمِينِ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْصَبِ الْيَمِينِ﴾ (٢).

ب - من أهل الأعراف، ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَتَادُوا أَحْصَبَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٣).

ج - من الملائكة، ﴿...وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٤).

د - من الله سبحانه وتعالى، ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥).

(٤) سورة الرعد: الآيتان ٢٣ و٢٤.

(٥) سورة يس: الآية ٥٨.

(١) سورة الزمر: الآية ١٥.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٩٠ و٩١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٤٦.

□ قوله تعالى ﴿إِلَّا قِيْلًا سَلْنَا سَلْنَا﴾، إمّا يراد به الكلام الخالي من اللغو والعبث، وإمّا الكلام المحفوف بالسلام والأمن والبعد عن الحرب والقتال.

التعاليم:

- ١ - ليس في الجنة ما يزعم أو يكدر الخاطر، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾.
- ٢ - لذات الدنيا مقرونة في كثير من الأحيان باللغو أو المعصية، وأما في القيامة فهي غير ذلك، ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾.
- ٣ - الجنة هي دار السلام والسلامة، ﴿إِلَّا قِيْلًا سَلْنَا سَلْنَا﴾ (ويمكن القول إن كل مجتمع يسود فيه السلام والبعد عن اللغو والإثم، هو جنة أرضية).

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَلَكَهَمٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَمَلْنَهُمْ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- «السدر» نوع من الشجر وارف الظلّ. «مخضود» أي مكسور الشوك. و«منضود» متراكم ومصفوف. و«مسكوب» مصبوب جارٍ كما يجري الماء من الشلال. و«أتراب» جمع تَرَب وهو المساوي في السنّ، ومنه «تراثب» وهي عظام الصدر المتقاربة في المكان والحجم.
- «الطلح» جمع طلحة وقيل هو شجر الموز، كما في الرواية عن ابن عباس^(١). ويفسرها بعضهم بشجرة أم غيلان وتسمى السمرة، وهي من الأشجار المعروفة عند العرب.

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٠٩.

□ كلمة «فرش» جمع فراش، ويستخدم وصفاً للأرض والمركب والفراش الذي ينام عليه الإنسان، و«مرفوعة» بمعنى غالية الثمن نفيسة، وقد ورد في الرواية عن النبي ﷺ في وصف فراش الجنة أنها من الحرير الملون مصفوفة بعضها فوق بعض^(١). على الرغم من هذا كله فإنَّ المراد من الفرش في هذه الآية هو نساء أهل الجنة، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾.

□ «أصحاب الميمنة» هم «أصحاب اليمين» الذين أشار إليهم الله تعالى في الآية الثامنة، وقيل سُموا بهذا الاسم لأنهم يعطون كتاب أعمالهم بأيمانهم، أو لأنهم من أهل اليمن والسعادة.

□ ورد في الرواية عن أم سلمة أن النساء المستات في الدنيا إذا كنَّ من المؤمنات يعيدهنَّ الله فتيات، غاية في الجمال^(٢).

□ في ختام الآيات التي تتحدث عن ثواب المقرَّبين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وأما في هذه الآيات فلم يُذكر مثل هذا التعقيب، وكان في ذلك إيحاء بأنَّ جزاء هؤلاء تفضُّلٌ من الله سبحانه عليهم.

□ نعم الدنيا مقرونة بالآفات والشوائب، وأما نعم الجنة فلا نقص فيها ولا كدر يشوبها، مثلاً:

- شجرها لا شوك فيه، ﴿مَخْضُورٍ﴾.

- ظلّ أشجارها دائم وراف، ﴿وَزَلَّلِ مَمْدُودٍ﴾.

- ثمار الدنيا وفاكهتها لها مواسم تقطع في بعضها وتوجد في بعضها الآخر، وأما فاكهة الجنة فهي دائمة غب الطلب، ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

- تتفاوت النساء في الدنيا في السنِّ والأوصاف، وأما نساء الجنة فإنهنَّ أتراب متساويات في السنِّ. والمرأة في الدنيا قد تملَّ من زوجها ولا تعود تحبه، وأما نساء الجنة فإنهنَّ غاية في الحبِّ لأزواجهنَّ، ﴿عُرْيَا أَرْبَابًا﴾،

والمرأة في الدنيا قد تكون بكرأ وقد تكون ثيبأ أما نساء الجنة فإنهن أ بكر.

□ عدد الأنبياء كثير وبالتالي عدد أوصيائهم لا بد من أن يكون كثيراً، وأما أوصياء النبي ﷺ فهم قلة بالقياس إلى أوصياء الأنبياء السابقين؛ ولذلك يحدثنا الله عن ثلثة من الأولين وعن قليل من الآخرين عندما يحدثنا عن المقرين.

التعاليم:

- ١ - لأصحاب اليمين يوم القيامة مكانة عالية تثير الإعجاب والتساؤل، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾.
- ٢ - لقد اكتشف العلماء فوائد وأثار لشجر السدر، ولكن ذكره بين شجر الجنة يدعو إلى مزيد من الدراسات حوله لاكتشاف آثاره على البيئة والصحة، ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾.
- ٣ - الماء الجاري أفضل من الماء الراكد، ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.
- ٤ - الجنة ونعمها تكون مخلوقة ومعدة من قبل، ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾.
- ٥ - النساء في الجنة بواكر دائماً وإلا لما كان من فرق بينهن وبين نساء الدنيا، ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾.
- ٦ - لا يخلو الزمان والأرض من جماعة من الصالحين، ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾.
- ٧ - سبل التقرب إلى الله متفوحة في وجوه الناس في كل العصور والأزمان، ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا
كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْسَتِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ
أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيُّنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

□ «سموم» الريح الحارّة التي تؤثر تأثير السمّ. و«المسام» هي الثقوب الصغيرة في الجلد التي يصعب رؤيتها أو قد لا تُرى بالعين المجردة. وال«حميم» هو الماء الحارّ، و«اليحموم» الدخان الغليظ الأسود. وال«مترف» من الترف، وهو التوسّع في النعمة، ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى الغفلة والطغيان. «الحنث» هو المعصية الكبيرة، ويستخدم كثيراً في مجال نقض اليمين والعهد. «يصرون» الإصرار أي العزم على تكرار الفعل، وقد وردت هذه الكلمة أربع مرّات في القرآن.

□ ينال «أصحاب الشمال» يوم القيامة أشكالا من العذاب وألواناً عدّة: الرياح الحارّة، والماء الحارّ، والدخان الأسود الغليظ الحارق إلى غير ذلك، ﴿فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ﴾.

□ من فنون التعبير التي يتميّز بها القرآن وصفه للوقائع الآتية بصيغة الماضي، ما يجعل جهنّم وكأنّها حاضرة بين يدي المجرمين، وكأنّهم يقفون في محكمة العدل الإلهي.

المقارنة بين أهل الجنّة وأهل النار:

□ من المفيد بمناسبة هذه الآيات التي تتحدّث عن أصحاب الجنّة وأصحاب النار، أن نعقد مقارنةً بين الفتين، على ضوء هذه الآيات وغيرها:

أهل الجنة	أهل النار
ظل وارف ودائم، ﴿وِظَلِّ تَمْذُورٌ﴾	ظلّ من الدخان والحرارة، ﴿وِظَلِّ تَيْنَ يَمْشُورٌ﴾
فاكهة دائمة، ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾	﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾
﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ^(١)	ماؤهم كالحديد الذائب في الحرارة، ﴿يَمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾ ^(٢)
﴿أَنْهَرٌ تَيْنَ مَآءٍ﴾ ^(٣)	يتمنون الماء ويبحثون عنه، ﴿أَفِيشُوا عَلَيْنَا مِنِ الْمَآءِ﴾ ^(٤)
﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ لَّبَنٍ﴾ ^(٥)	ماء حارّ ومسموم، ﴿حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ ^(٦)
﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ حَمْرٍ﴾ ^(٧)	﴿مِنَ غَيْلِينَ﴾ ^(٨)
﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصًّى﴾ ^(٩)	﴿مَآءٍ سَكِيدٍ﴾ ^(١٠)
فيها جنتان، ﴿جَنَّاتٍ﴾ ^(١١)	ضيق المكان على أهله، ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ^(١٢)
سلام وسلامة، ﴿إِلَّا قِيَلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ^(١٣)	التسلاعن بين نزلا النار، ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا﴾ ^(١٤)
الدخول إليها باحترام، ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾ ^(١٥)	الدخول إليها بباهانة، ﴿خُدُّوا نَفْسَهُمْ﴾ ^(١٦)
التوفّر على الرحمة الإلهية، ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِّنْ رَبِّ رَبِّهِمْ﴾ ^(١٧)	الإهانة والإذلال، ﴿قَالَ أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ ^(١٨)
تسخير الخدم لأهل الجنة، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ^(١٩)	الطواف بين النار والماء الحارّ، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتُونُ﴾ ^(٢٠)

- (١) سورة الإنسان: الآية ٢١.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.
(٣) سورة محمد: الآية ١٥.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٠.
(٥) سورة محمد: الآية ١٥.
(٦) سورة ص: الآية ٥٧.
(٧) سورة محمد: الآية ١٥.
(٨) سورة الحاقّة: الآية ٣٦.
(٩) سورة محمد: الآية ١٥.
(١٠) سورة إبراهيم: ١٦.
(١١) سورة الرحمن: الآية ٤٦.
(١٢) سورة الفرقان: الآية ١٣.
(١٣) سورة الواقعة: الآية ٢٦.
(١٤) سورة الأعراف: الآية ٣٨.
(١٥) سورة الزمر: الآية ٧٣.
(١٦) سورة الحاقّة: الآية ٣٠.
(١٧) سورة يس: الآية ٥٨.
(١٨) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.
(١٩) سورة الواقعة: الآية ١٧.
(٢٠) سورة الرحمن: الآية ٤٤.

التعاليم:

- ١ - بين الناس يوم القيامة جماعة من أهل الشقاء يؤتون كتاب أعمالهم بشمالهم، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.
- ٢ - في أحوال أهل النار من الشدة ما يدعو إلى العجب، ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.
- ٣ - شدة عذاب يوم القيامة. («سموم»، و«حميم»، وردت هاتان الكلمتان بصيغة النكرة، للدلالة على العظمة والشدة).
- ٤ - يبتلي المترفون والمستهترون في الدنيا، بأشد أنواع العذاب والذل في الآخرة، ﴿وَوَيْلٌ مِّنْ يَّحْمُورٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾.
- ٥ - الإصرار على الجرم يؤدى إلى كبر الجرم وعظمته، ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّيْنِ الطَّيِّبِ﴾.
- ٦ - الله سبحانه عادلٌ، يوازن بين الجزاء والعمل؛ فإذا كان يجازي الله العاصين بثلاثة أنواع من العذاب، هي: السموم، والحميم، والظل من يحموم، فإن ذلك يتناسب مع أنواع المعصية التي تصدر عنهم في الدنيا، وهي، الترف، والإصرار على الحنث، وإنكار المعاد، ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّيْنِ... وَكَانُوا يَقُولُونَ...﴾.
- ٧ - الترف والتعلق بمظاهر الدنيا، من الصفات المساعدة على ارتكاب المعاصي وإنكار المعاد، ﴿مُتْرَفِينَ... يُصِرُّونَ... أَيَّدًا مِنَّا...﴾.
- ٨ - لا يملك منكرو المعاد دليلاً على إنكارهم واستبعادهم العودة إلى الحياة بعد الموت، ﴿أَيَّدًا مِنَّا﴾.
- ٩ - ترويح العقائد الباطلة، أخطر من الاعتقاد بها، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدًا مِنَّا وَكُنَّا شُرَكَاءَ﴾.
- ١٠ - يحاول المشككون ترويح الشبهة من خلال توسعة دائرة استبعادهم، ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا بَدَأْنَا الْآدَمُودَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من تقديم الجواب عن الشبهة، حتى لو كانت ناتجة عن العناد فحسب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾.
- ٢ - قدرة الله على حشر الأولين والآخرين على حدّ سواء، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْبُوعُونَ﴾.
- ٣ - يجمع الله الناس في يوم واحد ليحاسبهم على أعمالهم، ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.
- ٤ - يوم القيامة معلوم عند الله، على الرغم من أنه سبحانه لم يكشفه لنا، ولا نعلم موعده، ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ مِنهَا الضُّالُّونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا مِنَّا عَلَيْهِ مِن لَّمِيمٍ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ أَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَتْ يَوْمَ الْلَيْلِ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

□ «زقوم» اسم لنبات مرّ الطعم قبيح الرائحة، ويقال إن له سائلاً يؤدي إلى تورّم الجسد إن هو أصابه، وهو طعام أهل النار. و«النزل» ما يعدّ للنازل من الزاد تمهيداً لاستضافته. «الهييم» من الهيام وهو داء يصيب الإبل من العطش فلا ترتوي مهما شربت، وتستخدم هذه المادة في وصف الأرض الرملية التي تبتلع الماء الذي ينزل عليها.

□ الطعام المرّ إمّا لا يأكله الإنسان في الدنيا، وإما يأكل القليل منه لو اضطرّ إلى تناوله، وبعد تناوله يبحث عن بديل أطيب منه طعماً ليذهب بطعمه المرّ، وأما في الآخرة فإنّه لا يكتفي بأكله، ﴿لَأَكُونُ﴾، بل يأكله بشغف، ﴿فَالَّذِينَ مِنهَا الضُّالُّونَ﴾، وإذا بحث عن بديل له فلا يجد إلا ما هو أسوأ منه، ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِن لَّمِيمٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - يخاطب أهل النار بأشد لهجة وخطاب، ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾.
- ٢ - أصحاب الشمال هم الضالون، ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾، الذين نطلب من الله أن لا تكون منهم في كل صلاة، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.
- ٣ - التكذيب أسوأ من الضلال، فإن بعض الضالين قد يهتدون سواء السبيل، بتوفيق من الله إلى الهداية، ﴿الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾.
- ٤ - أشكال الإهانة والتعذيب الروحي والجسدي الموصوف في هذه الآيات كلها، هو مقدّمة لنزول أهل النار، فما بالك بالعذاب الحقيقي، ﴿هَذَا نُزُومٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾.
- ٥ - عدل الله سبحانه مطلق لا حدود له، وجزاؤه مساوٍ للأعمال التي يقوم بها الإنسان في الدنيا، ويوم القيامة هو يوم الإدانة والجزاء، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾
 ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآيات السابقة إلى إنكار بعض الناس المعاد، وفي هذه الآيات يقدم الله سبحانه بعض المؤشرات الدالة على قدرته المطلقة، لرفع أسباب استبعاد المعاد وإنكاره.
- أدلة القرآن فوق الزمان والمكان، ولا تنتهي صلاحيتها بانقضاء فترة نزول الوحي، فالنطفة في الرحم والبذر في الأرض وما شابه ذلك، من الأمور التي يمكن الاستناد إليها في كل زمان للدلالة على قدرة الله سبحانه.
- خفاء وقت الموت له حكم وأسرار شتى منها، أنه يؤدي إلى الاستعداد الدائم لاستقبال لحظة الموت، بالعمل الصالح والتوبة المتكررة، ومنها الحفاظ على مسيرة الحياة بشكل طبيعي، ولو علم الإنسان وقت موته لأعرض عن الدنيا وضاعت في وجهه.

□ على الرغم من الدور الذي يؤديه الإنسان في تحقق بعض الظواهر، كالحمل والولادة، فإنَّ الفاعل الحقيقي هو الله، فما يحصل من الإنسان هو الوقاع، وأما تلقيح النطفة البويضة في الرحم، فهو من فعل الله سبحانه: ﴿ءَأَنْتَ تَخْلُقُونَهُمْ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُوقُونَ﴾، بل حتى لو تمَّ التلقيح خارج الرحم، فإنَّ دور الإنسان يقتصر على المقدمات فحسب.

التعاليم:

- ١ - ما الداعي إلى الشكِّ في المعاد؟ ألا يقدر من خلق للمرّة الأولى أن يعيد الخلق ثانية، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾.
- ٢ - لا بدّ من مواجهة المنكر بالحجّة والدليل، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾.
- ٣ - يجب أن يكون اللوم والتأنيب بعد تقديم الدليل؛ فقد قال الله تعالى أولاً: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، ثمّ ثنى بقوله ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.
- ٤ - من المناسب جداً عدم الاكتفاء بدليل واحد في مقام الإقناع وإقامة الحجّة، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ... ءَأَنْتُمْ﴾.
- ٥ - من الأساليب المناسبة في الجدل، والدعوة إلى الحقّ، أسلوب السؤال والجواب؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى تفتح الذهن والاستعداد للفهم، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ... ءَأَنْتُمْ﴾.
- ٦ - قدرة الله تتجلّى في كل من الخلق، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، والإماتة، ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا يَبْنِئُكَ الْمَوْتَ﴾.
- ٧ - الموت من الظواهر الخاضعة للقانون، وليس أمراً عشوائياً يتحقّق بالصدفة، ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا يَبْنِئُكَ الْمَوْتَ﴾.
- ٨ - نهاية العمر، وأجل الإنسان بيد الله سبحانه، وليس بيد غيره، ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا يَبْنِئُكَ الْمَوْتَ﴾.
- ٩ - لا يدلّ الموت على عجز الله سبحانه عن إدامة حياة الإنسان، بل هو نتيجة تقدير إلهي حكيم، ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا يَبْنِئُكَ الْمَوْتَ﴾.

١٠ - الموت ووقته من الظواهر الخاضعة لإرادة الله سبحانه، ولا قدرة لأحد من الناس على تقديمها أو تأخيرها لحظة من الزمان، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُورِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْرُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَتَوَلَّوْا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - من الحكم الكامنة في الموت، إرادة الله استبدال بعض الناس ببعضهم الآخر، وإيجاد التحول والتطور على الأرض، ﴿قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ... يُبَدَّلُ أَمْرُكُمْ وَتُنشِئُكُمْ﴾.
- ٢ - قدرة الله على استبدال الأموات بأحياء يحلون محلهم، من الأدلة الدالة على إمكان المعاد وبعث الناس للحساب، ﴿فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ... يُبَدَّلُ أَمْرُكُمْ﴾.
- ٣ - الدنيا معبر ومحطة تستقبل في كل يوم مسافرين جدد، ﴿يُبَدَّلُ أَمْرُكُمْ﴾.
- ٤ - لا يعلم الإنسان وقت الساعة، كما لا يعلم وقت موته، ﴿وَتُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَتَوَلَّوْا تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ ﴿٦٢﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٤﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

- «الحطام» من الحطم وهو الكسر، و«تفكّهون» من المصدر «فكّه» وهو أكل الفاكهة، أو الحديث الذي فيه فكاهاة، ووردت أيضاً بمعنى التعجب والندم. و«مفرمون» من الغرم والغرامة؛ الخسارة.
- من الأمور الجديرة بالتفكير والتأمل أنّ الأرض تحول جسم الإنسان إلى تراب، ولكنها لا تحول البذر الذي يلقى فيها إلى تراب بل إلى نبات. وللبذرة في الأرض حركتان متعاكستان، إحداها بمد جذورها إلى أسفل، والثانية امتدادها إلى أعلى؛ ولها في الحركتين قدرة على مواجهة الموانع والمعيقات.

□ إنَّ أشكال التغيير كلّها والتحوّل في الطبيعة عند الله سواء، وهو قادر عليها جميعاً بالمستوى نفسه. كالحياة والموت، وخلق الماء عذباً وأجاجاً، وإلى غير ذلك، ﴿خَلَقْتَكُمْ... فَذَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ...﴾، و﴿نَحْنُ الزَّرْعُونَ... لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا...﴾، ﴿تَشْرِبُونَ... لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أجاجًا﴾.

□ من الطرق المفضية إلى معرفة الله سبحانه، افتراض خلاف ما هو موجود وقائم، على قاعدة: «تعرف الأشياء بأضدادها». مثلاً: ماذا كان يحصل لو أنّ الليل أو النهار، أطول مما هما عليه الآن؟ ماذا يحصل لو غار الماء في الأرض؟ ماذا لو كانت النباتات كلّها شوكاً؟ ماذا لو كان الماء مرّاً لا يُستساغ؟ من الذي يمكنه تغيير هذه الأمور إلى الأحسن لو كانت مخلوقةً كذلك؟ نعم، لو أنّ الإنسان يلتفت إلى مثل هذه الفرضيات المعاكسة للواقع القائم حالياً، لفهم قدر نعمة الله، ولأدرك قدرته سبحانه ولطفه بالإنسان.

التعاليم:

١ - القادر على تخليق النبات من البذر الذي يلقى في الأرض، هو نفسه القادر على تخليق الإنسان من النطفة التي تبدو ميتة لا حياة فيها، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾.

٢ - كل الأفعال وردّات الفعل الطبيعيّة، تحصل بقدره الله تعالى وإرادته، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾.

٣ - بعض الناس لا يتعظون إلا عندما يحصدون بدل زرعهم شوكاً، وإلا عندما يضعون أيديهم على رؤوسهم لتفقد أثر الجدار أو الحجر الذي اصطدموا به، نعم بعض الناس لا يستيقظون إلا بصدمة، ﴿حُطَمًا﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أجاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ «المزن» الغيوم البيضاء الحاملة للمطر. و«أجاج» أي مالح مع مرارة.

□ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي سقاني عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبي»^(١).

□ الالتفات إلى قيمة الماء ودوره في رفع العطش، ﴿تَشْرِبُونَ﴾، وإلى كيفية نزوله من الغيوم، ﴿مِنَ الْمُنْزِلِ﴾، وإلى كونه عذباً سائغاً للشرب، ﴿جَعَلْنَاهُ أَجَاباً﴾ يدعو الإنسان إلى الشكر والاعتراف بنعمة الله.

□ دوام لطف الله تعالى، لا يدلّ على عجزه عن الخيارات الأخرى المعاكسة، ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾، فلو شاء الله لجعل الماء العذب مالحاً لا يُستساغ.

□ يدعو التأمل في نعم الله على الإنسان إلى الشكر والامتنان لله تعالى على نعمه، وفي الوقت عينه يعمّق روح التوحيد في نفسه، ﴿نَحْنُ الْزَارِعُونَ... نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾.

التعاليم:

١ - الأدلة التي يشير إليها القرآن تتوقّف على البساطة والدقّة والعمق في آن معاً. وبالتالي يكفي النظر إلى الماء للاعتراف بالمبدأ والمعاد، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِبُونَ﴾

٢ - نزول الماء الصالح للشرب من الغيوم، من الأمارات الدالة على حكمة الله وقدرته، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِبُونَ﴾

٣ - نزول الماء من السماء، خارج عن قدرة الإنسان، وهذا يكفي للدلالة على معرفة الله، ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُنْزِلِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾

٤ - الخلق كلّه مدرسة للتدبّر، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ...﴾، والتذكّر، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، والشكر، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ «تورون» من الوري وهو إظهار الخفي، والمراد من التعبير في هذه الآية الإشارة إلى استعمال العرب بعض أنواع الأشجار بحكِّها بعضها ببعض واستعمالها لإشعال النار، وبعبارة أخرى، كأنه سبحانه يقول: أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الشجر الرطب أنتم أنشأتم شجرتها، يعني التي يكون منها الزناد وهي المرخ والعفرار.

□ «المقوين» من القواية أي الصحراء والبرية، والمقوي هو المسافر في الصحراء.

□ أشارت الآية ٤٧ إلى الشكِّ في المعاد والرجوع إلى الحياة بعد الموت، وفي هذه الآيات يحدث الله الناس، ويشير إلى أدلة معرفته أكثر من عشرين مرة ليرفع أيَّ شكٍّ وتردد.

□ يحدثنا الله سبحانه في هذه الآيات عن العناصر الأربعة، وهي: التراب، والماء، والهواء، والنار، وهي جميعاً تحت سلطته، وقدرته، وخاضعة لمشيئته.

□ يسأل الله سبحانه الناس أربع مرّات عن خلقهم، وعن الماء الذي ينزل إليهم من الغيم، وعن نموّ النبات، وعن النار التي يصطلون بها؟ ليتنزع منهم الإقرار له بالربوبية والخلق.

□ الحاجة إلى النار في الصحراء، أوضح من الحاجة إليها في محلّ السكن، فالمسافر يحتاج إلى النار للتدفئة، وللاستئناس بها في الظلام، والأمن بها من الحيوانات المفترسة.

التعاليم:

١ - الله الذي يخرج النار من الشجر الرطب، هو القادر على إعادة الحياة إلى الأجساد الميتة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾.

- ٢ - خروج النار من الشجر الأخضر، يذكر بالآخرة من جهتين، إحداهما جهة خروج النار الكامنة في الخشب، وهذا يلفت إلى إمكان عودة الأجساد الميتة إلى الحياة، والثانية أن نار الدنيا تذكر بنار الآخرة، ﴿تَمَنَّ جَمَلَتَهَا تَذَكُّرَةً﴾.
- ٣ - يدعو الله النبي ﷺ إلى تسبيح الله وتنزيهه، بغض النظر عن إيمان الناس واتباعهم بهذه المواعظ المنبّهات أو عدم اتباعهم، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

- لا يمكن لأي شخص أو أي شيء أن يؤثر في الوجود من دون إرادة الله ومشيئته. وعليه فإن الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب في مصائر الناس وتحكمها بمستقبلهم ما هو إلا خرافة، والنجوم لا تدلّ على سوء الطالع ولا على حسنه، وعن الإمام الكاظم عليه السلام أن الله أثنى على النجوم وأقسم بمواقعها^(١).
- «مواقع النجوم» هي مواضع استقرارها. والقسم بمواقع النجوم أهمّ من القسم بها نفسها؛ وذلك لأنّ محالها أكبر منها بأضعاف.

التعاليم:

- ١ - ينقل الله الإنسان بفكره وعقله، من أصغر الأشياء كالنطفة والبذرة والنار، إلى النجوم ومواقعها في السماء، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ... فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.
- ٢ - يقسم الله في القرآن ببعض الأمور الصغيرة كالتين والزيتون مثلاً، ويقسم أيضاً بما هو أكبر منها بأضعاف كالنجوم في هذه الآية؛ وذلك لأنه لا فرق عند الله بين هذه الأشياء، فهي عنده سيّان.
- ٣ - لكلّ نجم موقع ومسار خاصّ به، يسير فيه وفق نظامٍ متقنٍ لا يحيد عنه، ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

٤ - لا يحيط الإنسان علماً بأوضاع الكواكب والنجوم وأحوالها، مهما بلغ من العلم والمعرفة، ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّئَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أن المراد من «الكتاب المكنون» في هذه الآية هو اللوح المحفوظ؛ وذلك لأن الله سبحانه يقول في سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾^(١)، ويقول: في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

□ يصف الله نفسه وما يرتبط به بالكريم، في آياتٍ عدّة من القرآن الكريم:

- الله كريم، ﴿مَا غَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢).

- القرآن كريم، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٣).

- الرسول كريم، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾^(٤).

- ملاك الوحي كريم، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(٥).

- وعن عليّ عليه السلام، في وصف أهل البيت، أنهم كرائم القرآن^(٦).

- والإنسان وهو أعزّ مخلوقات الله عليه كريم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي مَادَمَ﴾^(٧).

□ قراءة القرآن وفهم معاني كلماته ميسوران لكلّ من يعرف العربية، ولكن التواصل مع القرآن بالروح، يتوقف على طهارة خاصة لا تتوفر لكل الناس، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٨)؛ ولذلك لم يقل سبحانه «لا يقرأه ولا يفهم معانيه إلا المطهرون»، بل قال: ﴿لَا يَمَسُّهُ

(١) سورة البروج: الآية ٢١ و٢٢.

(٥) سورة التكويد: الآية ١٩.

(٢) سورة الانفطار: الآية ٦.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٤) سورة الدخان: الآية ١٧.

(٨) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿١﴾، ولعلّ المراد من المماسّة هذا المعنى الذي أشرنا إليه وقد ورد في التفسير بالأثر، أنّ المطهرين في الآية هم المقربون^(١).

□ القرآن كريم؛ وذلك لأن:

- مكانه ومستقرّه في اللوح المحفوظ، ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

- الوسطاء بيننا وبينه مطهرون سواء في ذلك الملائكة أم النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

- ولأنّه يقع في سياق الربوبية الإلهية وتربية البشرية، ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

□ القرآن طاهر مطهر، ﴿مُحَقَّقًا مُّطَهَّرَةً﴾^(٢) لا يمسّه إلا الطاهرون، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

□ ليس القرآن كما يتهمه المشركون والكفار، مما يمليه الخيال على النبي ﷺ، ﴿تُمَلِّكْ عَلَيْهِ﴾^(٣)، وليس خرافات وأساطير، ﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾، ولم يتعلّمه النبي ﷺ من آخرين، ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾، سواء كان المعلّم فرداً أم جماعة، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾، بل هو من الله سبحانه وتعالى، ومن مقتضيات ربوبيته وتربيته للإنسان، ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

□ القرآن سرّ العظمة والرقّي للإنسان فرداً ومجتمعاً. فهو كريم، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، والنظر فيه، وحفظه، وتدبر آياته، مصدر كرم ومنشأ رفعة للإنسان، وفيه الحلول المتناسبة مع كرامة الإنسان وعلوّ مقامه بين سائر المخلوقات على جميع الصعد الفردية والاجتماعية التي يحتاجها الإنسان في حياته الدنيا، وفي الآخرة. ولا محلّ في القرآن للكلام الرديء، أو البعيد عن قواعد المنطق السليم، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

(١) الدر المنثور، ج ٦، ص ١٦٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٣) سورة البينة: الآية ٢.

التعاليم:

- ١ - يقسم الله بأعظم وثيقة تكوينية لإثبات كرامة أعظم وثيقة تشريعية، ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْجِجِ التُّجُورِ... إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٢ - يبلغ القرآن منتهى الكرم والكرامة؛ حيث إنه يضع قواعده ومضامينه الراقية في معرض استفادة كل من يمكنه الاستفادة، وكلّ منهم على طريقته، وبحسب ما أوتي من قدرة، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٣ - ليس القرآن مجرد كلماتٍ وألفاظٍ، بل له مقام أعلى وأسمى محفوظ عند الله تعالى، ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْتُوبٍ﴾.
- ٤ - للاستفادة من القرآن آداب خاصة، فلا يجوز للمحدث أن يمَسَّ القرآن قبل أن يتوضأ^(١)، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.
- ٥ - حقائق القرآن ساميةٌ وأرقى من أن يصل إليها أهل العناد والملوثون بالشرك والنفاق، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.
- ٦ - القرآن أحد تجليات ربوبية الله تعالى، ويتضمن برنامجاً تربوياً يتناسب مع تسامي الإنسان وتربيته، ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَفَيْدَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهُونٌ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

- «مدهونون» من الدهن وهو الزيت وشبهه، وكلمة مداهنة تستعمل في كل من الضعف والمداراة.
- ورد في سبب نزول الآية أنها نزلت في رجل من الأنصار في غزوة تبوك، ونزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء، فشكوا إليه ﷺ ذلك فقام فصلّى ركعتين ثم

(١) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٢٦.

دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يُتهم بالنفاق: ويحك قد ترى ما دعا النبي ﷺ فأمطر الله علينا السماء! فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله الآية^(١).

نعم يوجد في المجتمع الإنساني عددٌ من الأشخاص يجعلون أقصى هتمهم وغاية أهدافهم تسخيف أعمال الآخرين والغضب من قيمتها. فلو وافق جميع الناس على أمرٍ لأنكره هو على قاعدة «خالف تُعرَف». وربما كان سبب ذلك عند بعض هؤلاء أنّ أحدهم لا يجد لنفسه عملاً يؤدّيه، وبعضهم يعمد إلى وسائل أخرى ليظهر تفوّقه على الآخرين كالاهتمام بمظهره والمبالغة في العناية بملبسه وشكله الظاهري، يضيف ذلك كلّهُ إلى تصوير نفسه أرقى وأعمق فكراً من الآخرين.

التعاليم:

- ١ - كلّما كان الموضوع أكثر قداسةً، كان الإنكار أشدّ خطراً، وكان استحقاق التائب أوضح، ﴿أَفَيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾.
- ٢ - لا مجال للمداهنة والمساومة على أصول الدين ومبادئه الأساسية، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ... أَفَيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾.
- ٣ - التساهل في أمور الدين يقود الإنسان تدريجاً إلى الإنكار والرفض، ﴿أَفَيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُشَيْرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ إذا كان بعض الناس يشكّون في المعاد؛ بسبب شكّهم في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فهل يشكّون في قدرته على الإمامة وقبض الأرواح؟ فما مبرر

الشكّ والحال أنّ جميع الناس لو اجتمعوا للحيلولة دون موت المحتضر لما استطاعوا، وهذا يكشف عن خضوع ظاهرة الموت والحياة للإرادة الإلهية.

□ على المؤمنين بالمعاد عدم الاكتفاء بوضوح هذه العقيدة في أذهانهم، فهذا هو القرآن يتضمّن الكثير من الأدلّة المتتابعة في سورة واحدة لإثبات هذا الأصل الاعتقادي، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾، على الرغم من أنه يقرن ذلك بتذكيرهم بعجزهم، كما في هذه الآيات التي تستعرض حالة الاحتضار والعجز عن التمسك بالمحتضر وعدم تركه لقمة سائغة للموت.

□ الله سبحانه قريب من جميع عباده، مؤمنهم وفاسقهم وكافرهم، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، والمطلوب من الإنسان أن يحسن عملاً ليقرب هو من الله.

□ «مدين» من الدين بمعنى الجزاء، ولهذا المعنى سمي يوم القيامة يوم الدين.

□ النظر والإبصار ليسا بمعنى واحد، فقد ينظر الإنسان ولا يبصر، ﴿تَنْظُرُونَ... وَلَكِنَّ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

التعاليم:

١ - ساعة الاحتضار والموت، حتمية لجميع الناس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (إذا أداة شرط للأمر اليقينية).

٢ - تخرج الروح من مجرى النفس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾.

٣ - يرفع الله الشكّ في المعاد، من خلال التذكير بقدرته في حالتي الحياة والموت، وبذلك يتمّ الحجّة على الناس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾.

٤ - الله سبحانه أقرب إلينا من أقرب الناس إلينا، فقرب الناس قرب مادّي، وأما قرب الله فهو قرب إحاطة واستيلاء، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾.

٥ - المعاد والجزاء في الآخرة من الأمور القطعية، ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (ويُستفاد المعنى المذكور من استعمال الفعل الماضي).

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْصَابِ
الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَعْصَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَزَلُّ مِنْ
جَمِيرٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

□ «الروح» بمعنى الراحة والرفاه والرحمة. و«الريحان» هو كل نبت طيب الرائحة، وتستعمل في الرزق أيضاً. و«تصلية» من «الصلي» وهو الذوق، والشواء والسقوط.

□ يشير الله سبحانه في أول السورة إلى تقسيم الناس إلى فئات ثلاث، بقوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، المقربون إلى الله، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وفي آخر السورة يكرر الله الحديث عن مصير كل فئة من هذه الفئات.

□ ينال كل امرئ ثوابه بحسب مقدار قربه من الله؛ كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله يجمع للمقرب بين الروح والريحان في قبره، وبين جنة النعيم في الآخرة. و«المقربون» هو السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح؛ وذلك بالنظر إلى الآيتين العاشرة والحادية عشرة، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقْرَبُونَ﴾.

وأصحاب اليمين يشرون عند الموت، بما يرفع عنهم القلق، ويؤجل ثوابهم إلى الآخرة. ويبدو أن المراد من أصحاب اليمين، أولئك الذين يأتون صحيفة أعمالهم بيمينهم، والذين أشار إليهم الله تعالى في الآيات ٧١ من سورة الإسراء، و١٩ من سورة الحاقة، و٧ من سورة الانشقاق، ﴿مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾. والمراد من أصحاب الشمال من يؤتى صحيفة أعماله بشماله. وعن الإمام الباقر عليه السلام أن المراد من المكذبين الضالين المشركين^(١).

□ في تفسير قوله تعالى ﴿فَسَلِّتْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، أقوال واحتمالات عدّة، منها:

أ - أن يكون المراد توجيه السلام إلى أهل الجنة من دون تعيين شخص بعينه.

ب - أن يكون المراد توجيه السلام من أهل الجنة إلى النبي ﷺ؛ لما تحمّله من مشاقّ أوصلتهم إلى المقام الذي هم فيه.

ج - أن يكون المراد أنّ النبي ﷺ في خير وسلامة، لفلاح هؤلاء الناس.

□ يقول سبحانه في الآية ٥١: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُؤَمٍ﴾؛ ولكنّه يقول في الآية ٩٢: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنَزَّلْنَا مِنْ جَمِيمٍ﴾؛ فما الوجه في تقديم الضالين على المكذبين في الآية الأولى، وتأخير ذكرهم في الآية الثانية؟

الجواب: يبدو أنّ الخطاب في الآية الأولى باعتبار الدنيا، وذلك أنّ الإنسان يؤول أمره إلى التكذيب بسبب الضلال؛ وأمّا باعتبار الآخرة وبالنظر إلى حالة نزع الروح، فيكون البدء بالعقاب على الجرم الأشدّ خطورةً.

□ يعرض الله سبحانه لنا في هذه الآيات مصير ثلاث فئات، ليختار الإنسان العاقل ما يناسبه منها، ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَتَّتْ نَعِيرٍ... فَنَزَّلْنَا مِنْ جَمِيمٍ وَتَصَلِيَةٌ جَمِيمٍ﴾.

□ لم يشر الله تعالى إلى مبرّر ثواب المقرّبين وأصحاب اليمين؛ وأمّا بالنسبة إلى عقاب الكافرين، فقد ذكر أنّ سبب العقاب هو التكذيب والضلال. والفرق بين الحاليتين هو حاجة العقاب إلى بيان وخصوصاً في حالة التكذيب والضلال، وأمّا اللطف والمحبة، فلا يحتاجان إلى دليل ومبرّر^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «فنزل من حميم في قبره وتصلية جحيم في الآخرة»^(٢).

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، عند تفسير هذه الآيات.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٢٩.

التعاليم:

- ١ - ينتقل المقرَّبون بمجرد مفارقة أرواحهم للأجساد إلى الراحة والريحان، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ (حرف الفاء يدلّ على العطف من دون تراخ).
- ٢ - الموت بالنسبة إلى المقرَّبين انتقال إلى الراحة، وخلاص من غصص الدنيا وآلامها ﴿فَرَوْحٌ﴾، ووصول إلى أطفاف الله، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، واستقرار في النعيم الأبدي، ﴿وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾.
- ٣ - يجب أن نتعامل مع لحظات الاحتضار والموت، ومع كيفية خروج الروح، ومع مفاهيم أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، بشكل جاد، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾.
- ٤ - صعوبة نزع الروح على الكافرين، وملاقاتهم بالحميم والجحيم، جزاء عادل مستحق، ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ وَنَصَلِيَّةً حَمِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾.
- ٥ - عقوبة عمر من الضلال والتكذيب، ﴿الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾، ضيافة بالماء الحار في الجحيم وحرارة جهنم، ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ وَنَصَلِيَّةً حَمِيمٍ﴾، وهذا غاية العدل فالله سبحانه منزّه عن غير العدل، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.
- ٦ - يوم القيامة ونظام العقاب والثواب، من دلائل ربوبية الله سبحانه، ويقع في سياق تربية الله للإنسان، ومن الأمور التي تستحقّ من الإنسان الشكر والتسبيح، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سورة الحديد

السورة: ٥٧ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٢٩

ملامح سورة الحديد

سورة الحديد مدنية وعدد آياتها، تسع وعشرين آية.

السمة الغالبة على آيات هذه السورة أنها تتحدث عن المسائل الاعتقادية، كما أنها تتعرض لبعض القضايا الاجتماعية ذات الصلة بالدولة ونظام الحكم. وفي الآيات الأول منها تشير إلى ما يقرب من عشرين صفة من صفات الله ﷻ. وعظمة القرآن، وأحوال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، ومصير الأمم السابقة، والإنفاق في سبيل الله من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، وانتقاد الرهبانية، هذه الموضوعات كلها مما تعرضت له سورة الحديد في آياتها.

وعن الإمام السجاد عليه السلام، أنه سئل عن التوحيد، فقال: «إن الله ﷻ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى «قل هو الله أحد»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله «عليم بذات الصدور»، فمن رام وراء ذلك فقد هلك»^(١).



(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

إشارات:

□ تشترك الآية الأخيرة من سورة الواقعة والآية الأولى من سورة الحديد، في موضوعهما وهو التسييح، ففي الأولى قوله تعالى ﴿فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وفي الثانية قوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

□ توجد في القرآن الكريم، ثماني سور تبدأ بالحديث عن التسييح، هي: الإسراء، والنحل، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى. وقد تكررت كلمة التسييح بصيغ عدة أكثر من تسعين مرة. وأما الحمد فقد ورد في مطلع أربع سورة فقط، هي: الحمد، والأنعام، وسبأ، وفاطر، وتكررت مفردة الحمد ما يقرب من سبعين مرة. وربما كان السر في ذلك، هو إصرار القرآن على مواجهة الشرك، والخرافات الاعتقادية في ما يؤمن به الناس، وذلك على قاعدة الاهتمام بما تمس الحاجة إليه، أكثر من الاهتمام بالكماليات؛ وذلك أن التسييح والتنزيه حاجة، بينما الحمد كمال. ونلاحظ زيادة الاهتمام بالتسييح على الاهتمام بالحمد، في الصلاة أيضاً، ومن هنا يتكرر ذكر «سبحان الله» أكثر مما يتكرر ذكر «الحمد لله».

□ بحسب الرؤية الكونية الإسلامية، الكون ومظاهره كلها في حالة تسييح دائمة لله تعالى، ولو لم نكن نفهم كثيراً من تسييح مظاهر الطبيعة، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١)، وهذا التسييح مقرون بالعلم ممن يصدر عنه، ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٢).

□ يذكر الله سبحانه وتعالى بعض مخلوقاته التي ينسب إليها التسييح، ومنها:

(٢) سورة النور: الآية ٤١.

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

أ - الملائكة، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾^(١).

ب - الرعد، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾^(٢).

ج - الطير، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ﴾^(٣).

ج - الجبال، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾^(٤).

□ تسبيح الله من الوسائل المساعدة على النجاة من البلاء، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٥).

□ كلمتا أول وآخر، عندما يوصف بهما الله تعالى، يراد بهما، الأزلي والأبدي. أي كان قبل أن يكون شيء، وسيبقى بعد فناء كل شيء. ووجوده أظهر من وجود أي شيء، وهو مع ذلك أخفى من الأشياء. وظهوره من جهة دلالة المخلوقات كلها عليه، وهو باطن من جهة اطلاعه على حقائق الأمور وبواطن الأشياء وعلمه بها.

التعاليم:

١ - الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، ومظاهر الوجود كلها في السماوات والأرض تشهد له سبحانه بذلك، ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - قدّم الله تسبيح الموجودات السماوية على الموجودات الأرضية، ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣ - القدرة وحدها ليست مهمة وإنما المهم هو اقترانها بالحكمة، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٤ - الحاكم الحقيقي والمطلق في السماوات والأرض هو الله. وسلطة الإنسان على الأرض هي سلطة اعتبارية مجازية، فعلى الإنسان أن لا يغترّ بقدرته على التحكم في بعض الأشياء، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٥) سورة الصافات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤.

(٣) سورة النور: الآية ٤١.

- ٥ - الإله الذي يتوقر على العزة، والحكمة، والحاكمية، والقدرة المطلقة ويملك مقادير الحياة والموت، هو وحده من يستحق التسبيح والتمجيد، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَهُ مُلْكُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَدِيرٌ﴾.
- ٦ - أول الوجود وآخره، وشهوده وغيبه، بيد الله سبحانه، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.
- ٧ - الأهم من الخلق بحكمة والأهم من الملك مع الاقتدار، العلم والرقابة الدائمة على المخلوقات، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (وذلك بالنظر إلى ما تقدم في الآيتين السابقتين).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

إشارات:

- كل ما يدخل إلى جوف الأرض، من بذر نبات، أو قطرات ماء، أو جذور أشجار، أو أجساد الموتى، وما سوى ذلك من كنوز الأرض وشبهه، وكل ما يخرج من الأرض كأغصان الأشجار وثمارها، وما تخرجه الأرض من ماء ونبات، ونفط ومعادن، ذلك كله معلوم لله تعالى، لا يخفى عليه منه شيء.
- الإيمان بعلم الله سبحانه وحضور المخلوقات بين يديه، من أهم وسائل التربية الروحية؛ فعندما يلتفت الإنسان إلى علم الله بما يفعل لا ينبغي أن يقدم على مخالفة أو يجترئ على معصية.

التعاليم:

- ١ - على الرغم من أن قدرة الله واسعة تسمح له بخلق الكائنات كلها في لحظة واحدة، إلا أن حكمته تقتضي خلق الأشياء تدريجاً، ﴿خَلَقَ... فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.
- ٢ - لله سبحانه سلطة كاملة ومطلقة على الوجود بأسره، ﴿خَلَقَ... ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

- ٣ - يعلم الله جزئيات المخلوقات كلها لا يغيب عن علمه منها شيء، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَدُ...﴾.
- ٤ - الوجود كله في محضر الله سبحانه، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.
- ٥ - علم الله علم حضوري، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.
- ٦ - لا يعلم الله جزئيات المخلوقات فحسب، بل يعلم ما يصدر عنها من أعمال، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ۗ يُرِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُرِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾

إشارات:

- من أهداف القرآن، التعريف بالله وصفاته، والدعوة إلى التوحيد، وهذا من الأهداف الواضحة لسورة الحديد ولا سيما في آياتها الأولى، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.
- يمكن اختصار أهم مبادئ الإدارة والسلطة، في ما يأتي:
- أ - العلم والمعرفة بالظاهر والباطن، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ... وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ب - القدرة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ج - العزة والحكمة، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

د - الرقابة والحضور الدائم، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

هـ - المحاسبة والجزاء على الأعمال، ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾.

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه هو خالق الكون بما فيه، وهو المدير والمدبّر لأموره بكل تفاصيلها، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

- ٢ - لا شريك لله في الخلق، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ...﴾، ولا شريك له في إدارة شؤون المخلوقات وتديرها، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٣ - الله سبحانه هو منشأ الوجود، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾، وإليه ينتهي مآل الأمور كلها، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.
- ٤ - الوجود له هدف محدد من قبل الله تعالى، وهو يسير باتجاه هدفه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.
- ٥ - دوران الليل والنهار، وطول الأيام وقصرها، من نماذج التدبير الإلهي للكون، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... يُوَلِّجُ اللَّيْلَ...﴾.
- ٦ - لا يعلم الله أفعالنا وما يصدر عنا فحسب، ﴿يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، بل يعلم ما تكن صدورنا وما يعتمل في رؤوسنا من أفكار، ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

إشارات:

- الخطاب في الآية موجه إلى المؤمنين، والمراد من الأمر بالإيمان، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، هو العمل بمقتضيات الإيمان ولوازمه، وكأنه يقول لهم إذا كنتم تدعون الإيمان فلهذا الإيمان لوازم لا بد من الالتزام بها^(١).
- يحتمل في المقصود من جعل الإنسان خليفة في قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾، إما جعله خليفة عن الله تعالى في الأرض كما ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، وإما المقصود الإشارة إلى أنّ على الإنسان أن لا يظنّ أنّه هو المالك لما في يديه من الأموال، بل عليه أن يلتفت إلى أنّ الله هو المالك الحقيقي وما الإنسان إلا مستخلف عليه أن يراعي إرادة من استخلفه على المال وغيره.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن.

وللاستخلاف في الآية معنى آخر هو أنّ الإنسان يأتي بعد غيره ممّن سبقه من الناس وسوف يأتي بعده من يخلفه في هذا المال وربّما يستفيد منه ويدخل به الجنة.

التعاليم:

- ١ - قيمة الإيمان تستمدّ من العمل، ومن الأعمال التي تضيي على الإيمان قيمة مساعدة الفقراء والإحسان إليهم، ﴿ءَامِنُوا... وَأَنْفِقُوا﴾.
- ٢ - الإنفاق المجدي الذي له قيمة في الميزان الإلهي هو الإنفاق المقترن بالإيمان، ﴿ءَامِنُوا... وَأَنْفِقُوا﴾.
- ٣ - كلّ ما في يد الإنسان عارية وأمانة، والمالك الحقيقي هو الله سبحانه، ﴿جَعَلَ كُنتُمْ مُتَخَلِفِينَ﴾.
- ٤ - على الرغم من أنّ الإيمان والإنفاق واجبان على الإنسان، فإنّ الله جعل عليهما وعلى غيرهما من الواجبات ثواباً لتحفيز الناس على العمل الصالح، ﴿فَالَّذِينَ ءَامِنُوا... وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، فالثواب من المحفّزات التي لا ينكر تأثيرها على الإنسان.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

إشارات:

□ تدلّ عبارة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، على أنّ الخطاب موجّه إلى المؤمنين؛ ومن هنا يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هو العمل بلوازم الإيمان. ويكون معنى الآية: ما لكم تتصرفون على الصعيد العملي تصرف من لا يؤمن بالله والرسول؟

□ يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الميثاق هو الميثاق المأخوذ من الإنسان في عالم الذرّ، إلا أنّ ذلك الميثاق هو ميثاق عامّ لجميع الناس، وأما الميثاق

المشار إليه في الآية فهو الميثاق المأخوذ من المؤمنين دون غيرهم من الناس،
﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - في مقام الدعوة وتبليغ الأحكام يجوز الاستفادة في بعض الأحيان من
التأنيب، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.
- ٢ - يتم الله الحجّة على الناس قبل أن يدينهم، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾.
- ٣ - الأنبياء يدعون الناس إلى الله، وهذا بخلاف بعض الناس الذين يدعون الناس
إليهم، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - يدعو الله الناس إلى الإيمان بالرسول كما يدعوهم إلى الإيمان به، ﴿ءَامِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ إن البرامج والمقررات الإلهية كلها تنزل على قاعدة الحكمة، على الرغم من
أن ما بينه الله لنا هو بعض حكمها، ومما بين من الحكم والأهداف للأعمال
والتشريعات:

- ١ - الهدف من النبوة، هداية الناس، ﴿لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
- ٢ - الهدف من الصلاة، ذكر الله وشكره، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١).
- ٣ - الهدف من الصيام، التقوى، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾^(٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(١) سورة طه: الآية ١٤.

٤ - الهدف من الحجّ الحضور والاجتماع، وتحصيل المناسك والاشتراك في المناسك، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ﴾^(١).

٥ - الغاية من الجهاد، دفع الفتنة، وحفظ الدين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾^(٢).

٦ - الغاية من القصاص، حفظ الحياة وصون الدماء، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٣).

٧ - الغاية من الحجاب، التزكية والحفاظ على طهارة القلوب، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾^(٤).

٨ - الغاية من الزكاة، التطهير، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾^(٥).

٩ - الغاية من تحريم الخمر والقمار، إبطال محاولة الصدّ عن ذكر الله والصلاة.

□ نجاة البشرية من ظلمات الجهل، والظلم، والشرك، والخرافة والفرقة، مرهونة بالانعطاف نحو الوحي والاستنارة بنوره: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٦).

□ كلمة «إن»، وحرف اللام، والجملة الاسمية، وصيغة المبالغة في الجملة، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، تدلّ جميعاً على أنّ الرحمة الإلهية دائمة، وعميقة، وشاملة، وحتمية.

التعاليم:

١ - العبودية الخالصة، من العوامل المساعدة على نزول الألفاظ الإلهية، ﴿يُنزِّلُ عَلَيْنَ عَبْدِهِ﴾.

٢ - على المبلّغ والداعي إلى الله، أن يكون مزوداً بالحجج الباهرة الواضحة، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ... ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ١.

(١) سورة الحجّ: الآية ٢٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

٣ - الهدف الأساس والأهمّ الذي يسعى الأنبياء لتحقيقه، هو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك والفرقة، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

٤ - السبيل الواضح، هو سبيل الله وصراطه والمستقيم، وما سواه كائناً ما كان، هو ظلمة وظلام، ﴿الظُّلُمَاتُ... النُّورُ﴾، ويستفاد المعنى المذكور من استخدام صيغة الجمع في كلمة «ظلمات»، وصيغة المفرد في كلمة «نور».

٥ - الوحي ينزل على النبي على أساس اللطف والرفقة الإلهية، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ... وَإِنَّ اللَّهَ بِكُرِّ لَرُؤُفٍ رَّحِيمٌ﴾.

٦ - من أفضل الأدلة والآيات الكاشفة عن الرفقة والرحمة الإلهية، هداية العباد، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُرِّ لَرُؤُفٍ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ نَلَّ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِّنَ الَّذِينَ أنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

إشارات:

□ وردت في القرآن الكريم مئات الآيات التي تتحدّث عن مساعدة المساكين والمحرومين، من خلال الزكاة، والخمس، والصدقة، والإنفاق، والقرض الحسن، والإطعام، والإيثار وإلى غير ذلك؛ ولم يكتفِ القرآن بالدعوة إلى هذه الأمور بل حدّد مقدار الإنفاق ونوع ما ينفق، وشروط المنفق والمنفق عليه. وهذه السورة تشتمل على نماذج من الآيات الواردة حول هذه الموضوع العام.

□ ورد في الآية السابعة من هذه السورة الأمر بالإنفاق ممّا جعلنا الله مستخلفين فيه، وفي هذه الآية يؤنّب الله الذين لا ينفقون من هذا المال الذي وصل إليهم بالوراثة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا...﴾، وينبّه إلى أنّ هذا المال لن يبقى فإننا كما ورثناه سوف نورّثه، ومن الذي سيرثه في نهاية المطاف هو الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾.

□ السبق والتقدم في الأمور من المعايير التي على أساسها تكتسب بعض الأعمال قيمةً مضاعفةً، ومن هنا كان الإنفاق قبل فتح مكة أهم وأعلى قيمةً من الإنفاق بعدها، بالنظر إلى اختلاف الظروف لجهة شدة الحاجة وغيرها.

التعاليم:

- ١ - يؤنب الله في هذه السورة صنفين من الناس، هما الذين لا يؤمنون، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾، والذين آمنوا ولكن لا ينفقون، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾.
- ٢ - الإخلاص، من الشروط التي لا يمكن أن يقبل العمل إذا تجرد عنها، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - المقارنة، من الأساليب النافعة في التربية والتعليم، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾.
- ٤ - على المؤمن الصادق أن يكون مستعداً للتخلي عن ماله وعن نفسه، في سبيل الله، ﴿أَنْفَقْ... وَقَتْلْ﴾.
- ٥ - الإنفاق من الأمور التي تدعم المجاهدين في ساحات الجهاد، ﴿أَنْفَقْ... وَقَتْلْ﴾.
- ٦ - يضحي المجاهد الصادق، بالمال والنفس في سبيل الله؛ ولذلك يجب أن يكون حيث يستحق في الترتيب الاجتماعي الإسلامي، ﴿أَوْلَٰئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً﴾.
- ٧ - لا ينبغي أن يقلل السابقون إلى الإيمان وغيرهم، من قيمة الذي آمنوا في مراحل لاحقة من تاريخ الدعوة، فالواجب هو الإيمان، وحتى لو تأخر الإنسان فيه فإنه له حقوقاً على المجتمع المسلم، ﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَٰى﴾.
- ٨ - قد تشابه الأعمال في شكلها الظاهري، ولكن الله له طريقته الخاصة في تقويم الأعمال وإعطاء الجزاء عليها، ﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَٰى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ أصل القرض القطع والفصل عن الشيء بالمقراض، وهو الآلة التي يقطع أو يقرض بها، و«القراضة» هو المال الذي المفصول عن أصله.

□ من يقرض الله يسترجع قرضه يوم القيامة أضعاف مضاعفةً منه سبحانه. والقرض في القرآن يوصف دائماً بـ«الحَسَن»، والمراد منه القرض الذي يدفع فوراً، ولا يكون مقروناً بالمتة، وقبل سؤال السائل، وعلى قدر الوسع والطاقة، ومن أجل الأعمال المفيدة.

□ للقرض الحسن بركاتٌ عدةٌ، منها: أنه يزيد في المحبة، ويحفظ ماء الوجه، ويحول دون الإفلاس، ويصلح الوضع الاقتصادي في المجتمع، ويحول دون رواج الربا، ويضبط الحرص والبخل، وينشر ثقافة التعاون في المجتمع.

□ الله الذي له ملك السماوات والأرض وهو الذي يرثهما جميعاً، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾، يحضّ الناس على الإنفاق بدعوتهم إلى إقراضه قرضاً حسناً، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

□ يرفض الإسلام أي شكلٍ من أشكال الركود والضعف:

١ - الركود في الطبيعة، من خلال عدم استغلالها، «من وجد ماءً وتراباً، ثم افتقر فأبعده الله»^(١).

٢ - الركود في الجهود والطاقات الإنسانية، «اللهم إني أعوذ بك من الكسل»^(٢).

٣ - الركود في المال، ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾^(٣).

٤ - الركود العلمي والأخلاقي والمعنوي، ﴿زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٤)، ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾^(٥)، «من استوى يومه فهو مغبون»^(٦).

٥ - الركود الفكري، «من استبدّ برأيه هلك»^(٧).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٤٠.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٥٨٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٤.

(٤) سورة طه: الآية ١١٤.

(٥) سورة محمد: الآية ١٧.

(٦) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٧٣.

(٧) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٠.

التعاليم:

- ١ - يضع الله نفسه، إلى جانب المحتاجين إلى القرض فيطلب القرض لهم بطلبه له، وكأنه يجعل نفسه كفيلاً وضامناً للمحتاجين، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾.
- ٢ - عمل الخير عندما يتحوّل إلى طبع وعادة، يصبح أفضل من العمل الذي يصدر مع تكلف، ﴿...يُقْرِضُ اللَّهَ﴾.
- ٣ - العمل بحدّ ذاته ليس هو المهمّ، بل المهمّ هو الصفة التي يصدر عليها، ﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾.
- ٤ - الإقراض لا يؤدّي إلى نقص المال، بل يؤدّي إلى مضاعفته وزيادته، ﴿فِيضِّفَهُ لَهُ﴾.
- ٥ - العمل الشاقّ يحتاج إلى محرّض قويّ للقيام به (لما كان التخلّي عن المال شاقاً على الإنسان، ضمن الله مضاعفة الثواب عليه، ليشجّع الإقدام عليه)، ﴿فِيضِّفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٦ - الإقراض دليل على الكرم، والله سبحانه ضمن للكريم أجراً كريماً من لدنه، ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٧ - على المرّبي أن يهتمّ بكرامة من يرّبه ويكرمه، ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَوَلِّئِهِمْ بُسْرِيكُمْ يَوْمَ جَنَّتُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

إشارات:

□ في الآية التاسعة أخبرنا الله أنّ هدف الأنبياء هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي هذه الآية يحدثنا عن مآل الذي خرجوا من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمة التفرقة إلى نور الوحدة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، يخبرنا عن نورهم الذي يسعى بين أيديهم يوم القيامة. وفي الآية ١٥٧ من سورة الأعراف، يدعو إلى اتّباع النور الذي نزل على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾.

□ للمؤمنين نورهم الذي ينير لهم سبيلهم يوم القيامة، وقد حدثنا الله عن هذا النور في هذه الآية وفي الآية الثامنة من سورة التحريم، ﴿الَّذِينَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَكَ نُورًا﴾.

التعاليم:

- ١ - يرى بعض الناس يوم القيامة بعضهم الآخر، ويعرفون أحوالهم، ﴿يَوْمَ تَرَىٰ﴾.
- ٢ - الرجل والمرأة في تلقي الثواب الإلهي والتكامل المعنوي سيان، ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٣ - يتجسد الإيمان يوم القيامة، على شكل النور ويقود المؤمنين إلى الجنة، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.
- ٤ - البشارة بالنعمة، هي نعمة بحد ذاتها وهي نعمة معنوية ونفسية، ﴿بَشْرَتِكُمْ أَلِيمٌ﴾.
- ٥ - الفلاح والصلاح الحقيقي يتجلى بأعلى درجاته يوم القيامة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِم مِّن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ «انظرونا» من مادة «نظر»، وهذه المادة عندما تستعمل من دون كلمة «إلى» تدل على الانتظار والإمهال، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^(١)، وإذا استعملت مع «إلى» فهي تدل على النظر والمشاهدة، كما في قوله تعالى: ﴿يُنظَرُونَ إِلَيْكَ تَنْظَرُ الْمَغْشِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٢.

(٢) سورة محمّد: الآية ٢٠.

□ «الاقْتَبَاسُ» هو أخذ شيء من النار المشتعلة. و«السور» هو الجدار الذي يحيط بقطعة أرضٍ أو منزلٍ أو مدينةٍ أو قرية.

□ يطلب المجرمون المساعدة يوم القيامة من أربع فئات، من الناس:

أ - من قادتهم في الدنيا، ﴿فَقَالَ السَّمْعَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾^(١).

ب - من المؤمنين كما في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾.

ج - من ملائكة النار، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

د - ومن الشيطان بتحميله مسؤولية ضلالهم وانحرافهم، فيقول لهم بعد لومهم إياه: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣).

التعاليم:

١ - مرض النفاق لا يميّز بين الرجل والمرأة، وهو يصيب كليهما، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾.

٢ - أولئك الذي حرموا أنفسهم في الدنيا من نعمة الخروج من الظلمات إلى النور، يحاولون يوم القيامة من دون جدوى استجداء النور من هنا وهناك، ومن هذا وذاك، ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾.

٣ - يتعرّض المنافقون يوم القيامة للإهانة باللفظ وبالعمل، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ و﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا﴾.

٤ - المنافق يتظاهر في الدنيا بأنه مع المؤمنين وهو يبطن الكفر، وفي الآخرة يحاول أن يكون بين المؤمنين ليستفيد منهم، فيلحقه الله بجماعته التي كان

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢١.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٩.

معها في الدنيا، ويعذبه بما ينسجم مع نفاقه بجدار يختلف باطنه عن ظاهره، ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٤)

إشارات:

□ قوله تعالى ﴿فَتَنَّتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي جعلتم أنفسكم ضحية فتنة النفاق. «التربص» هو الانتظار، وتستعمل كثيراً في انتظار الشر. «الأماني» جمع أمنية، و«الغرور» بمعنى الخداع وهو لقب من ألقاب الشيطان.

□ المؤمن لا يريد الشر لأحد من الناس، ﴿وَلَا يَجْعَلُ فِي قَلْبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١)، وأما المنافق فإنه ينتظر الحوادث التي تصيب الآخرين ليستفيد من مصائبهم، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

□ المؤمن من أهل اليقين، وأما المنافق فيعيش حالة التردد والشك بشكل دائم، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾. والمؤمن واقعي في نظره إلى الأمور، وأما المنافق فإنه يعيش في الأوهام والخيال، ﴿وَعَرَّزْتُمْ الْأَمَانِيُّ﴾. المؤمن تصيبه أحياناً وساوس الشيطان، ولكنه سرعان ما يلتفت إلى الله ويستعيذ به منه، ﴿إِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدٍ لَوْ أَنَّهُ رَاىٰهُ لَخَسِدًا يَدًا وَسَاجِدًا﴾، وأما المنافق فإنه يخدع وتنظلي عليه حيل الشيطان: ﴿وَعَرَّزْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

□ في آيات أخرى يخبرنا الله عن أن المنافقين يرون أن دين المؤمنين هو سبب انخداعهم، ﴿عَرَّ هُوَلَاءَ دِيهَهُمْ﴾^(٣)، أو يرون أن عود النبي ﷺ خداع وغرور، ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٤)، وهذه الآية هي لون من الجواب عن تلك الأوهام وتوضيح لحقيقة الحال.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(١) سورة الحشر: الآية ١٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

التعاليم:

- ١ - يحصل التواصل يوم القيامة بين المؤمنين والمنافقين، وتدور بعض الحوارات بينهم، ﴿يُنَادُوهُمْ﴾ (المضارع يدلّ على التكرار والاستمرار).
- ٢ - حديث المنافقين يكون دائماً من وراء جدار، ولا شكّ في أنه مقرون بالصراخ والعيول، ﴿يُنَادُوهُمْ﴾.
- ٣ - لا ينسى الإنسان يوم القيامة ماذا كان يحصل له في الدنيا، ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾.
- ٤ - التواصل المادّي ليس له أيّ أهميّة فالمهمّ هو التواصل الروحيّ والفكريّ، فلا يكفي أن يكون الإنسان مع جماعة بجسده، وتكون أحلامه وعواطفه في موضع آخر، ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ﴾.
- ٥ - أشدّ الأمور خطأً أن يخدع الإنسان نفسه، ويربها الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.
- ٦ - قد تتحوّل الأحلام العراض والأمانى الكبيرة في الدنيا إلى مصدر خطر على الإنسان، وتودي به في أودية الشكّ والتردد في يوم القيامة، ﴿وَأَزَلَّتْكُمْ وَعَزَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾.
- ٧ - في كثير من الحالات يخدع الشيطان الإنسان بتأمله بسعة رحمة الله، وبمغفرته، فيغترّ الإنسان الضعيف مراهناً على الرحمة الإلهية التي قد لا تكون بالشكل الذي يريد المغترّ، ﴿وَعَزَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَنَكُمُ النَّارُ هِيَ

مَوْلَانَكُمْ وَيُنَسِّ الْمَصِيدُ ﴿١٥﴾

إشارات:

□ «المولى» في هذه الآية هو الناصر والمعين، وفي هذا التعبير نوع من الطعن

على المنافقين. وكأنه يقول لهم: الناصر الوحيد لكم في هذا اليوم هو مصدر ألمكم وما تسعون للخلاص منه^(١).

□ بين الدنيا والآخرة فوارق عدّة، منها أنّ الدنيا تحتمل الفداء والفدية، وأمّا في الآخرة فلا مجال للفدية. فالمجرم يوم القيامة مستعدّ للتضحية بكلّ شيء حتى بأقاربه للخلاص من العذاب، ولكن هيهات له ذلك، ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِدِ بَيْنِهِ وَصَنْجَبْتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - لا تنفع الوسائل المادّية والدينية يوم القيامة، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾.
- ٢ - يتجاوز المنافقون والكفّار يوم القيامة، ويتشاركون المصير نفسه، ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ... وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٣ - المؤمن نصيبه يوم القيامة البشارة بالنعيم والثواب، ﴿بُشْرَتِكُمْ الْيَوْمَ﴾، وأمّا الكافر والمنافق، فلا يلقى إلاّ التئيس والإحباط، ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ... مَاؤُنْكُمْ النَّارُ﴾.
- ٤ - مولى المؤمنين وناصرهم في الدنيا والآخرة هو الله، ﴿اللَّهُ مَوْلَانِكُمْ نَعَمَ الْتَوَكَّلْ وَنَعَمَ النَّصِيرُ﴾^(٣)، ومولى الكافرين والمنافقين النار، ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾^(١٦)

إشارات:

□ يَأْنِ من «آن»، بمعنى مطلق الزمان.

(١) انظر: تفسير الميزان، عند تفسير هذه الآية.

(٢) سورة الماعراج: الآيات ١١ - ١٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٠.

□ بَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ سَبَبَ الْخُشُوعِ هُوَ ذِكْرُ اللهِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، كما بيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ سَبَبَ قَسْوَةِ الْقَلْبِ هُوَ طَوْلُ الْبَعْدِ عَنِ كِتَابِ اللهِ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وقد ورد في بعض الروايات أنَّ طَوْلَ فِتْرَةِ غَيْبَةِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ) تُوَدِّي إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَبَعْدِ النَّاسِ عَنِ الدِّينِ^(١).

□ يَدْعُو اللهُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ الْبَحْثِ، إِلَى عَدَمِ التَّشْبِهِ بِبَعْضِ الْفِئَاتِ مِنَ النَّاسِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوا آخَرِينَ قُدُوةً وَأَسْوَةً، وَنَعْرُضُ فِي مَا يَأْتِي بَعْضُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَنَشِيرُ إِلَى دَلَالَتِهَا:

أ - الدَّعْوَةُ إِلَى:

- أَنْ يَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢).

- وَإِلَى الْإِلْتِحَاقِ بِالصَّالِحِينَ، ﴿وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٣)، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

- وَإِلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْأَبْرَارِ، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٥).

- وَإِلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَ الصَّابِرِينَ، ﴿وَكَايِنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٦).

- وَإِلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ وَمَنْ أَتْبَاعَهُ الْحَقِيقِيِّينَ، ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٧)، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٨).

- وَإِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ عَلَيْهِمْ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٩).

- وَإِلَى أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالْعِبُودِيَّةِ، ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٠).

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) تفسير نور الثقلين. | (٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦. |
| (٢) سورة التوبة: الآية ١١٩. | (٧) سورة الأحزاب: الآية ٢١. |
| (٣) سورة يوسف: الآية ١٠١. | (٨) سورة الممتحنة: الآية ٤. |
| (٤) سورة المنافقون: الآية ١٠. | (٩) سورة الأعراف: الآية ١٤٤. |
| (٥) سورة آل عمران: الآية ١٩٣. | (١٠) سورة الحجر: الآية ٩٨. |

- وإلى أن يكونوا عاملين بأوامر الله وتعاليمه، ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾^(١).
- وإلى أن يكونوا من المسلمین لله تعالى في الأمور كلها، ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).
- وإلى أن يكونوا من أهل الإيمان، ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).
- وإلى أن يكونوا قائمين بالقسط عاملين بالعدل، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^(٤).
- وإلى أن يكونوا قائمين بأمر الله، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾^(٥).
- وإلى أن يكونوا أنصاراً لدين الله، ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾^(٦).
- ب- هذا جانب الإيجاب، وأما جانب السلب، فهو يدعو المؤمنين إلى أن لا يقتدوا أو لا يتصفوا:
- بصفات المنافقين، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٧).
- ولا يكونوا مرائنين، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ﴾^(٨).
- ولا يكونوا ممن ينقضون العهود والمواثيق، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاةً﴾^(٩).
- وينهاهم عن إيذاء النبي وإزعاجه، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَى﴾^(١٠).
- ويحذّره من نسيان الله، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾^(١١).
- ويدعوهم إلى عدم اليأس وترك القنوط، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَنِيطِينَ﴾^(١٢)، ولا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ^(١٣).
- وأن لا يكونوا كافرين غير شاكرين، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١٤).

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة آل عمران: الآية ٧٩. | (٨) سورة الأنفال: الآية ٤٧. |
| (٢) سورة النمل: الآية ٩١. | (٩) سورة النحل: الآية ٩٢. |
| (٣) سورة يونس: الآية ١٠٤. | (١٠) سورة الأحزاب: الآية ٦٩. |
| (٤) سورة النساء: الآية ١٣٥. | (١١) سورة الحشر: الآية ١٩. |
| (٥) سورة المائدة: الآية ٨. | (١٢) سورة الحجر: الآية ٥٥. |
| (٦) سورة الصف: الآية ١٤. | (١٣) سورة الزمر: الآية ٥٣. |
| (٧) سورة الأنفال: الآية ٢١. | (١٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٦. |

- وأن لا يكونوا من أعوان الظالمين والمجرمين، ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا
لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(١).
- ولا يكونوا من أهل الشك والتردد، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾^(٢).
- ولا يكونوا من المعادين للحق والحقيقة، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ خَصِيمًا﴾^(٣).
- ولا يكونوا من أهل الغفلة والجهل، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَافِلِينَ﴾^(٤)، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٥).
- ولا يكونوا ممن يكذب بآيات الله ودلائل وجوده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ
كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٦).
- ولا يكونوا أعواناً لأهل الكفر، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ﴾^(٧).
- ولا يكونوا من الذين يبخسون ويخسرون الكيل والميزان، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُخْسِرِينَ﴾^(٨).
- وأن لا يسمحوا للفرقة والاختلاف بأن يشقا صفوفهم، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾^(٩).

التعاليم:

- ١ - الإيمان غير المقرون بخشوع القلب يلام صاحبه عليه، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - على الداعية والمرابي أن يستفيد من الإيمان للدعوة إلى الخشوع، ﴿أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٣ - أحد أهداف الوحي الإلهي هو تحقيق الخشوع في قلوب الناس، ﴿تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ... وَمَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

(١) سورة القصص: الآية ١٧.	(٦) سورة يونس: الآية ٩٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٠.	(٧) سورة القصص: الآية ٨٦.
(٣) سورة النساء: الآية ١٠٥.	(٨) سورة الشعراء: الآية ١٨١.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.	(٩) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٣٥.	

- ٤ - ذكر الله وتلاوة آياته، من الأمور المحققة للخشوع، ﴿تَخَشَعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.
- ٥ - ذكر ألطاف الله، وعفوه، وغضبه، وسننه، من وسائل تحقيق الخشوع، ﴿أَنْ تَخَشَعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.
- ٦ - علينا أن نعتبر من تاريخ الأمم السابقة، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ﴾.
- ٧ - دوام الغفلة يوجب قسوة القلب، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٨ - سنن الله سبحانه وتعالى، تجري على جميع الأمم على حد سواء، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ... مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٩ - لا ينبغي أن يسيء الإنسان الاستفادة من الإمهال، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ١٠ - قسوة القلب، من أسباب الفسق، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبُرَتْ مِنْهُمْ نَسِئَاتُ﴾.
- ١١ - أدوات الهداية وحدها لا تكفي، ولا بد من توفر الاستعداد الروحي، ﴿أَوْتُوا الْكِتَابَ... فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- أشار الله سبحانه في الآية السابقة إلى خشوع القلوب بذكر الله، وفي هذه الآية يحدثنا جلّ وعلا عن إحياء الأرض بعد موتها.
- ورد في بعض الروايات تأويل حياة الأرض بانتشار العدل فيها بعد موتها بالظلم، ومن ذلك، عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قال: ليس يحييها بالقطر؛ ولكن يبعث الله رجلاً فيحيون العدل، فتحيي الأرض لإحياء العدل، ولإقامة الحدّ أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً^(١). ومنها ما عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يحييها الله تعالى بالقائم عليه السلام بعد موتها - بموتها بكفر أهلها - والكافر ميت»^(٢).

(١) الكليني، الكافي، ج٧، ص١٧٤.

(٢) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص٦٦٨.

□ يبحث الإنسان المعاصر عن وجود الحياة على الكواكب السماوية البعيدة؛ ولكنه حتى الآن لم يعثر على شيء من ذلك. وأما الأرض فإنها تضحّ بالحياة سواء في ذلك اليابسة أو أعماق البحار والمحيطات، بل وفي أعالي السماء داخل الغلاف الجويّ، وأنواع الحياة وأشكالها متعدّدة من الكائنات ذات الخليّة الواحدة البسيطة، إلى الإنسان الذي ربّما كان أكثر الكائنات الحيّة تعقيداً.

وتشير هذه الآية إلى ظاهرة الحياة بوصفها علامة من العلامات الدالة على قدرة الله تعالى وعظمته. وهذه النعمة أي نعمة الحياة، مرهونةٌ بأمور عدّة تكشف كلّها عن عظمة المنعم، ومن هذه الأمور دوران الأرض حول الشمس، والمسافة المضبوطة بين الأرض والشمس، ووجود البحار والمحيطات، ونزول المطر من السماء.

التعاليم:

- ١ - تتجلّى الحياة المعنوية في خشوع القلب، والحياة المادية تظهر في الربيع بعد الشتاء والخريف، ﴿تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ... يَجِي الْأَرْضُ﴾.
- ٢ - على المرّبي أن يستفيد من الظواهر الطبيعية لإيصال بعض المفاهيم، ﴿بَيِّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾.
- ٣ - يحتاج فهم المسائل الطبيعية إلى الدقّة والعمق الفكريّ، ﴿أَعْلَمُوا... تَقُولُونَ﴾.
- ٤ - التكامل المعنويّ يحتاج إلى قلبٍ رقيقٍ، وعقلٍ دقيقٍ، ﴿تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ... تَقُولُونَ﴾.
- ٥ - الظواهر الطبيعية، مدرسة ووسائل إيضاح لتكامل الإنسان ورشده، ﴿يَجِي الْأَرْضُ... لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ

كَبِيرٌ ﴿١٨﴾

إشارات:

□ تحدّث الله في الآية ١٦ عن القلب، وأشار في الآية ١٧ إلى العقل، وفي هذه

الآية يحدّثنا سبحانه وتعالى، عن السلوك. وعليه فإنّ المنهج الأمثل للتربية والتعليم هو منهج التدرّج والخطوات المتلاحقة. في الآية ١٦ اعتمدت صيغة السؤال ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، ثمّ في الخطوة اللاحقة ورد الحديث عن خشوع القلوب، وبعد ذلك عن العلم والتعلُّل، وفي هذه الآية أخذ الكلام طابع اليقين والجزم، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾؛ بلى، يتوقّف العمل على مساعدة المحرومين والمساكين على شرطين أساسيين، هما: أن يلين القلب ويخشع لذكر الله، وأن يفهم المتصدّق ويعقل أنّ فعله هذا ليس خسارة على المدى البعيد، بحيث يعلم أنه كما تخضّر الأرض وتزهر بعد قصف الرعود وتساقط المطر، ﴿يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كذلك نقص المال اليوم يعوّض أضعافاً مضاعفةً في اليوم الآخر، ﴿يُضَاعَفْ... أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - يتوقّف تلقّي الفيض الإلهي على الصدقة والبذل، كما يتوقّف على الإقراض واستعادة أصل المال من دون زيادة، وهو ما يسمّى بالقرض الحسن، ﴿الْمُصَدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾.
- ٢ - إقراض المحتاجين بمنزلة إقراض الله تعالى، فبدل أن يقول سبحانه وتعالى: «أقرضوا الناس»، قال: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾.
- ٣ - الرجل والمرأة في مرتبة واحدة في مجال المساهمة بحلّ المشاكل الاقتصادية، وفي مجال التكامل المعنوي، ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾.
- ٤ - المهمّة هو حلّ مشكلة الفقر ورفع الحاجات الاقتصادية للمحتاجين، سواء كان ذلك عن طريق الصدقة أو عن طريق الإقراض، ﴿الْمُصَدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا...﴾.
- ٥ - الإنفاق والإقراض، في ظاهره نقص في المال؛ ولكنّه في واقعه وحقيقته تنمية وزيادة له، ﴿يُضَاعَفْ﴾.
- ٦ - المقصد الإلهي من إقرار الثواب على الأعمال، هو تشجيع الناس على فعل الخير، ﴿يُضَاعَفْ... أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

٧ - الصدقة والإقراض، من علامات الكرم، والثواب ومضاعفة الأجر من باب مقابلة الكرم بمثله، ﴿الْمُصَدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا... وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ «الصادق» هو من يتصف بالصدق في القول والعمل؛ بحيث يكون الصدق جزءاً من طبيعته التي لا يخرج عنها إلى غيرها من الحالات. وقد أطلق هذا الوصف على المجموعة من الأشخاص في القرآن الكريم، منهم: إبراهيم، وإدريس، ويوسف، ومريم عليها السلام؛ ولكن هذه الآية تفتح باب الاتصاف بهذه الصفة، في وجه المؤمنين جميعاً.

«الشهداء» من الشهادة، وتنطبق هذه الصفة على شهداء الحرب في معركة الحق والباطل.

التعاليم:

١ - الإيمان بالله وأنبيائه جميعاً من المؤشرات الدالة على الصدق عند الإنسان، ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ... هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

٢ - نور الإيمان بالأنبياء في الدنيا، سوف يكون نوراً في الآخرة للمؤمنين، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

٣ - ينبغي الجمع بين الترغيب والترهيب، الترغيب والوعد بالثواب للمؤمنين، والترهيب والوعيد بالعقاب لغيرهم، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

٤ - المؤمنون لهم أجرهم ونورهم، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ والكافرون لهم العقاب وحده، ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ آجَبٍ الْكُفَّارَ بِنَائِهِمْ يَمْجِجُ فَتَرَاهُ مُمْصِفًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- «الغيث» من الغياث والغوث، وهو المطر المفيد خاصة، وكلمة مطر تدل على كل ما ينزل من السماء من ماء على الأرض، مفيداً كان أم غير مفيد.
- «الكفار» في هذه الآية هم المزارعون؛ وأصل الكفر التغطية، فالمزارع يطلق عليه كافر لأنه يغطي الحب بالتراب، وغير المؤمن يسمّى بهذا الاسم لأنه يغطي الحق ويحاول طمس نوره.
- «يهيج» من الهيجان، وله معنيان: الجفاف واليبوسة، والغليان والفروران. و«الحطام» من الحطم وهو الكسر ويطلق على العشب الشديد الجفاف الذي يكسر لشدة جفافه، فيكون كالتبن.
- ورد وصف الدنيا بأنها لعب ولهو، مع قصرها وحصرها في ذلك، أربع مرّات في القرآن الكريم، هي:
- ١ - ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾^(١).
 - ٢ - ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾^(٢).
 - ٣ - ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾^(٣).
 - ٤ - ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾^(٤).

□ ربّما يمكن الخروج بتصور قرآني عن الحياة الدنيا، من القرآن حاصله أن الدنيا عندما تكون هدفاً وغاية، تكون سبباً للغرور والغفلة. وعندما يتم التعامل معها بوصفها مزرعةً للآخرة، ومقدمةً ووسيلةً يكون تقويمها إيجابياً، وتكون

(٣) سورة محمد: الآية ٣٦.

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٢.

(٤) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

ممدوحةً. وبناءً عليه، فإنَّ الوعد والوعيد، على الاهتمام بالدنيا، مرتبط بطريقة التعامل معها، فمن يتعامل معها بالطريقة الأولى يتوَعَّده الله بالعذاب، ومن يستخدمها وسيلة للوصول إلى رضوان الله، وآلَةً لطاعته، يصل منها إلى ما يريد، وينال ثواب الله وحسن مآب.

□ تشير هذه الآية إلى مراحل الحياة التي يمرُّ بها الإنسان (الطفولة، والمراهقة، والشباب، والكهولة)، ولكنها تشير إليها بالصفة التي تميّزها عن غيرها من المراحل، فالفترة الأولى (الطفولة) هي فترة اللعب، والفترة الثانية (المراهقة) هي فترة اللهو، والفترة الثالثة (الشباب) هي فترة الاهتمام بالمظاهر والزينة، والفترة الأخيرة (الكهولة) هي فترة التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد.

□ حدّثنا الله سبحانه في الآية السابقة عن الصدقة والإقراض، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن موانع القيام بهذا العمل.

التعاليم:

- ١ - تحتاج معرفة الدنيا على حقيقتها إلى تعمق ودقّة نظر، ﴿اعْلَمُوا﴾.
- ٢ - يصحّ القرآن للإنسان رؤيته إلى الدنيا، وبيصره فيها، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.
- ٣ - جمال الدنيا وحسنها سريع الزوال، ﴿وَزِينَةٌ... فَزَيْنَةٌ مُّصَفَّرَةٌ﴾.
- ٤ - الدنيا ليست ربيعاً دائماً، بل تتحوّل من ربيع إلى خريف، وكلّما أزهرت واخضرت جنباتها، أتاه الخريف وجعلها صفراء وجردّها من لونها الأخضر، ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَآئِهِ ثُمَّ يَسِجُ فَرَّغَهُ مُّصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَّلًا﴾.
- ٥ - الدنيا لعبٌ ولهوٌ وتفاخر، ولكنها إذا لم توضع على المسير الصحيح، سوف تودي بالإنسان في جهنم وعذاب الآخرة، ﴿لَوْبٌ وَهُوَ... أَعْجَبَ الْكُفَّارَ... وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.
- ٦ - زينة الدنيا إذا تحوّلت إلى وسيلة للتفاخر والاعتداد بها، أودت بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه، ﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ... وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٧ - كثرة الأبناء والأحفاد، وزيادة العديد قد يجوز للإنسان أن يفرح بها ويفتخر؛ ولكن عندما لا تتحوّل إلى زيادة لعدد أهل جهنّم جرّاء التربية الفاسدة، ﴿وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ... وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٨ - إنّ الدنيا تخدع بعض أهلها وتكون سبباً لتورّطهم في العذاب، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وفي الوقت عينه للمؤمن وسيلة للتكامل المعنوي وتحصيل المغفرة ورضوان الله، ﴿إِنَّمَا لِلصَّيِّئَةِ الدُّنْيَا... وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

٩ - لا ينال الإنسان رضوان الله ما لم يصلح أسباب الخلل في كيانه وسلوكه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

١٠ - العذاب الشديد هو نتيجة وردّ فعل على العمل الذي يقوم به الإنسان، وأما المغفرة واللفظ الإلهي فهو من جانب الله سبحانه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ (تنسب هذه الآية المغفرة والرضوان إلى الله تعالى).

١١ - على الإنسان أن يبقى بين الخوف والرجاء، ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

في التربية والتعليم مجموعة من الأصول والمبادئ لا بدّ من مراعاتها، وهي: البيان والتمثيل والاستنتاج، فقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا﴾ للبيان، وقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ للتمثيل، وقوله: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ للاستنتاج.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة حدّثنا الله سبحانه عن الأعمال في الدنيا وآثارها التي هي إمّا عذاب شديد، وإما مغفرة ورضوان من الله. وفي هذه الآية يؤكّد سبحانه على المسابقة والمسارة إلى نيل المغفرة والفضل والرحمة الإلهية.

المسابقة المعنوية في القرآن

- يكشف لنا التأمل في الآية الكريمة عن شروط السباق المعنوي وخصائصه في القرآن الكريم، ومن أبرز ما يمكن الإشارة إليه:
- السباق مفتوح لكل من يرغب في المشاركة، ﴿سَابِقُوا﴾.
 - مورد السباق هو الأمور المعنوية، ﴿مَغْفِرَةٌ﴾.
 - صاحب الدعوة إلى السباق هو الله سبحانه، ﴿سَابِقُوا﴾.
 - الجوائز معدة سلفاً، ﴿أَعَدَّتْ﴾.
 - ليس لهذا السباق مكان أو زمان محدد، ﴿سَابِقُوا﴾.
 - نوع الجائزة وخصائصها مبيّنة ومعلومة، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾.
 - تستند الجائزة إلى فضل الله تعالى، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.
 - لا حدود للجوائز ولا قيود لها، ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

التعاليم:

- ١ - عندما يرفض أمر قبيح لا بد من استبداله وملء محله بأمر مطلوب ومرغوب فيه، ﴿مَتَّعَ الْفُرُورِ... سَابِقُوا إِلَيَّ مَغْفِرَةً...﴾ فقد دعانا الله سبحانه إلى استبدال التفاخر بالأموال والأولاد إلى المسابقة إلى نيل الفضل والرحمة الإلهية.
- ٢ - ما يزيد في حسن الأفعال الحسنة، المسارعة إليها والمسابقة فيها، ﴿سَابِقُوا...﴾.
- ٣ - العفو والمغفرة من شؤون الربوبية، ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٤ - يغفر الله للعباد أولاً، ثم يدخلهم إلى جنته، ﴿مَغْفِرَةٌ... وَحَنَّتْ...﴾.
- ٥ - رفع مستوى المعرفة والخبرة عند الإنسان يساعده على حسن الاختيار ويسهله عليه، ﴿فَتَرَبُّهُ مُصْفَرًّا... ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ...﴾.
- ٦ - الإعراض عن الدنيا الضيقة ومتاعها القليل، أثره جنة عرضها السماوات والأرض، ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾.

٧ - الإيمان بالأنبياء جميعاً من لوازم الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.
 ٨ - الجنة فضل من الله يخص به المؤمنين من عباده، وليست استحقاقاً، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.

٩ - لا ينبغي أن نتولّى نحن الحكم على الناس، بالدخول إلى الجنة أو النار، فإله سبحانه هو وحده من يحقّ له القضاء والحكم، وهو أعلم ببواطن الأشخاص وبما يستحقّون، فربّ شخص نتوقع له الجنة يستحقّ النار عند الله، والعكس صحيح أيضاً، ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

□ «نبرأها» من البرء بمعنى الإيجاد والخلق، ومنه «برأ النسمة»، تفيد هذه الآية أن الله سبحانه هو الذي خلق السماء والأرض، وهو الذي بإرادته ومشئته يحدث ما يحدث فيها من مصائب وزلازل وما يترتب عليها من آثار وأضرار تصيب الإنسان والطبيعة.

□ ورد في كتب التاريخ أن يزيد استشهد بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، على مسمع أسرى أهل البيت بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ...﴾^(١)، فأجابه الإمام السجّاد عليه السلام، بأنّ هذه الآية لم تنزل في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تلا الآية التي هي محلّ البحث.

وقد ورد في الحديث: «البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»^(٢).

التعاليم:

١ - الحوادث الطبيعية كالسيل والزلازل والبراكين التي تؤدّي إلى خراب المزارع والبساتين والمنازل، ﴿مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، وتؤدّي كذلك إلى أضرار وخسائر

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٢٣٥.

بشرية، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، كلها تجري وفق قوانين محدّدة سلفاً لا محل فيها للفوضى أو الخروج عن دائرة التنظيم الإلهي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾.

٢ - عالم الوجود كله خاضع لقواعد وقوانين دقيقة، مقرّرة قبل وقوعها، ﴿مَّا أَصَابَ... إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾.

٣ - لا توجد حادثة تطرأ في عالم الإمكان تفاجئ الله، ومن دون أن يكون على علم مسبق بها، ﴿فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾.

٤ - لا ينبغي أن يعجب الإنسان من إحاطة العلم الإلهي بكل ما يحدث في عالم الطبيعة من أحداث، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- «مختال» من الاختيال وهو التكبر المبني على توهم العظمة والكبر.
- هذه الآية بمثابة التعليل والتبرير للآية السابقة، والمعنى: «أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل وقوعها وتحققها؛ لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها؛ لأنّ الإنسان إذا أيقن أنّ الذي أصابه مقدّر كائن لا محالة، لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أوتيه من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته، ولا فرحه إذا أوتيه»^(١).
- المصائب والنعم أشبه بدرجات يستخدمها الإنسان للصعود إلى الأعلى، فلا ينبغي للإنسان أن يلتفت إلى لونها، بل عليه أن يستخدمها للوصول بها إلى مقصده.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ١٦٧.

□ يتولّى الموظف في المصرف في بعض الأحيان تقديم المال إلى الناس، وأحياناً أخرى يتولّى أخذه منهم، وبالتالي هو لا يحزن عندما يعطي ولا يفرح عندما يأخذ. والله سبحانه يريد أن يربّي الإنسان على مثل هذه الروحية كيلا تؤثر فيه مرارة الأيام والأحداث ولا حلاوتها، وقد وصل بعض عباد الله الصالحين إلى مثل هذه الحالة، فهذه زينب عليها السلام، تقول بعد كلّ ما أصابها، عندما سئلت عن فعل الله فيها: «ما رأيت إلا جميلاً»^(١). وهذا الإمام الحسين عليه السلام قال في اللحظات الأخيرة من عمره الشريف: «رضاً بقضائك، صبراً على بلائك». والإمام عليّ عليه السلام عبّر عن شوقه إلى لقاء الله بقوله: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»^(٢).

□ الاعتقاد بأنّ الأحداث والوقائع تتحقّق بإرادة الله ووفق نظام محدّد مسبقاً، يؤدي إلى أن يتخلّص الإنسان من الحسد، والبخل، والعداوة، والغضب؛ وذلك لأنّ الأمور مقرّرة ولا بدّ من أن تجري وفق التقدير الإلهي. ولأزم الاعتقاد بأنّ النعمة مسؤوليّة يتبعها حساب، هو عدم فرح الإنسان بالنعمة. كما أنّ لازم الاعتقاد بالتعويض الإلهي المضاعف عن المصائب، هو الرضا بالقضاء والركون إلى اختيار الله وتقديره.

□ عن الإمام عليّ عليه السلام: «الزهد كلّهُ بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا... ءَاتِكُمْ﴾، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»^(٣).

التعاليم:

١ - الأحداث والوقائع التي تحصل، تجري لتحقيق أهداف وغايات، ﴿مَا أَمَّابَ مِنْ مُصِيبَةٍ... لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

(١) اللهوف في قتل الطوف، ص ١٦٠.

(٢) نهج البلاغة، خطبة الجهاد، الخطبة رقم ٥.

(٣) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة رقم ٤٣٩.

- ٢ - النعم من الله سبحانه، ﴿ءَاتَيْنَاكُمْ﴾؛ ولكن سلب النعم لا ينسب إليه سبحانه، ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾.
- ٣ - العلم بآثار الحوادث وأهدافها وغاياتها، يولد الطمأنينة والاستقرار في النفس الإنسانية، ﴿فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا... لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾.
- ٤ - لقد أخبر الله عن تقدير الوقائع والأحداث كي لا يصاب الإنسان بالأسى على المصائب، ولا يفتّر بالنعم، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا... وَلَا تَفْرَحُوا﴾.
- ٥ - الحزن والفرح الطبيعيين ليسا سيئين، فالمذموم والمستنكر هو الحزن المفرط على ما فات والفرح والاعتزاز بالآتي من نعم، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا... وَلَا تَفْرَحُوا﴾.
- ٦ - الشخص الغافل عن المقدرات الإلهية يحسب أنّ النعم أعطيت له لاستحقاق أو لميزة تتوفر فيه دون غيره، فيفاخر بما أصاب من خير، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.
- ٧ - الأوهام النفسية الباطنة، مقدّمة للافتخار والغرور الظاهرين، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.
- ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ (٢٤)

إشارات:

- الرغبة بالفخر والتفاخر على الآخرين من أسباب البخل؛ وذلك لأنّ نعم الله إذا كانت في أيدي جميع الناس، لا يبقى للبخل ما يراه مميّزاً له عن سائر الناس.
- عن الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة في الخطبة ١٨٣، قوله: «فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلقه رهائنها، أسهروا عيونكم وأضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم وخذوا أجسادكم فجدودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: ﴿إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَضْرَكْكُمْ وَيُنِيتْ أَدْمَأَكْرُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَوِّفُهُ لَهُ وَلَهُ أَمِيرٌ كَرِيمٌ﴾، فلم يستنصركم من ذلّ ولم يستقرضكم من قلّ، استنصركم وله جنود السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن

السموات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره».

ملاحح البخل في الروايات:

- عن الإمام علي عليه السلام أنه سأل ابنه الإمام الحسن عليه السلام: ما الشح؟ فقال: «أن ترى ما في يدك شرفاً وما أنفقت تلفاً»^(١).
- «البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود»^(٢).
- عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه كان يدعو في طوافه فيقول: «اللهم قني شح نفسي»^(٣).
- ليس البخل هو البخل بالمال فحسب، بل: «البخيل من بخل بالسلام»^(٤).
- «البخل بإخراج ما افترضه الله سبحانه من الأموال أقيح البخل»^(٥).
- «البخيل حقاً من ذكرتُ عنده ولم يصلّ عليّ»^(٦).
- «لا تدخلن في مشورتك بخيلاً»^(٧).
- «النظر إلى البخيل يقسي القلب»^(٨).

التعاليم:

- ١ - فعل البخل والدعوة إليه، من علامات المتكبرين وأهل الفخر، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٥.
 (٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة رقم: ٦٥١٢.
 (٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٠١.
 (٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.
 (٥) غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة رقم: ٦٥٨١.
 (٦) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٦.
 (٧) نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٥٣.
 (٨) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٥٣.

- ٢ - البخل ممن لا يحبهم الله، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ﴾.
- ٣ - المعصية تتحوّل إلى خطر أو يزداد خطرها عندما تتحوّل إلى طبع وعادة، ﴿يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ... بِالْبُخْلِ﴾.
- ٤ - البخيل يعلم أنه إذا بذل غيره وظهر منه الكرم، فإنّ اتّصافه هو بالبخل سوف يكون ظاهراً ومكشوفاً؛ ولأجل ذلك فهو يدعو الناس إلى البخل، كي يخفي بخله وشحه، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.
- ٥ - البخل إعراض عن الله وأوامره، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾.
- ٦ - الغنى لا يكفي ليكون الإنسان محبوباً، بل الحبّ بين الناس يحصل بالإحسان إليهم، من خلال الإنفاق أو الإقراض أو الأمر بهما. (فبعض الناس أغنياء ولكنهم لا يحمدون عند الناس، ولذلك وصف الله نفسه بأنه ليس غنياً فقط بل هو حميد أيضاً)، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

إشارات:

- المراد من «البيّنات» في الآية هو المعجزة الواضحة التي تقطع عذر المعتذرين وتتمّ الحجّة عليهم. و«الكتاب» هو الوحي السماوي الذي لا بدّ من أن يكتب ليحفظ.
- «الميزان» هو وسيلة القياس المعروفة، وهو رمز العدالة في المعاملات والقوانين، والشريعة والقوانين السماوية هي المعيار الذي تقاس به الأفعال وليس الذوق الشخصي.
- إنزال الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ شبيه بإنزال الأنعام في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ فَنَاصِيَةَ زُرُوعٍ﴾^(١)؛ وذلك لأنّه بناء على قوله

تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(١)، يكون الله مصدر كل خير وبركة، وهو الذي يعين حدود الموجودات ويخلقها بعد ذلك، وهذا نوع من النزول^(٢).

□ المراد من قوله تعالى ﴿بَصُرُهُ... بِالْقَيْبِ﴾ نصره الله ورسله من دون أن يكون الناصر مرئياً، ومن الواضح أنّ المراد من نصره الله والرسول هو نصره الدين الذي يحملونه.

□ ذكّر الحديد أكثر من مرّة في القرآن الكريم، ففي قصّة ذي القرنين ذكر القرآن أنه طلب الحديد لبناء السّد. وأشير إلى إلاتة الحديد لداود ﷺ في قوله تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾^(٣). وفي هذه الآية أشار الله إلى إنزال الحديد من السماء. وفي آية أخرى يخبرنا الله سبحانه أنّ الحديد وسيلة من وسائل التعذيب في جهنّم، ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - في الإدارة لا بدّ من إعطاء المدير ما يحتاجه من وسائل وأمر مساعدة له في عمله، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ... أَلْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾.
- ٢ - تقوم الإدارة الصحيحة على قاعدة أنّ الإرشاد من المدير، والعمل من الناس، ﴿أَرْسَلْنَا... أَلْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ... لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٣ - العدالة الحقيقيّة لا تتحقّق إلا في ظلّ شريعة الله وبرعاية القائد الإلهي، ﴿رُسُلَنَا... أَلْكِتَابَ... لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٤ - فلسفة النبوّة وعلة وجودها، إقامة العدالة في الأرض، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا... لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٥ - بعد إتمام الله الحجّة، على الناس أن ينهضوها للتنفيذ وتطبيق شريعة الله، ﴿أَرْسَلْنَا... رُسُلَنَا... لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٠.
(٤) سورة الحج: الآية ٢٢.

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.
(٢) الميزان في تفسير القرآن.

- ٦ - العدالة مطلوبة بكلّ وجوهها، فكلمة «بالقسط» وردت مطلقة من دون أي قيد، وتدلّ على عموم الأبعاد والمستويات، ﴿لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٧ - للأنبياء جميعاً هدفاً واحداً، وغايةً مشتركة، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا... لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٨ - على الأمة أن تمهّد الوسائل والمقدمات المطلوبة لتطبيق العدالة وتحكيم شريعة الله، ومن هذه المقدمات وجود الدولة والتشكيلات، ﴿لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٩ - ما يأتي في الدرجة الأولى هو العمل الثقافي والتربوي، وبعد يأتي دور السلطة والتأديب، ﴿أَنْزَلْنَا... الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ... وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾.
- ١٠ - المجتمع السالم يحتاج إلى ثلاث سلطات: السلطة التشريعية، ﴿الْكِتَابَ﴾، والسلطة القضائية، ﴿وَالْمِيزَانَ لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، والسلطة التنفيذية، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.
- ١١ - ينبغي مواجهة معيقات العدالة بشدة وحزم، ﴿لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.
- ١٢ - قبول دعوة الأنبياء، هو في الواقع نصره لله ودينه، ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصُرُّهُ﴾.
- ١٣ - الدفاع عن الدين يكون مقبولاً وممدوحاً، عندما يكون نابعاً من الباطن ومن أعماق النفس، ﴿مَنْ يَصُرُّهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ﴾.
- ١٤ - لا ينبغي أن يظنّ أحداً أنّ الله بحاجة إليه في الوصول إلى ما يريد، ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصُرُّهُ... إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة حدّثنا الله سبحانه عن إرسال الأنبياء بشكلٍ عام. وفي هذه

الآية قدّم لنا نموذجين من الأنبياء الذين أرسلهم، هما رأس السلسلة النبوية اللاحقة لهما.

□ يحدثنا الله سبحانه في هذه الآية عن جعل النبوة في ذرية بعض الأنبياء، كما جعل الإمامة في ذرية النبي ﷺ، وهذا لا يدلّ أبداً على أنّ النبوة والإمامة وراثية، بل معناه أنّ مهمة النبوة تحتاج إلى مواصفات تنتقل بالتربية والوراثة وتزيد من احتمال الطهارة واللياقة في من ينتسب إلى الطاهرين واللائقين؛ ولا تعني بالضرورة أنّ كلّ من انتسب إليهم يكون صالحاً حتماً؛ ولذلك نجد أنّ الله ردّ على النبي ﷺ عندما طلب الإمامة لذريته بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ردّ عليه سبحانه بقوله: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) وهذا الردّ يعني أنّ مجرد الانتساب إلى النبي إبراهيم ﷺ لا يعني بالضرورة نيل عهد الإمامة.

التعاليم:

- ١ - من الآداب المطلوبة في الحديث، تقديم السابقين على غيرهم، ﴿نوحاً وإبراهيم﴾.
- ٢ - لا ينال مقام النبوة بالانتخاب والتأييد، بل هو خاضع لإرادة الله وحسن اختياره، ﴿وجعلنا في ذريته النبوة﴾.
- ٣ - الناس عبر التاريخ، كانوا ينقسمون بين من يقبل دعوة الأنبياء وبين من يرفضها ويردّها، ﴿فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ...﴾.
- ٤ - في مجال العقائد والأخلاق وغيرها من المجالات المشابهة، الكثرة والقلّة ليستا معياراً لتمييز الخطأ من الصواب، والحسن من القبيح، ﴿وكثيرٌ منهم فليقوت﴾.
- ٥ - لا يؤدّي الانتساب إلى الطاهرين، إلى الطهارة والنقاء بالضرورة، بل قد يخرج من ذرية الطاهرين من ليس بطاهرٍ، ﴿وكثيرٌ منهم فليقوت﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

﴿ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ رُسُلَنَا وَفَتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَتَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ «الرهبانية» مشتقة من الرهبة، وهي الخوف والخشية. وتطلق في الاصطلاح الديني واللاهوتي على أتباع نمط خاص من العيش خوفاً من الله تعالى. والشخص المتصف بهذه الصفة يسمى راهباً والجمع رهبان.

□ على الرغم من أن الله سبحانه لم يوجب الرهبانية على أتباع النبي عيسى ﷺ، وهم الذين تطوعوا بهذا العمل لوجه الله تعالى، فإن على الإنسان أن يؤدي ما التزم به على أكمل وجه حتى لو كان هو الذي تبرع به من دون إيجاب من الله.

□ ربّما يكون المراد من الآية إعلان الله سبحانه رضاه عن هؤلاء الذين التزموا بحياة الرهبان، لو أنهم راعوا شروطها وحدودها، كما في حالة أصحاب الكهف الذين اعتزلوا الناس وأووا إلى الكهف من دون أن يكون ذلك واجباً عليهم، إلا أن الله رضي منهم ذلك.

□ «البدعة» من الإبداع أي اختراع الجديد، وهو في الأمور العلمية والصناعة وما شابه ذلك أمر مقبول ومستحسن، وأمّا في الأمور الدينية فإنه غير مقبول؛ لأنّ التشريع حقّ إلهي، لا يسمح للإنسان أن يبتدع في الدين ما ليس منه.

□ يريد الله الكامل من الأعمال؛ ومن هنا، يذمّ سبحانه وتعالى من لا يتقن العمل الذي التزم به، ويقول: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وفي موارد أخرى يدعو المؤمنين إلى تقوى الله حقّ تقاته، وكذلك إلى الجهاد، وفي قوله سبحانه كذلك ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(١)، و﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(٢).

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

الرهبانية في الإسلام:

يرفض الإسلام الرهبانية وترك الدنيا في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَدِّ حُرْمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(١).
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٢).
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٣).

وقد ورد في كتب السيرة والتاريخ أنّ جماعة من المسلمين أقسموا على ترك النساء، وعدم النوم في الليل، والصيام الدائم في النهار، فدعاهم النبي ﷺ إلى المسجد، وقال لهم: «ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ ألا إني أنام الليل وأنكح، وأفطر بالنهار فمن رغب عن سستي فليس مني»^(٤).

اعتزل عثمان بن مظعون الناس وانزوى في بيته إثر وفاة ابنه، فاستدعاه النبي ﷺ وقال له: «لم يكتب علينا رهبانية، إنّما رهبانية أمّتي الجهاد في سبيل الله»^(٥).

وعاد الإمام عليّ عليه السلام العلاء بن زياد، وكان له منزل واسع، ولفت الإمام نظره إلى أنّه أحوج إلى منزل واسع في الجنة منه إلى هذا المنزل في الدنيا، ودعاه للتعويض عن الترف بصلة الرحم وقرى الضيف، لتكون الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، فأخبره علاء عن اعتزال أخيه عاصم الدنيا وتركه إيّاها، فاستدعاه الإمام وقال له: «يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمتك أهلك وولدك، أتري الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك، قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة أكلك، قال: ويحك إني لست كأنت إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبغ بالفقير فقره»^(٦). وعلى أيّ حال يعدّ هذا الأمر من الأحكام التي

(٤) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١١٧.

(٥) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١١٥.

(٦) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١١٨.

(١) سورة التحريم: الآية ١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٧.

تخضع لتحوّلات الزمان والمكان، فلا بدّ من مراعاة أحوال الناس وأوضاعهم، فكما أنّه لا يحسن من الإنسان أن يضحك في الجنّازة، عليه أن يراعي أحوال الناس في المأكل والمشرب، وقد دعينا إلى مثل هذا التكيّف، فإذا ساء الزمان وأهله لا يحسن حسن الظنّ، وهكذا. ومن هنا نقرأ في بعض كتب التاريخ أنّ بعض الصوفية اعترضوا على الإمام الرضا عليه السلام، وقالوا له: الإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار. فقال لهم: إنّ يوسف كان نبياً يلبس أقبية الديداج المزودة بالذهب، ويجلس على متكآت آل فرعون ويحكم، إنّما يراد من الإمام قسطه وعدله: إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرم لبوساً ولا مطعماً ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ...﴾^(١).

وكان يدخل رسول الله على إحدى زوجاته فيقول لها: «ما لي أراك شعشاء مرهء سلتاء»^(٢).

□ وردت كلمة إنجيل في هذه الآية مفردة، وبالتالي الإنجيل الذي نزل على عيسى هو إنجيل واحد، فمن أين أتت هذه الأناجيل المتعدّدة الأربعة المعروفة أو غيرها؟

□ يتميز أتباع النبيّ عيسى عن غيرهم من الناس، بالرأفة والرحمة، ﴿أَتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وأما أتباع النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله فإنّهم أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - واطر الله أنبياءه إلى البشرية منذ فجر التاريخ إلى زمن بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله، وبالتالي مسيرة النبوّة مسيرة مستمرة، ﴿فَقَتِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ... فَقَتِينَا﴾.
- ٢ - علينا أن نحترم الأشخاص المميّزين، وهذا أدب قرآني نستفيد من هذه الآية ومن غيرها، فقد ذكر الله الرسل بعبارة عامّة، ﴿رُسُلَنَا... رُسُلُهُ﴾، ثمّ خصّ

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(١) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

بعض الأنبياء بالذكر احتراماً لهم وتقديراً لشأنهم، ﴿فَقَتِينَا... بِرُسُلِنَا وَقَفِينَا يَعْيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

٣ - ينبغي ذكر الصفات الحسنة التي تتوفر في أتباع الأديان الأخرى، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

٤ - أتباع الأنبياء وطاعتهم، من العوامل المساعدة على صفاء القلب وتحوله إلى منبع للرافة والرحمة، ﴿اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

٥ - علينا أن نرفع موانع المودة بيننا وبين الآخرين، ﴿رَأْفَةً﴾، وأن نظور دوافع المحبة في آن معاً، ﴿وَرَحْمَةً﴾.

٦ - لا يقبل الله أن يدخل في دينه ما ليس منه، لأسباب شخصية وذوقية، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

٧ - البدعة والابتداع، من الآفات التي يمكن أن تصيب الأديان الإلهية وتخربها، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾.

٨ - لا تؤثر النوايا الحسنة في تجويز البدعة، فربّ بدعة تكون بدوافع طيبة، ولكنها تنتهي إلى الخرافات ولزوم ما لا يلزم بل ما يضر ويخرب، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا... ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

٩ - الكفر والفسق قرينان. (جعل الفسق مقابلاً للإيمان في الآية، مع أنه بحسب اللغة ينبغي أن يكون الكفر هو المعنى المقابل)، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَكَبُرَتْ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا

تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾

إشارات:

□ قد يكون المخاطب بهذه الآية هو المسيحيون المذكورون في الآية السابقة، وهم مدعوون في هذه الآية إلى أداء حق ترك الدنيا والرهبانية على الوجه

الأكمل، وذلك بالإيمان بالنبِيِّ ﷺ بعد عيسى ﷺ، وبالتالي ليجمع الله لهم أجر الإيمان بعيسى ﷺ، وثواب الإيمان بالنبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «من آمن بي وصدقني وأتبعني، فقد رعاها حق رعايتها. ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»^(١). ويمكن فهم هذه الآية بشكلٍ مستقلٍّ عن الآية السابقة، فتكون دعوةً للمسلمين إلى تعميق إيمانهم بالله وبرسوله.

□ ربّما يكون المراد من قوله تعالى، ﴿كَفَلَّيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ النور الباطني الذي يشرق على قلب المؤمن، والثاني المغفرة الإلهية المشار إليها في الآية.

التعاليم:

- ١ - التقوى من لوازم الإيمان بالله، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٢ - على المؤمن أن يسعى دائماً في سبيل تعميق إيمانه وتقويته، ﴿ءَامِنُوا... وَءَامِنُوا﴾.
- ٣ - كلٌّ من الإيمان والتقوى جزء وحصة من الرحمة الإلهية، ﴿ءَامِنُوا اتَّقُوا... يُؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.
- ٤ - المؤمن التقوي لا يصل أبداً إلى طريق مسدود، ﴿ءَامِنُوا اتَّقُوا... وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا﴾.
- ٥ - المؤمن ليس معصوماً بالضرورة من الخطايا، ولكنه يدخل ميدان الحياة متسلحاً بالتقوى، ومن هنا فإنَّ الله يغفر له ما يصدر منه من هفوات ومعاصي، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ... وَنَعَفَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٦ - في مجال تلقّي اللطاف الإلهية السنّ والعرق والقبيلة التي ينتسب إليها الإنسان ليست هي المعيار، بل المعيار الأساس هو الإيمان والتقوى، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا... يُؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَذَكَّرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٩﴾

إشارات:

□ ابتدأت هذه السورة بالتسبيح واختتمت بالحديث عن الفضل الإلهي.

□ يعد الله سبحانه في الآية ٥٤ من سورة القصص، أهل الكتاب الذين يؤمنون بمضاعفة الثواب فيقول: ﴿أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾، وفي هذه الآيات يخاطب المسلمين ويعدهم بمضاعفة الثواب والرحمة، ويبرر ذلك في هذه الآية بأنه كي لا يظن أهل الكتاب أنهم استثناء ولهم خصوصية لا تتوقر في المسلمين، فلا يقدرّون على نيل لطف الله والمزيد من فضله.

□ بالنظر إلى عدد من الآيات التي ورد فيها تعبير «فضل عظيم»، يبدو أنّ الفضل العظيم هو: الهداية، والمغفرة، والجنة، والنبوة، واتباع رضوان الله، والتوقر على سلامة الشخص. ولم يرد هذا التعبير في مجال الألفاظ والنعم المادية.

التعاليم:

- ١ - على المؤمن أن يقف في مواجهة الأوهام والتوقعات والانحرافات بصراحة ووضوح، ليحول دون وقوعها، ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾.
- ٢ - الفضل الإلهي مرتبط ومتوقّف على الحكمة الإلهية، وليس تابعا لأوهام الناس كائناً من كانوا، ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - يختار الله سبحانه على ضوء حكمته التي لا غاية لها، بعض الأشخاص الذين يراهم صالحين لتلقي فضله وألطفه، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»



سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

السورة: ٥٨ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ٢٢



ملامح سورة المجادلة

تتألف سورة المجادلة من اثنتين وعشرين آيةً. وهي من السور المدنية. وهي تتميز عن غيرها من سور القرآن بأنّ لفظ الجلالة موجود في كلّ آية من آياتها. وقد سُمّيت بهذا الاسم للحديث في أولها عن المرأة التي أتت إلى النبي ﷺ لتجادله في أمر العلاقة بينها وبين زوجها. ومن المباحث التي تشتمل عليها هذه السورة:

- ١ - الظهار الذي كان شكلاً من أشكال الطلاق في الجاهلية.
- ٢ - النجوى وتقسيمها إلى حسنةٍ وقيحةٍ.
- ٣ - احترام الوافد إلى مجلسٍ منعقدٍ وإفساح المجال له ليأخذ محلاً فيه.
- ٤ - التمييز بين حزب الله وحزب الشيطان.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ الظهار من العادات الجاهلية التي كانت متعارفة في العلاقة بين الزوج والزوجة، وهو شكل من أشكال الطلاق لا يحق للزوج الرجوع بعده إلى زوجته، ولا يحق للزوجة أن تتزوج غير زوجها، وكان يتم هذا الشكل من الطلاق بأن يقول الزوج لزوجته: «أنتِ عليّ كظهر أمي»؛ ومن هنا سمي بهذا الاسم: «الظهار».

وقد حصل مثل الأمر في عهد رسول الله ﷺ؛ فظاهر رجل زوجته، فأتت إلى النبي ﷺ تشتكي ما آل إليه حالها في علاقتها بزوجها، فقال لها النبي ﷺ إنه لم ينزل عليه من الله تشريع خاص في هذه الواقعة، فابتأست المرأة وقالت: «أشكو إلى الله نافقتي وحاجتي وشدة حالي». ولم يطل الأمر ونزلت هذه السورة وجعلت حلاً فيه تخيير الزوج بين الوفاء بقسمه وطلاق المرأة أو الكفارة والرجوع إلى زوجته، والكفارة تتراوح بين عتق عبد أو إطعام ستين مسكيناً، أو صيام شهرين متتابعين. وتولّى رسول الله ﷺ مساعدة الرجل مالياً ليطعم ستين مسكيناً ويكفر بذلك عن ظهاره لتعود إليه زوجته.

□ يذكر الله صفة السمع وينسبها إلى نفسه فيها ثلاث مرّات، فيقول: ﴿سَمِعَ، وَيَسْمَعُ، سَمِيعٌ﴾، والدلالة التي تستفاد من ذلك، هي أنّه يدعو الناس إلى الحديث معه.

التعاليم:

- ١ - على الإنسان أن يلتفت إلى كل كلمة تصدر منه فإله يسمع ما يصدر عنا من قول، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي...﴾.
- ٢ - يسمع الله دعاءنا وأنيننا وشكوانا إليه فعلياً أن لا نياس عند المصاب ما دام لنا رب يسمع ما نطلب ما نشكو منه، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي...﴾.
- ٣ - على الرغم من عظمة موقع النبي ﷺ الديني والديني، وقيادته للمسلمين وكونه حاكماً ونبياً في آن معاً، فإنه لم يكن بينه وبين الناس حجاب يحول دون وصولهم إليه ووضع شكواهم بين يديه، ﴿بِمَجْدَلِكِ﴾.
- ٤ - الحرية متاحة في المجتمع الإسلامي والتعبير عن الرأي مسموح، إلى حد يسمح لامرأة أن تشتكي وتناقش بل وتجادل، ﴿الَّتِي بِمَجْدَلِكِ﴾.
- ٥ - في حالات الشدة والضيق، على الإنسان أن يلجأ إلى الله وأوليائه، ﴿وَنَشْكِيكَ إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٦ - الحوادث، والحاجات، والأزمات، هي الخلفية التي توضع كثير من القوانين لحلها عند حدوثها، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَكُمَا... سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.
- ٧ - من شروط قيادة المجتمع وعناصر الصلاحية لتولي هذه المهمة، أن يكون القائد مستعداً للاستماع إلى شكاوى الناس وحاجاتهم، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَكُمَا... إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾

إشارات:

□ تحدثنا في تفسير الآية السابقة عن الظهار الذي كان طريقة من طرق الطلاق عند أهل الجاهلية. وقد حرم الله هذه الطريقة لقطع العلاقة الزوجية، ولكنه رتب عليها آثارها فتحرم الزوجة على زوجها إلى أن يكفر، وإلا فعليه أن يطلق زوجته ولا يتركها كالمعلقة كما سيأتي في آية لاحقة.

□ «الزور» هو القول الباطل المخالف للحق.

□ من لطف الله سبحانه وتعالى على العباد أنّ كثيراً من أحكامه لا ترجع إلى الوراثة، ففي هذه الآية أعلن الله العفو عن الذين كانوا يظاهرون زوجاتهم قبل هذا التشريع الجديد، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - للأنبياء مهامٌ عدّة منها قطع دابر الخرافات والعادات والسنن الخاطئة التي تكون رائجّة في المجتمعات التي يبعث فيها الأنبياء، ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ...﴾.
- ٢ - كانت المرأة مظلومة في الجاهليّة، فأتى الإسلام لرفع هذا الظلم والحيث منها، والظهار من الظلم الذي كان يمارس في حق النساء في الجاهليّة، فأتى الإسلام وجرم الظهار وحرّمه وجعل الله على من يفعله عقوبةً دنيويّةً ثقيلة، ﴿يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ... لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾.
- ٣ - مواجهة الباطل مطلوبة، ولكن لا بدّ من أن تتمّ بطريقةً منطقيّةً وبمساندة الدليل والبرهان، ﴿مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾.
- ٤ - قد تكون صرخة ألم بحقّ في بعض الأحيان منشأً لخير كثير يعمّ الأجيال اللاحقة، ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ... إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾.
- ٥ - القول المنكر والباطل، من السير الجاهليّة التي أتى الإسلام لمواجهتها، ﴿لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا...﴾.
- ٦ - لكلّ مشكلةٍ في الإسلام حلّ شرعيّ وقانونيّ، فلم يترك الله أمر إنهاء العلاقة بين الزوجين للعادات والتقاليد الباطلة، بل شرّع قوانين تنظّم قطع العلاقة وتحفظ حقوق الطرفين، وحرّم الحصول على نتيجة الطلاق بواسطة الظهار أو غيره من الطرق التي لم تقرّها الشريعة الإسلاميّة، ﴿لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.
- ٧ - الله سبحانه يعفو ويستر، ﴿لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.
- ٨ - مهما كبرت المعصية فإنّ رحمة الله ومغفرته تتسع لها وتمحوها، ﴿لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا... لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ
تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

إشارات:

□ فتح الله أبواباً عدةً لتحرير العبيد، منها: العتق بالكفارة، في موارد منها: قتل الخطأ^(١)، والقسم في غير محله^(٢)، والظهار.

نظرة إلى الموعظة:

الموعظة هي نوع من التحذير يهدف إلى التذكير وتليين قلب المخاطب، وهو نعمة من النعم الإلهية على الإنسان، وللموعظة موقعها الخاص في الإسلام:

- فالله هو أحد الواعظين: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمَ الْوَعَّاظُ﴾^(٣).

- والنبى ﷺ مأمور بوعظ الناس: ﴿وَعِظْهُمْ... قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٤).

- والقرآن نفسه موعظة للناس جميعاً وللمتقين خاصة: ﴿وَهُدَى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

□ وللموعظة أنواع عدة منها:

أ - الموعظة بالقول، كما في حالة موعظة لقمان، ﴿قَالَ لَقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾^(٦).

ب - الموعظة بواسطة العمل، وقد ورد في الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ والأئمة ؑ الكثير من الحديث عنه، كما في قوله ﷺ، «كونوا دعاة لنا بغير الستكم»^(٧).

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

(٦) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٧) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٣٠٩.

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٣.

ج - الموعدة بواسطة التأديب والعقاب، كما في أمر الله بتحرير عبد عقوبة لمن يظاهر من زوجته، ﴿ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾.

□ يهتم الإسلام بالموعدة في القضايا المترتبة بالحياة الأسرية:

أ - يأمر الله سبحانه الرجال بموعظة أزواجهن، ﴿فَيُطَوِّفُونَ﴾^(١).

ب - في حالة الطلاق وبعد حديثه سبحانه عن إتمام الزوجة العدة وتخيير الزوج بين إمساكها أو الانفصال عنها، بالعدل والإحسان، يقول: ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾^(٢).

ج - في حالة الظهار أيضاً يعظ الله الرجال فيقول: ﴿ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾.

د - للموعظة محلّ ودور في علاقة الأبوين بالأبناء، ﴿قَالَ لَقَمْنُنْ لِابْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾.

التعاليم:

١ - كانت المرأة في الجاهلية مورداً ومحلاً لظلم الرجل وخصوصاً الزوج، ﴿يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾.

٢ - لا يسدّ الإسلام الأبواب في وجه الإنسان، ومهما بلغ الانحراف وبلغ المنحرف، يمكنه العودة إلى جادة الصواب، ﴿يُعَدُّونَ﴾.

٣ - العقاب، ليس انتقاماً بالضرورة بل هو رادع كما يهدف إلى التخفيف من الجرائم، ﴿يُظَاهِرُونَ... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٤ - لا يجوز للرجل أن يقول لزوجته كلّ ما يخطر على باله، فبعض الكلمات تترتب عليها الكفارة الثقيلة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ومن هنا على الإنسان أن يستشعر المسؤولية عن كلّ كلمة تصدر عنه.

٥ - ظلم الزوج زوجته لا يمرّ من دون أثر وغرامة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٦ - يستغلّ الإسلام كلّ فرصة متاحة لتحرير العبيد وعتقهم، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... تُوَعِّظُونَ﴾.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(١) سورة النساء: الآية ٣٤.

٧ - شرع الله العقوبات والكفارات والغرامات لضبط العلاقة الزوجية وتنظيمها، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٨ - لا تكفي المحاضرات والخطب لردع الإنسان عن الخطأ، ففي بعض الأحيان تكون العقوبة والغرامة وسيلة من وسائل الوعظ والإرشاد، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... تُوعِظُونَ﴾.

٩ - العقوبات والغرامات في الإسلام ليست انتقاماً بل هي وسائل للتربية والإصلاح، ﴿تُوعِظُونَ بِهِ﴾.

١٠ - لا مجال للفرار من دفع الغرامات والخضوع للعقوبات، فإن الله حاضر مطلع، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ سَكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ وردت كلمة «حدود» أكثر من عشرة مرّات في القرآن الكريم، وأكثر هذه الموارد مرتبطة بالأسرة وحقوقها.

□ من لا يجد عبداً لعتقه كفارة عن الظهار أو غيره من الأفعال التي تترتب عليها الكفارة، يجب عليه أن يصوم شهرين متتابعين، وفي تفسير المراد من الشهرين المتتابعين ورد أنّ عليه أن يصوم الشهر الأول ويوماً من الشهر الثاني؛ أي واحداً وثلاثين يوماً، ثم يصوم ما بقي من الأيام كما يشاء. وورد في عدد من الروايات أنّ هذا تخفيف ورد من طريق أهل البيت عليهم السلام ^(١).

□ تكرار جملة ﴿قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾، في هاتين الآيتين، يدلّ على حرمة المعاشرة بين الزوجين قبل دفع الكفارة ^(٢).

(١) انظر: تفسير نمونه، وتفسير نور الثقلين، عند تفسير الآية.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٩٨.

التعاليم:

١ - يجب أن تقبل أحكام الدين العالمي التطبيق في كلّ زمان ومكان، وأن تتمتع بالمرونة الكافية؛ كي لا يواجه المكلف المآزق والطرق المسدودة، فقد لا يوجد العبيد في بعض الأزمنة، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾، وفي بعض الحالات قد لا يقدر المكلف على الصوم، ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾.

٢ - العقوبات في الإسلام مصدر للبركة والخير على المجتمع الإسلامي:

- تؤدّي إلى تحرير العبيد، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

- تعلم المخالف الصبر والمقاومة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

- تؤمن الرزق والشيع للفقراء والمساكين، ﴿فَأَطْعَامُ سِتِّينَ سِتْكِينًا﴾.

٣ - ينبغي أن تكون العقوبات متنوّعة ومتدرّجة، وتراعي أوضاع الزمان والمكان وقدرات الأفراد، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... فَمَنْ لَمْ يَجِدْ... فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾.

٤ - تقبل الأحكام الإلهية التخفيف؛ ولكنها لا تقبل التعطيل، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ... فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ...﴾.

٥ - لا تؤدّي العقوبات والغرامات الشرعية إلى النقص من قدراتكم البدنية أو المالية فحسب، بل تؤدّي إلى رفع مستوى الإيمان عندكم، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ... فَأَطْعَامُ سِتِّينَ... ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾.

٦ - المشرّع الحكيم يبيّن للمكلفين فلسفة التشريعات والحكم المبتغاة منها، ليقبلوا عليها بطيب نفس، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾.

٧ - ترك العمل بأحكام الله وعدم الاعتناء بها كفر، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَاللَّكْفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا لِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾، المحادّة إقامة الموانع والمعارضة لحدود الله، وتارة تكون بالحديد والسيف، وأخرى تكون بالعناد والتأمر وغيرها من الوسائل المشابهة.

- ﴿كُتُبًا﴾ من الكبت وهو القهر والغلبة.
- تكرر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، مرتين في هذه السورة، وفي المرتين ذكر الله سبحانه العذاب المهين والذلّ عقوبة لمن يخالف حدود الله ويعتدي عليها. كما يقول سبحانه في الآية ٢٠: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - الإصرار على عادات الجاهلية، وتجاهل حدود الشريعة الإلهية بمثابة إعلان الحرب على الله ورسوله، ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ... الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾.
- ٢ - ينتهي الصراع بين الحق والباطل دائماً بهزيمة الباطل وخزيه، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ... كُتُبًا﴾.
- ٣ - يساوي الله في العقوبة والآثار المترتبة على الإيمان به أو الحرب عليه، وبين الآثار المترتبة على الإيمان برسوله وإعلان الحرب عليه، ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٤ - على الإنسان أن لا يقف في وجه تطبيق أحكام الله وشريعته، فالعاقبة مرّة وقاسية، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ... كُتُبًا﴾.
- ٥ - علينا أن نحذّر المعارضين، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ... كُتُبًا﴾.
- ٦ - من يشكّ في سوء عاقبة أهل الباطل، عليه أن يراجع التاريخ وينعم النظر فيه، ﴿كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٧ - التاريخ والأحداث التي تقع فيه، خاضعة للقوانين والسنن، ولا تجري بشكل عشوائي، ﴿كُتُبًا كَمَا كُتِبَ...﴾.
- ٨ - لا يعدم الحقّ عدواً عبر التاريخ، ﴿كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٩ - القهر الإلهي والعقوبة الربانية تأتي دائماً بعد إتمام الحجّة، ﴿كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ...﴾.
- ١٠ - آيات الله واضحة ومتعددة، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

- ١١ - مواجهة الأنبياء إهانة لهم؛ ولذلك وبمقتضى قاعدة التناسب بين الجرم والعقوبة، فإن العقوبة هي الإذلال والإهانة، ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.
- ١٢ - مواجهة الأحكام الإلهية ومنع تطبيقها، إما كفر وإما طريق يفضي إلى الكفر، ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

إشارات:

- تشير هذه الآية إلى بعث الناس جميعاً للحساب يوم القيامة، ولها في القرآن أمثلة عدّة منها، قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١). كما تتحدث هذه الآية عن إحصاء الأعمال ولها أيضاً مثيل في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الصِّكْتِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...﴾^(٢).
- كلمة «شاهد» في القرآن الكريم، ترد تارةً بمعنى مشهود، وطوراً بمعنى شاهد، وفي هذه الآية وردت بالمعنى الثاني أي شاهد، والقرينة الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ...﴾، والله هو الشاهد وليس هو الشاهد الوحيد على الإنسان، بل يوجد شهود آخرون يشير إليهم قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - القهر والعذاب الإلهي يكون في الدنيا، ﴿كَيْتَابًا﴾، ويكون في الآخرة كذلك، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٢ - المعاد هو ساحة تجلّي القدرة والعلم الإلهيين؛ فقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

(١) سورة الكهف: الآية ٤٧.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

- جِيمًا ﴿﴾ دليل على القدرة، وقوله تعالى ﴿فِيئْتُهُمْ﴾ دليل على العلم.
- ٣ - المحكمة الإلهية يوم القيامة علنية وعامة، ﴿جِيمًا فِيئْتُهُمْ﴾.
- ٤ - علينا أن نفهم المجرم جرائمه عند الحكم عليه، ﴿فِيئْتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾.
- ٥ - على العاصين والمجرمين أن يعلموا أنّ أعمالهم محصية مدونة في صحيفة أعمالهم ولا تُنسى حتى لو نسوها هم، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ... وَسُوهُ﴾.
- ٦ - على الإنسان أن لا يستصغر ذنوبه ومعاصيه، فالحساب بين الله تعالى دقيق يحصي كل صغيرة وكبيرة، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ﴾.
- ٧ - نسيان سيئات الأعمال لا يؤدي إلى مغفرتها والتجاوز عنها، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾.
- ٨ - العالم كله في حضرة الله، ولا ينبغي أن يعصى الله في حضرته، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا مِنْ يَمِينِهِمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من الرؤية بمعنى المشاهدة، وفي بعض الأحيان تستخدم هذه الكلمة بمعنى الفهم، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية.
- «النجوى» من «نجوة» وهي المكان المرتفع من الأرض المنفصل عن غيره من الأماكن، ووجه تسمية الحديث مع شخص آخر سرا بهذا الاسم هو أنه عادة يؤخذ جانبا فيفصل عن سائر الناس ليتحدث معه، أو من جهة أن الحديث معه يؤدي إلى فصله عن غيره من الناس بحيث لا يطلع على مضمون الحديث إلا هو ومن يناجيه، أو لأن الإسرار إلى شخص بسرّ يؤدي في كثير من الحالات إلى نجاته وتحذيره.

كما أنّ النجوى قد تتمّ بين المجرمين الذين يعقدون الجلسات السريّة فيتآمرون ويخططون وينفذون من دون أن يطلع على سرهم أحد من الناس.

□ يحدثنا القرآن الكريم عن علم الله سبحانه وتعالى بأسرار الناس ونجواهم في عددٍ من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى، في الآية ٧٨ من سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾، وقوله في الآية ٨٠ من سورة الزخرف: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

□ يشير سبحانه في هذه الآية وفي الآية السابقة عشرة مرّات إلى علمه، وهذا الأمر ورد في مطلع هذه الآية وخاتمتها، ﴿يَعْلَمُ... عَلِيمٌ﴾.

□ يفيد النظر في الآيات السابقة مجموعة من خصائص العلم الإلهي، ومنها:

- علم الله يتعلّق بالجزئيات، ﴿هُوَ رَآئِعُهُمْ... هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

- علم الله دقيق، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ﴾.

- علم الله حضوري، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

- لا يغطّي غبار النسيان علمه سبحانه، ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

- الله يعلم ويعلم ويذكر الناسين ما كانوا يفعلون، ﴿وَسُوهُ... يُبَيِّنُهُمْ﴾.

- علم الله محيط بالأفعال والفاعلين دائماً أبداً، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.

- يعلم الله سبحانه كلّ تفصيل من تفاصيل أفعالنا؛ ولكّنه لا يفضحنا في الدنيا بين خلقه، ﴿يُبَيِّنُهُمْ يَمَّا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

- علمه دائم وليس موسميّاً، ﴿يَعْلَمُ، عَلِيمٌ﴾.

- علمه بما في السماوات كعلمه بما في الأرض على حدّ سواء، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

التعاليم:

١ - النظر الذي لا يفضي إلى العلم والمعرفة لا قيمة له ويستحقّ صاحبه عليه التائب والتوبخ، ﴿الَّذِينَ تَرَوُا﴾.

- ٢ - السماء والأرض، والكبير والصغير، والسر العلن، في ميزان علم الله حكمها واحد، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... هُوَ رَاحِمُهُمْ... هُوَ مَعَهُمْ﴾.
- ٣ - تعدد الأشخاص وتعدد أفعالهم وأقوالهم، لا يعيق الله سبحانه عن علم ما يقولون ويفعلون، ﴿وَلَا أَدْرِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾.
- ٤ - لما كان الوجود الإلهي غير محدود، كان الله معنا أينما كنا، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.
- ٥ - لا أثر للمكان والزمان في تبدل علم الله سبحانه وتعالى، أو ضيقه أو سعته، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.
- ٦ - المخبر يوم القيامة، يخبر بما شاهد واطلع عليه، ﴿شَهِدٌ، عَلِيمٌ، يُنَبِّئُهُمْ﴾.
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِنْسِ وَالْعُدُوِّنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْتِكِ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُنَا جَهَنَّمُ بَصَلَتْهَا فَيُنْسِ الْمَصِيرُ﴾

إشارات:

- حدثنا الآية السابقة عن علم الله سبحانه واطلاعه على النجوى والأسرار، وفي هذه الآية يحدثنا سبحانه عن نموذج من نماذج النجوى بين بعض الناس الذين يجمعهم العدا للنبى ﷺ.
- «الصلي» هو الدخول إلى محلّ الاحتراق ومقاساة حرّه^(١).
- يتدرج الإنسان في ارتكاب المعاصي من الأمور الصغيرة إلى ما هو أكبر منها:
- «الإثم» هو المعصية الفردية كشرب الخمر.
- «العدوان» الاعتداء على حقوق الآخرين.
- «معصية الرسول» مخالفة الأوامر والمقررات الاجتماعية للقائد الإلهي والتي تصدر للمحافظة على مصالح الإسلام والمسلمين.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١١١.

التعاليم:

- ١ - النجوى في جمع من المؤمنين منكر منهى عنه، ﴿هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾، وفي الآية العاشرة يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٢ - على الناهين عن المنكر أن لا يتوقعوا أن مرتكبي المنكر سوف يقلعون عما هم فيه بمجرد نهيهم وتحذيرهم من المنكر الذي يرتكبون، ﴿يُؤَدُّونَ لِمَا نُهُوا﴾.
- ٣ - العود إلى المعصية والإصرار عليها يزيد من وخامتها ويضاعف من قبحها، ﴿يُؤَدُّونَ لِمَا نُهُوا﴾.
- ٤ - طاعة الرسول المعصوم واجبة بشكل مطلق؛ ولذلك ينتقد الله كل شكل من أشكال مخالفة النبي ﷺ، ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾.
- ٥ - لا ينبغي أن يغرنا كل تمجيد أو مدح وثناء (فالمنافقون يمدحون النبي ﷺ في محضره، ثم في غيابه يدسون له الدسائس ويعصون أوامره ونواهيه، ﴿حَيَّوْكَ يَمَا لَرَّ يُحْيِكَ بِدِ اللَّهِ﴾).
- ٦ - التملق والثناء الزائد عن الحد المتعارف، من علامات النفاق، ﴿حَيَّوْكَ يَمَا لَرَّ يُحْيِكَ بِدِ اللَّهِ﴾.
- ٧ - يجب مراعاة الحدود والضوابط حتى في الثناء على أشرف الخلق محمد ﷺ، ﴿لَرَّ يُحْيِكَ بِدِ اللَّهِ﴾.
- ٨ - لا يعلم الله نجوى المنافقين فحسب، بل يعلم ما يدور في خلدتهم، وما تضرر صدورهم، أي ما يسمّى في الأدبيات الإسلامية، بحديث النفس، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾.
- ٩ - لا ينبغي أن نغترّ بالمهلة التي يعطينا إياها الله، فليس الإمهال دليلاً على الرضا، ﴿لَوْلَا بُعِدْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.
- ١٠ - عاقبة النفاق جهنم، ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.
- ١١ - القول السيء يمهّد السبيل لسوء العاقبة لصاحبه، ﴿يَمَا نَقُولُ... فَيُنَسِّسُ الْمَصِيرُ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِنِّرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ
وَالْتَقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

إشارات:

- «البر» عنوان عام يشمل كلّ أفعال الخير، والإيمان من نماذجه التي ذكرت في سورة البقرة في الآية ١٧٧، ﴿وَلَكِنَّ الْإِنِّرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾
- النجوى والهمس في الأذن فعل له أحكام عدة:
- فالنجوى التي يترتب عليها كشف الأسرار التي يخشى منها الضرر على الإسلام والمسلمين، واجبة.
- وعندما تكون النجوى سبباً لإثارة الخوف والقلق، تكون محرّمة.
- وعندما يراد منها مساعدة الآخرين ودعوتهم إلى التقوى تكون مستحبة.
- موضوع الكلام ومضمونه هو الذي يضمني عليه القيمة، فيكون الكلام جيداً وذا قيمة أخلاقية إيجابية عندما يكون دعوةً إلى الخير والتقوى؛ وأما عندما يتضمن الدعوة إلى الشرّ كالظلم وما شابهه، فيكون حراماً. وفي بعض الحالات قد يكون المضمون جيداً إلا أنّ الوقت يكون غير مناسب فيأخذ حكمه من الوقت، كما في حالة النجوى بالخير في جمع من المؤمنين.

التعاليم:

- ١ - المؤمن محترمٌ حتى في حالة نهيهِ عن المنكر، فلا يبرّر ارتكابه المنكر إهانتته، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢ - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد والتبليغ، لا ينبغي الاكتفاء بالحديث عن العموميات، بل لا بدّ من ذكر مصاديق الحقّ والباطل وبيانها، ﴿...فَلَا تَنَجَّوْا... وَتَنَجَّوْا﴾.
- ٣ - لا ينبغي الإعلان والجهر بكلّ كلام، فالكلام في الخير، في بعض الأحيان لا بدّ من الإسرار به، ﴿...وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَقْوَىٰ﴾.

٤ - لا يجوز عدّ النجوى في الباطل كالنجوى في الحق، ﴿وَتَنَجَّوْا... وَأَتَقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٥ - التقوى والالتفات إلى المعاد، من العوامل المساعدة على تجنب الكلام
الباطل، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠)

التعاليم:

١ - كما أن التبذير والاستهلاك الزائد عن الحدّ المعقول، يجعل الإنسان قريباً
للشيطان، ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾^(١)، النجوى في الباطل كذلك
تقرب صاحبها من الشيطان، ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

٢ - كلّ كلام يؤدي إلى إثارة الخوف والفتنة بين المسلمين، هو عمل شيطانيّ،
سواء أكان في السرّ أم في العلن، ﴿النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٣ - يجب التطمين وتسليّة الأفئدة وتعليم المخاطب على أن الأمور بيد الله فما لم
يرد أمراً لن يقع، ﴿لِيَحْزُنَ... وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ﴾.

٤ - المؤمنون في حفظ الله وحراسته، ﴿وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا﴾.

٥ - جهود المنافقين في التخريب على الإسلام والمسلمين، لا تقع خارج حدود
القدرة الإلهية، ولا تعجزه سبحانه، ﴿وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٦ - على المؤمنين أن يبطلوا آثار الحرب النفسية التي يخوضها الأعداء ضدّهم،
﴿لِيَحْزُنَ... وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا﴾.

٧ - التوكّل على الله دواء لكلّ مصادر القلق ورافع لكلّ المخاوف والاضطرابات،
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٨ - التوكّل على الله ليس عملاً يؤدّيه الإنسان كائناً ما كان، بل يشترط فيه الإيمان، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ومن جهة أخرى على المؤمنين أن يتوكّلوا على الله ويلتفتوا إلى هذا الأمر حتى لو كان الله هو الضامن لحمايتهم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا لِلَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ائْتُرُوا فَأْتُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

إشارات:

- التفّسّح هو توسعة المكان للقادم الذي يريد الجلوس، والنشُر هو القيام من المحلّ احتراماً للقادم.
- حدّثنا الآية السابقة عن النجوى بوصفها سبباً من أسباب إثارة المخاوف والقلق بين المؤمنين، وفي هذه الآية يحدّثنا الله سبحانه عن توسعة المكان بوصفه سبباً من أسباب السعادة بينهم.
- بيّن الله في القرآن منزلة مجموعة من الأشخاص بوصفهم جماعات متميّزة، وهم: الأنبياء، والمجاهدون، والمصلّون، والمنفقون، والمؤمنون الذين يعملون الصالحات، والعلماء.
- ربّما كان المراد من قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، الدعوة إلى القيام احتراماً لمقدم المؤمنين والعلماء^(١).

قصة وعبرة:

يروى الطبرسي في الاحتجاج أن رجلاً في عصر الإمام الهادي عليه السلام من فقهاء شيعة كلّم بعض النواصب، فأفهمه بحجّته حتى أبان عن فضيخته، فدخل إلى الإمام عليه السلام، وبحضرته خلق من العلويين وبنو هاشم، فما زال يرفعه حتى أجلسه في صدر المجلس، وأقبل عليه فاشتدّ ذلك على أولئك الأشراف، فقال له

(١) تفسير نمونه.

شيخ الهاشميين: يا ابن رسول الله هكذا تؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبين والعباسيين. فقال ﷺ: إياكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِنْ آلِ كَتَبٍ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(١)، أترضون بكتاب الله حكماً. قالوا: بلى. قال: أليس الله يقول: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْبَحُوا يَسْبَحُ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢)، فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله. إن كسر هذا (لفلان) الناصب بحجج الله التي علمه إياها، لأفضل له من كل شرف في النسب^(٣).

التعاليم:

- ١ - الإيمان له شروط ولوازم ولا بد من مراعاة شروط الإيمان ولوازمه، ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾.
- ٢ - الإفساح وتوسعة المكان لجلوس القادمين، قيمة من القيم الأخلاقية، ﴿فَأَنْشُرُوا... أَنْشُرُوا﴾.
- ٣ - إفساح المجلس لمن يريد الجلوس، أمر مطلوب دائماً وفي كل مكان، ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾.
- ٤ - العمل بأوامر الله وتعاليمه، من موجبات توسعة الله الثواب للعاملين بها، ﴿فَأَنْشُرُوا يَسْبَحُ اللَّهُ﴾.
- ٥ - التوسعة على الناس، من موجبات توسعة الله على العبد، ﴿فَأَنْشُرُوا يَسْبَحُ اللَّهُ﴾، وثواب الله متناسب مع الفعل، الفسح يقابله فسح.
- ٦ - دعوة الإسلام إلى كل الآداب، ومنها آداب المجالس والاجتماع، ﴿فَأَنْشُرُوا... أَنْشُرُوا﴾.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٠٥.

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.

- ٧ - يقتضي الاحترام القيام عند دخول بعض الكبار من أهل العلم والمعرفة إلى المجلس، ﴿أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾.
- ٨ - العلم هدية وتفضل إلهي، ﴿أَوْثُوا أَلِمَّةً...﴾.
- ٩ - ينبغي أن يكون لأهل العلم في المجتمع الإسلامي مكانة خاصة تليق بهم، ﴿...وَالَّذِينَ أَوْثُوا أَلِمَّةً دَرَجَاتٍ﴾.
- ١٠ - يترتب على عمل العالم ثواب أكثر من الذي يترتب على عمل غيره^(١)، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ... وَالَّذِينَ أَوْثُوا أَلِمَّةً دَرَجَاتٍ﴾.
- ١١ - إفساح المجال في المجالس وغيرها، والقيام والاحترام، يجب أن يكون من أجل الله لا من أجل الدنيا أو أي شيء آخر، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.
- ١٢ - على الإنسان أن لا ينسى الله أثناء قيامه بواجباته الاجتماعية، وخلال قيامه وقعوده، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَفَعَلُوا بِبَيْنِ يَدَيْكُمْ بِمَوَدَّةٍ صَدَقَهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَعِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- كان بعض الناس يزعمون النبي بمناجاته عندما يكون بين الناس، وكان أكثرهم من الأغنياء وأهل الدنيا، فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ والمؤمنين الحاضرين في المجلس، فنزلت الآية لاختبار مدى صدق علاقتهم بالنبي ﷺ، ولم يكن هذا الحكم من الأحكام الدائمة، بل كان حكماً مؤقتاً رفع بعد انقضاء الحاجة إليه^(٢).
- كان يفتخر الإمام عليّ ﷺ بأنه لم يعمل غيره لا قبله ولا بعده بهذه الآية، وكان قد صرف ديناراً بدراهم ليتصدق بدرهم كلما أراد مناجاة النبي ﷺ^(٣).

(١) انظر: التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٥٣٧.

(٢) تفسير نمونه.

(٣) أشارت كثير من كتب التفسير إلى هذا الكلام المنقول عن الإمام ﷺ، عند تفسير الآية، ومن ذلك: كثر الدقائق، ونمونه، والدرّ المشثور.

□ الطهارة على نوعين:

- ١ - طهارة الجسم، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا﴾^(١)؛
- ٢ - طهارة الروح، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - الإيمان يولد المسؤولية، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا...﴾.
- ٢ - تدفع الصدقة قبل الإقدام على الأعمال، ﴿فَقَدِّمُوا... صَدَقَةً﴾.
- ٣ - يمكن للمعلم أن يجعل على المتعلم مبلغاً مقرراً يدفعه، سواء أخذه المعلم نفسه، أو أمره بدفعه إلى غيره، كما في الصدقة والدفع إلى الفقراء، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.
- ٤ - لم يحدّد الشرع مبلغاً للصدقة؛ لترك الأمر إلى الناس ليدفع كلّ منهم ما يقدر عليه، وما تجود به نفسه، ﴿صَدَقَةً﴾.
- ٥ - يهتمّ الإسلام برفع حاجة الفقراء بأيّ وسيلة ممكنة، ولو بفرض الصدقة على الذين يريدون اللقاء الخاصّ بالنبي ﷺ والخلوة به، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.
- ٦ - يعرف مدى إيمان الناس، ومقدار صدق رغبتهم في العلاقة بالنبي ﷺ، بتخييرهم بين المال وبين النبي ﷺ، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.
- ٧ - الصدقة، من الأفعال التي تترتب عليها عشرات الفوائد والمصالح الاجتماعية والفردية، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.
- ٨ - التعلّق بالدنيا رجس، والانفصال عنها طهارة وخير، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾.
- ٩ - الصدقة شكل من أشكال التطهير، ﴿وَأَطْهَرٌ﴾، ويقول سبحانه في محلّ آخر من القرآن الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾^(٢).
- ١٠ - لا محلّ للمآزق والأبواب المسدودة في الأحكام الإسلامية، ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا...﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

١١ - على المشرع أن يراعي أوضاع الناس وأحوالهم، عند سنّ القوانين وتشريعها، ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا...﴾.

١٢ - على الفقهاء أن لا يشعروا بأيّ درجة من العقارة، فإنهم مشمولون بالرحمة الإلهية كغيرهم من الناس، وربما أكثر، ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٣ - لا يجرد الإسلام أيّ شخص من حقوقه الاجتماعية ولا يحرمه بسبب فقره، ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بِحَبْلِ صِدْقِكُمْ صِدْقَةً فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ الإشفاق هو الخشية، وهو نوع عناية مختلطة بخوف؛ لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه^(١).

□ تكشف هذه الآية عن أنّ الهدف من تشريع الصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ هو اكتشاف المؤمن الصادق والمحّب للنبي ﷺ وتمييزه عن غيره، ولم يكن الهدف هو الصدقة، ثمّ رفع الحكم عندما لم يلتزم أكثر الناس به.

□ يعاتب الله في هذه الآية المؤمنين الذين رجّحوا الأموال على مناجاة النبي ﷺ وتركوا المناجاة لأنّها تلزمهم بالصدقة قبلها.

التعاليم:

١ - يؤنّب الله في هذه الآية الذين تركوا مناجاة النبي ﷺ، مع أنّ المناجاة ليست واجبةً وربّما ليست مستحبةً، والتأنيب لأنّ الدافع إلى تركها هو البخل والفرار من دفع الصدقة، ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾.

- ٢ - لم يكن جميع أصحاب النبي من المطيعين المسلمين لأمره ﷺ، ﴿فَإِذَا لَرَّ تَقَعَلُوا﴾؛ لأنهم بحسب هذه الآية لم يعملوا بالأمر الصريح بأداء الصدقة قبل المناجاة، ﴿...فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾.
- ٣ - إذا لم نعمل المستحبات فعلى الأقل لنقم بالواجبات، فالله سبحانه في هذه الآية يأمر الذين لا يدفعون الصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ، بإيتاء الزكاة، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا... صَدَقَتَكُمْ... وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ٤ - التائب ينبغي أن يفتح باب الإصلاح والتوبة، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا... وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٥ - علينا أن لا نياس من الذين يقعون في المعصية في بعض الأحيان، ويجب التعامل معهم بعدل على الرغم من عصيانهم، فالله في هذه الآية يطلب الطاعة ممن عصوا أمراً من أوامره، ﴿لَرَّ تَقَعَلُوا... أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.
- ٦ - الاهتمام بالزكاة والصلاة، يجبر بعض المصالح التي تفوت من ترك امتثال بعض الأحكام، ﴿لَرَّ تَقَعَلُوا... فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ٧ - الدين ليس علاقة بين الإنسان الفرد والله سبحانه وتعالى فقط، بل هو في الوقت عينه، نظام اجتماعي يهتم بالفقراء وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٨ - علينا أن ننعم النظر في أعمالنا فالله سبحانه وتعالى هو المراقب المطلع، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَرَّ تَرَّ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥)

إشارات:

□ على الرغم من أن الله سبحانه يخبر عن غضبه على عددٍ من الأشخاص والجماعات، إلا أنه ربما كان المراد ممن غضب الله عليهم، في هذه الآية

اليهود؛ وذلك لأنَّ صرَّح القرآن بالغضب على اليهود في آيات أخرى، بقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١).

□ المراد من الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم، هو المنافقون.

التعاليم:

- ١ - تولي الذين غضب الله عليهم، وإنشاء علاقة صداقة حميمة بهم، من الأمور التي يستحق فاعلها التأنيب، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ...﴾.
- ٢ - الإنسان الذي يسحب يده من يد النبي ﷺ، يضع يده في يد المغضوب عليهم عبر التاريخ، ﴿تَوَلَّوْا... غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - من الأمور المطلوبة في المجتمع الإسلامي تمييز الموالي عن غيره، ومعرفة العدو والمنافق، ﴿مَا هُمْ بِنَعْمِكُمْ وَلَا مِنَّمُ﴾.
- ٤ - من عادة المنافقين اللجوء إلى الأيمان الكاذبة، لإثبات براءتهم، ﴿...وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ﴾.
- ٥ - سوء الاستفادة من المقدسات، من عادة المنافقين، ﴿يَحْلِفُونَ﴾.
- ٦ - يقدم المنافقون على المعصية عن علم ومعرفة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- ٧ - العذاب والعقاب الإلهي يكون دائماً تابِعاً لأعمال الإنسان السيئة، ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَن نُّغْنِي عَنْهُمْ آتُونَهُمْ وَلَا أُولَدَهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ يعتمد شياطين الجن والإنس على وسائل عدّة لصدّ الناس عن سبيل الله، وجرّهم إلى الانحراف، ومن هذه الوسائل:

(١) سورة البقرة: الآيتان ٦٠ و٩١؛ وسورة آل عمران: الآية ١١٢.

- القسم الكاذب المشار إليه في هذه الآية.
- إنفاق الأموال وصرفها من أجل إضلال الناس، ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).
- استخدام الدعاية المضلّة لإشاعة الفساد ونشر الضلال، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢).
- البدعة واختراع مفاهيم دينية ونسبتها إلى الله، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾^(٣).
- تزيين قبيح الأعمال وتحسينها في عيون فاعليها، ﴿وَرَبَّيْنَاهُمْ لَهَا شَيْطَانًا يَأْمُرُهُمْ فَضَلُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - يحاول المنافقون استخدام المقدّسات الدينية بهدف ضرب الدين، ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِنَا حُجَّةً﴾.
- ٢ - عذاب المنافقين شديد، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.
- ٣ - القرآن جاد في تحذيره، ولا تنفع الأموال ولا الأولاد يوم القيامة، ﴿لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾.
- ٤ - الدنيا تختلف عن الآخرة كثيراً، ومن ذلك أنّ الأموال والأولاد قد تعطي صاحبها موقعاً في الدنيا وتساعد على تحقيق ما يريد، وأمّا في الآخرة فلا أثر لا للمال ولا للولد، ﴿لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾.
- ٥ - في التحذير والوعظ، علينا أن نضع الإصبع على الجرح مباشرة ونلفت إلى العلة والسبب الذي يدعو إلى الغفلة، وهو كما في هذه الآية المال والولد، ﴿لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

(٢) سورة الزمر: الآية ٨.

(٢) سورة لقمان: الآية ٦.

(٤) سورة النمل: الآية ٢٤.

٦ - النفاق في الدنيا من أسباب الخلود في النار في الآخرة، ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يَعْتَبِرُونَ اللَّهَ جَمِيعًا فَيَقْلِبُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَرَّ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٨﴾

إشارات:

□ ورد ذكر القسم الكاذب يوم القيامة أكثر من مرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام الآية ٢٣: ﴿وَاللَّهُ رَينًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

□ بما أن القسم يجزئ الناس شيئاً فشيئاً إلى التصديق كان لا بد من تحذير الناس من الأيمان الكاذبة كي لا يصدّقوا ما يسمعونه ممن يقسم كاذباً، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، والكلمات ﴿أَلَا، إِنَّ، هُمْ﴾ جميعها للفت الانتباه إلى ضرورة عدم التصديق.

□ المنافق كاذب سواء في الدنيا أو الآخرة، ففي سورة المنافقين يؤكد الله أن إقرار المنافقين بالإسلام وتصديقهم بالنبي ﷺ هو إقرار وتصديق كاذب، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، وفي هذه الآية يخبرنا عن كذبهم يوم القيامة.

التعاليم:

١ - عندما يتحوّل الكذب إلى طبع وملكة، يبقى ملازماً للإنسان حتى في الآخرة ويوم القيامة، ﴿يَقْلِبُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَرَّ﴾.

٢ - يغرق المنافقون أو يغرقون أنفسهم في بحر من الأوهام والخيالات الباطلة، ﴿...وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

٣ - حياة المنافقين مملوءة بالكذب والمداينة، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ جَزَبُ الشَّيْطَانِ ۗ أَلَا إِنَّ جِزْبَ الشَّيْطَانِ مُم

الْمَقْتَرُونَ﴾ ﴿١٩﴾

إشارات:

□ يحدثنا الإمام عليّ عليه السلام عن أنّ الحق عندما يكون صريحاً وصافياً يعرف،

وكذلك الباطل، ولكن المشكلة عندما يتم المزج بينهما: «ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه»^(١). وعن الإمام الحسين عليه السلام، مخاطباً جيش يزيد: «استحوذ الشيطان على أوليائه»^(٢).

□ من قواعد المنهج الشيطاني:

- يجرّ الإنسان خلفه خطوة بعد خطوة، ﴿خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٣).
- في بعض الأحيان قد يلقي فكرة أو أمراً من بعيد، كما يلقي أحدهم الحجر لغرض من أغراضه، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ...﴾^(٤).
- في بعض الحالات يمسّ الهدف من دون أن ينفذ فيه، ﴿مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾^(٥).
- وفي بعض الأحيان ينفذ إلى الداخل فيوسوس في الصدور، ﴿يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٦).
- وفي أحيان أخرى يستقرّ في القلوب ويقارن أصحابها، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٧).
- وفي بعض الحالات يؤاخي أهدافه ومن يرغب في إضلالهم، ﴿إِنخَوَّنَ الشَّيْطَانِ﴾^(٨).
- وفي بعض الحالات يستولي على هدفه بالكامل ويحيط به من كل ناحية، ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾.

التعاليم:

١ - المؤمن يتذكّر الله عندما يشعر باقتراب الشيطان منه، ﴿مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.	(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٨٦.	(٦) سورة الناس: الآية ٥.
(٣) سورة النور: الآية ٢١.	(٧) سورة الزخرف: الآية ٣٦.
(٤) سورة الحج: الآية ٥٢.	(٨) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

- الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا^(١)، وأما المنافق فلا تَه وصل إلى مرحلة الاتحاد بالشیطان، فإنه لا يذكر الله ولا يلتفت إليه، ﴿فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾.
- ٢ - اليمين الكاذبة من مقدمات تسلط الشيطان، ﴿يَحْلِفُونَ... أَسْتَحْوَذَ...﴾.
- ٣ - يقترب الإنسان من حزب الشيطان ويدخل في دائرة أعوانه، بحسب درجة نسيانه ذكر الله تعالى، ﴿...فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ... حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٤ - لا ينبغي للإنسان أن يضع نفسه في تصرف أي حزب أو جماعة، فبعض الأحزاب والجماعات قد تكون من حزب الشيطان، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٥ - الخسران الحقيقي هو أن يخسر الإنسان نفسه بدخوله في حزب الشيطان وجماعته لا أن يخسر أمواله، ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ مُمٌ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾

إشارات:

□ يبدو أن هذه الآية تقع في سياق استكمال الآيات السابقة وبالتالي هي في سياق وصف المنافقين والحديث عنهم، ولا سيما بالنظر إلى حديث الآيات السابقة عن كتبهم بسبب معاداتهم لله وللرسول، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتُوبًا كَمَا كَتَبَتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

□ المشاكل التي ربما يعانيها المؤمنون هي ظرفية تزول لاحقاً، وبالتالي لا ينبغي أن يشعروا باليأس عند حدوثها، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢)، وأما ذل المعارضين للحق فهو ذل أبدي وخالد على الرغم من العز الظاهري الذي قد يتجملون به، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - يفضي النفاق بالإنسان إلى أن يتحوّل إلى عدو لله ولرسوله، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

- ٢ - كما أن أوامر الرسول ونواهيه هي أوامر الله ونواهيه، فكذلك معادة الرسول هي معادة الله وإعلان للحرب عليه سبحانه، ﴿الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٣ - من يقف في وجه الحق، لن يكون مصيره إلا الذل، ﴿يُحَادِّثُونَ اللَّهَ...﴾.
- ٤ - الأشخاص الذين يعتقدون أن المسلمين أذلاء، ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذِلَّةَ﴾^(١)، هم في الواقع في أقصى درجات الذل، ﴿فِي الْأَذِلَّةِ﴾.
- ٥ - بما أن العزة هي لله ولرسوله فإنه سبحانه لن يمنح شيئاً منها لمن يقف في وجه الحق ودعوة الله والأنبياء، ﴿فِي الْأَذِلَّةِ﴾.
- ٦ - عاقبة معارضة الله ورسوله ومخالفة أوامرهما ونواهيهما الذل في الدنيا والآخرة، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذِلَّةِ﴾.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ من السنن الإلهية التي تحكم العلاقة بين الحق والباطل، انتصار الأول على الثاني. فالى أين وصلت التهم والافتراءات التي حيكت ضد النبي ﷺ وغيره من الأنبياء؟ اسم من خلّد التاريخ، هل خلّد اسم إبراهيم ﷺ، أم اسم النمrod؟ هل الإمام الحسين ﷺ هو العزيز أم يزيد؟ لقد حقق الإمام الحسين هدفه وهو فضح بني أمية وتعليم البشرية كلّها درس الحرية والتحرر، فماذا عن يزيد؟

سؤال: إذا كان الحق منتصراً دائماً، فلماذا يتعرّض المدافعون عنه إلى الهزيمة؟

الجواب: عندما يقال إن الولد نعمة، فهذا لا يعني نفي كلّ المتاعب التي تسبق الحصول عليه، كمتاعب الحمل والولادة، بل المراد أنه نعمة على الرغم

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

من المصاعب كلها التي تسبق أو تقارن الحصول عليه. وانتصار الحق على الباطل سنة في ظل الإيمان والثبات والوحدة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، أما إذا عرف الضعف والتمرد طريقه إلى جبهة أنصار الحق فلن تنطبق عليهم سنة الله في انتصار الحق، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾^(٣).

□ استفاد من الروايات الواردة في التراث الإسلامي، أن النصر النهائي والكامل للحق لن يتحقق إلا في زمان ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه).

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)

إشارات:

□ مقام الرضا أرفع من مقام التسليم، والفرق بين المقامين، هو أن الإنسان تارة يسلم بما يصيب من الأقدار الإلهية، وأخرى يكون راضياً بها مسروراً بما يصيبه منها.

□ لا يجتمع الإيمان مع الكفر بأي وجه من الوجوه. يقول الله سبحانه لنوح عليه السلام، عن ولده: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٤)، وعندما تبين لإبراهيم عليه السلام انحراف عمه ويشس من هدايته تبرأ منه: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٥)، وقد نهى الله سبحانه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستغفار للمشركين: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٦).

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة فصلت: الآية ٣٠. | (٤) سورة هود: الآية ٤٦. |
| (٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٩. | (٥) سورة التوبة: الآية ١١٤. |
| (٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٢. | (٦) سورة التوبة: الآية ١١٣. |

التولي والتبري:

ورد الحديث في سورة المجادلة مرّات عدّة عن التولي والتبري، وهذا يكشف عن أهميّة موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه:

- ﴿تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، و﴿لَا تَجِدُوهُم مِّنْ حَادٍ إِلَى اللَّهِ﴾.

- عن الإمام الرضا عليه السلام: «كمال الدين ولايتنا والبراءة من عدونا».

- وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قيل له إن فلاناً يواليكم إلا أنه يضعف عن البراءة من عدوكم، فقال: «هيهات، كذب من ادّعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدونا»^(١).

- وعنه عليه السلام أيضاً: «أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه، قل للمؤمنين لا تلبسوا لباس أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تسلكوا مسالك أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي»^(٢).

- وورد في الحديث: «هل الدين إلا الحبّ والبغض»^(٣).

□ التأييد الإلهي في القرآن على أنواع:

- التأييد بملائكته كجبرائيل، ﴿أَيَّدْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤).

- التأييد بتأييد خاصّ منه سبحانه، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

- التأييد بالمؤمنين به، ﴿أَيَّدَكَ بِتُوبِهِ وَأِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

- التأييد بجنوده سبحانه، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودِهِ لَمَّا نَزَّلْنَا السُّورَةَ﴾^(٦).

□ وردت عبارة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، مرّات عدّة في القرآن الكريم:

١ - في سياق الحديث عن الصادقين في القول والعمل، ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ... رَضِيَ اللَّهُ...﴾^(٧).

٢ - في سياق الحديث عن السابقين والمسارعين في الخيرات، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ... رَضِيَ اللَّهُ...﴾^(٨).

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٢.

(٦) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٧) سورة المائدة: الآية ١١٩.

(٨) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٦٣.

(٤) سورة المائدة: الآية ١١٠.

٣ - في سياق الحديث عن المؤمنين الحقيقيين، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ... رَضِيَ اللَّهُ...﴾.

□ اتّخاذ الموقف المعادي لله ورسوله قبيح إلى حدّ دعا الله سبحانه إلى ذكره في القرآن أربع مرّات، وفي كلّ مرّة يتهدّد أصحابه بالغضب الإلهي، ومن هذه الموارد في الآيات ٥ و ٢٠ و ٢٢ من هذه السورة:

- ﴿كُتِبَ﴾.

- ﴿فِي الْأَذَلِينَ﴾.

- ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا... يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾.

- ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ... لَهُ نَارٌ... خَالِدًا...﴾^(١).

التعاليم:

١ - لا يجتمع حبين في قلب واحد، فحبّ الله وحبّ أعدائه لا يجتمعان في قلب واحد، ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ... يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾، وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢).

٢ - علينا أن نقتلع العيوب والآفات من الجذور. فمودة أعداء الله تقود الإنسان إلى الميل نحوهم على صعيد الفكر، والعمل، والأخلاق؛ لذلك لا بدّ من العلاج على مستوى الجذور وتجفيف منابع الانحراف، ﴿لَا يَجِدُ... يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾.

٣ - العلاقات والولاء والبراء في الإسلام يجب أن تكون على قاعدة رضا الله سبحانه، ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤ - العلاقات الأسرية لها حدود وخطوط حمراء لا ينبغي تجاوزها سلباً وإيجاباً، ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾.

(١) سورة التوبة: الآية ٦٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤.

- ٥ - أبدل الله سبحانه من يقطع علاقته من أجل الله بأربعة أشخاص (الأب، والابن، والأخ، والأسرة) أربعة أشكال من لطفه وكرمه، هي الإيمان، والتأييد، والجنة، والرضوان، ﴿الْإِيمَنَ، وَأَيَّدَهُمْ، جَنَّاتٍ، رَضِيَ اللَّهُ﴾.
- ٦ - قيمة الإيمان تكمن في ثباته واستقراره، وأما الإيمان الموسمي والمتقطع فلا قيمة له^(١) وكثيراً ما يتوقر، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ﴾.
- ٧ - ينبغي أن يستقرّ الإيمان في القلب ويثبت، ثم يأتي بعد التأييد والنصرة، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ... وَأَيَّدَهُمْ﴾.
- ٨ - الدين ليس علاقة فردية بين الإنسان والله، بل هو المرجعية التي تنظم علاقات الإنسان الاجتماعية، ﴿وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَ اللَّهِ...﴾.
- ٩ - لا يؤجل الله ثوابه إلى يوم القيامة، بل جعل في الدنيا أشكالاً من الثواب لمن يستحق، كالإيمان والتثبيت والنصرة، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ... وَأَيَّدَهُمْ﴾.
- ١٠ - حزب الله لا يمكن أن يكونوا من أولياء أعداء الله، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا... يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ... أَوْلِيَّكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.
- ١١ - الانتماء إلى حزب الله ليس مرهوناً بعرق أو لغة، أو منطقة، بل كل مؤمن مقاوم ثابت الإيمان هو من حزب الله، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ... يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ... أَوْلِيَّكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.
- ١٢ - النصر يأخذ قيمته الواقعية من الوصول إلى الأهداف وتحقيق الشعارات التي من أجلها كانت المعركة، فيقول الله سبحانه في مورد آخر: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)، ويقول هنا: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
- ١٣ - دوام النعمة هو بحدّ نفسه نعمة من النعم في الجنة، ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾.
- ١٤ - أن نرضى عن الله فهذا وجه من وجوه القضية، والمهم هو رضا الله سبحانه عنا، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٦.

١٥ - النعم في الآخرة نوعان، نعم مادّية، ﴿جَنَّتٍ...﴾، وأخرى معنوية، ﴿رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ...﴾، كما يقول سبحانه في موضع آخر: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
 أَكْبَرُ﴾^(١).

«والحمد لله رب العالمين»

(١) سورة التوبة: الآية ٧٢.



سورة الحشر

السورة: ٥٩ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ٢٤



ملاحح سورة الحشر

تتألف هذه السورة من أربع وعشرين آية، وهي من السور المدنية. أخذت السورة اسمها من كلمة «الحشر» الواردة في الآية الثانية، والحشر المقصود في هذه السورة ليس هو الحشر يوم القيامة، بل المراد هو اجتماع الناس استعداداً للرجيل.

تبدأ السورة وتختتم بالحديث عن تسبيح الموجودات جميعاً الله سبحانه، وتحدث عن العلاقة بين المنافقين ويهود المدينة، ومؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين. وفي هذه السورة يطمئن الله سبحانه إلى أنهم مهما كادوا فلن يصلوا إلى مبتغاهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

إشارات:

□ استخدمت كلمة «تسبيح» ومشتقاتها ما يقرب من ٨٥ مرة في القرآن الكريم. وتشتمل الصلاة في الإسلام على التسبيح في أكثر من حالة من حالاتها كالركوع والسجود مثلاً.

□ أحد معاني مادة «سبح» في اللغة العربية الحركة في الماء أو الهواء، وفي الاصطلاح الديني تنزيه الله عن كل عيب وتدلّ كذلك على السرعة في العبادة.

□ صفات الله سبحانه على نوعين: صفات ثبوتية، وصفات سلبية. والنوع الأول من الصفات هو الصفات التي تنسب إلى الله سبحانه كالعلم والقدرة والرحمة وإلى غير ذلك والنوع الثاني من الصفات هي التي ينزه الله عنها كالظلم والجهل والعجز وما شابه، والتسبيح مرتبط بالصفات السلبية، والحمد مرتبط بالنوع الأول.

□ في بعض الموارد من القرآن أو الصلاة يجمع بين التسبيح والحمد، كما في قوله تعالى في القرآن ﴿سُبْحٰنَ رَبِّيَ اَعْلٰى﴾^(١)، وفي الصلاة عندما يقول المصلي: «سبحان ربي الأعلى وبحمده». وهذا جمع بين الصفات الثبوتية والسلبية في عبارة واحدة، والمعنى هو أنّ المصلي ينزه الله عن كلّ عيب ويحمده على ما يسر له من لطفه.

تسبيح الموجودات:

يقول بعض المفسرين وغيرهم إنّ تسبيح الموجودات هو تسبيح تكويني؛ أي الموجودات كلّها من خلال وجودها هي آيات الله تعالى، تدلّ على علمه وحكمته

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

وقدرته وبراءته عن كلِّ عيب، فهي بذلك تسبِّحه وتنزِّهه وهذا ما يعبر عنه بالتسبيح بلسان الحال، ولا مبرر للاعتقاد بأنَّ الموجودات تقول «سبحان الله» وتردّد هذا الذكر بلسانها الخاصّ.

وعلى الرغم من اشتهاار هذه القول وانتشار الاعتقاد به، إلا أنّه يبدو أنّ لكلّ موجود لسانه الخاص الذي يسبِّح الله به، وذلك لأمر:

- إنّ الإنسان ومنذ قديم الزمان كان يرى في الموجودات آيات تدلّ على حكمة الله ونزاهته، وبالتالي هو يفهم تسبيحها بهذا المعنى، فكيف يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

- لو كان التسبيح بالمعنى المشار إليه أعلاه، لكان تسبيح الموجودات أشبه بتسبيح اللوحة الفنيّة التي يرسمها فنان، أو القصر الجميل الذي يبنيه معماري، ولا يصدق على مثل هذا التسبيح قوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدِّ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^(٢)، فهذه الآية تدلّ على أنّ تسبيح الموجودات صادرٌ عن وعي ومعرفة.

□ الوجود كلّهُ في حالة تسبيح دائمة لله تعالى، وقد عبّر عنه أحياناً بصيغة الفعل الماضي، ﴿سَبَّحَ﴾، وأحياناً بصيغة الفعل المضارع، ﴿يُسَبِّحُ﴾.

التعاليم:

١ - المخلوقات التي في السماء والأرض، لها شكل من أشكال الشعور والإدراك، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

٢ - ربّما ترى أنّ بعض الناس ليسوا من أهل التسبيح، ولكنّ الوجود كلّهُ في حالة تسبيح لله تعالى، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ...﴾.

٣ - عزة الله سبحانه وحكمته هما اللتان تدفعان الموجودات إلى التسبيح، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٤ - بعض الناس قد تدفعهم القدرة والعزة إلى فقدان توازنهم، وأمّا الله سبحانه

(٢) سورة النور: الآية ٤١.

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

فإن حكمته لا حد لها، على الرغم من أن عزته لا تعرف الحدود، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

- «الحشر» هو الجمع والإبعاد والطرده من المسكن.
- قوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾، من العبور ووجهه أن الفهم وأخذ العبرة هو عبور من اللفظ أو الحادثة أو غيرها إلى المعنى الذي تختزنه، وتعبير الرؤيا هو عبور من ظاهرها إلى معناها الحقيقي.
- كانت تسكن في المدينة ثلاث قبائل: هي بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة توافقوا معه على عدم التعرض له بالأذى وعدم مناصرة غيره عليه، ولكن بعد معركة أحد بدأ بعضهم يتآمر مع مشركي قريش ضد الإسلام والمسلمين، فعلم النبي ﷺ بذلك وتصدى لهذه المحاولات. فقتل أحد قادتهم وهو كعب بن الأشرف، فلجأوا إلى حصن من حصونهم يحتمون به، فحاصرهم المسلمون فيه، وبعد أيام من الحصار وافقوا على الرحيل عن المدينة، فحملوا ما استطاعوا حمله من الأموال وما لم يستطيعوا حمله خربوه كي لا يستفيد منه المسلمون^(١).

□ يشير القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى الخوف كسلاح من الأسلحة التي يضرب بها أعداءه، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) التفسير الأمثل، ج ١٨، ص ١٦٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

الرُّعْبِ ﴿١﴾، وهذا الرعب الذي يُلقَى في قلوب الأعداء يؤدّي إلى فرار الأعداء وتحقّق النصر للمسلمين من دون إراقة الكثير من الدماء. وقد ورد في الروايات أنّ الإمام المهديّ (عجل الله فرجه) ينصر بالرعب، كما ينصر بالملائكة والمؤمنين ﴿٢﴾.

□ التفكير والاعتبار في الإسلام شكل من أشكال العبادة، وقد ورد في الحديث: «كان أكثر عبادة أبي ذرّ التفكير والاعتبار» ﴿٣﴾.

□ لا شيء ممّا عند الله يخضع لحساباتنا وأوهامنا، لا لطفه ورحمته، ﴿وَبَرُّقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ﴿٤﴾، ولا قهره وغضبه، ﴿فَأَنذَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.

□ يتصرّف الله سبحانه في قلوب الخلق، فتارةً ينزل عليها السكينة والاطمئنان، ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥﴾، وأخرى يلقي فيها الرعب والخوف، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

التعاليم:

- ١ - غضب الله سبحانه على اليهود الذين نقضوا العهد مع رسوله ﷺ يقع ضمن إطار الحكمة، بل هو من مقتضياتها، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾.
- ٢ - من علامات العزّة الإلهيّة، تشريد اليهود الذين نقضوا العهد والميثاق، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾.
- ٣ - ينبغي أن يعلم الإنسان أنّ النصر من عند الله وبحوله وقوته، ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
- ٤ - يجب على المسلمين التمييز بين الخونة وأهل الوفاء حتّى لو كانوا أهل قبيلة واحدة أو دين واحد، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥١.

(٢) إثبات الهدى، ج ٧، ص ١٢٤.

(٣) ورد في الخصال للشيخ الصدوق، وروي أيضاً في: تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٧٤.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٥) سورة الفتح: الآية ٤.

- ٥ - النفي والإبعاد عن الأوطان، من العقوبات الإلهية، ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ... مِنْ دِينِهِمْ﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن يظنّ صاحب القوة أنّ قوته خالدة، ولا ينبغي أن يُظنّ في حقّه ذلك، ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾.
- ٧ - عقوبة من ينقض عهوده الاجتماعية أن يخرج من البيئة التي يسكن فيها، ﴿أَنْ يَخْرُجُوا...﴾.
- ٨ - لا ينفع أيّ شيء في مواجهة الإرادة الإلهية، ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾.
- ٩ - لا ينبغي أن يكون المعيار في الإعداد للقتال محصوراً في المادّة والمادّيات من عتاد وعدد، فهناك أمور أخرى لا بدّ من إدخالها في الحساب، ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.
- ١٠ - في بعض الحالات قد يجوز تخريب بيوت الأعداء، ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ١١ - عندما تقتضي إرادة الله شيئاً يتعاون حتى الأعداء في ما بينهم لتنفيذ الإرادة الإلهية، ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٢ - الله سبحانه هو مسبّب الأسباب، كما هو معطلها أيضاً، فيجعل الخوف سبباً للهزيمة، وبالخوف يطل أهمية الحصون والقلاع، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.
- ١٣ - مطالعة التاريخ وتقليب صفحاته، من أجل العبرة لا من أجل التسلية والمعرفة المجردة، ﴿فَاعْتَبِرُوا...﴾، والتاريخ معبر وليس مستقراً.
- ١٤ - الاستفادة من التاريخ تحتاج إلى بصيرة، ﴿فَاعْتَبِرُوا بِأُولَى الْأَبْصَارِ﴾.
- ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَمَذَّبْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

□ «الجلَاء» هو ترك الأوطان والهجرة منها لأجل بلاء وشبهه.

- «شاقوا» من الشق، وهو الفصل والمواجهة والعداوة.
- يقول سبحانه وتعالى، في سورة المجادلة الآية ٢١: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، ويقول في هذه الآية: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾، وهذا يعني أن النصر وهزيمة الأعداء ورحيلهم عن الأوطان، ذلك كله يتم بإرادة الله تعالى.
- الآية ١٣ من سورة الأنفال التي تتحدث عن معركة بدر، تشبه الآية الرابعة من هذه السورة.
- الله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهذا لا يتنافى وصفه بأنه: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فإن لكل من الرحمة والعقوبة محلها الخاص، ونقرأ في دعاء الافتتاح: «وأيقنت أنك أرحم الراحمين في موضوع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنتمة».

التعاليم:

- ١ - النفي والإبعاد من الأوطان هو الحد الأدنى من العقوبة لمن ينقض العهد والميثاق، فكان يستحق بنو النضير عقوبة أشد؛ ولكنه سبحانه كتب عليهم الجلاء وأعفاهم مما هو أشد، ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا﴾.
- ٢ - جلاء بني النضير بسبب خيانتهم ومعاداتهم لله ورسوله، وليس بسبب يهوديتهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ﴾.
- ٣ - العقوبات الإلهية عادلة، وهي تترتب على أعمال الإنسان، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ﴾.
- ٤ - مواجهة القائد المرسل من السماء، هي مواجهة لله سبحانه وتعالى، فأول الآية تحدث عن مشاققة الله الرسول، وأما في آخر الآية فاكتفى سبحانه بالإشارة إلى مشاققة الله، ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ... يُشَاقُّ اللَّهَ﴾.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَىٰ أَمْوَالِهَا فَإِذِنَ اللَّهُ وَلِيْحَزِيِ الْفَلْسِقِينَ﴾

إشارات:

□ «لينة» من اللين وهو ضدّ الخشونة، وقوله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ﴾، أي من نخلة ناعمة^(١).

□ ينهى الإسلام المجاهدين عن قطع الأشجار أو تسميم مياه العدو؛ ولكن في بعض الحالات قد تعيق بعض الأشجار حركة المقاتلين فيصدر الأمر بقطعها، وربّما نزلت هذه الآية لرفع شكّ المسلمين في صحّة ما فعلوه أو للردّ على اعتراض اليهود.

التعاليم:

١ - يجب أن تكون كلّ حركة وسكون في ساحات القتال بإذن قائد القتال وتحت إشرافه، ﴿مَا قَطَعْتُمْ... فَإِذِنَ اللَّهُ﴾.

٢ - قد تدعو بعض ضرورات القتال إلى تخريب بعض البيوت و قطع بعض الأشجار، ﴿يُحْرِقُونَ بُيُوتَهُمْ... قَطَعْتُمْ...﴾.

٣ - قطع الأشجار أو إبقاؤها قائمة، له حدود وضوابط يقرّها الله سبحانه وتعالى، ﴿مَا قَطَعْتُمْ... أَوْ نَزَعْتُمْهَا... فَإِذِنَ اللَّهُ﴾.

٤ - الفسق وغيره من الصفات الأخلاقية تترك آثارها على أموال الإنسان و ثرواته، ﴿مَا قَطَعْتُمْ... الْفَلْسِقِينَ﴾.

٥ - بعض الأعمال التي يراد منها الإيذاء يمكن فعلها في ساحات الحرب والقتال، ﴿وَلِيْحَزِيِ الْفَلْسِقِينَ﴾.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: «لين».

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إشارات:

□ أفاء من الفيء وهو العود، والمقصود منه في الاصطلاح ما يعود إلى المسلمين من غنائم يحصل عليها من دون حربٍ أو قتالٍ. وربما كان سبب تسمية الغنيمة فيئاً، هو الإشارة إلى أنّ هذه الأموال بالغنيمة عادت إلى أصحابها الحقيقيين، وذلك لأنّ الوجود كلّهُ لله تعالى وهو قد خلقه من أجل أوليائه.

□ «أوجفتم» من الوجيف وهو سرعة السير، وأوجفت البعير أسرعته. والخيل الحصان والفرس، والركاب الجممل.

□ الأموال التي يجوز للمسلمين التصرف فيها، على أنواع:

أ - الأموال التي يغنمها المسلمون في القتال، فهذه يملكها المجاهدون بعد إخراج الخمس منها.

ب - الأموال التي يحصلون عليها من دون قتال، وهي ما يسمّى بالفيء وهو ما تحدّث عنه الآية.

ج - الأموال التي ليس لأحد يد عليها كالجبال والأودية والآجام، وهي ما يسمّى بالأنفال وقد ورد حكمها في أول سورة الأنفال.

□ يستفاد من هذه الآية أنّ الأموال التي يحصل عليها المسلمون من دون قتال، لا يملكها المسلمون، وإنّما تدخل تحت صلاحية النبي ﷺ وهو الذي يتصرّف فيها بحسب ما يراه من المصلحة.

□ أحكام الإسلام تتوافق مع الحكمة فعندما يتعب المجاهدون لا يحسن حرمانهم من الغنيمة، وأمّا عندما تُنال الغنيمة من دون تعبٍ فيمكن إعطاء صلاحية التصرف فيها إلى النبي ﷺ.

التعاليم:

- ١ - في المسائل المالية، حتى النبي ﷺ لا يحوز التصرف من دون إذن إلهي، ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾.
- ٢ - لا يتوقف النصر دائماً على القتال والحرب، فقد ينصر الله أوليائه من دون قتال، ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.
- ٣ - السلطة بحذّ نفسها لا قيمة لها، وإنما تكسب قيمتها من مصدرها ومن الآذن بها، ﴿يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٤ - عندما يريد الله لا يقف شيء في وجه إرادته، لا الحصون ولا القلاع ولا غيرها، ﴿مَا نَعْتَهُمْ حُضُورَهُمْ... وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- «دولة» من التداول وهو الانتقال من يد إلى يد.
- ورد الأمر بالدعم الاقتصادي لأهل بيت النبي في القرآن أربع مرات، وذلك بعنوان الخمس أو غيره من العناوين، وذلك في الآيات الآتية: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١)، ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٢)، ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣)، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤).
- في الآية السابقة هدّد الله سبحانه الذين يشاققون الرسول بشدة العقاب، وفي هذه الآية أشير إلى شدة العقاب في حق من ربّما يعترض على تقسيم النبي ﷺ للفيء.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٦.

(٤) سورة الروم: الآية ٣٨.

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

□ في هذه الآية أشار الله سبحانه إلى الحكم أولاً: ﴿فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي...﴾، ثم بين سبب الحكم وحكمته، ﴿كَئِنْ لَا يَكُونُ دُولَةً...﴾، وختمت الآية بالدعوة إلى الالتزام بأوامر النبي ونواهي.

□ أشار الله في حق أهل البيت عليهم السلام، إلى الارتباط بهم معنوياً، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١)، كما دعا إلى دعمهم اقتصادياً ومالياً، ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ... وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

□ تتحدث هذه الآية عن ستة مصارف للفيء، ولكن المفسرين والفقهاء لا يحكمون بوجود القسمة على هذه المصارف بالتساوي.

□ الفيء من صلاحيات المنصب لا من صلاحيات الشخص فبعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعود صلاحية التصرف في الفيء إلى الإمام الواجب الطاعة.

التعاليم:

١ - أحكام الإسلام ليست خاصةً بزمان بعينه وإنما هي عامة لكل زمان ومكان، فقانون الفيء ليس خاصاً بيني النضير، بل ينطبق على كل الأموال التي يتركها أهلها، وكلمة «ما» وكلمة «القرى» فيهما بعض الدلالة على العموم، ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾.

٢ - أموال الكافرين الذي يفرون ويتركون أموالهم، تدخل ضمن صلاحيات القائد الديني الشرعي، ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

٣ - النظام الإسلامي بحاجة إلى الدعم المالي والاقتصادي، ومن الموارد الاقتصادية في الإسلام الفيء وهو الأموال التي يتركها الكفار من دون حرب أو قتال، ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ...﴾.

٤ - من آداب الكلام تقديم الأهم على المهم، ومن هنا تشير الآية إلى الله أولاً ثم إلى الرسول ثم من بعده، ﴿يَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾.

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

- ٥ - سهم الله يتصرف فيه النبي ﷺ بما يرضي الله، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾.
- ٦ - رفع الفقر من الأمور التي يعطيها الإسلام أولوية وعناية، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾.
- ٧ - إذا كان الله يمنع حصر تداول الثروة بين المسلمين، فإنه يطريق أولى يمنع حصر تداولها بأيدي الكفار، ﴿كَنْ لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَعْيُنَاءِ...﴾.
- ٨ - على الذين يخططون ويديرون اقتصاد المجتمعات أن يجعلوا ضمن برامجهم أن لا ينحصر تداول الثروة بين فئة محدّدة وطبقة اجتماعية دون غيرها، ﴿كَنْ لَا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَعْيُنَاءِ...﴾.
- ٩ - لا تجوز طاعة أيّ كان من الناس مطلقاً من دون قيد أو شرط، حتى النبي ﷺ لولا عصمته لما وجبت طاعته، ﴿وَمَا ءَانْتُمْ أَلرَّسُولُ فَعُذُوهُ﴾.
- ١٠ - يجب تطبيق سنّة النبي ﷺ وتنفيذها، ﴿وَمَا ءَانْتُمْ أَلرَّسُولُ فَعُذُوهُ﴾.
- ١١ - ليس من الضروري أن ينصّ القرآن الكريم على جميع الأوامر والنواهي، بل قد نعرف بعض الواجبات والمحرمات من النبي ﷺ، ﴿وَمَا ءَانْتُمْ أَلرَّسُولُ فَعُذُوهُ وَمَا تَنْهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾.
- ١٢ - علينا المسارعة إلى تنفيذ أوامر النبي ﷺ، ﴿فَعُذُوهُ... فَأَنْتَهُمْ﴾، الفاء تدلّ على التعقيب من دون تراخ.
- ١٣ - القضايا والمسائل الماليّة مزلة للأقدام؛ ولذلك لا بدّ من التسلّح بالتقوى عند الخوض فيها، ﴿مَأَ آفَاءَ آللّهِ... وَأَنْتَقُوا آللّهِ﴾.
- ١٤ - طاعة الرسول من دون تردّد أو تلكؤ، من علامات التقوى، ﴿وَمَا ءَانْتُمْ أَلرَّسُولُ فَعُذُوهُ... وَأَنْتَقُوا آللّهِ﴾.
- ١٥ - قلة التقوى يترتب عليها العقاب الشديد، ﴿وَأَنْتَقُوا آللّهِ إِنَّ آللّهِ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
- ١٦ - التذكير بالعقاب الشديد، يدعو الإنسان إلى التقوى، ﴿وَأَنْتَقُوا آللّهِ... شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٨﴾

إشارات:

□ هذه الآية بمنزلة الشرح للمصارف الستة التي وردت الإشارة إليها في آية سابقة، وفيها لفت ودعوة إلى الاهتمام بنوع خاص من الفقراء وهم الذين أصابهم الفقر؛ بسبب هجرتهم إلى الله ورسوله.

التعاليم:

١ - حتى لو كان الفقراء لا يتوقعون منا أي شيء، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾، علينا أن نجعل لهم سهما في أموالنا، ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾.

٢ - التعلق بالأوطان حق طبيعي وإلهي، يمكن متابعته والتعويض عنه، ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

٣ - الأشخاص الذين يدعون الإيمان بصدق، يدافعون عن النبي ويحمون رسول الله ودين الله، على الرغم من الفقر والتشرد والبعد عن الأوطان، ﴿لِلْفُقَرَاءِ... أُخْرِجُوا... وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ... هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

٤ - الكمالات والصفات الأخلاقية التي تستحق المدح والثناء، هي الصفات والكمالات الثابتة، ﴿يَبْتَغُونَ... يُنصُرُونَ﴾، (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).

٥ - الدنيا تكون جميلة وذات قيمة، عندما تقترن بالآخرة، ﴿فَضْلًا... وَرِضْوَانًا﴾.

٦ - المخلصون يرون ما ينالونه من نصيب في الدنيا لطفاً وتفضلاً من الله وليس حقاً، فلا يرون لأنفسهم حقاً على الله، ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾.

٧ - الصدق والوفاء يعرف بالعمل لا بالشعارات والكلام، ﴿وَيَنْصُرُونَ... الصَّادِقُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

- تبوأ من البواء وهو النزول في المكان. والخصاصة هي الفقر الذي لم يسد.
- و«يوق» من الوقاية بمعنى الحماية. و«الشح» هو بخل مع حرص.
- بعد أن أوصى الله بالاهتمام بفقراء المهاجرين، أثنى على الأنصار الذين آثروا إخوانهم على أنفسهم، وأحبوهم وشاركوهم في بيوتهم وأموالهم.
- ورد في بعض الروايات أنّ الإمام الجواد عليه السلام، بقي يدعو طوال الليل، ويقول: «اللهم قني شح نفسي». فاستفسر منه السامع عن حصر الدعاء بهذا الأمر، فقال: «فأي شيء أشد من الشح». وفي الحديث: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم»^(١).
- الإيثار صفة من صفات الكمال الأخلاقي؛ ولكن لا يجوز أن يخرج الإيثار عن حدّه المعقول، كما يوصي الله سبحانه وتعالى في الآية ٦٧ من سورة الفرقان، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، وقد ورد مثل هذا المعنى في عددٍ من الروايات عن الأئمة عليهم السلام.

التعاليم:

- ١ - التمهيد لخدمة الناس من الأعمال التي تستحق الثناء والمدح، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾.
- ٢ - لا يحسن المرء إلا حسن ظاهره وباطنه، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾.
- ٣ - لا حد ولا حدود لمحبة أهل الإيمان، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٩٢.

- ٤ - الشناء على من يستحقّ الشناء والمدح أمر مطلوب ويحسن فعله، ﴿يُحِبُّونَ... وَيُؤْتِرُونَ﴾.
- ٥ - الصداقة التي تدوم هي الصداقة المبنية على الخصال الحميدة، لا الصداقة المؤسسة على الانتماء القبلي أو الطبقي أو غير ذلك، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ﴾.
- ٦ - لا قيمة للتظاهر بالكمال، بل الكمال الحقيقي والواقعي هو الكمال المستقر في الأعماق، ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾.
- ٧ - على القائد والمرتبّي أن يكون متوازناً فعندما ينشئ على جماعة، لا ينبغي له أن ينسى الجماعة المنافسة. ففي الآية السابقة أشار الله إلى المهاجرين وأثنى عليهم، ثم عقب بعدها بالشناء على الأنصار ومدحهم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...﴾.
- ٨ - إكرام الضيف وإظهار الحبّ له من مكارم الأخلاق؛ ولكنّ الأحسن منه إكرام المهاجرين لأنّ الضيف يقيم أياماً ويغادر، وأمّا المهاجر فليست مغادرته باختياره، فقد يطول به المقام، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.
- ٩ - ينبغي مراعاة المقامات في سياق الشناء على الأشخاص والجماعات، فالمهاجرون أولاً في الآية السابقة، والأنصار أولاً في هذه الآية، ثم بعدهما ورد الشناء على التابعين.
- ١٠ - ينشئ الله على الذين لا يعرف الحسد إلى قلوبهم طريقاً. (والحسد يظهر عادة عند تقسيم الأموال والمكاسب، ويخبرنا الله عن قسمة الفياء بين المهاجرين وحدهم، ومع ذلك لم تظهر أمارات الحسد على الأنصار)، ﴿وَلَا يَحِدُّونَ... حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾.
- ١١ - كرم الأخلاق وسعة الأفق والرؤية، من الأمور الممدوحة في القرآن الكريم، ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾.
- ١٢ - إظهار المودة على الرغم من أنّه يطيب خاطر المودود، ولكن الأهم هو المودة العملية، ﴿يُحِبُّونَ... وَيُؤْتِرُونَ﴾.
- ١٣ - العطاء مع الحاجة أرقى وأهم من العطاء مع الاستغناء، ﴿وَيُؤْتِرُونَ... وَكَوْ كَانَتْ إِلَيْهِمْ حَاصَةً﴾.

١٤ - الخلوص من البخل، من مقدمات الفلاح، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ... هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾.

١٥ - البخل من الأخلاق الراسخة في النفس الإنسانية. فمن يستطيع التخلص من البخل لا يجود بماله فحسب، بل يصبح مستعداً للجود بنفسه، ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾.

١٦ - لا يمكن أن يفوز البخيل أو يفلح، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

١٧ - الخلاص من خلق البخل يحتاج إلى المدد الإلهي. ومن هنا وردت كلمة «يوق» مبنية للمجهول، وربما كان الفاعل هو الله.

١٨ - تتوقف كثير من الكمالات على التخلص من البخل. ومن هنا وردت جملة ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾، بمثابة المفتاح للفلاح والفوز.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ أثنى الله سبحانه على المهاجرين في آية، وعلى الأنصار في آية أخرى، وعلى التابعين في هذه الآية، وكلمة «تابعين» ربما تشمل كل من أتى بعد المهاجرين والأنصار وآمن بالنبي ﷺ.

□ ذكرت الآيات من ٨ إلى ١٠ من هذه السورة إلى أسباب الوحدة، وهي:

- ١ - المحبة، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - الإيثار، ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٣ - الدعاء، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا...﴾.
- ٤ - الخدمة، ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾.
- ٥ - ترك الحرص والحسد، ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾.

- ٦ - ترك البخل، ﴿يُوقَ شَحَّ نَفْسِهِ﴾.
 ٧ - الأخوة، ﴿أَغْفِرْ لَنَا وَإِخْوَانَنَا﴾.
 ٨ - سعة الصدر والتجرد من الحقد، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

المغفرة والاستغفار:

ورد ذكر المغفرة والاستغفار في القرآن الكريم أكثر من مئتي مرة. فدعينا إلى أن نستغفر الله سبحانه ونطلب المغفرة منه، كما دُعينا إلى أن نطلب من أولياء الله أن يستغفروا لنا الله سبحانه، ﴿يَتَابَأَنَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾^(١) والملائكة يستغفرون للمؤمنين، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢)، نعم الإيمان من شروط المغفرة، فالاستغفار للمشركين والكفار لا يجدي ولا يقبله الله، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٣) و﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

وللمغفرة أسباب تساعد على تحققها، منها:

- ١ - طاعة القائد الإلهي، ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٥).
 ٢ - التقوى، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٦).
 ٣ - العفو والصفح عن الناس، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٧).
 ٤ - الكلام المقرون بالدليل والبرهان، ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٨).
 ٥ - القرض الحسن، ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٩).
 ٦ - التوبة والاستغفار، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَافِرًا رَحِيمًا﴾^(١٠).

- | | |
|------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة يوسف: الآية ٩٧. | (٦) سورة الأنفال: الآية ٢٩. |
| (٢) سورة غافر: الآية ٧. | (٧) سورة النور: الآية ٢٢. |
| (٣) سورة المنافقون: الآية ٦. | (٨) سورة الأحزاب: الآيات ٧٠ و٧١. |
| (٤) سورة التوبة: الآية ١١٣. | (٩) سورة التغابن: الآية ٥. |
| (٥) سورة آل عمران: الآية ٣١. | (١٠) سورة النساء: الآية ١١٠. |

التعاليم:

- ١ - المذهب والدين الكامل، هو الذي يلحظ في خطه وبرامجه، أتباعه الآتين في المستقبل، فيخطط لرشدهم وتكاملهم، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.
- ٢ - علينا أن نبدأ بالاستغفار لأنفسنا، ثم الاستغفار للآخرين، وذلك من أجل أن لا يُفهم أننا ننزه أنفسنا عن الحاجة إلى المغفرة، ﴿أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾.
- ٣ - المؤمن ليس بالضرورة أن يكون معصوماً، فقد يرتكب المعصية، ولكن الفرق بينه وبين غيره من الناس أنه لا يؤجل التوبة والاستغفار، بل يبادر إليهما فور صدور الزلل منه، ﴿أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾.
- ٤ - من أخلاق الإسلام وآدابه، الدعاء للأسلاف السابقين إلى الإيمان، وطلب المغفرة لهم، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
- ٥ - المسلمون إخوة في ما بينهم، ويدعو بعضهم لبعضهم الآخر، ﴿أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
- ٦ - سبق إلى الإيمان من الفضائل في نظام القيم الإسلامي، ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
- ٧ - الأخوة الحقيقية هي الأخوة في الإيمان، ﴿وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
- ٨ - الأخوة الدينية، لا تخضع لمعايير الزمان والمكان، والعرق واللون وغيرها، ﴿وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
- ٩ - على المؤمن أن يطهر قلبه من رجس الحقد بالدعاء للآخرين وتمني الخير لهم، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ... وَلِإِخْوَانِنَا... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ١٠ - المؤمن لا يمكن أن يتمنى الشر للآخرين، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ١١ - لا يستطيع الإنسان تهذيب نفسه وبناءها من دون الاستعانة بالله سبحانه، ﴿رَبَّنَا... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا﴾.
- ١٢ - لا بد لتحقيق الإصلاح من البدء من الجذور، فالحسد والغل والعداوة هي سبب كثير من المعاصي والآثام، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾.

١٣ - الالتفات إلى ربوبية الله ورأفته ورحمته من الآداب الدينية ومن العوامل المساعدة على استجابة الدعاء، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ... إِنَّكَ رَهٌوْفٌ رَحِيْمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن أثنى الله على المهاجرين والأنصار والتابعين في الآيات السابقة، بدأ في هذه الآية برسم الصورة المقابلة تماماً لتلك الفئات، وهي صورة المنافقين، فالجماعات الأولى تدعو إلى المغفرة، وهؤلاء يدعون إلى التمرد والعصيان.

□ يحدثنا المفسرون عن وعود ضربها المنافقون لليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، فوعدهم بالوقوف إلى جانبهم في أي مواجهة قد يقدم عليها المسلمون.

□ بالنظر إلى الآية التي نصت على ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، يظهر أنّ الأخوة بين المنافقين واليهود أخوة ظاهرية وصورية فحسب، ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، فالأخوة الحقيقية يترتب عليها المواساة والنصرة والإيثار، كما كان بين المهاجرين والأنصار، ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وأما الأخوة الظاهرية فلا تتجاوز الادعاء واللسان والوعود الكاذبة، ﴿لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ - ينبغي بقائد المجتمع الإسلامي، أن يكون على علمٍ بالعلاقات التي تربط المنافقين بالأعداء الخارجيين، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ - كانت توجد بين المنافقين واليهود في صدر الإسلام علاقات خفية تتضمن الخيانة، وكان المنافقون يحرضون اليهود على العداوة ويعدونهم بالنصرة إن

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

- هم احتاجوا إليها في مواجهة المسلمين، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾.
- ٣ - المنافقون والكفار إخوة، ﴿نَافِقُوا... لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٤ - لم يقف أهل الكتاب جميعاً صفًا واحداً ضدَّ الإسلام والمسلمين، بل فعل ذلك جماعة منهم دون الآخرين، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.
- ٥ - يعتمد المنافق أسلوب التأكيد والجزم في خطابه، من أجل جعل المخاطب يصدّق وعوده، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ... لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.
- ٦ - المنافق على الرغم من أنه يعيش في المجتمع الإسلامي، فإنه غير مستعد لطاعة القائد الإسلامي في القضايا الاجتماعية والسياسية، ﴿وَلَا يُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

﴿لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ (١٢)

التعاليم:

- ١ - معرفة المؤمنين بهزيمة الكفار، وبعدم ثبات المنافقين على مواقفهم وعدم التزامهم بعهودهم، يؤدي إلى رفع روحهم المعنوية، ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ... لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾.
- ٢ - لا ينبغي أن نخشى أبواق المنافقين، وقوة دعايتهم الإعلامية، فهم على الرغم من كلّ ما يظهرونه من قوّة الموقف فإنهم سرعان ما يفرون عندما تقتضي الظروف الثبات، ﴿لَا يَخْرُجُونَ... لَا يَنْصُرُونَهُمْ... لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ﴾.
- ٣ - قلة الوفاء عند المنافقين تصل إلى أقصى الحدود، فهم لا يلتزمون بوعودهم لأشدّ لإخوانهم الكافرين، ﴿لَا يَخْرُجُونَ... لَا يَنْصُرُونَ﴾.
- ٤ - عاقبة النفاق الذلّ والخزي، ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ «الرهبة» هي الخوف العميق الذي يضرب أعماق النفس، ويتجلى في مقام العمل.

□ هذه الآية بمثابة الدليل والبرهان على الآية السابقة، فالمنافقون لا يثبتون في ساحات الوغى ولا ينصرون إخوانهم، وذلك لأنهم لا يؤمنون بالله، وهم في الواقع يخافون بريق سيوف المسلمين أكثر من خوفهم الله تعالى.

التعاليم:

١ - المؤمن له هيبة ورهبة، وهو صاحب أبهة وعز، ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾.

٢ - من علامات النفاق، الخوف من الناس أكثر من الخوف من الله، ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾.

٣ - لا يفهم المنافقون وأتى لهم أن يفهموا، أن مصدر عزة المسلمين ومنشأ شوكتهم هو إيمانهم بالله وارتباطهم به، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.

٤ - الخوف من الناس بدل الخوف من الله، ينشأ من التفكير السطحي وخفة العقل، ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً... لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَا يُغْنِيكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ

جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤)

إشارات:

□ «القرى» جمع قرية، وهي محل اجتماع الناس للسكن والاستقرار، و«محصنة» من الحصن وهو السور أو الخندق أو حول المدينة، أو أبراج المراقبة أو غيرها مما يعطي المدينة حصانة في مواجهة العدو.

□ أهمية الوحدة وبركاتها تظهر بأدنى مستوى من التفكر والتأمل؛ ولذلك يختم الله سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿لَا يَقُولُونَ﴾. أما معرفة أن زمام الأمور كلها بيد الله وأن على الإنسان أن لا يخاف من ما سوى الله، فهو من الأمور التي لا تدرك إلا بعد الوصول إلى التوحيد الخالص، وبالتالي تحتاج إلى مستوى أعمق من الفهم وهو الفقه؛ ولذلك ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - تقويم الروح المعنوية للأعداء وحلفائهم، من الأساليب المهمة في المواجهة، ﴿لَا يُقَالُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا...﴾.
- ٢ - على المسلمين أن لا يسمحوا للمنافقين بالتحصن في مناطق خاصة بهم؛ لأن ذلك يجعل خطرهم جدياً عند أي مواجهة للمسلمين معهم أو مع غيرهم من الأعداء، ﴿لَا يُقَالُونَكُمْ... إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾.
- ٣ - لا قيمة للتحالفات والاتحادات التي لا تبنى على أسس إيمانية ومعنوية، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.
- ٤ - التجهيزات المادية والعسكرية الدفاعية والهجومية لا تحقق الأمن، فالكفار على الرغم من كل ما يتوقرون عليه من تحصينات، لا يتمتعون بالأمن الداخلي، بل إن أسباب الصراع بينهم قائمة، ﴿قُرَى مُحَصَّنَةٍ... بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا﴾.
- ٥ - ينبغي بوسائل الإعلام الإسلامية والقيادات، أن تحقر المنافقين وتكشف عن حقيقتهم، ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ... قَوْمٌ لَا يَقُولُونَ﴾.
- ٦ - الاختلاف في حالة الحرب، من علامات قلة العقل، أو من نتائجها، ﴿لَا يُقَالُونَكُمْ جَمِيعًا... وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى... لَا يَقُولُونَ﴾.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ الروال، العواقب والآثار السيئة لأي أمر.

□ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ولكن بني النضير لدغوا من المنافقين أكثر من مرة، وصدقوا وعودهم التي سبق أن أعطوها لأهل ملتهم من بني قينقاع.

التعاليم:

- ١ - يعرف واقع الأشخاص والجماعات ومستقبلهم، من التعرف على ماضيهم، ﴿كَشَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٢ - ينبغي بقائد المجتمع الإسلامي، أن يعرف تاريخ الأقسام والجماعات التي يمكن أن تؤثر على المجتمع الإسلامي، ﴿كَشَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٣ - في الدعوة والتبليغ يحسن ضرب الأمثلة، ولكن ليس أي أمثلة بل الأمثلة القريبة إلى عقول المخاطبين، ﴿قَرِيبًا﴾.
- ٤ - البلايا المادية تجل من تجليات الغضب الإلهي، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.
- ٥ - للتاريخ قوانين وسنن ثابتة لا تقبل التغيير. فإذا انطبق أحد قوانينه على الكفار في حالة من الحالات، ينطبق على غيرهم إذا فعلوا ما فعلوه حتى لو كانوا مسلمين، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.
- ٦ - البلايا والمصائب التي قد تصيب الإنسان، هي من آثار علمه ومن صنع يمينه، ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.
- ٧ - التعاون مع المنافقين، له آثاره السيئة في الدنيا كما له عقوبته في الآخرة، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَكَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿كَشَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية تقع في سياق تميم الآيات السابقة، يشبه الله فيها عدم وفاء المنافقين بوعودهم، بعدم وفاء الشيطان بوعوده، فليست وعوده إلا كالبرق الخلب، وما أكثر الأشخاص بل الدول الشيطانية التي تعد أنصارها، ثم تركهم عند الأزمات يواجهون مصيرهم بأنفسهم.

□ يروي المفسرون عن ابن عباس عند تفسير هذه الآيات، قوله: إنه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا عبَدَ الله زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعودهم فيبرأون على يده، وقد جهد الشيطان في إغوائه فأعيتته الحيلة، إلى أن أتى بامرأة في شرف قد جُنَّت وكان لها إخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزئ له حتى وقع عليها، فحملت فلما استبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتى لقيَ أحدَ إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا، ثم أتى بقيّة إخوتها رجلاً رجلاً فذكر ذلك له، فجعل الرجل يلقي أخاه فيقول والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً يكبر عليّ ذكره، فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم فسار الملك والناس فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب فلما رفع على خشبته تمثّل له الشيطان فقال أنا الذي ألقيتك في هذا فهل أنت مطيعي في ما أقول لك أخلصك ممّا أنت فيه؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدةً واحدةً، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء فأومى له بالسجود فكفر بالله، وقتل الرجل فهو قوله، ﴿كَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾. ضرب الله هذه القصة لبني النضير حين اغتروا بالمنافقين ثم تبرأوا منهم عند الشدة^(١).

□ يستخدم الشيطان لكلّ امرئ وسيلة خاصة به لإغوائه وحرفه عن الجادة:

- فعابد بني إسرائيل أغواه الشيطان من باب العبادة، إذ تصنّع العبادة أمامه وأقنعه بأنّ قدرته على العبادة ناتجة من ارتكابه الزنا مرّة وتوبته بعد ذلك، فدعاه ذلك إلى خوض التجربة.

- قارون أغوته ثقته الزائدة بنفسه وبقدرته على إدارة الأموال والتجارة، ﴿عَلَّ عَلِيْرٌ عِنْدِي﴾^(٢).

(١) مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٩٦؛ تفسير القرطبي، ج ١٨، ص ٣٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٨.

- بلعم بن باعوراء غرته معرفته بالاسم الأعظم، ﴿ءَاتَيْنَتْهُ آيَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾^(١).

- والسامري أغوته معرفته واطلاعه على ما لا يعرفه غيره من الناس، ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا﴾^(٢).

- وبعض الناس تغرهم أموالهم وثرواتهم، : ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾^(٣).

- ومن الناس من يغتر بأبنائه، ﴿وَيَنْ شُهُودًا﴾^(٤).

- وبعض الناس تغويهم السلطة، ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾^(٥).

- وآخرون تضللهم قدراتهم الدفاعية وحصونهم، فيحسبون أنها تجعلهم في مأمن من غضب الله، ﴿جَاؤُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٦)، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^(٧).

وجوه الشبه بين المنافقين والشيطان:

١ - كلاهما عدو للإنسان، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٨)، ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾^(٩).

٢ - كلاهما يدعو الإنسان إلى الفحشاء والمنكر، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١٠)، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾^(١١).

٣ - على الإنسان أن يتجنبهما معاً، ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(١٢)، ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١٣).

٤ - كلاهما له ظاهر مخادع يختلف عن باطنه، ﴿كَذَّبِلَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ... قَالَ إِنِّي بِرَبِّي عَلِيمٌ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾^(١٤).

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة الأعراف: الآية ١٧٥. | (٨) سورة يس: الآية ٦٠. |
| (٢) سورة طه: الآية ٩٦. | (٩) سورة المنافقون: الآية ٤. |
| (٣) سورة التوبة: الآية ٧٦. | (١٠) سورة البقرة: الآية ٢٦٨. |
| (٤) سورة المدثر: الآية ١٣. | (١١) سورة التوبة: الآية ٦٧. |
| (٥) سورة الزخرف: الآية ٥١. | (١٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٨. |
| (٦) سورة الفجر: الآية ٩. | (١٣) سورة المنافقون: الآية ٤. |
| (٧) سورة الشعراء: الآية ١٤٩. | (١٤) سورة البقرة: الآية ١٤. |

- ٥ - كلاهما يستغلّ الشعارات البرّاقة والتظاهر بإرادة الخير لإغواء مخاطبه، ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِيسِ﴾^(١)، ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِحُونَ﴾^(٢).
- ٦ - المحلّ المناسب لكليهما هو النار، ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾^(٣)، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - من وسائل التأثير في المخاطب، الإشارة إلى أكثر من نموذج ومثال للفكرة التي يراد إيصالها إليه، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾.
- ٢ - وسوسات المنافقين تشبه وسوسات الشيطان وتسويلاته، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ... كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٣ - لا يفعل الشيطان أكثر من دعوة الإنسان إلى الانحراف، وأما الانحراف فهو من فعل الإنسان الذي يستجيب الدعوة، ﴿أَكْفُرْ... فَلَمَّا كَفَرَ﴾.
- ٤ - الشيطان لا يرافق الإنسان أكثر من نصف الطريق، ﴿أَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ﴾.
- ٥ - يتجاوز الإنسان الشيطاني الحدود المعقولة ويصل إلى حدّ يتبرأ الشيطان منه ويرى نفسه غير قادر على مجاراته، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾.
- ٦ - يبرّر الشيطان والمنافقون عدم وفائهم بوعودهم بدعوى الخوف من الله، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وهكذا يتضح أنّ عاقبة النفاق والكفر النار والخلود فيها.
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

إشارات:

□ يكرّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الأمر بالتقوى، وهذا يفيد التأكيد،

(٣) سورة الحشر: الآية ١٧.

(٤) سورة النساء: الآية ١٤٥.

(١) سورة طه: الآية ١٢٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١.

ومضافاً إليه يمكن أن يدلّ التكرار على المعاني الآتية:

- ١ - الدعوة الأولى تتعلق بأصل العمل، والثانية تتعلق بكيفية أدائه.
- ٢ - الدعوة الأولى هي دعوة إلى فعل الخير، والثانية هي دعوة إلى ترك المحرمات.
- ٣ - وربما تكون الدعوة الأولى دعوة إلى التوبة، والثانية دعوة إلى التزوّد للأخرة.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تصدّقوا ولو بصاع من تمر، ولو ببعض صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، ولو بشقّ تمرّة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن أحدكم لاقى الله فيقال له: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سمياً بصيراً؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى. فيقول الله تبارك وتعالى: فانظر ما قدّمت لنفسك. قال، فينظر قدّامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، فلا يجد شيئاً بقي به وجهه من النار^(١)».

التعاليم:

- ١ - الإيمان هو الأرضية المساعدة على التقوى، والتقوى هي الشرط الذي يرتب النفع على الإيمان، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسًا﴾.
- ٢ - على الإنسان أن لا يراهن على فعل ورثته الخير له، بل عليه أن يفكر هو نفسه في آخرته، ويعدّ العدة لها، ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.
- ٣ - علينا أن ننعم النظر في ما ندخره لآخرتنا بوصفه عملاً صالحاً، ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾.
- ٤ - محاسبة النفس من الواجبات، ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ﴾ (فإذا لم ننظر اليوم ونتأمل فسوف نشعر بالخجل والحياء يوم القيامة من تقصيرنا)، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مِمَّا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَسْتَنِي كُتُّنًا﴾^(٢).

- ٥ - ليس يوم القيامة بعيداً، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ (وفي محل آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾^(١)).
- ٦ - بُعد النظر والتفكير في العاقبة، من لوازم الإيمان، ﴿مَا قَدَّمْتُ لِعِبَادٍ﴾.
- ٧ - التقوى من دواعي محاسبة النفس، ومحاسبة النفس سبب للرشد وتمتين حالة التقوى. (فقد ورد قوله تعالى ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ﴾ بين أمرين بالتقوى).
- ٨ - لا ينبغي أن يعدّ الإنسان نفسه في مأمن في أيّ فترة من فترات حياته، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ... وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٩ - الإيمان بخبرة الله وسعة علمه، من العوامل المساعدة على التقوى، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ... إِنَّ اللَّهَ حَسِيرٌ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰلسِقُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفٰلٰقِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ المنافقون هم أبرز مصاديق الذين نسوا الله. يقول الله سبحانه في الآية ٦٧ من سورة المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ومن الواضح أنّ الله سبحانه لا ينسى ولا يغيب عن علمه شيء، والمراد هو أنّه يحجب عنهم لطفه وكرمه، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٢).

□ الغفلة من أخطر الآفات التي تصيب الإنسان. يحكم الله على بعض الناس بأنهم أسوأ حالاً من البهائم، فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ﴾^(٣)، وعليه فإنّ الغفلة عن الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾^(٤)، والغفلة عن يوم القيامة، ﴿نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٥)، والغفلة عن آيات الله، ﴿أَنْتَكَ ءَايٰتُنَا فَنَسِيْنٰهَا﴾^(٦)، تؤدّي إلى سقوط الإنسان في حضيض الحيوانية، بل إلى ما دونها.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٧.

(٥) سورة ص: الآية ٢٦.

(٦) سورة طه: الآية ١٢٦.

(١) سورة المعارج: الآية ٦.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

□ الإنسان الذي ينسى الله، هو إنسان ضلّ الطريق، وفقد القائد، والهدف، والقانون، وهو إنسان غارق في الشهوات، وهو أسير الشهوات والرغبات في كلّ أعماله، وهذا من أخطر ما يهدّد الإنسان.

من ينسى لطف الله، يدخل نفسه في نفق اليأس. ومن ينسى عفو الله، يرى أنّ حاله لا يقبل الإصلاح، وبالتالي ييأس من نتيجة أيّ عمل.

ومن ينسى القائد الإلهي، يعطي زمام قياده إلى الطاغوت فيجرّه إلى الانحراف والضلال. ومن ينسى القانون الإلهي، يتبع كلّ ناعق، ويدخل في آتون الأفكار الضالّة. ومن ينسى طريقه، يدخل نفسه في متاهة لا يعرف من أين يدخل ولا من أين يخرج. ومن ينسى أوليائه، يتولّى من يتلاعب بمصيره. ومن ينسى نعمة الله عليه، يتملّق من يحسب أنّهم المنعمون عليه.

□ ومن ينسى الله، سوف ينسى الغايات والأهداف التي خلقه الله لأجلها، ومثل هذا الشخص سوف يضيع العمر من دون جدوى.

□ الإنسان مؤمن يعرف الله بالفطرة، والنسيان أمر عارض عليه، ف«النسيان» كلمة لا تنطبق إلا على حالة العلم السابق.

التعاليم:

١ - المؤمن في معرض الغفلة عن ذكر الله؛ ولذلك يحتاج إلى التحذير والتذكير، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَوُا آلِهَةً... وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾.

٢ - الدرجة الأولى في سلم هبوط الإنسان، هي نسيان الله والغفلة عن ذكره، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ﴾.

٣ - العقوبات الإلهية متناسبة مع الأعمال الإنسانية، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

٤ - المعصية والانحراف من نتائج الغفلة عن ذكر الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

التعاليم:

- ١ - التأنيب غير المباشر، من الأساليب التربوية الناجحة، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ...
وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا﴾.
- ٢ - القرآن كتاب إلهي، وهو كامل لا نقص فيه ولا خلل، وإذا كان من خلل فهو
في قابليات الإنسان واستعداده للاستفادة الكاملة منه، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا...﴾.
- ٣ - من أساليب القرآن في الهداية استعمال الأمثال لشرح الحقائق المعنوية، ﴿لَوْ
أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾.
- ٤ - الجبال على الرغم من صلابتها ومتانتها تنهدم تحت وطأة القرآن، وقلوب
بعض الناس لا تهتز لآيات الله، وهذا يعني أن بعض القلوب أقسى من
الجبال، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا...﴾.
- ٥ - الوجود الماديّ فيه شكل من أشكال الشعور والوعي، فالجبال تتأثر بكلام الله
وتخضع له، ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾.
- ٦ - أمثال القرآن تحتاج إلى التدبّر والتأمل، وإلا لا يتسنى إدراكها وفهمها،
﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- ورد الأمر بقراءة الآيات الأخيرة من سورة الحشر في عددٍ من الروايات، وذكر
لقراءتها ثواب عظيم، وبركات جمّة، ومنها الحصول على ثواب الشهداء
ومقامهم.
- قد تشتمل هذه الآيات ٢٢ - ٢٤ على الاسم الإلهيّ الأعظم؛ لأنّ فيها ما

يقرب من خمسة عشر اسماً، ويمزيد من العناية والتدقيق ربّما تصل الأسماء والصفات الإلهية المذكورة فيها إلى ثماني عشرة صفة، تشير كلّ واحدة منها إلى صفة كمالٍ من كمالاته تعالى.

□ المعبود الحقيقي، هو الوجود الذي بلغ من سعة العلم والرحمة والقداسة والعزة والقدرة والعظمة، الحدّ الأعلى المطلق، وبما أنّ ذلك لا يتوقّر إلا في الله سبحانه، فلا أحد غيره يستحقّ أن يكون معبوداً للإنسان.

□ يظهر من تتبّع موارد ذكر الغيب والشهادة في القرآن، تقدّم الغيب على الشهادة، والتقديم يكشف عن الأهمية.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام، قوله: «الغيب ما لم يكن، والشهادة ما قد كان»^(١).

التعاليم:

١ - الوجدانية من أوّل الصفات الإلهية وأهمّها، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ - هو الله الذي تبحث عنه كل ذرة من ذرات الوجود، ﴿هُوَ اللَّهُ﴾.

٣ - لا فرق في علم الله بين الغيب والشهود، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

٤ - على الرغم من أنّ الله يعلم كلّ شيء، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، فإنّه يتعامل مع عباده بالرحمة. فإذا كان علمه سبحانه مصدر خشية وخوف، فإنّ رحمته مصدر الأمل والرجاء، ومن أصول التربية الإسلامية أن يبقى الإنسان بين حدّي الخوف والرجاء، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

٥ - لا أحد سوى الله سبحانه يتوقّر على العلم المطلق والرحمة الواسعة التي لا حدّ لها، ﴿هُوَ... عَلِمُ الْغَيْبِ... هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

□ «ملك» هو المالك للأمر والمتصرف فيه. «قدوس» المنزه عن كل عيب وذنس. «مهيمن» صاحب السلطة المطلقة التي لا تزاحمها سلطة. «جبار» القادر على الجبر، والذي يجبر.

□ «سلام» مصدر مستخدم كصفة مثل عدل بدل عادل، والسلام هو الذي يتعامل بسلامة وعافية. «مؤمن» المؤمن هو الذي يعطي الأمان من الأخطار.

□ الملوك والحكام في الدنيا، محاطون بكل أشكال العجز والمحدودية، ومع ذلك لا يأمن المحكومون شرهم. أما الله فهو الحاكم المطلق، المقدس المنزه عن كل عيب ونقص في سلطته وذاته، يجمع بين إعطاء الأمان والأمن وبين السيطرة الكاملة التي لا يحدها حد، وهو القادر الذي لا حد لقدرته، وقدرته منشأ لجبر نقص كل قدرة ناقصة.

التعاليم:

- ١ - من ينبغي أن يكون المعبود الوحيد للوجود كله، هو الحاكم المطلق الذي لا حدود لسلطته وحكمه، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾.
- ٢ - سلطة الله منزّهة عن كل نقص، وملؤها القداسة، ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾.
- ٣ - لا يمكن أن يصدر عن الله أي شيء يضر مخلوقاته، ﴿السَّلَامُ﴾.
- ٤ - الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، ﴿الْمُهَيَّمُنُ﴾.
- ٥ - ظنون المشركين في الله أوهام باطلة، وفي غير محلها، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

إشارات:

- «البارئ» هو الخالق الذي تمايز مخلوقاته بعضها عن بعض.
- هذه السورة هي السورة الوحيدة التي تبدأ بالتسبيح وتختتم به، ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ...
يُسَبِّحُ لَهُ﴾. تنص الآية الأولى منها على عزة الله وحكمته، وتنتهي الآية الأخيرة
منها بوصف الله بأنه عزيز حكيم.

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه هو الخالق الذي لم يخلق وفق نموذج سابق بينى عليه، بل كل ما خلقه الله بديع غير مسبوق، ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾.
- ٢ - من هو أهل لتسبيح الوجودات والموجودات كلها، هو الموجود الحائز على الكمالات جميعاً، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ...﴾.
- ٣ - تسبيح الموجودات، يكشف عن شكل من أشكال الشعور والوعي عند الموجودات كلها، كل بحسبه، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٤ - في تسبيح الموجودات ذكرى وموعظة للناس الذين ليسوا من أهل التسبيح، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٥ - قدرة الله مقرونة بالحكمة، وبعيدة عن الجور والظلم، ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»



سُورَةُ الْمُتَحَنِّنِ

السورة: ٦٠ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ١٣



ملاحح سورة الممتحنة

سورة الممتحنة مدنيّة، عدد آياتها ثلاث عشرة آية. وقد أخذت اسمها من الآية العاشرة فيها، والتي تدعو إلى امتحان النساء المهاجرات.

من أهمّ مضامين السورة الحديث عن محبة الله، والنهي عن موالة أعدائه، وفيها دعوة للمسلمين إلى اتّخاذ النبي ﷺ أسوةً وأمثلةً.

توجد بين سور القرآن الكريم تسع سور تبدأ بالحديث عن معرفة العدو؛ وهي سور: براءة، والأحزاب، ومحمّد، والممتحنة، والمنافقون، والمعارج، والبيّنة، والكافرون، والمسّد.

وعدد الآيات التي تتحدّث عن العدو يفوق عدد الآيات التي تتحدّث عن الأحكام؛ فقد استخدمت كلمة «ضلّ» مئة وتسع مرّات، وكلمة «كفر» وردت خمسئة وإحدى وعشرين مرّة، وكلمة «نفاق» تكرّرت في القرآن الكريم سبعاً وثلاثين مرّة، وكلمة «صدّ» وردت خمساً وأربعين مرّة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ فِيهِم بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَاتِي تُسْرُونَ فِيهِم بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

إشارات:

- تطلق كلمة العدو على الفرد وعلى الجماعة، والمراد منها هنا الجماعة؛ وذلك بقرينة المقابلة بينها وبين كلمة «أولياء»^(١).
- المقصود من «إخراج» النبي ﷺ والمسلمين هو إيذاؤهم وإزعاجهم، كي يطلبوا الخلاص بالخروج من مكة والهجرة إلى غيرها من البلاد.
- ورد في كتب التفسير أن أحد أصحاب النبي أعطى امرأة رسالة لتحملها إلى مشركي مكة، يطلعهم فيها على عزم النبي ﷺ على فتح مكة. وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم» فخرجت المرأة ونزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ علياً وآخرين من أصحابه، وكانوا كلهم فرساناً. وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها»؛ فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهتموا بالرجوع فقال علي ﷺ والله ما كُذِّبنا ولا كُذِّبنا، وسل سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب وإلا والله لأضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد أخبأتها في شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ.

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن، عند تفسير الآية.

فأرسل إلى حاطب فاتاه فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت عريراً فيهم، أي غريباً، وكان أهلي بين ظهرانيتهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدقه رسول الله ﷺ وعذره، فنزلت الآيات في هذه الحادثة.

واللآفت في هذه الحادثة أنّ المرأة أتت إلى المدينة تطلب المساعدة من النبي ﷺ. فسألها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا. قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليّ واحتجت حاجة شديدة فقدمتُ عليكم؛ لتعطوني وتكسوني وتحملوني. قال: فأين أنت من شبّان مكة؟ وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طُلب مني بعد وقعة بدر. وفي هذا دلالة واضحة على الانهيار النفسي الذي وصل إليه المشركون بعد هزيمة بدر. فحث رسول الله ﷺ عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة. وساعدها على الرغم من كفرها وبقائها على الشرك^(١).

ويعلم من هذه الواقعة أهمية الحفاظ على الأسرار العسكرية وعدم السماح بإفشائها؛ حيث نجد في بعض الروايات أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هدّدها بالقتل إن هي لم تسلّمه الكتاب الذي كانت تحمل.

معرفة العدو:

يحدّثنا القرآن الكريم في آياتٍ عدّة عن الأعداء وخططهم ومؤامراتهم، ويوضح للمسلمين واجبهـم تجاههم:

(١) انظر: مجمع البيان، وروح البيان، وتفسير الصافي، والمراغي، والميزان، والأمثل، على شيء من الاختلاف في الرواية.

١ - أفكار الأعداء وأمانهم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١).

﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢).

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِسُهُمْ﴾^(٣) (أي وذا الأعداء لو تلين ليصالحوك).

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾^(٤) (أي تمتوا تعبكهم وألمكم).

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ...﴾^(٥).

ب- تأمر الأعداء:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾^(٦).

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾^(٧).

ج - سلوك الأعداء:

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(٨).

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٩).

﴿إِنْ يَتَفَقَّهُكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾^(١٠).

﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكُفِرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١١).

د - واجب المسلمين تجاه الأعداء:

﴿هُرِّمُوا الْعَدُوَّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١٢).

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة المائدة: الآية ٨٢. | (٧) سورة النساء: الآية ٤٤. |
| (٢) سورة البقرة: الآية ١٠٥. | (٨) سورة النساء: الآية ١٠١. |
| (٣) سورة الفلم: الآية ٩. | (٩) سورة البقرة: الآية ٩. |
| (٤) سورة آل عمران: الآية ١١٨. | (١٠) سورة الممتحنة: الآية ٢. |
| (٥) سورة النساء: الآية ١٠٢. | (١١) سورة آل عمران: الآية ٧٢. |
| (٦) سورة الطارق: الآية ١٥. | (١٢) سورة المنافقون: الآية ٤. |

- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾^(١).
 - ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - لا يجوز للمجتمع المؤمن أن يقيم علاقات المودة مع الأعداء، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٢ - لا ينسجم الإيمان بالله، مع العلاقة الحميمة مع العدو، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي... أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٣ - عدو الله هو في الواقع وحقيقة الحال عدو المؤمنين، ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾.
- ٤ - على الرغم من أن الكفار هم أعداؤنا، فإنَّ السبب الأصلي لمعادتنا إياهم هو عداؤهم لله تعالى؛ إذ وردت كلمة ﴿عَدُوِّي﴾، قبل كلمة ﴿عَدُوَّكُمْ﴾.
- ٥ - يؤدِّي التعامل مع الأعداء بمودة ولطف، إلى ازدياد جراتهم على الكفر ومعارضة الإسلام والمسلمين، ﴿تَلَقَّوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ﴾.
- ٦ - على المرشد والموجه أن لا يكتفي بتوجيه الأوامر والنواهي، بل عليه أن يبيِّن الأسباب التي دعت إلى توجيه هذا الأمر أو ذلك النهي، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... وَقَدْ كَفَرُوا... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.
- ٧ - على المسلمين أن يراعوا المفاهيم الدينية والأحكام الشرعية في علاقاتهم تأسيساً وقطيعة وانتهاءً، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٨ - الدين والسياسة لا ينفصل أحدهما عن الآخر (الأمر بقطع العلاقة مع الأعداء هو أمر سياسي مبني على فكرة دينية)، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٩ - لا يكتفي عدد من الكفار بالاختلاف في الدين مع المسلمين، بل يسعى بعضهم إلى إخراج المسلمين من بلادهم وأرضهم، ﴿كَفَرُوا... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

- ١٠ - عداوة الكفار للمسلمين ناشئة من إيمان المسلمين بالله، ﴿أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.
- ١١ - العلاقة مع الكفار تجوز في حالة واحدة، وهي حالة احترامهم لمقدسات المسلمين، وعندما يكفون عن التآمر على الإسلام والمسلمين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... وَقَدْ كَفَرُوا... يَخْرُجُونَ الرَّسُولَ﴾.
- ١٢ - يهتم الإسلام بعزة المسلمين، (ومن هنا ينهى عن إقامة العلاقة مع الجماعات التي تؤدي العلاقة بها إلى إذلال المسلمين وإهانتهم)، ﴿تَلْقَوْنَ إِيَّيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.
- ١٣ - لا يتسع القلب الواحد لحبين متعارضين، ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتٍ يُسْرُونَ إِيَّيْهِم بِالْمُؤَدَّةِ﴾.
- ١٤ - ينبغي أن يكون الجهاد خالصاً لوجه الله تعالى وطلباً لرضاه، ﴿جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتٍ﴾.
- ١٥ - يعلم الله علاقات المؤمنين التي تقام بالسر مع الكفار وغيرهم، ﴿وَأَنَا أَكَلُّ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.
- ١٦ - الالتفات إلى علم الله يحول دون صدور المعاصي من المسلمين، ﴿وَأَنَا أَكَلُّ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.
- ١٧ - في التربية لا بد من الأمر والنهي، ﴿لَا تَتَّخِذُوا...﴾، والتبرير والاستدلال، ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، كما لا بد من إثارة العواطف والحث، ﴿يَخْرُجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، وأخيراً لا بد من التهديد أيضاً، ﴿وَأَنَا أَكَلُّ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.
- ١٨ - لا يضمن كثير من المؤمنين حسن العاقبة، فربما ينقلب بعضهم على عقبه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا... ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.
- ١٩ - رب شخص بدأ حياته مجاهداً، ثم انحرف نتيجة العلاقة بالأعداء إلى أسوأ العواقب، ﴿حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتٍ... ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.
- ٢٠ - تفكير بعض الناس بتحسين أوضاعهم وأحوالهم من خلال العلاقة بالعدو ضلال وسير بالاختيار والإرادة إلى الهاوية، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

﴿إِنْ يَشْفِقْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١﴾

إشارات:

□ «ثقف» الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، ويقال ثقتك كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم يتجاوز فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة.

□ عن علي عليه السلام في نهج البلاغة: «ولكن احذر كلّ الحذر، من عدوك بعد صلحه، فإنّ العدو ربّما قارب ليتغفل». وفي غرر الحكم: «لا تأمن عدواً وإن شكر»^(١). وعنه أيضاً: «لا تغترّ بمجاملة العدو، فإنّه كالماء وإن أطيل سخانه بالنار لم يمتنع من إطفائه»^(٢).

□ قطع العلاقة مع الكفار له مبررات عدّة، منها:

- أ - عدم إيمانهم بدينكم، ﴿كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.
- ب - لا يتسامحون مع قائد المسلمين ولا مع أمته، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.
- ج - يعلنون العداة ويمارسونه عندما تحين لهم الفرصة، ﴿إِنْ يَشْفِقْكُمْ...﴾.
- د - يؤذون المسلمين باليد واللسان، ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ﴾.
- هـ - يتمنون لو أنّ المسلمين يرتدون عن الإسلام، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - يسعى الأعداء للسيطرة على المسلمين من جميع الجهات المتاحة، ﴿يَشْفِقْكُمْ﴾.
- ٢ - سكوت العدو وسكونه لا يدلّ على صداقته، بل هو يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض والثبّة، ﴿إِنْ يَشْفِقْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾.
- ٣ - يجمع العدو بين الحرب العسكريّة، ﴿يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، والحرب الثقافيّة والإعلاميّة، ﴿وَأَلْسِنَتُهُمْ﴾.

(٢) المصدر نفسه، الحكمة رقم: ٧٦٨٩.

(١) غرر الحكم، الحكمة رقم: ١١١٣٦.

- ٤ - أذى العدو باليد واللسان نابع من قلبه الحاقده وأفكاره المنحرفة، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ... وَذُؤًا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٥ - العدو يجتمع ويتحد على العداة والإضرار بالمسلمين، ﴿يَكُونُوا... يَبْسُطُوا... وَذُؤًا﴾.
- ٦ - الهدف الأساس للعدو من حربه العسكرية والثقافية، هو الإجهاز على الإسلام نفسه، ﴿وَذُؤًا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٧ - لن يرضى العدو، ولن يرفع يده عن العداة إلا إذا تخلى المسلمون عن دينهم، ويقول تعالى في الآية ٢١٧ من سورة البقرة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلَمُوا﴾.

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

إشارات:

- علاقة النسب من الأسباب التي تدعو بعض المؤمنين إلى إقامة العلاقة مع العدو؛ ولذلك يلفت الله تعالى نظر المؤمنين إلى أن القرابة والعلاقات النسبية لا قيمة لها يوم القيامة.
- عدم جدوى القرابة يوم القيامة، من الأمور التي وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة:
- ﴿فَلَا أَنْصَابَ بَيْنَهُمْ﴾^(١).
- ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - صلة القرابة والعاطفة النسبية قد تدعو الإنسان إلى التعامل مع العدو: ﴿شُرُونًا إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ﴾ ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٦.

٢ - ما الذي يدعو إلى التعامل مع العدو؟ فهو على مستوى العواطف والتمنيات يتمنى للمؤمنين الكفر، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وعلى مستوى اليد واللسان لا يصدر منه سوى الأذى، ﴿وَبَسُّطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ﴾، ويوم القيامة لا يجدي نفعاً، ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ﴾.

٣ - على الإنسان أن يتذكر أن العدو الكافر لن يجدي يوم القيامة نفعاً، ليقطع الأمل منه، ويزهد في العلاقة به، حتى لو كان قريباً ومن الأرحام، ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤ - يفصل الله يوم القيامة بين الأقارب المؤمنين عن الكافرين، فعلى الإنسان المؤمن أن لا يلحق نفسه بهم من أجل أيام معدودات في الدنيا، ﴿أُولَئِكَ... يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

٥ - الإيمان بعلم الله ورقابته الشاملة، من الأمور التي تحول بين الإنسان وبين المعصية، ﴿وَاللَّهُ يَمَا تَصَلُونَ بِمِصْرٍ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾﴾

إشارات:

- الأسوة من التآسي والاتباع.
- تقدم أن الآيات السابقة نزلت في أحد الصحابة الذي تواصل مع العدو بهدف حماية أقرابه؛ ولذلك تدعو هذه الآية إلى تعلم كيفية التعامل مع الأقارب من النبي إبراهيم عليه السلام.

□ عندما يشك النبي إبراهيم عليه السلام من هداية أبيه وتحوله من الشرك إلى الإيمان قطع صلته به، وأما استغفاره له فقد كان لوعده قطعه له على نفسه، كما ورد في

الآية ١١٤ من سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَئِمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

□ قَدَّمَ اللهُ سبحانه في القرآن أسوتين من الرجال وأسوتين من النساء:

فالنموذج الأول من الرجال هو النبي إبراهيم عليه السلام، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾، والنموذج الثاني هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

ومن النساء قَدَّمَ لنا امرأة فرعون والسيدة مريم في سورة التحريم، وذلك في مقابل امرأتي نوح ولوط، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ... وَرَبِّهَا أَبْنَتَ عِمْرَانَ﴾. وقد أشار الله سبحانه إلى جماعة من الناس دون أن يسميهم وهم أتباع النبي إبراهيم وذلك في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

هذا في القرآن وأما في الروايات فقد ورد مثلاً عن الإمام الحسين عليه السلام قوله: «فلکم في أسوة حسنة»^(٢). كما قُدِّمَت الزهراء عليها السلام أسوة للمؤمنين في بعض الروايات، كما في رواية عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه): «وفي ابنة رسول الله لي أسوة حسنة»^(٣).

□ خصائص النبي إبراهيم عليه السلام في القرآن:

- ١ - أداء الواجب والنجاح في الامتحان، ﴿فَاتَمَمَّهَا﴾^(٤).
- ٢ - الخدمة في المسجد، ﴿مَطَهَّرًا بَيْتِي﴾^(٥).
- ٣ - التسليم الكامل لله تعالى، ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾^(٦).
- ٤ - الإنابة لله والصبر والحلم، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٧).
- ٥ - أمة في رجل، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^(٨).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١. (٢) سورة البقرة: الآية ١٢٥.
 (٣) مقتل أبي مخنف، ص ٨٦. (٤) سورة آل عمران: الآية ٦٧.
 (٥) بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٨٠. (٦) سورة التوبة: الآية ١١٤.
 (٧) سورة البقرة: الآية ١٢٤. (٨) سورة النحل: الآية ١٢٠.

- ٦ - الوفاء وأداء الأمانة، ﴿وَاتَّزِمِ الَّذِي وَفَى﴾^(١).
 ٧ - الشجاعة والبطولة، ﴿وَتَأَلَّهِ لَآكِبِدَنَّ أَصْنَمُكُمْ﴾^(٢).
 ٨ - الهجرة إلى الله وترك الأهل والأطان، ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾^(٣).
 ٩ - التضحية والإيثار، ﴿فَلَمَّا أَتَلَمَّا وَقَلَدُ لَلْجَبِينِ﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - من الأساليب المجدية في التربية تقديم الأسوة والأمثلة الواضحة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.
 ٢ - ليس الأنبياء وحدهم الأسوة، بل أتباع ومن تربى على أيديهم أسوة أيضاً، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.
 ٣ - مرور الزمان لا يلغي صفات الرجال التاريخيين، فالنبي إبراهيم عليه السلام كان قدوةً وسوف يبقى إلى الأبد، ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.
 ٤ - ليس من الواجب على القدوة الصالحة أن يتخلى عن أقاربه وأرحامه إذا كانوا منحرفين، ويقطع أي صلة له بهم، بل ينبغي الحفاظ على الوعود المقطوعة لهم إلى أن يأتي النهي الإلهي عن ذلك.
 ٥ - بعض القدوات حسنة، وبعضها سيئة، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.
 ٦ - أتباع الأنبياء والقادة الإلهيين، من الأمور الواجبة على سائر الناس، ﴿...وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.
 ٧ - الصراحة وصلابة الموقف تجاه المشركين قيمة ومعيار حسن للسلوك، ﴿إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّهْمٌ وَمِنْكُمْ﴾.
 ٨ - لا ينبغي أن تكون القرابة والعلاقات النسبية مانعاً من اتخاذ المواقف الواجبة، ﴿قَالُوا لَقَوْمِهِمْ...﴾.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٣.

(١) سورة النجم: الآية ٣٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٧.

- ٩ - معيار البراءة والتواصل والعلاقة وقطعها هو الشرك والإيمان، ﴿بِرَّءُوا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ١٠ - البراءة وقطع الصلة ببعض الناس ينبغي أن تبنى على خلقية دينية، لا على الانتقام والحقد الشخصي، ﴿وَيَدَا يِنْتَا وَيِنْتَاكُمْ الْعَدَاؤُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا﴾.
- ١١ - البراءة لا تتم بالكلمات فحسب، ﴿إِنَّا بِرَّءُوا﴾، بل تتجاوز اللسان إلى القلب، ﴿كَفَرْنَا﴾، ثم بعده إلى العمل والسلوك، ﴿وَيَدَا يِنْتَا وَيِنْتَاكُمْ الْعَدَاؤُ وَالْبَغْضَاءُ﴾.
- ١٢ - ينبغي أن يكون الإيمان خالصاً من أشكال الشرك كلها، ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾.
- ١٣ - قطع العلاقة بالشرك والمشركين يحتاج إلى التوكل على الله والالتفات إلى المعاد، ﴿إِنَّا بِرَّءُوا... عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.
- ١٤ - التوكل على الله لا يعني الاتكالية والانزواء، بل يكتسب التوكل معناه الحقيقي من الموقف الذي يأخذه الإنسان تجاه الأعداء المشركين، ﴿إِنَّا بِرَّءُوا... كَفَرْنَا... تَوَكَّلْنَا﴾.
- ١٥ - التوكل هو الدواء الناجع لرفع القلق؛ ومن هنا نجد أن المؤمنين يتوكلون على الله بعد البراءة من المشركين، لرفع أي قلق أو خوف من الآثار السلبية التي ربما تترتب على قطع الصلة بالكفار، ﴿إِنَّا بِرَّءُوا مِنْكُمْ... عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.
- ١٦ - عليكم أن تحاربوا النفس والأنا في كل موقف يمكن أن يؤدي إلى تعاضم الأنا والشخصانية، ﴿إِنَّا بِرَّءُوا... كَفَرْنَا بِكُمْ، وَدَا يِنْتَا وَيِنْتَاكُمْ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنْتَنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- ١٧ - التوكل والإنابة لا يكونان إلا على الله وإليه، ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَنَا﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾، ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿أَنْتَنَا﴾.
- ١٨ - لا يرى أولياء الله أي قيمة ذاتية لأنفسهم في مقابل الله، ولا يعطون أنفسهم حق التصرف وتبديل القوانين الإلهية، ﴿لَا تَسْتَفِرُّنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

١٩ - الوجود كله ونحن ضمنه، يسير نحو الله ويتوجه إليه، ﴿وَالَيْكَ أَتَيْنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- الفتنة لها في اللغة والاستعمال أكثر من معنى، فتدلّ على القتال، والعذاب، والامتحان، فإيذاء الكفار المؤمنين امتحان لهم لإظهار خبثهم وعنادهم.
- حدّثتنا الآيات السابقة عن البراءة وقطع الصلة بالمشركين، وهذه الآية تؤكّد المعنى نفسه بصيغة الدعاء، بأن نطلب من الله أن لا نكون أداة بيد الأعداء.

التعاليم:

- ١ - من آداب الدعاء مخاطبة الله سبحانه بصفة الربوبية، ﴿يَرْبِّ﴾، وكثير من أدعية القرآن تبدأ بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.
- ٢ - يجب على المسلمين أن يدققوا في علاقاتهم الثقافية والاقتصادية والعسكرية مع الآخرين؛ كي لا يتحولوا إلى أداة في يدهم، ولا يسمحوا للعدو بأن يستغلّ شيئاً من الأمور المذكورة للضغط عليهم، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٣ - الدين والسياسة في الإسلام صنوان، ففي هذه الآية دعاء ان أحدهما له طابع سياسي والآخر له طابع معنوي، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا... وَاعْفِرْ لَنَا﴾.
- ٤ - من ينبغي أن يلجأ إليه هو الجهة التي تتوقّر على الحكمة كلها والعزة كلها، ﴿رَبَّنَا... إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
- ٥ - من علامات العزة أن لا يكون الإنسان أداة بيد عدوه، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً... أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾.
- ٦ - كثير من الأقوياء والأعزاء تتسم تصرفاتهم بقلّة الحكمة، وأما الله سبحانه فهو العزيز بلا منازع، والحكيم بلا منازع أيضاً، ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

إشارات:

- يشير الله سبحانه في هذه الآية وفي الآية ٢١ من سورة الأحزاب إلى أن النبي إبراهيم عليه السلام والنبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أسوتان، ويجعل المعيار في هذا الأمر رجاء اليوم الآخر وتعليق الأمل بالله تعالى، ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا...﴾.
- يخبرنا الله سبحانه عن أن النبي إبراهيم عليه السلام أسوة بعد أن يكرر كلمة ﴿رَبَّنَا﴾، في الآيتين الرابعة والخامسة، وكأنه بذلك يريد أن يخبرنا أنه ليس أسوة في البراءة فحسب، بل في الدعاء والمناجاة أيضاً.

التعاليم:

- ١ - الأسوة والقدوة ليس لها تاريخ صلاحية تنتهي عنده، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.
- ٢ - ليس الأسوة هو النبي فحسب، بل أتباعه ومن تربى على يديه أيضاً، ﴿فِيهِمْ﴾.
- ٣ - العقيدة الصحيحة، هي الخلفية والقاعدة التي يؤسس عليها الاقتداء والتأسي، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. (بلى إن من يتخذ قدوة سالحة يضيء نور الأمل والرجاء في قلبه، ﴿يَرْجُوا﴾، وأما من يتخذ أسوة غير سالحة فإنه يتراجع ويسير القهقري، ﴿يَتَوَلَّ﴾).
- ٤ - الإيمان الذي له قيمة هو الإيمان الثابت والمستقر، ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ...﴾. (كان مع الفعل المضارع تركيب يدل على الثبات والاستقرار).
- ٥ - إعراض الناس عن الله وأوليائه لا يضر لا به سبحانه، ولا بهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْكُرًا وَيَبْنَ الْأَذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

□ يعد الله سبحانه المسلمين الذين شعروا بالحييف نتيجة قطع علاقاتهم مع الكافرين، بأن الله قد يهدي من قاطعوه لكفره، فيتحول إلى صديق حميم وتنشأ بينهم وبينه مودة الإيمان بدل القطيعة.

□ عندما يكون الكفر سبباً للقطيعة، لا بد من أن يكون سبب الوصل هو الإيمان المستجد، وليست العلاقة الجديدة مبنية على ارتفاع التكليف بالقطيعة.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن يأس المؤمن من هداية الكافر، ﴿عَسَىٰ اللَّهُ﴾.
- ٢ - العداوة ليست هي الأصل في العلاقات الإنسانية، بل هي الحالة الاستثنائية التي ترتفع بارتفاع أسبابها وموجباتها، ﴿أَنْ يَجْعَلَ يَنْكُرًا... مَوَدَّةً﴾.
- ٣ - الله سبحانه هو الذي يمسك بالقلوب ويبدعه تغيير وجهة العواطف إذا أراد، ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ... مَوَدَّةً﴾.
- ٤ - عندما يترك الإنسان مودة الكفار لكفرهم، يعوضه الله مودتهم بعد إيمانهم، ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ... يَجْعَلَ يَنْكُرًا... مَوَدَّةً﴾.
- ٥ - لا غرو إن تبدلت العداوة إلى مودة، فالله سبحانه هو القادر على ما يريد، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾.
- ٦ - سوء تصرف الكفار، من الأمور التي تتسع لها رحمة الله وتشملها مغفرته، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٧ - عفو الله من مقتضيات رحمته، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٨﴾

□ ينقسم الكفار إلى قسمين، قسم منهم يعمل على الوقعة بالمسلمين ويتآمر عليهم، وهؤلاء هم الذين دعا الله سبحانه إلى مقاطعتهم، والابتعاد عنهم. وقسم آخر مسالمون لا يقاتلون المسلمين ولا يتآمرون عليهم، وهؤلاء لا ينهى الله عن وصلهم على الرغم من عدم كونهم مسلمين.

□ السياسة الخارجية في الإسلام، مبنية على أساس الجذب والتواصل مع الناس وهذا يتحقق بواسطة الأمور الآتية:

- ١ - الإحسان، ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾.
- ٢ - العدالة، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - الإمهال للبحث والنظر، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾^(١).

٤ - قبول اقتراح السلام والمصالحة، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ﴾^(٢).

٥ - المساعدة المالية، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾^(٣).

٦ - حفظ أماناتهم، والوفاء بالعهد، واحترام مواعيدهم، والإحسان إلى آبائهم.

□ تفيد هذه الآية أنّ الكفار الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، تثبت لهم حقوق اجتماعية، وتشملهم عدالة الإسلام.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من التمييز بين الكفار المسالمين والكفار المحاربين، ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ... وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ﴾.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦١.

- ٢ - الإسلام دين الإحسان والعدالة؛ حتى في التعامل مع غير المسلمين، ﴿أَنْ تَبْرُؤُهُمْ وَتَقْطِعُوا إِلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - يعدّ إعلان المحبة الإلهية والإعلام بها، من وسائل التحفيز، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- اليوم ونحن نشرح هذه الآية ونفسرها، تهاجم إسرائيل أراضي المسلمين، وسماءهم، بعد أن أخرجت المسلمين من ديارهم، وقتلت من قتلت منهم. وهذه الآية تهتف بالمسلمين جميعاً وتدعوهم إلى أن يكونوا يداً واحدةً على هذا العدو. ومن الواضح أنّ هذه الآية من الآيات السياسيّة في القرآن.
- على الرغم من أنّ مضمون هذه الآية قد يستفاد بشكلٍ غير مباشرٍ من الآية السابقة، فإنّ الله يريد أن تصل هذه الرسالة بوضوح ولا يبقى بعدها مجال للبس وسوء الفهم.

التعاليم:

- ١ - الظلم محرّم في الشريعة الإسلاميّة سواء قام به الإنسان بشكل مباشر وبالاستقلال، أو قام به بمساعدة غيره على الظلم، ﴿أَخْرَجُوكُمْ... وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾.
- ٢ - حتى إذا وقع على الإنسان ظلم، عليه أن لا يخرج عن حدود العدالة ويترك مقتضيات الإحسان، بل كلّ ما هو مدعوّ إليه، هو مقاطعة الظلم وعدم المساعدة عليه، ﴿يَنْهَاكُمْ... أَنْ تَوَلَّوهُمْ﴾.
- ٣ - الاعتداء على ديار الناس محرّم في الشريعة كما الاعتداء على الأنفس والأعراض، وقد شرّع الجهاد لمواجهة أشكال العدوان هذه كلّها، ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ... وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾.

٤ - لا تجوز مملأة الكفار الحربيين على الظلم والعدوان تحت أي شعارٍ كشعار العلاقات الإنسانية وما شابهها: ﴿وَمَنْ يَنْوَلِكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَابَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُتَسَكَّرُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَتَسَلُّوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَتِلَا مَّا أَنفَقُوا ۗ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ تضمّن صلح الحديبية مجموعةً من البنود، أحدهما وجوب إعادة من يهرب من مكة، ويلتحق بالمسلمين في المدينة، وهذه الآية تتحدّث عن النساء، فتستثيبن من هذا الحكم.

□ هذه الآية من الآيات الحقوقية الاجتماعية.

□ مهر المرأة التي تسلم وتلتحق بالمسلمين في المدينة، كان يجب أن يُعاد إلى زوجها المشرك من بيت المال، بمقتضى هذه الآية: ﴿وَأَتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا﴾^(١).

□ «عِصْم» جمع عصمة، والعصمة الإمساك، والعصام ما يشدّ به، والعصمة شبه السوار والمعصم موضعها.

□ تتجلّى في هذه الآية كثير من ملامح العدالة الإسلامية، ومن هذه التجليات:

أولاً: لا تترك المرأة المهاجرة وحدها لتواجه مصيرها.

ثانياً: كفر الزوج لا يمنع الإسلام من الحفاظ على حقوقه المالية، بل يجب أن يُعاد إليه ما دفعه من المهر إلى زوجته التي أسلمت وتركته.

ثالثاً: يجب تلبية الحاجات العاطفية للمرأة التي تهاجر إلى المسلمين وذلك من خلال الأمر بنكاحهنّ، كما في قوله تعالى، ﴿تَنْكِحُوهُنَّ﴾، كما يجب الاهتمام بحاجاتها الاقتصادية والمالية، ويُستفاد ذلك من قوله سبحانه ﴿أَجْرَهُنَّ﴾.

(١) انظر: تفسير الآية في: الميزان، والأمثل، والفرقان.

□ قد يكون دافع الهجرة الرغبة في الفرار من الزوج، أو التجسس على المسلمين في المدينة؛ ولذلك يدعو الله إلى امتحان المرأة لاختبار صدق إيمانها.

□ الكفار على أقسام^(١):

الكفار الذين يصرّون على الكفر جميعاً، وهؤلاء هم الذين دُعي المسلمون إلى مقاطعتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ... وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.

والقسم الثاني هم الذين يتجنبون معاداة المسلمين، ويتفقون فيما بينهم على ذلك، وهؤلاء هم الذين يقول الله عنهم: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَخْرَجًا وَيَبَيِّنَ لَكُمْ عَادَتِهِمْ وَيُنزِلُ لَهُمْ مَوَدَّةً﴾ (الآية السابعة من هذه السورة).

والقسم الثالث هم الذين يؤمن بعضهم ويبقى بعضهم الآخر على الكفر، مثلاً تؤمن المرأة وتلتحق بالمسلمين ويبقى زوجها على كفره، أو العكس، ﴿جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْ هَجْرَاتٍ﴾.

□ عبّر الله سبحانه عن المهر في المرّة الأولى بـ«النفقة»، ﴿أَنْفَقُوا﴾؛ ولكنه عبّر عنه عندما تحدّث عن الزواج من المهاجرات بـ«الأجر»، ﴿أُجْرَهُنَّ﴾. ويبدو من خلال تتبع موارد استعمال كلمة «الأجر» ومشتقاتها للتعبير عن المهر أنه هذه الكلمة تستعمل في مورد الزواج من المرأة الثيب.

□ يؤدّي إيمان أحد الزوجين في بعض الحالات إلى انقراض عقد الزواج؛ وبدل ذلك على عدم جواز الزواج من الكافر أو الكافرة.

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «لا ينبغي نكاح أهل الكتاب». ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعَصِيبِ الْكُوفَرِ﴾.

التعاليم:

١ - لا تتبع المرأة زوجها في الدين وأداء التكاليف الدينية، بل لها شخصيتها

(١) انظر: تفسير الرازي، والمراغي.

المستقلة، ومن هنا يجوز لها الهجرة لحماية دينها، ﴿جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ﴾.

٢ - يخضع الذي يدعي الإسلام للامتحان لاختبار صدقه، ﴿جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ... فَأَمْتَحُونَهُنَّ﴾.

٣ - خطر التجسس يدعو إلى اليقظة الدائمة في موارد احتماله جميعاً، ﴿فَأَمْتَحُونَهُنَّ﴾.

٤ - يجب أن تقدّم النظرة الإيجابية على سوء الظن، ﴿جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَأَمْتَحُونَهُنَّ﴾، فقد عبر الله سبحانه عن المهاجرات بـ«المؤمنات» على الرغم من الدعوة إلى اختبارهنّ.

٥ - علم الله بكلّ شيء لا يعفينا من المسؤولية عن الثبّت والاطلاع على واقع الحال، ﴿فَأَمْتَحُونَهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْسِنِهِنَّ﴾.

٦ - في التعامل مع الناس علينا أن نجعل المعيار حسن الظنّ، والعمل بظاهر الحال، فالله وحده هو العالم ببواطن الأمور، ﴿فَأَمْتَحُونَهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْسِنِهِنَّ﴾، وذلك حتى في الموارد التي يدعوها هو سبحانه إلى الثبّت والاختبار.

٧ - للإيمان دور مهمّ في العلاقات الأسريّة. فإذا أسلمت المرأة لا تُعاد إلى زوجها الكافر؛ لأنّ عودتها إليه قد تهدّد إيمانها، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجُمُوهُنَّ﴾.

٨ - لا ينبغي أن يُسمح للكافر بالتسلّط على المسلمين، وذلك على الصعيد السياسي والاجتماعي وغيرهما، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١). بل حتى على صعيد العلاقات الأسريّة، لا يجوز أن تثبت للكافر سلطة على زوجته المسلمة، ﴿فَلَا تَرْجُمُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.

٩ - المجتمع والبيئة الاجتماعيّة لها تأثيرها المهمّ على سلوك الفرد، فالمرأة التي ترجع إلى بيئة الكفر قد تندمج فيها وتذوب شخصيتها، الأمر الذي يهدّد إيمانها، ﴿فَلَا تَرْجُمُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.

(١) سورة النساء: الآية ١٤١.

- ١٠ - يؤدي كفر أحد الزوجين إلى بطلان الزواج، ﴿فَلَا تَرْجُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.
- ١١ - لا ينبغي الرهان على محبة الرجل الكافر لزوجته المسلمة، فيخشى من تأثير البيئة على الزوجة، وليس بالضرورة أن يكون ذلك من جهة الزوج؛ ولذلك عبر الله سبحانه بالنهي عن إعادتها إلى الكفار ولم يقل إلى زوجها، ﴿فَلَا تَرْجُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.
- ١٢ - الإيمان هو القاعدة التي تقوم عليها مؤسسة الزواج، والكافر ليس كفواً للمرأة المسلمة، ﴿لَا مِنْ جِلِّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾.
- ١٣ - انفساخ عقد الزواج بين المرأة المسلمة والرجل الكافر، لا يعني الاعتداء على حقوق الزوج الماليّة، بل يجب دفع المهر له ولو من بيت مال المسلمين، ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ مَأْنَفَقُونَ﴾.
- ١٤ - لكلّ زواج مهر مستقل، إذ يجب إعادة المهر إلى الزوج السابق، وللزوجة الحق في المهر من زواجها الجديد، ﴿وَأَنْتُمْ مَأْنَفَقُونَ... أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.
- ١٥ - حقّ الملكيّة والحقوق الماليّة للكفار حتى لو كانوا محاربين محفوظ، ﴿وَأَنْتُمْ مَأْنَفَقُونَ﴾.
- ١٦ - أول حاجات المرأة هي الزوج المناسب، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾.
- ١٧ - الكفر السابق لا يمنع من الزواج من المرأة التي أسلمت بعد كفر، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾.
- ١٨ - المهر من حقوق المرأة الثابتة، ﴿أَجُورَهُنَّ﴾.
- ١٩ - يحترم الإسلام الحاجات الغريزيّة، ﴿تَنْكِحُوهُنَّ﴾، والحاجات الماليّة، ﴿أَجُورَهُنَّ﴾.
- ٢٠ - لا يجوز لأحد أن يستغلّ غربة المرأة وأنوئتها وهجرتها وحيدة، ﴿أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.
- ٢١ - الكفر سبب كافٍ للفراق وانفساخ العلاقة الزوجيّة، ولا يلتفت إلى الحب، ولا العلاقة السابقة، والولد وما شابه ذلك من عناوين، ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ﴾.

- ٢٢ - حفظ الحقوق قاعدة تسري على الجميع المؤمن والكافر. (فلو أن امرأة مسلمة ارتدت والتحقت بالكفار يجوز للمسلمين مطالبتهم بمهرها وبما أنفقوا عليها، والعكس صحيح أيضاً)، ﴿وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾.
- ٢٣ - اللجوء من الأمور المقبولة في الشريعة الإسلامية؛ ولكن لذلك شروط، أولها إخضاع اللاجئ للاختبار، ثانيها عدم الاعتداد بالصفات الشخصية كالجمال والقبح، وثالثها احترام حقوق الكفار المالية، ﴿إِذَا جَاءَ كُفْرًا... مُهْجَرْتِ فَاْتَجِرْهُنَّ... وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا... وَلَسْتَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾.
- ٢٤ - الأوامر الإلهية مبنية على العلم والحكمة، ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا
وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ تحدثت الآية السابقة عن أداء حقوق الكفار المالية، في حالة لجوء الزوجة التي أسلمت والتحاقها بالمسلمين، وفي هذه الآية يحدثنا الله سبحانه عن الحالة المعاكسة؛ أي عن مطالبة الكفار بالمال.

التعاليم:

- ١ - يجب أن يصل الحق إلى صاحبه، مهما طال الزمان، ﴿فَاتَكَرُّ شَيْءٌ... فَاْتُوا... مِثْلَ﴾.
- ٢ - ما يفوت المسلم بسبب إسلامه، يكفله النظام الإسلامي له، ﴿فَاتَكَرُّ شَيْءٌ... فَاْتُوا﴾.
- ٣ - تجوز ملاحقة الكفار ومطالبتهم بالحقوق المالية المترتبة للمسلمين عليهم، ﴿فَاتَكُمْ... فَعَابْتُمْ﴾.
- ٤ - يجوز للمسلمين النهوض للمطالبة بحقوقهم، بل ربما وجب عليهم ذلك في بعض الحالات، ﴿فَاتَكُمْ... فَعَابْتُمْ﴾.

- ٥ - على النظام الإسلامي حماية الطبقات الفقيرة التي قد يسبب لها التزامها بالإسلام، بعض الضرر المالي، ﴿فَاتَّكُرُ شَيْءٌ... فَأَتُوا... يَثَلُ مَا أَنْفَقُوا﴾.
- ٦ - على المسلم أن يراعي حدود الله في أخذ الحقوق، فلا يتجاوز عنها كي لا يتحول الأمر إلى عدوان، ﴿يَثَلُ مَا أَنْفَقُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾.
- ٧ - الأمور المالية من الموارد التي يُخشى فيها من الزلل؛ ولذلك يجب توخي الاحتياط، ﴿فَأَتُوا... يَثَلُ مَا أَنْفَقُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾.
- ٨ - على المتضرر أن يتقي الله ولا يطالب أو يدعي أكثر من خسارته، وعلى المجتمع الإسلامي أيضاً أن يلتزم بالحدود المعقولة في التعويض عن الأضرار، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾.
- ٩ - التقوى هي علامة الإيمان الحقيقية، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَأْبَيْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْنِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قَابِلِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ وقف النبي ﷺ يوم فتح مكة على الصفا، وشرع في أخذ البيعة من المسلمين، وكانوا جميعاً حاضرين نساءً ورجالاً، وهذه الآية تخبرنا عن المضمون الذي تمت البيعة على أساسه.

وقد ورد في الأخبار أنه ﷺ كان يبايع النساء بوضع يده المباركة في إناء من الماء وتضع المرأة يدها في الطرف الآخر من الإناء، وفي إحدى الروايات: «أدخلن أيديكن في هذه الماء فهي البيعة»^(١).

□ الشروط المأخوذة في البيعة، هي من التعاليم الأخلاقية والاعتقادية التي يجب على كل من الرجل والمرأة الالتزام بها.

(١) تفسير الآية في: مجمع البيان، ونور الثقلين.

التعاليم:

- ١ - المرأة كائن مستقل له شخصيته القانونية، وهي تتمتع بحقوق كاملة لاختيار موقفها الاعتقادي والسياسي، وقد أعطى الإسلام هذا الحق للمرأة منذ أن بزغ فجر الرسالة وكان للمرأة حق بيعة النبي ﷺ إلى جانب الرجال، ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ...﴾.
- ٢ - لا يميّز القائد الإسلامي بين المسلمين على أساس الجنس أي الرجولة والأنوثة، بل يفتح بابه لهم جميعاً، ﴿جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾.
- ٣ - الدين والسياسة صنوان لا يفصلان، ﴿الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾ (البيعة أمر سياسي).
- ٤ - لا ينبغي أن يجعل المسلمون الكثرة وحدها معياراً، وينشغلوا بها عن القيم، فتكثير العدد أمر مطلوب ولكن شرط الاهتمام بالمضمون العقدي الذي يحمله الملتحقون بالجماعة الإسلامية، ﴿يُبَايِعَنَّكَ عَلَنَ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ...﴾.
- ٥ - الأمن من الموضوعات التي يهتم بها النظام الإسلامي، وذلك على صعدٍ عدة:
 - الأمن المالي والاقتصادي، ﴿وَلَا يَسْرِفَنَّ﴾.
 - الأمن الأسري، ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾.
 - الأمن على الأرواح، ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ﴾.
 - الأمن على الأعراض والكرامات، ﴿وَلَا يَأْذِينَ بِبُهْتَانٍ﴾.
 - الأمن السياسي والاجتماعي، ﴿وَلَا يَقْصِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.
- ٦ - إصلاح العقيدة مقدّم على إصلاح السلوك والسيرة، (الحديث عن عدم الشرك أُولَا).
- ٧ - الإيمان وحده لا يكفي، بل ينبغي أن يقترن بالالتزام والتعهد بطاعة وليّ الأمر، ﴿الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَنَ﴾.
- ٨ - سلامة المرأة في عرضها وسلوكها، من الأمور المهمة لاستقرار المجتمع وأمنه، ﴿لَا يُشْرِكَنَّ...﴾.

٩ - الشرك من الأمور التي لا مجال للتساهل معها، ولا يقبل أدنى مستوى منه كائنا ما كان، ودليل ذلك ذكر كلمة ﴿شَيْئًا﴾، بعد التعهد بعدم الشرك بالله، ﴿لَا يُشْرِكْ﴾ (وكلمة شيئاً كناية عن الحد الأدنى).

١٠ - النهي عن المنكر أمر عام يشمل ميدان الاعتقاد، ﴿لَا يُشْرِكْ﴾، والاقتصاد، ﴿وَلَا يَتْرُقَنَّ﴾، والمسائل الجنسية، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، والقضايا المرتبطة بالأسرة، ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، والمجتمع كله، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾.

١١ - يجب حفظ كرامة الناس وعدم إراقة ماء وجوههم، تحت أي عنوان من العناوين غير المشروعة، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾.

١٢ - القائد في المجتمع الإسلامي له دور محوري وأساس، وعلى الجميع الخضوع له والالتزام بطاعته في الحق، ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ﴾. (ولم يقل سبحانه وتعالى: «ولا يعصين الله»).

١٣ - عندما يرتفع المنكر، يسهل السير في سبيل المعروف. (فقد أشارت الآية إلى المنكرات بالتفصيل، وأما المعروف فقد ذكر في جملة واحدة)، ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

١٤ - النساء في المجتمع الإسلامي إلى جانب الرجال في القضايا الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية، وقد شملتهن العدالة النبوية ولم يميز (صلى الله عليه وآله بين الجنسين)، ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾.

١٥ - يجب أن تكون بنود البيعة واضحة وشفافة ومنسجمة مع مصلحة المبايعين وأوضاعهم (فالسرقه، والزنا، وقتل الأولاد، وتقاذف التهم بين أعضاء الأسرة، من الأمور التي كانت رائجة في المجتمع الجاهلي)، ﴿يُؤَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ... فَبَايَعَهُنَّ﴾.

١٦ - الله يأمر نبيه ﷺ بالاستغفار والدعاء للذين يقدمون على بيعته، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾.

١٧ - التوسل بالأولياء جائز، ودعاؤهم للمؤمنين مستجاب، ولولا ذلك لما أمر الله النبي ﷺ بالدعاء والاستغفار، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾.

١٨ - على الرغم من أن الإسلام يجب ما قبله فإنَّ لدعاء النبي ﷺ فائدة وبركة،
﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِمَن﴾.

١٩ - سوابق الناس لا تمنع من الدعاء لهم، ﴿وَأَسْتَغْفِرُ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٠ - رحمة الله ومغفرته هي السند الأساس الذي يجعل الدعاء مؤثراً،
﴿وَأَسْتَغْفِرُ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ
مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)

إشارات:

□ التولي تارة يكون بمعنى الصداقة، وطوراً يكون بمعنى الولاية والقيومة، وكلا المعنيين منهى عنه في الآية.

□ المراد من الذين غضب الله عليهم في الآية اليهود، والمقصود من الكفار مشركي مكة، فاليهود يائسون من الآخرة، والمشركون منكرون للمعاد والحياة بعد الموت^(١).

□ الآية الأولى من هذه السورة تتحدث عن البراءة من أعداء الله وأعداء المسلمين، والآية الأخيرة تختم السورة بالنهي عن ولاية الكفار. وهذه السورة هي السورة الوحيدة التي تُفتح وتُختتم بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

□ المغضوب عليه في القرآن:

لقد وصف الله عدداً من الأفراد والجماعات بالمغضوب عليهم، أو أعلن غضبه عليهم، وذلك في موارد عدة من القرآن الكريم:

- فعن اليهود يقول سبحانه: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾^(٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

(١) الميزان في تفسير القرآن.

- وعن المنافقين والقتلة، يقول: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(١).
- وعن العلماء الذين لا يزيّنون علمهم بالعمل يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).
- كما يعلن سبحانه غضبه على أفراد بأعيانهم، مثل: قارون، وأبي لهب، وبلعم بن باعوراء، وآخرين.

□ اليأس من الآخرة يعني اليأس من قدرة الله وحكمته وعدالته. ومن ييأس من الآخرة يضع نفسه في طريق مسدود. ولا يمكنه تبرير وجوده وحياته في الحياة الدنيا. ومن هنا فإن كثيراً من هؤلاء اليائسين يتساءلون: إذا كنا سوف نموت وننتهي إلى العدم، فلماذا تطول مدة بقائنا ولماذا لا نموت من هذه اللحظة ونرتاح من العذابات المترتبة على البقاء مدة أطول؟ وإذا كنا جميعاً سوف ندخل في محاق العدم، فلماذا العلم والمعرفة والتعليم والتربية؟ وهذا أمر طبيعيٌّ فإذا كان بناء ما سوف يفجر بعد مدة وجيزة، فلماذا الاشتغال بتزيينه وترميمه؟ وإذا كنا سوف نموت ولا نسأل بعد ذلك عما اقترفت أيدينا فلماذا نمنع أنفسنا من ملذّات الدنيا على أشكالها المتنوّعة؟ ولماذا لا نسخر كل شيء في خدمة شهواتنا حتّى البشر الذين يمكن الاستفادة منهم؟

التعاليم:

- ١ - وليّ الله لا يمكن أن يكون وليّ من غضب الله عليه، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا﴾.
- ٢ - على الرغم من أن أهل الكتاب يؤمنون بالآخرة ويوم القيامة؛ فإنّ بعضهم يائسون من الحصول على الثواب وهؤلاء قد غضب الله عليهم، ولذلك هم والمشركون المنكرون ليوم القيامة في كفة واحدة: ﴿يَسُرُّوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

(١) سورة الفتح: الآية ٦.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٥.

سُورَةُ الصَّفِّ

السورة: ٦١ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ١٤

ملاحح سورة الصفّ

سورة الصفّ مدنية، وعدد آياتها أربع عشرة آية.

أخذت السورة اسمها من كلمة «صف» التي وردت في الآية الرابعة.

أوضح اهتمامات هذه السورة الحديث عن علوّ الإسلام على غيره من النحل والأديان السماوية وغيرها، وتحدّث بعض آياتها عن وجوب الجهاد في سبيل الله.

وتبدأ هذه السورة بكلمة ﴿سَبِّحْ﴾، وتشاركها في هذا الأمر سورتا الحديد والحشر؛ كما تبدأ سورة الجمعة والتغابن بكلمة ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ وتبدأ سورة الإسراء بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾، وأخيراً تبدأ سورة الأعلى بالدعوة إلى تسبيح الله سبحانه ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

التعاليم:

- ١ - تتوفّر الموجودات كلّها، بحسب الرؤية الإسلامية، على مستوى من الشعور والإدراك، وكلّها مشغولة بتسبيح الله على طريقتها، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا﴾.
- ٢ - من يستحقّ التسبيح والتمجيد، هو الموجود الحائز على العزة كلّها والحكمة كلّها، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا

مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

إشارات:

- المقت هو الغضب الشديد.
- نجد في القرآن ما يشبه هذا التأنيب، في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)
- ترك العمل بالقول، تارةً يكون بسبب العجز عن العمل، وطوراً يكون ناتجاً عن اللامبالاة، أو الاستخفاف، أو عدم صدق الاعتقاد، وهو في الحالات الأخيرة يستحقّ اللوم.
- يُشَبَّهُ الْعَالَمُ بِمَا لَا عَمَلٍ بِتَشْبِيهَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: تَشْبِيهَهُ بِالشَّجَرَةِ غَيْرِ الْمَثْمُرَةِ، وَالغَيْمَةِ الَّتِي لَا تَمْطُرُ، وَالنَّهْرِ الْجَافِّ، وَالنَّحْلِ الَّذِي لَا عَسَلَ لَهُ، وَالْإِبْرَةِ الَّتِي لَا خَيْطَ فِيهَا، وَالْحِمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْفَاراً.
- ورد في الحديث: «عَلِمٌ بِمَا لَا عَمَلَ حِجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ»^(٢). «والعلم الذي لا

(١) سورة البقرة: الآية ٤٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

يَعْمَلُ بِهِ كَالْكَنْزِ الَّذِي لَا يُنْفَقُ مِنْهُ»^(١). «وإِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ وَصَفُوا الْعَدْلَ ثُمَّ خَالَفُوهُ»^(٢). وعن عيسى عليه السلام: «أَشْقَى النَّاسِ مَنْ هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ بِعِلْمِهِ، مَجْهُولٌ بِعَمَلِهِ»^(٣). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَصْدَقْ فَعَلَهُ قَوْلُهُ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ»^(٤).

□ ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، أَنَّ خَلْفَ الْوَعْدِ مِنْ مَصَادِقِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «عِدَّةُ الْمُؤْمِنِ أَخَاهُ نَذْرٌ لَا كَفَّارَةَ لَهُ»^(٥).

□ ورد في سبب نزول الآية أنها نزلت في جماعة من الناس كانوا يظهرون شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله؛ ولكن لما صدر الأمر بالجهاد بدأوا باختلاق المبررات والتعلل بالأعذار الواهية. هذا ولكن الآية عامة تنطبق على كل من لا يتطابق قوله وشعاراته التي يرفعها مع أعماله التي يقوم بها.

التعاليم:

- ١ - يجب أن يقترن الإيمان بالعمل، وإلا انقلب إلى أمر يستوجب التائب والتوبخ، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.
- ٢ - على المؤدّب أن يشير إلى الإيجابيات قبل التذكير بالسلبيات، فالله في هذه الآية أشار إلى إيمان المؤمنين ثم طالبهم بالعمل بمقتضى إيمانهم، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.
- ٣ - يعدّ التائب واللوم من أساليب التربية الناجحة، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.
- ٤ - الوفاء بالعهد واجب، وخلفه من الكبائر، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾.
- ٥ - ما أقبح أن يكون الوجود كله في حالة تسبيح دائم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا﴾، ويكون الإنسان متمرداً يقول الشيء ولا يعمل به، فيغضب الله تعالى، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

(٤) الكافي، ج ١، ص ٣٦.

(٥) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٣.

(١) الصدوق، الأمالي، ص ٣٤٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٠.

(٣) مصباح الشريعة، ص ٣٦٨.

٦ - القول الذي لا يصدّقه العمل، من الأمور الخطيرة على الإنسان، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (والكلمتان: «كَبُرَ» و«مقت» تكشفان عن هذا الأمر).

٧ - إذا كانت الأمور تحلّ في الدنيا بالقول والخلف، ثمّ الاعتذار، فإنّ الأمور عند الله تعالى، لا تحلّ بهذه البساطة، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ...﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَرْضُوسٌ﴾ ①

إشارات:

□ «بنيان» هو البناء. و«مرصوص» من الرصاص وهو المعدن المعروف، والمراد من الآية تشبيه متانة الصفوف بالبناء الذي بني بالرصاص في شدة تماسكه وإحكامه.

□ الآية السابقة تنتقد الذين يقولون ولا يعملون بأقوالهم، وأعلن غضبه عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا...﴾، وفي هذه الآية يحدثنا الله سبحانه عن الحالة المعاكسة؛ أي عن الذين يفون بعهدهم لله ويقاتلون في سبيل الله كالبنيان المرصوص، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾.

□ ورد في كتب التاريخ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقرأ هذه الآية في معركة صفين ليحرّض المجاهدين على القتال والثبات.

التعاليم:

١ - في التربية، الغضب مطلوب كما الحبّ والعطف، ففي الآية السابقة أشار الله تعالى إلى غضبه على بعض الناس، وفي هذه الآية أشار إلى حبه لبعض الناس، ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾.

٢ - الإنذار من الأمور المطلوبة للحيلولة دون وقوع الأخطاء، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ... كَبُرَ مَقْتًا﴾، وفي المقابل ضمان القيام بالأفعال الحسنة يحتاج إلى الحثّ والثناء، ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾.

٣ - رضا الله تعالى وحبّه من أهمّ الأمور التي تشجّع المؤمنين على القيام بواجباتهم، وقد يكون الرضا والحبّ أهمّ من الجنة عند بعض المؤمنين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ...﴾.

٤ - الأفعال الصعبة والشاقة، تحتاج إلى مزيد من الدوافع، من قبيل الحظوة بمحبة الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ...﴾.

٥ - المؤمنون المجاهدون أحباب الله، وهم يعملون في سبيله، ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾، وهو سبحانه يمنحهم حبّه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ...﴾.

٦ - الوحدة والانسجام مطلوبان في جميع الأحوال والظروف، وأما في حالة الحرب والقتال فيصبح أكثر ضرورة وحاجة، ويجب أن تكون الصفوف متراصة لا يمكن اختراقها، ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِهِمْ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ «زاغ» من «الزيغ»، وهو الانحراف عن جادة الحق. الإنسان بمقتضى فطرته ملازم للحق، وترك الحق انحراف وزيغ.

□ انتقد الله سبحانه في الآيات السابقة القول بلا عمل، وفي هذه الآية ينتقد سبحانه الذين يعملون بخلاف ما يعلمون، فهم يعلمون مقام النبي موسى ﷺ، ومع ذلك يؤذونه.

□ يبني الله سبحانه ثوابه على قواعد العدل والحكمة، كما على أساس فعل الإنسان. يهدي الله الإنسان بالعقل والفطرة، وبواسطة الأنبياء الذين أرسلهم إلى البشرية، فمن يهتدي يزيد الله هدى، ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(١)، وكلّ من ينحرف عن الحق بإرادته ورغبته يتركه لا يجبره الله على العودة إلى جادة الحق، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

□ أذى النبي موسى والنبي محمد ﷺ :

لقد أذى النبي موسى ﷺ، كثيراً من قبل قومه، ومن ذلك ما ذكره القرآن الكريم، في الآيات الآتية:

- ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾^(١).
- ﴿لَنْ نَقْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ رَجِدٍ﴾^(٢).
- ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾^(٣).
- ﴿فَأَذَهَبَ آتٌ وَرَيْثُكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٤).
- ﴿أَجْمَلْنَا لَنَا إِنهَآ كَمَا هُمْ ءَالِهَةٌ﴾^(٥).
- ﴿قَالُوا أُوذِيَآ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنآ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(٦).

وكما أذى النبي موسى ﷺ، كذلك تعرض النبي محمد ﷺ لأذى المشركين والمنافقين المعاصرين له، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عدة، منها:

- ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِرُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ لَّيْسَ لِي سَمْعٌ وَلَا يُؤْذِرُنِي سَمْعِي﴾^(٧).
- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٨).
- ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ﴾^(٩).

- ومما كان يؤذي النبي ﷺ، تردد بعض المسلمين وضعفهم عن القتال، كما ذكر لنا الله تعالى: ﴿إِنَّ يَتُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾^(١٠)، و﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾^(١١)، و﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾^(١٢)، و﴿وَلَا تَقْتَتِيْ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

(٧) سورة التوبة: الآية ٦١.

(١) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(٨) سورة التوبة: الآية ٦١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٩) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٢.

(١٠) سورة الأحزاب: الآية ١٣.

(٤) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(١١) سورة التوبة: الآية ٨١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(١٢) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

سَقَطُوا^(١) وكانوا في هذه الآية يتعلّلون بأنهم إذا شاركوا في معركة تبوك، فسوف يفتنهم النظر إلى النساء الروميات، فأجابهم الله إنهم سقطوا في فتنة مخالفة النبي، بتخلفهم عن رُكْبِهِ.

□ حَدَّثَنَا اللهُ سبحانه في الآيات السابقة عن الذين لا يعملون بما يقولون، وعن حُبِّهِ للمجاهدين الثابتين في ساحات الوغى، ومن ذلك يُعَلِّمُ أَنَّ الأذى المشار إليه في هذه الآية هو ذلك الناتج عن الضعف والتردد في مجال الجهاد.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن يُنسى تاريخ النبي موسى ﷺ وقصص حياته، لما فيها من عبرة وموعظة، ﴿وَإِذ...﴾.
- ٢ - المعرفة بتاريخ العظماء والقادة الكبار، تعزّي المرء وتخفّف عنه المصاعب التي يلاقيها في حياته، ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ... لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.
- ٣ - في بعض الحالات قد يثير الأقربون المشاكل، ويكون أذاهم أكثر من أذى الأبعدين، ﴿يَقْوَر لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.
- ٤ - العواطف، من الأمور النافعة في مجال النهي عن المنكر، ﴿يَقْوَر لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.
- ٥ - لا ينبغي أن يكون أذى الأقربين سبباً لطردهم وإقصائهم، ﴿يَقْوَر لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.
- ٦ - العلم والمعرفة من أسباب المسؤولية؛ حيث يُنتظر من العارفين وعلية القوم العمل بما يقتضيه مقامهم المعرفي، ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ...﴾.
- ٧ - التصرف الذي يسبّب الأذى للقادة والعظماء، من الأسباب التي تودي بالإنسان في أودية الضلال والانحراف، ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي... زَاغُوا﴾.
- ٨ - الانحراف في القول والعمل، يفضي إلى الانحراف في القلب والروح، والشخصية والهوية، والفكر والثقافة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

٩ - المعصية من أسباب الحرمان من الهداية الإلهية، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا
رَسُولًا يَأْتِي مِنَ بَدْيِ آسَمَةَ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ من المؤكد أن الكتب الموجودة في هذا العصر في أيدي المسيحيين واليهود، ليست هي الكتب التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام، بل هي مما كتبه أتباعهم في فترات زمنية لاحقة، وبعض هؤلاء الكتاب من المعاصرين لهذين النبيين، وبعضهم ممن ولد بعدهم بسنوات. والمسيحيون واليهود أنفسهم لا يدعون أكثر من ذلك.

ولكن ذلك لا يعني أن كل التعاليم الموجودة في هذه الكتب باطلة، ومحرفة بل يشتمل العهد القديم (التوراة وبعض الأسفار الملحقة بها) والعهد الجديد (الإنجيل وبعض الأسفار كأعمال الرسل وغيرها)، على بعض الحقائق التي نقلت عن الأنبياء ودوّنت في الكتب الموجودة حالياً. وفي هذه الكتب بعض العبارات التي تتضمن البشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

واللآفت أن هذه الكتب لا تشتمل على البشارات العامة فحسب، بل بعضها ينطبق على النبي صلى الله عليه وسلم بشكلٍ شخصي، ومن ذلك كلمة «الفارقليط» التي ترجمت إلى الفارسية بـ«المعزي»، وفي بعض الترجمات العربية ترجمت بـ«المعين»، وهي عادة ما يُستند إليها للإشارة إلى هذا الأمر، وقد وردت هذه الكلمة ثلاث مرات في إنجيل يوحنا، ونص الإنجيل كما يأتي:

«وسوف أطلب من الآب أن يعطيكم معيناً آخر يبقى معكم إلى الأبد»^(١).

(١) إنجيل يوحنا، ١٤ - ١٦.

«وعندما يأتي المعين الذي سأرسله لكم من عند الأب، روح الحق الذي ينبثق من الأب، فهو الذي يؤدي الشهادة لي»^(١).

«ولكني أقول لكم الحق، من الأفضل لكم أن أذهب؛ لأنني إن كنت لا أذهب، لا يأتيكم المعين؛ ولكني إذا ذهبت أرسله إليكم»^(٢).

والمهم في العبارات هو الأصل السرياني لكلمة معين هذه، فهي في السريانية «بارقليطا» وفي اليونانية «بيركليطوس»، ومعنى هذه الكلمة «الشخص المحمود» فهي تعادل في العربية كلمتي «محمّد» و«أحمد».

ويبدو أنّ آباء الكنيسة وجدوا أنّ الحفاظ على الترجمة الحرفية لهذه سوف يضرّ بمصالحهم؛ فلذلك فضّلوا تغيير الترجمة ولو على حساب الحقيقة والدقة. وقد ورد في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى:

«محمّد مؤسس دين الإسلام ورسول الله وخاتم الأنبياء. وكلمة «محمّد» تعني في اللغة الشخص المحمود، وأصل الحمد الثناء والتمجيد، والاسم الآخر الذي يشتق من هذا المعنى هو «أحمد»، ويحتمل أنّ العرب المسحيين كانوا يستخدمون هذا الاسم كعادل لكلمة «بارقليطا». والكتاب المسلمون كثيراً ما يشيرون إلى هذا الأمر للتذكير بورود هذه الكلمة في الإنجيل باللغة السريانية، وقد أشار القرآن أيضاً إلى مسألة البشارة بالنبّي في التوراة والإنجيل»^(٣).

□ هل كان اسم النبي «أحمد»؟

أ - تذكر كتب التاريخ والسيرة النبوية، أنّه كان للنبي ﷺ اسمين منذ نعومة أظفاره، وقد كان يُدعى بهما، وأحد هذين الاسمين «محمّد» والآخر «أحمد». والاسم الأوّل اختاره له جدّه عبد المطلب، والاسم الثاني اختارته له أمّه آمنه بنت وهب. وهذا الأمر معروف ومتداول في كتب التاريخ والسيرة.

(١) المصدر نفسه، ١٥ - ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ١٦ - ٨.

(٣) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى، ج ٢٣، ص ٤١٧٦؛ نقلا عن: تفسير نمونه عند الحديث عن هذه الآية.

ب - كان عمّه أبو طالب يناديه باسم «أحمد» وقد وردت هذه التسمية في الشعر المنسوب إلى أبي طالب، ومن ذلك ما هو موجود الآن في الديوان المنسوب إليه؛ حيث يقول:

أرادوا قتل أحمد ظالموهم وليس بقتلهم فيهم زعيم^(١)
ج - ولم يقتصر التعبير عن النبي ﷺ بهذا الاسم على شعر أبي طالب، بل ورد أيضاً في الشعر المنسوب إلى حسان بن ثابت الأنصاري؛ حيث يقول:

مفجعة قد شقها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تعدد^(٢)
□ وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ، قوله: «اسمي في الأرض محمّد، وفي السماوات أحمد»^(٣).

التعاليم:

- ١ - يستحق تاريخ النبي عيسى ﷺ التأمل لما تحتوي حياته من العبر، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾.
- ٢ - عيسى ﷺ رسول الله، فلا يجوز أن تدعى له الألوهية، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾.
- ٣ - في منهاج التربية الإلهية توجد صفوف عدّة ومراحل، كلّ مرحلة تمهّد للمرحلة اللاحقة لها، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَبَشِيرًا بِرَسُولٍ...﴾.
- ٤ - الإسلام أكمل الأديان السماوية؛ ويستفاد هذا المعنى من البشارة به، فالبشارة لا تكون إلا بالأمور التي هي أحسن ممّا هو موجود، ﴿وَبَشِيرًا بِرَسُولٍ﴾.
- ٥ - أنبياء الله لا يعرفون التحاسد، بل يبشّر أحدهم بالآخر اللاحق له، ﴿وَبَشِيرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾.

(١) ديوان أبي طالب، ص ٢٥؛ وتاريخ ابن عسّاكر، ج ١، ص ٢٧٥؛ نقلاً عن: تفسير نمونه.

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص ٥٩؛ نقلاً عن تفسير نمونه.

(٣) تفسير البرهان.

- ٦ - عيسى عليه السلام مبشّر ومبشّر به. فهو يبشّر بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم من بعده، ﴿وَبَشِّرًا
رَسُولًا...﴾، والله سبحانه يبشّر بولادته؛ حيث يقول: ﴿يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ
بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(١).
- ٧ - في الدعوة إلى الله، ينبغي الالتفات إلى الماضي، ﴿مُصَدِّقًا...﴾، والحاضر،
﴿إِنِّي رَسُولٌ أَلَّو﴾، والمستقبل، ﴿...مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾..
- ٨ - عندما تريد التعريف بالأشخاص عرّف بطريقة لا تترك أيّ مجال للتباس عند
المخاطبين، ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.
- ٩ - عندما يستفحل العناد، يلغي أثر البشائر السابقة، وأثر الدلائل الحاضرة،
﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧)

إشارات:

- وردت كلمة «أظلم» ست عشرة مرّة في القرآن الكريم، خمس عشرة مرّة منها
ترتبط بالقضايا الاعتقاديّة أو الثقافيّة، ومن ذلك:
- ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾، تسع مرّات.
 - ﴿كَتَرَ شَهَادَةً﴾، مرّة واحدة.
 - ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، ثلاث مرّات.
 - ﴿مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، مرّة واحدة.
 - ﴿ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، مرّتين.
- الظلم ثلاثة أنواع: ظلم النفس، وظلم الناس، وظلم الدين، ومن بين هذه
الثلاثة، أصعبها وأكبرها، هو ظلم الدين.

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

التعاليم:

١ - من لا يصدق بشارة النبي عيسى عليه السلام، ولا تؤثر فيه المعجزات التي أتى بها النبي عليه السلام، بل يعد ذلك كله سحراً هو مفترٍ وهو من أظلم الناس، ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾.

٢ - الافتراء على الأنبياء افتراء على الله سبحانه. فهم قالوا للنبي عليه السلام: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فعَدَّ الله ذلك افتراءً عليه سبحانه.

٣ - الافتراء على الله وعلى دينه من أسوأ أشكال الافتراء، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾.

٤ - من أبشع أنواع الظلم، سد سبل المعرفة في وجوه الناس وحرمانهم من الاهتداء إلى الحق، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾.

٥ - أسوأ أنواع الظلم، هو الظلم الذي يصدر عن صاحبه بعد إتمام الحجّة عليه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ... وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾.

٦ - نتيجة الافتراء على الله، الحرمان من الهداية الإلهية، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٧ - الهداية والضلال بيد الله سبحانه، ولكن الإنسان هو الذي يمهد المقدمات المؤدية إلى أحدها، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُّورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

□ المضمون الوارد في هذه الآية يوجد ما يشبهه في الآيتين ٣٢ و ٣٣ من سورة التوبة.

□ يستخدم العدو كل الوسائل والأساليب، من أجل إطفاء نور الله سبحانه، ومن ذلك:

- الاتهام بالرجعية والتخلف، ﴿أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾^(١).
- دعوى أن الفكر الديني خيال وأوهام، ﴿أَصْنَعْتُ أَخْلِيًّا﴾^(٢).
- يدعون أن كلام الأنبياء كذب وافتراء، ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَرْتَهُ﴾^(٣).
- يدعون سطحية آيات الوحي وخلوها من المضامين المفيدة، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا
وَسَلَّ هَذَا﴾^(٤).
- يجعلون لله أنداداً ومنافسين، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾^(٥).
- يمنعون الناس من الاستماع إلى كلام الله، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِنَدَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا
فِيهِ﴾^(٦).
- يطعنون في دين المؤمنين، ﴿وَلَطَمْنَا فِي دِينِكُمْ﴾^(٧).
- يسخرون من الدين ويهزأون، ﴿أَتُخَذُوا لِبَعْدِ هُزُؤًا وَلِيَبَاءُ﴾^(٨).
- يسعون في خراب المساجد ومراكز العبادة، ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾^(٩).
- يحاولون تحريف دين الله، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾^(١٠).
- يتدعون في بعض الأحيان بعض البدع، ويدخلون في الدين ما ليس منه،
﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾^(١١).
- يكتُمون الحقائق الدينية التي لا تنسجم مع أهوائهم، ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ
الْبَيِّنَاتِ﴾^(١٢).
- يعملون التجزئة في الدين، فيؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض الآخر،
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(١٣).
- يخلطون الحق بالباطل، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾^(١٤).

(٨) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٩) سورة البقرة: الآية ١١٤.

(١٠) سورة النساء: الآية ٤٦.

(١١) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(١٢) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(١٣) سورة البقرة: الآية ٨٥.

(١٤) سورة البقرة: الآية ٤٢.

(١) سورة النعام: الآية ٢٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٠.

(٦) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٧) سورة التوبة: الآية ١٢.

- يغالون في دين الله، ﴿لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾^(١).
 - يحاربون المسلمين ويقاتلونهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾^(٢).

□ وعد الله سبحانه بانتصار الإسلام ثلاث مرات:

- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣).

- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٤).

- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٥).
 ولا شك في أن عود الله سوف تتحقق لأنه سبحانه لا يخلف وعده، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^(٦).

□ كما تواتر في الحديث أن حالة انتصار الإسلام وظهوره على سائر الأديان سوف تكون في عصر الإمام المهدي عليه السلام.

فمن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «فوالذي نفسي بيده، حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرةً وعشيًا»^(٧).

□ يؤكد تاريخ الإسلام تحقق الآية الثامنة من هذه السورة، فعلى الرغم من كل الاستهزاء والمؤامرات التي كان يقوم بها الأعداء، وعلى الرغم من الحصار والتعذيب الذي كان يمارس ضد المسلمين، ومؤامرات الداخل والخارجين

(١) سورة المائدة: الآية ٧٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٨.

(٥) سورة الصف: الآية ٩.

(٦) سورة الروم: الآية ٦؛ سورة الحج: الآية ٤٧.

(٧) كتب التفسير الآتية: مجمع البيان، كثر الدقائق، والبرهان.

والمنافقين والمشركين، بل ووقائع الحروب الصليبية وغيرها، نرى أن الإسلام ينتشر يوماً بعد يوم.

التعاليم:

- ١ - يسعى العدو بشكلٍ دائمٍ إلى إطفاء سراج الهداية الإلهية، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾.
- ٢ - القرآن نور إلهي، ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - الدين نور، أي مصدر للمعرفة والرشد، والحركة والحرارة، ﴿نُورَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - البرامج والخطط التي يقوم بها الأعداء لمواجهة الحقّ جهد انتحاري لا يوصل إلى غاية، ﴿نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، وكما يقول الشاعر الإيراني: متى تطفأ الشمس بالنفخ في وجهها، ومتى ينجس البحر ببخار فم الكلب. فالقمر ينشر نوره على الأرض والكلب ينبح في الليالي المقمرة، وكل إناء بالذي فيه ينضح.
- ٥ - الدعاية السيئة، من أهمّ الأسلحة التي يستعملها العدو في مواجهة الدين، ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ ولكنها لن تحقق الغاية المرجوة منها.
- ٦ - الإسلام دين كامل وخالد، ﴿وَاللَّهُ مِثْمُ نُورِهِ﴾.
- ٧ - لا شيء يمنع من تحقق الإرادة الإلهية، لا الشرك، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١)، ولا الكفر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.
- ٨ - الكفر والشرك متفقان في الموقف من الإسلام، فكلّ منهما يحاول منعه من الانتشار، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.
- ٩ - رسل الله يختارهم الله بإرادته وعلمه، ولا يخضع اختيارهم وتكليفهم بهذه المهمة لرغبات الناس وعواطفهم، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾.
- ١٠ - نصر الإسلام من آثار حقايقه، ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾.
- ١١ - المستقبل للإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

- ١٢ - دين الإسلام دين الأمل بالمستقبل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
- ١٣ - الغلبة تستمد قيمتها من ثباتها ودوامها، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
- ١٤ - الأديان كلها لها تاريخ صلاحية تنتهي صلاحيتها عنده، إلا الإسلام فهو دين خالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.
- ١٥ - أسباب انتصار الإسلام متعددة، منها:
- أ - الإرادة الإلهية، ﴿هُوَ صَكَّلَ﴾.
- ب - القيادة الحكيمة، ﴿رَسُولُهُ﴾.
- ج - الحاجة الطبيعية الاجتماعية للهداية، ﴿بِالْهُدَى﴾.
- د - التوفر على الاتصاف بالحق، ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾.
- هـ - الجامعة والشمول، ﴿مِثْمُ ثَوْرِهِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَوْا عَلَىٰ بَعْرَزَرٍ تُنَجِّكُم مِّنْ عَذَابِ ٱلْءَلِيمِ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ ۙ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ جَرَىٰ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- وعد الله في الآيات السابقة، بظهور دين الإسلام على سائر الأديان، وتفوقه عليها؛ وهذا التفوق لا يتحقق إلا إذا تحققت شروط ثلاثة، هي:
- أ - وجود قانون عام وشامل، وهو القرآن الكريم الذي هو نور الله الذي لا يقدر أحدٌ على إطفائه.
- ب - وجود قائدٍ معصومٍ هو القائم المهدي بقية الله في الأرض.
- ج - استعداد الناس وهو الأمر الذي تشير إليه هذه الآية.
- هذه الآيات من طراز ووزن الآية ١١١ من سورة التوبة، وهي قوله تعالى:
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِٱبْتِغَاءِ لَهُمُ ٱلْجَنَّةِ﴾

□ التجارة لها أشكال مفترضة عدّة بعضها ما يأتي:

- ١ - التجارة السيئة، ﴿بِشْكَا أَشْرَوْا بِدءِ أَنفُسِهِمْ﴾^(١).
- ٢ - التجارة التي لا ربح فيها، ﴿فَمَا رِبْحَت يَحْتَرْتُهُمْ﴾^(٢).
- ٣ - التجارة قليلة الربح، ﴿مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^(٣).
- ٤ - التجارة الخاسرة، ﴿إِنَّ الْفَتِيرِينَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾^(٤).
- ٥ - التجارة الكثيرة الخسارة، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ﴾^(٥).
- ٦ - التجارة الفاضحة، ﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٦).
- ٧ - التجارة الراكدة، ﴿تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾^(٧).
- ٨ - التجارة المستمرة والدائمة، ﴿يَحْتَرَةُ لَنْ تَبُورَ﴾^(٨).
- ٩ - التجارة المنجية، ﴿يَحْتَرُ تَنْجِيكَ﴾^(٩).
- ١٠ - التجارة المربحة، «تجارة مربحة»^(١٠).

□ عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها»^(١١).

□ وعنه عليه السلام: «الدنيا متجر أولياء الله»^(١٢). واللافت أنّ هذا الكلام صدر عن عليّ عليه السلام الذي صدر عنه الكثير من الكلمات في ذمّ الدنيا.

□ نلاحظ في الثقافة الإسلامية تشبيهاً لكثير من الأمور المعنوية بأشياء مادية. مثلاً:

- | | |
|-----------------------------|--------------------------------------|
| (١) سورة البقرة: الآية ٩٠. | (٧) سورة التوبة: الآية ٢٤. |
| (٢) سورة: البقرة: الآية ١٦. | (٨) سورة فاطر: الآية ٢٩. |
| (٣) سورة النساء: الآية ٧٧. | (٩) سورة الصف: الآية ١٠. |
| (٤) سورة الزمر: الآية ١٥. | (١٠) نهج البلاغة، الخطب، الخطبة ١٩٣. |
| (٥) سورة العصر: الآية ٢. | (١١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٢. |
| (٦) سورة الحج: الآية ١١. | (١٢) نهج البلاغة، الحكم، الحكمة ١٣١. |

أ - الطعام المادّي، ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١)، وشبهه الطعام المعنوي، ﴿فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(٢). وورد في الرواية عن الإمام عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله، «إلى علمه عمّن يأخذه»^(٣).

ب - يقول سبحانه عن اللباس المادّي، ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ﴾^(٤)، ويقول عن اللباس المعنوي، ﴿وَلِبَاسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٥).

ج - الزينة المادّيّة، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٦)، والزينة المعنويّة، ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَةُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٧).

د - السفر المادّي، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾^(٨)، والسفر المعنوي، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا﴾^(٩).

هـ - الرزق المادّي، ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾^(١٠)، والرزق المعنوي، «وارزقني حج بيتك الحرام»^(١١).

و - الحلاوة المادّيّة، «حلاوة الدنيا»^(١٢)، والحلاوة المعنويّة، «حلاوة الإيمان»^(١٣) و«حلاوة ودك»^(١٤).

ز - الشواب المادّي، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾^(١٥)، والشواب المعنوي، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١٦).

ح - الأب المادّي، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾^(١٧)، والأب المعنوي، «أنا وعليّ أبوا هذه الأمة»^(١٨).

(١٠) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(١١) من أدعية شهر رمضان المبارك.

(١٢) نهج البلاغة، الحكم، الحكمة ٢٥١.

(١٣) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ٢٠١.

(١٤) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٤٧.

(١٥) سورة البقرة: الآية ٢٥.

(١٦) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(١٧) سورة البلد: الآية ٣.

(١٨) بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ١١.

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(٢) سورة عبس: الآية ٢٤.

(٣) رجال الكشي، ج ٤، ص ٣.

(٤) سورة النحل: الآية ٨١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٧) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

(٩) سورة الانشقاق: الآية ٦.

ط - الهجرة المادية، ﴿وَهَاجِرُوا﴾^(١)، والهجرة المعنوية، ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجِرْ﴾^(٢).
 □ ورد في الحديث عن عليّ عليه السلام قوله: «أنا التجارة المربحة المنجية من العذاب الأليم التي دلّ الله عليه في كتابه، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَرٍ﴾»^(٣).

التعاليم:

- ١ - عندما تنادون الناس وتخطبونهم نادوهم بأسمائهم وألقابهم الإيمانية، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢ - قبل طرح السؤال أو توجيه الأوامر وما شابه، يجب إعداد المخاطب وإثارة اهتمامه، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾.
- ٣ - التجارة ليست عملاً عشوائياً بل تحتاج إلى مرشد ودليل، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَرٍ﴾.
- ٤ - التجارة المعنوية لا يدركها حق إدراكها، إلا المؤمنون بالله تعالى، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ...﴾.
- ٥ - الإنسان يبحث عن الريح بالفطرة، ولكن ليس عن أيّ ربح بل عن الريح الثابت والمستقر، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَرٍ تُنَجِّكُمْ﴾.
- ٦ - الريح الحقيقي، هو النجاة من غضب الله تعالى، ﴿مَجْرَرٍ تُنَجِّكُمْ مِنِّ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾.
- ٧ - دفع الخطر أهم من الريح، ﴿مَجْرَرٍ تُنَجِّكُمْ مِنِّ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾.
- ٨ - التجارة لا تنحصر في الأمور المادية، ﴿مَجْرَرٍ... تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.
- ٩ - اتباع الأنبياء، تجارة مربحة، ﴿مَجْرَرٍ... تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ١٠ - الإيمان له درجات متفاوتة، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... تُوْمِنُونَ﴾.
- ١١ - في الدعوة الله تحسن الاستفادة من الأمور المرغوبة والمحجوبة لدى الناس المدعويين. فلما كانت التجارة من الأمور المطلوبة عند الناس غالباً، حسن

(٣) تفسير كثر الدقائق، عند تفسير الآية.

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) سورة المدثر: الآية ٥.

استخدامها لتشبيه الأمور الدينية بها، لحث الناس على التدين وتحبيب الدين إلى نفوسهم، ﴿يَحْزَرُونَ... تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾.

١٢ - ليس الإيمان مجرد فعلٍ من أفعال القلب، بل هو جهد بالبدن أيضاً، ﴿تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ﴾.

١٣ - الإيمان بالله مقرون بالإيمان بالرسول، والجهاد بالمال مقرون بالجهاد بالنفس، ﴿تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ...﴾.

١٤ - الإيمان والجهاد ليسا من الأمور الموسمية، بل هما أمران مطلوبان بشكل دائم، ﴿تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ...﴾ (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).

١٥ - الإيمان السطحي لا ينتج عنه أمر مهم، فالمطلوب هو الإيمان الكامل، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا... تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ﴾.

١٦ - الإيمان مقدّم على العمل، ﴿تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ﴾.

١٧ - حفظ الدين أهم من حفظ المال والروح، ومن هنا وجب بذل الروح للحفاظ على الدين، ﴿وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

١٨ - الجهاد من الأحكام الثابتة التي لا ترتفع عن الإنسان، فتارةً يجب الجهاد بالمال، وأخرى بالنفس، وثالثةً بهما معاً، ﴿وَجَاهِدُونَ... بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

١٩ - الترتيب المنطقي في توجيه الأوامر، هو البدء من الأسهل إلى الأصعب، ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

٢٠ - قيمة العمل مرهونة بالإخلاص، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢١ - رب أمر صعب مرّ الطعم، ولكنه حسن العاقبة مشتمل على المصلحة، ﴿وَجَاهِدُونَ... حَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٢٢ - الإنسان يبحث عن السعادة والخير بالفطرة، وقد وعد الله الإنسان بهذه الأمور وعلّق وعده على فعل بعض المقدمات، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٢٣ - لا تنال الجنة بالمجان، بل بالأثمان المناسبة، ﴿تَوْمِنُونَ... وَجَاهِدُونَ... وَتَدْخُلَكُمْ جَنَّاتٍ﴾.

٢٤ - العمل الكامل، يترتب عليه الثواب الكامل؛ (فقد أشار الله سبحانه في هذه الآيات إلى الإيمان بالله والرسول، والجهاد بالمال والنفس، وبعد ذلك أشار إلى المغفرة والتوبة ودخول الجنة والفوز العظيم)، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ... جَنَّتٍ... مَسْكِينٍ... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٢٥ - يحتاج تلقي اللطف الإلهي إلى الطهارة والتطهر، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ... وَيُدْخِلْكُمْ... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٢٦ - الإنسان بين العذاب الأليم والفوز العظيم، وينال أحدهما بالعمل والمعاملة مع الله، فينجو من العذاب وينال الفوز بذلك، ﴿تُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

□ الدخول إلى الجنة والمغفرة الإلهية مصداق من مصاديق النجاة من العذاب، ولكن لما كان النصر والفتح لطفاً آخر، ذكره الله سبحانه بشكلٍ مستقلٍ لبيان أهميته.

التعاليم:

١ - ليست كل أنواع الثواب في الآخرة، بل يثيب الله المؤمنين في الدنيا أيضاً، ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا...﴾.

٢ - ينبغي أن يكون الثواب ممّا يحبّ الإنسان؛ ليكتمل الدافع نحو الفعل، ﴿تُحِبُّونَهَا﴾.

٣ - يصل المجاهدون المخلصون إلى أحد أمرين، إمّا الشهادة فيدخلون بها الجنة، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾، وهو ما ذكر في الآية السابقة؛ وإمّا النصر المشار إليه في هذه الآية، ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

٤ - على المؤمن أن ينسب النصر إلى الله، لا إلى التجهيزات ووسائل القتال، ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

٥ - الأمل بالمستقبل المشرق، من وسائل الدعم الروحي للمجاهدين، ﴿نَصْرٌ... وَفَتْحٌ﴾.

٦ - لا بدّ لوعود الله من التحقق:

فهنا نصر: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾، وفي موضع آخر، يقول سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١).

وهنا فتح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٢).

٧ - يمكن الاستفادة من البشارة، لحثّ المجاهدين وتشجيعهم على بذل المهج في سبيل الله، ﴿وَيَزِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَأْتِيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفَرًا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَاثْمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(٣)

إشارات:

□ «الحواريّون» هم تلاميذ عيسى ﷺ وأصحابه المقربون، وقد وردت أسماءهم في الإنجيل المعتمد لدى المسيحيّين^(٣). وأصل الكلمة من الحور، وهو الغسل والبياض، وقد أطلق هذا الاسم عليهم؛ لأنهم كانوا يلبسون الأبيض، كما كانوا بيض القلوب ويدعون الناس إلى طهارة الباطن وتهذيب النفوس.

□ عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: إنّ حواريتي عيسى ﷺ كانوا شيعة، وإنّ شيعة حواريتونا، وما كان حواريتو عيسى ﷺ بأطوع له من حواريتنا لنا، وإنّما قال عيسى ﷺ للحواريّين: «من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله»، فلا والله ما نصره من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعة الله لم يزلوا

(٣) تفسير نمونه.

(١) سورة النصر: الآية ١.

(٢) سورة الفتح: الآية ١.

منذ قبض الله عزّ ذكره رسوله ﷺ ينصروننا ويقاتلون دوننا، ويحرّقون ويعذبون ويشردون في البلدان، جزاهم الله عتاً خيراً^(١).

□ من الوسائل الناجعة في الدعوة والمساعدة على الالتزام بالتكاليف، ذكر الحالات المشابهة عند الأمم الأخرى، وذلك كما في هذه الآية: ﴿كَأَنَّ قَالِ عَيْنِي...﴾، وفي آيةٍ أخرى في وجوب الصوم: ﴿كَأَنَّ كَيْبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ بَلَدِكُمْ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - يجب أن يترقى المؤمن خطوةً خطوةً. ففي الآيات السابقة حدّثنا الله عن التجارة معه، وفي هذه الآية يطلب من المؤمنين أن يكون أنصاراً له، ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾، وهذه درجة أرقى من سابقتها.
- ٢ - لا يحتاج الله إلى نصره أحدٍ من خلقه، فالنصر والقوة كلّها منه سبحانه، ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾، ودعوة الله إيتانا إلى النصره تشريف لنا، ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - يحاول أنبياء الله جذب الناس إلى الله، وليس إليهم ولا لتكثير الأتباع من حولهم، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٤ - على الرغم من التأييد الإلهي للأنبياء، فإنهم كذلك يستفيدون من الوسائل المادّية والطبيعية في تحقيق ما يريد الله منهم تحقيقه، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٥ - على القائد الحكيم أن يخبر أنصاره ويحسن تقويمهم، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٦ - تجديد الدعوة وطلب الإقرار من الأتباع، هو تجديد للبيعة وتوكيد لعهد الوفاء بين القائد والمؤمنين به، ﴿مَنْ أَنْصَارِي... قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.
- ٧ - على المؤمنين أن يجيبوا داعي الله إذا دعاهم إلى الطاعة والنصرة، ﴿مَنْ أَنْصَارِي... نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

٨ - الإنسان مختار، يمكنه قبول دعوة الأنبياء ونصرتهم فيحظى بسعادة الدارين، ويمكنه الإباء والرفض فيصل إلى الكفر وما يليه من الشقاء، ﴿فَأَمَّتْ طَّائِفَةٌ... وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ﴾.

٩ - لم يجمع الناس على الإيمان بأنبياء الله، فعبر التاريخ انقسم الناس تجاه الأنبياء إلى مؤمن بهم وكافر، وبالتالي فلا ينبغي أن نُصاب باليأس إذا لم يقبل بعض الناس دعوتنا مهما كنا محققين فيها، ﴿فَأَمَّتْ طَّائِفَةٌ... وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ﴾.

١٠ - الاتصاف بالإيمان من تجليات التأيد الإلهي أو أسبابه، ﴿فَأَمَّتْ... فَأَيَّدْنَا﴾.

١١ - حظي النبي عيسى عليه السلام بالتأييد الإلهي، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾^(١)، كما حظي به أتباعه وأنصاره، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

١٢ - لا يقصر الله تأييده على نبيه، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾، بل تشمل نعمة التأيد المؤمنين به، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

الفهرس

٤٦ - ٥	سورة الأحقاف
٩٨ - ٤٧	سورة محمد
١٣٩ - ٩٩	سورة الفتح
١٩٤ - ١٤١	سورة الحجرات
٢٢٧ - ١٩٥	سورة ق
٢٦٣ - ٢٢٩	سورة الذاريات
٢٩٠ - ٢٦٥	سورة الطور
٣٣١ - ٢٩١	سورة النجم
٣٥٧ - ٣٣٣	سورة القمر
٤٠١ - ٣٥٩	سورة الرحمن
٤٣٥ - ٤٠٣	سورة الواقعة
٤٨٢ - ٤٣٧	سورة الحديد
٥١٧ - ٤٨٣	سورة المجادلة
٥٥٣ - ٥١٩	سورة الحشر
٥٨٣ - ٥٥٥	سورة الممتحنة
٦١٠ - ٥٨٥	سورة الصف